



برتراند

راسل

ما وراء المعنى والحقيقة

ترجمة: محمد قدري عمارة

مراجعة: إلهامى جلال عمارة

947

المشروع القومى للترجمة

ما وراء المعنى والحقيقة

تأليف : برتراند راسل

ترجمة : محمد قدرى عمارة

مراجعة : إلهامى جلال عمارة



٢٠٠٥



المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٩٤٧
- ما وراء المعنى والحقيقة
- برتراند راسل
- محمد قدرى عمارة
- إلهامى جلال عمارة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

An Inquiry to Meaning and Truth

By

Bertrand Russell

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

تمهيد

ألحت عليَّ فكرة كتابة هذا الكتاب تدريجيا خلال عدد من السنوات، حتى سيطرت عليّ الفكرة تماما عند قيامي بالعديد من المهام الأكاديمية. ففي عام ١٩٣٨ عالجت جزءًا من الموضوع في محاضرات عن "اللغة والصدق" بجامعة أكسفورد، وشكلت تلك المحاضرات أساسًا لحلقات نقاش بجامعة شيكاغو للعام الدراسي ١٩٣٨ - ١٩٤٠، وبجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس للعام الدراسي ١٩٣٩-١٩٤٠، وقد ساهمت المناقشات التي دارت فيها مساهمة كبيرة في تعميق إدراكي للمشاكل المتعلقة بالموضوع والتقليل من الاهتمام الذي أوليته في الأصل للجوانب اللغوية للموضوع.

ويجب عليَّ الإشادة بفضل كل من الأساتذة والطلاب الذين عبّر النقد المفصّل الودود عنهم، والذين ساهموا في تصحيح بعض الأخطاء والمفاهيم التي وردت في الكتاب، وعلى الأخص في شيكاغو حيث عادة ما كان يحضر حلقات النقاش الأستاذان كارناب وموريس، وحيث أظهر بعض طلاب الدراسات العليا قدرات فلسفية عظيمة، حيث كانت المناقشات نموذجًا للتعاون الجدلي المثمر. وقد قام السيد نورمان دالكي، الذي حضر كلتا الحلقتين النقاشيتين بقراءة أصول الكتاب بكاملها، وإني لمدين له بصورة كبيرة لنقده الواعي والمثمر.

وقد قمت خلال صيف عام ١٩٤٠ بإعداد محاضرات ويليام جيمس، وكانت جزءًا من المادة المتراكمة، وجزءًا من إعادة النظر في الموضوع بكامله.

وكما سيتضح للقارئ، فإنني فيما يتعلق بطريقة العرض سيجد أنني متعاطف مع الإيجابيين المنطقيين أكثر من أية مدرسة أخرى، ولكنني أختلف عنهم رغم ذلك في أنني أولي أهمية أكبر مما يفعلون لأعمال بيركلي وهيوم.

ومن الجدير هنا أن أقرر أن هذا الكتاب هو نتاج لمحاولة الجمع بين نظرة عامة مطابقة لنظرة هيوم والطرق الأخرى التي نتجت من المنطق الحديث.

المؤلف



مقدمــة

(١)

الغرض من هذا الكتاب هو أن يكون بحثًا فى بعض المشكلات المتعلقة بالمعرفة الفعلية، وعلى النقيض من النظرية التقليدية للمعرفة، فإن الطريقة المتبناة تختلف أساسًا فى الأهمية التى أوليت للاعتبارات اللغوية. وأنا أقترح النظر إلى اللغة فى علاقتها بمشكلتين أساسيتين، يمكن القول إنهما بمدلولات مبدئية وليست شديدة الدقة، هما كما يلى:

١ – ما هو المقصود بالدليل الفعلى على صدق مقدمة ما؟

٢ – ما الذى يمكن استنتاجه من حقيقة أنه أحيانا ما يوجد مثل ذلك الدليل؟

هنا، كما هو الحال دائما فى الفلسفة، الصعوبة الأولى تكمن فى رؤية أن المشكلة صعبة. فأنت إذا قلت لشخص غير مدرب على الفلسفة "كيف تعرف أن لى عينين؟" فإن رده سيكون "ما أسخف هذا السؤال! أستطيع أن أرى أن لك عينين". فليس من المفترض أنه عندما ينتهى التقصى، سنكون قد وصلنا إلى أى شىء يختلف جذريا عن هذا الموقف غير الفلسفى. ما سوف يحدث هو أننا سوف نرى تركيبًا معقداً فيما اعتقدنا أن كل شىءٍ فيه بسيط، وأننا سوف ندرك شبه الظل لعدم التأكد المحيط بالموقف الذى لم يكن مثيراً لأى شك، وأننا سوف نجد الشك مبرراً بشكل أكبر عمًا كنا نعتقد، وأن أكثر الفروض قبولا سيظهر نفسه قادراً على إيجاد استنتاجات غير مقبولة. النتيجة النهائية هى إحلال تردد مؤكد محل يقين غير جازم. وما إذا كانت هذه النتيجة ذات قيمة على الإطلاق يكون سؤال لن أوليه اعتباراً.

ما إن نبدأ فى أخذ السؤالين مأخذ الجد، حتى تبدأ الصعوبات تتراكم. خذ الجملة: "الدليل الفعلى لصدق مقدمة". هذه الجملة تتطلب أن نقوم بتعريف "الدليل"، "الفعلى" ، "الصدق" و "المقدمة"، ما لم نخرج بنتيجة - بعد التحرى سنجد أن سؤالنا صيغت كلماته بطريقة خاطئة.

فلنبدأ بكلمة «مقدمة»، المقدمة هى شىء يمكن قوله بأى لغة: «سقراط فانٍ» على سبيل المثال. فبأى لغة يمكن قول ذلك بطرق مختلفة؟ الفرق بين «قُتِلَ قيصر فى منتصف مارس» و «فى منتصف مارس قُتِلَ قيصر»، يعد فرقًا فى البلاغة والبيان، وبالتالى، فمن الممكن لشكلين من الكلمات «أن يكون لهما المعنى نفسه». يمكن على الأقل فى هذه اللحظة تعريف «المقدمة» على أنها «كل الجمل التى لها المعنى نفسه الخاص بجملة معينة».

يجب الآن تعريف «الجملة» و «لها المعنى نفسه، بإهمال الأخيرة حاليا، فما هى الجملة؟ الجملة: قد تكون كلمة مفردة، أو كما هو معتاد أن نقول بصورة أكثر تحديداً «هى عدد من الكلمات توضع معًا وفقًا لقواعد النحو، ولكن ما يميزها هو أنها تعبر عن شىء له طبيعة التأكيد أو النفى أو الضرورة أو السؤال. وما يعد مهما بالنسبة للجملة من وجهة نظرنا، هو أننا قادرون على فهم ما تعبر عنه إذا ما عرفنا معنى كلماتها العديدة وقواعد النحو. إذن بحثنا يجب بالتالى أن يبدأ باختبار الكلمات أولا ثم النحو بعد ذلك.

(٢)

هناك استنتاجان مختلفان، كلاهما يعد مهما، وكل منهما له الحق فى التسمية بـ «نظرية المعرفة». ففى أى نقاش، من السهل الوقوع فى الخلط نتيجة الفشل فى تحديد إلى أى استنتاج ينتمى النقاش. سوف أقول بالتالى بعض الكلمات لتفسير كل منهما.

فى الصيغة الأولى لنظرية المعرفة، نحن نقبل التفسير العلمى للعالَم، ليس كحقيقة مؤكدة، وإنما على أنه أفضل ما هو متاح حاليا. وأى نظرية للمعرفة، فى صورتها الأولى، يجب أن تأخذ فى الاعتبار طراز تلك الظاهرة. فبالنظر إليها من الخارج تُعد المعرفة خاصية من خصائص الكائنات الحية وتظهر (فى عموميتها) بصورة متزايدة كلما أصبح الكائن أكثر تعقيدا.

من الواضح أن المعرفة عبارة عن علاقة للكائن بشىء آخر أو بجزء من ذاته. ووفقًا لوجهة النظر الخاصة بالذى ينظر من الخارج، يمكن التفرقة بين الوعى الإدراكى والمعرفة بالاعتياد. الوعى الإدراكى نوع من «الحساسية» التى لا تقتصر على الكائنات الحية وإنما تظهرها أيضا الأجهزة العلمية وبدرجة معينة يُظهرها كل شىء. فالحساسية هى السلوك فى وجود منبه من طراز معين، بطريقة لا يظهرها الحيوان أو الشىء فى غياب ذلك المنبه.

القط له سلوك مميز فى وجود الكلب، وهذا يجعلنا نقول إن القط «يدرك» وجود الكلب. ولكن الجلفانومتر له سلوك مميز فى وجود تيار كهربى، ولكننا لا نقول إنه «يدرك» التيار الكهربى. الفرق بين الحالتين له علاقة «بالمعرفة بالاعتياد».

الجماد، طالما ظلت مكوناته الطبيعية بلا تغير، يعطى دائمًا الاستجابة نفسها للمنبه نفسه. الحيوان، على النقيض، عندما يتعرض بتواتر لمنبه كان منذ البداية يظهر تجاهه استجابة ما، يغير تدريجيا طبيعة الاستجابة إلى أن يصل إلى نقطة الثبات (على الأقل مؤقتًا)، وعند الوصول إلى تلك النقطة يكون الحيوان قد اكتسب «عادة». وتشتمل كل «عادة» على ما يمكن اعتباره، من وجهة النظر السلوكية، عقيدة فى قانون عام أو حتى (بمدلول ما) معرفة بذلك القانون إذا حدث أن كان الاعتقاد صحيحًا. على سبيل المثال، الكلب الذى تعلم الجلوس قاعدًا واستجداء الطعام يمكن سلوكيا القول بأنه يعتقد فى القانون العام: «رائحة الطعام إضافة إلى الاستجداء يتبعهما الطعام، بينما رائحة الطعام وحدها لا تكفى».

(٣)

ما يسمى «التعلم بالخبرة» والذى هو خاصية للكائنات الحية، هو نفس ما يسمى اكتساب العادات. يتعلم الكلب بالخبرة أن بنى البشر يمكن أن يفتحوا الأبواب، فإذا كان سيده موجودا ويرغب الكلب فى الخروج، فإنه يعوى حوله بدلا من خربشة الباب. «الإشارات» تعتمد كقاعدة على العادات المكتسبة بالخبرة. فصوت السيد بالنسبة للكلب، إشارة عن السيد. يمكننا القول إن A هى «إشارة» عن B إذا أحدثت سلوكًا يحفزه B، ولكنه ليس متعلقا بـ A وحده. ويجب الإقرار بأن بعض الإشارات لا تعتمد على الخبرة فى ظهورها، فالحيوانات تستجيب لروائح معينة بطريقة ملائمة للأشياء التى تعطى الروائح وأحيانا يمكنها الاستجابة حتى لو لم تخبر على الإطلاق الأشياء موضع الاختبار. التعريف الدقيق «للإشارة» صعب، نتيجة ما سبق ولأنه لا يوجد تعريف مقنع للسلوك «الملائم». ولكن الخاصية العامة لما هو مقصود تعد واضحة بدرجة كافية وسوف يتضح أن اللغة هى نوع من جنس «الإشارة».

ما إن يتأثر سلوك كائن ما بالإشارات، فمن الممكن التعرف على البدايات للتمييز بين «الذاتى» و «الموضوعى» وبين «المعرفة» و «الخطأ». فذاتيا، تكون A إشارة عن B للكائن O إذا كان O يسلك فى وجود A بطريقة تتلاءم مع B. موضوعيا، تكون A إشارة عن B إذا كان A يرافق أو يتبع B. فأينما كان A إشارة B للكائن O، يمكن القول، سلوكيا، إن O «يعتقد» فى المقدمة أن A دائما ترافق أو تتبع B. ولكن هذا الاعتقاد يكون «صادقا» فقط عندما تكون A، موضوعيا، إشارة عن B. يمكن خداع الحيوانات بواسطة المرايا أو الروائح. تلك الحالات تجعل من الواضح، من وجهة النظر الحالية، أن التمييز بين الذاتى – الموضوعى ، وبين «المعرفة –الخطأ» يبدآن فى مرحلة مبكرة جدا من السلوك الحيوانى، فكل من المعرفة والخطأ، فى تلك المرحلة هى علاقات مرئية بين السلوك الخاص بالكائن والحقائق الخاصة بالبيئة.

(٤)

نظرية المعرفة من الطراز السابق تكون شرعية ومهمة، ولكن هناك نظرية أخرى للمعرفة أعمق منها ولها كما أعتقد أهمية أكبر.

عندما يلاحظ أحد علماء السلوك ما تفعله الحيوانات ويقرر ما إذا كانت تظهر معرفة أو أخطاء، فهو لا يفكر فى نفسه على أنه حيوان وإنما مراقب لما يحدث فعلا. هو «يعرف» أن الحيوانات يمكن خداعها بالمرايا، ويعتقد أنه «يعرف» أنه لن يُخدع بذلك. بإسقاط حقيقة أنه- كائن كغيره من الكائنات- يلاحظ، فإنه يعطى إيحاءً زائفًا بالموضوعية لنتائج ملاحظاته. وما إن نتذكر احتمالات وقوعه فى الخطأ، نكون قد أدخلنا الثعبان إلى جنة علماء السلوك. الثعبان يهمس بالشكوك، ولا صعوبة لديه فى الاستشهاد بالنصوص العلمية المقدسة لهذا الغرض.

النصــوص العلمية المقدسة فى أشد صورها الكهنوتية، موجودة فى الفيزياء (بما فى ذلك الفسيولوجى). فالفيزياء تؤكد لنا أن الحادثات التى نسميها «الأشياء المُدركة» هى نهاية لسلسلة طويلة من المسببات التى تبدأ من الأشياء والتى ليس من المرجح أن تشبه الأشياء إلا فى أفضل الحالات، بصورة شديدة التجريد. فنحن جميعًا نبدأ من «الواقعية الساذجة» أى من عقيدة أن الأشياء هى على ما تبدو عليه، فنحن نعتقد أن العشب أخضر، وأن الأحجار صلبة وأن الجليد بارد. ولكن الفيزياء تؤكد لنا أن خضرة العشب، وصلابة الحجر، وبرودة الجليد ليست الخضرة والصلابة والبرودة التى نعرفها بخبرتنا الخاصة، وإنما هى أشياء مختلفة تماما. المشاهد عندما يبدو له أنه يرى حجرًا، هو فى الحقيقة، إذا ما صدقنا الفيزياء، يلاحظ آثار الحجر على نفسه. وهكذا يبدو له أن العلم فى حالة حرب مع نفسه. فعندما يريد أن يكون شديد الموضوعية يجد نفسه غارقًا فى الذاتية ضد رغبته. الواقعية الساذجة تقود إلى الفيزياء، والفيزياء، إذا كانت صادقة، تظهر أن «الواقعية الساذجة» زائفة. وبالتالى، فالواقعية الساذجة إذا كانت صادقة، تكون زائفة، وعليه، فهى زائفة إذن. فالباحث فى السلوك عندما يعتقد أنه

يسجل مشاهداته عن العالم الخارجي هو فى الحقيقة يسجل مشاهدات عما يحدث فيه شخصيا. تلك الاعتبارات تؤدى إلى الشك وبالتالى تقودنا إلى الفحص الدقيق لما يعتقد معرفة. هذا الفحص الدقيق هو «نظرية المعرفة» فى المدلول الثانى للمدلولين السابق ذكرهما أو «فلسفة المعرفة» كما يطلق عليها.

(٥)

أول خطوة فى ذلك الفحص هى ترتيب ما نعتقد أننا نعرفه، بنظام معين فيه ما يأتى لاحقًا يعد معروفًا (إذا كان معروفًا). التصور ليس واضحًا كما قد يبدو، فهو ليس مطابقًا للترتيب المنطقى ولا بترتيب الاكتشافات رغم أن له علاقات بكليهما. فلنوضح ببعض الأمثلة.

فى الرياضيات البحتة، بعد الأساسيات، يتطابق الترتيب المنطقى مع ترتيب المعرفة فى معالجة (مثلا) نظرية الدوال، نحن نعتقد فيما يقوله المؤلف لأنه يستنتجها من مقدمات أبسط نصدقها بالفعل، أى أن سبب اعتقادنا هو أيضا أسسها المنطقية. ولكن ذلك ليس صحيحًا فى بدايات الرياضيات. المنطقيون اختزلوا الفروض الضرورية إلى عدد صغير جدا من المقدمات الرمزية شديدة التجريد، والتى تعد صعبة الفهم والتى يعتقد فيها المنطقيون أنفسهم لأنها وجدت مكافئًا منطقيا لعدد كبير من المقدمات الأكثر اعتيادا. حقيقة أن الرياضيات يمكن استنتاجها من هذه الفروض ليست هى السبب فى إيماننا بصدق الرياضيات.

ما تتطلبه فلسفة العلم فى الرياضيات، رغم أنه ليس الترتيب المنطقى، ليس أيضا السبب النفسى لمعتقداتنا. لماذا تعتقد أن ٧ × ٨ = ٥٦؟ هل فندت مطلقا هذه المقدمة؟ بالتأكيد أنا لم أقم بذلك. أنا أعتقد فيها لأنها قيلت لى فى طفولتى ومنذ ذلك الحين رأيتها تتكرر بواسطة مؤلفين محترمين. ولكن عندما أقوم ببحث فى فلسفة العلم الخاصة بالمعرفة الرياضية، أتغاضى عن المسببات التاريخية لاعتقادى أن ٧×٨ = ٥٦.

مشكلة فلسفة العلم ليست هى «لماذا أعتقد فى هذا أو ذاك؟» ولكن «لماذا يجب أن أعتقد فى هذا أو ذاك؟». فى الحقيقة، الموضوع بكامله هو نتاج الشك الديكارتى. أنا ألاحظ أن الناس يخطئون، وأسأل نفسى ما الذى يجب أن أفعله لتجنب الخطأ. من الواضح أن الشىء الوحيد الذى يجب علىَّ أن أفعله هو أن أقوم بالتسبيب بطريقة صحيحة ولكنى يجب أيضا أن يكون لدىَّ فروضا حتى أقوم بالتسبيب منها. فى فلسفة العلم التى وصلت إلى الكمال، يتم ترتيب الفروض ترتيبا منطقيا، وإن لم يكن الترتيب المنطقى الذى يفضله علماء المنطق.

ولنأخذ حالة علم الفلك. فى النظرية الرياضية لحركة الكواكب، الترتيب المنطقى يبدأ من قانون الجاذبية ولكن الرتيب التاريخى يبدأ من مشاهدات تيكو براهى التى قادت إلى قوانين كبلر. الترتيب وفقا لفلسفة المعرفة مشابه للترتيب التاريخى ولكنه ليس مطابقا له حيث لا يمكننا أن نقتنع بالمشاهدات القديمة. فإذا كنا سنستخدمها لا بد أولا من إيجاد دليل على إمكانية الثقة بها والذى يمكن عمله فقط بواسطة مشاهداتنا الخاصة.

لنأخذ التاريخ مثالا. لو كان هناك علمٌ للتاريخ، لكانت حقائقه تستنتج من قوانين عامة تتفق فى البداية مع الترتيب المنطقى لها وفقا للترتيب الخاص بفلسفة العلم. يقنع أغلبنا فى الاعتقاد (مثلا) عن جوليوس قيصر بما نجده فى الكتب التى يمكن الاعتماد عليها. ولكن المؤرخ المدقق لا بد وأن يلجأ إلى المخطوطات والنقوش، فقد تعطيه أشكالا معينة تكون تفسيراته لها شديدة الصعوبة. فى حالة النقوش المسمارية مثلا، يعتمد التفسير على تحديدات غاية فى الاستفاضة، فلكى ندرك لماذا يجب أن نعتقد ما نعتقده عن حامورابى يعد أمرًا معقدا. للمؤرخ المدقق، فالفروض الضرورية هى أن يرى أشكالا معينة فى ألواح معينة، بالنسبة لنا هى أن يقول إنه يرى تلك الأشياء بالإضافة إلى الأسباب التى قد تكون لدينا لنعتقد أنه صادق، والتى يجب أن تكون عبارة عن مقارنة بين ما يقول وبين خبرتنا الخاصة.

(٦)

فلسفــة العلم يجب أن ترتب كل معتقداتنا، تلك التى نشعر أننا مقتنعين بها، والتى تبدو لنا محتملة بدرجة أو بأخرى، فى ترتيب معين، بدءًا بتلك التى تظهر لنا عند التأمل موثوقا بها باستقلال عن أى جدل فى صالحها، وتشير إلى طبيعة الاستنتاج (فى الأغلب ليس منطقيا تماما) الذى نتقدم منه إلى المعتقدات الاشتقاقية. تلك الإقرارات عن الأمور المسلم بها والتى تبدو موثوقا بها باستقلالية عن أى جدل فى صالحها يمكن تسميتها «مقدمات أساسية» وهى مرتبطة بحادثات معينة غير كلامية يمكن تسميتها «خبرات» وطبيعة هذا الارتباط تعد أحد الأسئلة الأساسية لفلسفة العلم.

تشتمل فلسفة العلم على عناصر منطقية ونفسية. منطقيا، يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار العلاقات الاستنتاجية (عادة ليست تلك الاستنباطية تماما) بين المقدمات الأساسية وتلك التى نعتقد بسببها، وأيضا العلاقات المنطقية التى عادة ما تستمر فى الوجود بين المقدمات الأساسية المختلفة مؤدية بها، إذا ما قبلنا قواعد عامة معينة، إلى الدخول بتناسب فى نظام يؤدى بصفة كلية إلى تقوية احتمال كل مكون من مكوناته، وأيضا الخاصية المنطقية للمقدمات الأساسية نفسها. سيكولوجيا، يجب أن نختبر العلاقة بين المقدمات الأساسية والخبرات، ودرجة الشك أو اليقين التى نشعر بها فيما يتعلق بكل منهما والطرق التى يمكن بها اختزال الشك وتعظيم اليقين.

فى هذا الكتاب، سأحاول تجنب أن آخذ فى الاعتبار المعرفة المنطقية والرياضية والتى لا توفر المشكلات التى أريد مناقشتها. مشكلتى الرئيسية، عبر الكتاب بكامله، سوف تكون العلاقة بين المقدمات الأساسية والخبرات، أى عن المقدمات التى تأتى أولا فى ترتيب فلسفة العلم للحادثات التى بشكل ما، هى مبررات قبولنا لتلك المقدمات.

الموضوع الذى سأكون مهتما به يختلف عن ذلك الذى نوقش، على سبيل المثال، فى كتاب «النحو المنطقى للغة» للفيلسوف كارناب رغم أنه فى العديد من النقاط كانت المناقشات فى هذا الكتاب وغيره والتى تتناول موضوعات مماثلة، تعد موثوقًا بها. أنا

مهتم بما يجعل المقدمات الفعلية صادقة، وبتعريف «الصدق» كما ينطبق على تلك المقدمات. فالمقدمات الفعلية، فيما عدا تلك التى يكون موضوعها لغويا، تعد صادقة بفضل الحادثات التى ليست لغوية. عند النظر إلى الصدق الفعلى نكون مهتمين بالعلاقة بين أحداث لغوية وغير لغوية أو ربما بسلسلة من العلاقات التى تتعقد تدريجيا. عندما نرى شهابًا ونقول «انظر» فالعلاقة بسيطة، ولكن العلاقة بين قانون الجاذبية والمشاهدات المبنية عليه تعد شديدة التعقيد.

(٧)

بالتوافق مع الحس المشترك، تتمسك «الفعلية» بأن البيان اللفظى يتم إقراره أو دحضه عن طريق المشاهدة طالما كان بيانا ذا أهمية وليس مجرد بيانٍ منطقى. المشاهدة فى مثل هذه الحالة يفترض ألا تكون أمرًا لفظيا وإنما أمرًا يتأتى بالخبرة. أما إذا كانت المشاهدة تقر أو تدحض بيانا لفظيا، فلا بد من أن تعطى مبررا، بمدلول ما، لواحد أو أكثر من البيانات اللفظية. العلاقة بين الخبرة غير اللفظية والبيان اللفظى الذى تبرره تعد من الأمور التى يجب على «الفعلية» اختبارها.

المسار العام للجدل الذى سأقوم به سيكون على النحو التالى:

فى الفصول الثلاثة الأولى، يتركز اهتمامى على مناقشة أولية للكلمات والجمل والعلاقة بين خبرة ما والجملة التى (جزئيا) تصفها. إحدى صعوبات الموضوع هى أننا لا بد من أن نستعمل الكلمات العامة بمدلولات فنية دقيقة عادة ما لا تعنيها؛ وفى تلك الفصول الافتتاحية تجنبت تلك التعريفات الفنية أثناء تمهيد الأرض لها بإيضاح طبيعة المشكلة التى من أجلها يعد ذلك مطلوبا.. ما قيل فى تلك الفصول، بالتالى، ليس له درجة الدقة الموجودة فى الفصول التالية.

الفصول من الرابع إلى السابع تتعلق بمشكلات معينة خاصة بتحليل اللغة. إحدى النتائج التى ظهرت بوضوح من الدراسة المنطقية للغة هى حتمية وجود تسلسل هرمى

للغات، وأن كلمتى «صادق» و «زائف» عند تطبيقهما على البيان الخاص بأية لغة هما كلمتان تنتميان للغة من مستوى أعلى. يؤدى ذلك بالتبعية لوجود لغة ذات مستوى أقل، لا ترد فيها كلمتا «صادق» و «زائف». ووفقًا للاعتبارات المنطقية، فإن هذه اللغة يمكن أن يتم بناؤها بالعديد من الطرق، وقواعد نحوها ومفرداتها لا يتحددان بالشروط المنطقية فيما عدا أنها يجب ألا تسمح بالمتغيرات الظاهرة، أى يجب ألا تحتوى على كلمتى «كل» و «بعض». وبالتقدم وفقًا للأسلوب النفسى، قمت ببناء لغة (وليس اللغة) التى تفى بالشروط المنطقية للغة الطراز الأدنى وأسميها «لغة الشىء» أو «اللغة الأولية». فى تلك اللغة، تشير كل كلمة أو تعنى شيئًا محسوسًا أو مجموعة من تلك الأشياء، وعندما تستعمل بمفردها، تؤكد الوجود المحسوس للشىء أو أحد الأشياء التى تشير إليها أو تعنيها. عند تعريف تلك اللغة، من الضرورى تعريف «تشير إلى» أو «تعنى» فيما يختص بلغة الشىء أى بالكلمات الخاصة بتلك اللغة، الكلمات فى اللغات التى هى من المستوى الأعلى لها معانٍ أكثر تعقيداً.

المرور من اللغة الأولية إلى اللغة الثانوية يتم بإضافة ما أسميه بـ «الكلمات المنطقية» مثل «أو» ، «ليس» ، «بعض» ، «كل» بالإضافة إلى كلمتى «صادق» و «زائف» كما تنطبق على الجمل فى لغة الشىء. تطور اللغات التى من المستوى الأعلى بدرجة أكبر من اللغة الثانوية هو أمر يهم علماء المنطق، لأن ذلك يؤدى إلى مشكلات جديدة تخص العلاقة بين الجُمل والحادثات غير اللغوية.

الفصل السادس والفصل السابع يهتمان بالقضايا النحوية مثل «أسماء الأعلام» و «أسماء الإشارة»، أى بكلمات مثل «هذا»، «أنا»، «الآن» والتى لها معنى له علاقة بالمتكلم. نظرية أسماء الأعلام المقترحة تعد مهمة إذا كانت صادقة، خاصة فى علاقتها بالزمان والمكان. الفصول الأربعة التالية تهتم بالمعرفة الإدراكية وعلى الأخص «بالمقدمات الأساسية» أى بالمقدمات التى توفر المعرفة المباشرة المشتقة من الإدراك.

(٨)

نحن نقول إن مهمة فلسفة العلم هى ترتيب المقدمات التى تشكل معرفتنا، بنظام منطقى معين، تكون فيه المقدمات التالية مقبولة نتيجة علاقاتها المنطقية بالمقدمات التى تأتى قبلها. ليس من الضرورى أن تكون المقدمات التالية تستنتج منطقيا من السابقة لها، ما يعد ضروريا هو أن المقدمات السابقة توفر الأسس الموجودة للاعتقاد بأن المقدمات اللاحقة لها تعد صادقة. عند النظر إلى المعرفة الفعلية فإن المقدمات السابقة فى التسلسل الهرمى والتى تشكل الأساس للمقدمات الأخرى كلها، لا تستنتج من مقدمات أخرى ولكنها ليست مجرد افتراضات عفوية. إن لها أسسا رغم أن تلك الأسس ليست مقدمات ولكنها حادثات مشاهدة. تلك المقدمات كما لوحظ فيما قيل، سوف أسميها مقدمات «أساسية» حيث إنها تفى بالوظيفة التى يوليها لها المنطقيون الإيجابيون فيما يسمونه «مقدمات بروتوكولية» بالنسبة لى، إحدى نقائص المنطقيين الإيجابيين أن تحيزهم اللغوى جعل نظريتهم عن المقدمات المنطقية ضبابية وغير مرضية.

نتقدم بعد ذلك إلى تحليل السلوكيات، أى الاعتقاد، والرغبة، والشك، وما إلى ذلك. وتحليل تلك الحادثات يعد مهمًا لكل من المنطق ونظرة المعرفة، خاصة فى حالة الاعتقاد. فقد نجد أن الاعتقاد فى مقدمة معينة لا يشتمل بالضرورة على كلمات ولكنه يتطلب فقط أن يكون المعتقد فى إحدى الحالات الممكنة، المحددة بالدرجة الأولى وربما كلية «بالخصائص السببية». عندما تحدث الكلمات فإنها «تعبِّر» عن المعتقد وإذا كانت صادقة «تشير» إلى حقيقة مغايرة للمعتقد.

نظرية الصدق والزيف التى تنجم طبيعيا من تلك الاعتبارات، كما أرى، هى نظرية فلسفة المعرفة، أى أنها يمكنها فقط تقديم تعريف «للصادق» و «الزائف» عندما توجد طريقة ما للحصول على تلك المعرفة أو للإقرار بأى البديلين. يقترح ذلك برونر مع إنكاره لقانون الوسط المستبعد. وبالتالى يصبح من الضرورى اعتبار ما إذا كان ممكنًا إعطاء تعريف لا يقوم على فلسفة العلم «للصادق» و «الزائف» وبالتالى الحفاظ على قانون الوسط المستبعد.

أخيرا هناك التساؤل: ما مدى تطابق الأقسام المنطقية للغة مع عناصر العالم غير اللغوى الذى تتعامل معه اللغة؟ أو بكلمات أخرى: هل يوفر المنطق أساساً لأية معتقدات ميتافيزيقية؟، بالرغم من كل ما قاله المنطقيون الإيجابيون فإنى أميل لإجابة هذا السؤال بالإيجاب، ولكنه أمر صعب حيث لا أملك فى هذا الأمر الجرأة لكى أكون متعسفا.

(٩)

هناك ثلاث نظريات أعتبرها مهمة بصفة خاصة كالتالى:

١- يتم الجدل، على أساس أن خبرة مفردة يمكن أن تبرر عددا من الإقرارات اللفظية. خصائص هذه الإقرارات تم بحثها وتم الاقتناع بأنها لا بد وأن تقتصر دائما على الأمور التى تنتمى لسيرة المشاهد الذاتية، حيث يمكن أن تكون مثل «إننى أرى بقعة من الألوان»، وليس مثل «يوجد كلب». الإقرارات من الطراز الأخير دائما ما تشتمل فى مبرراتها، على بعض عناصر الاستنتاج.

٢- فى كل تأكيد، يجب فصل جانبين - فى الجانب الذاتى «يعبر» التأكيد عن حال المتكلم بينما فى الجانب الموضوعى يقصد «الإشارة» إلى «حقيقة» وينجح فى هذا القصد عندما يكون صادقًا. سيكولوجية الاعتقاد تهتم بالجانب الذاتى فقط وبموضوع الصدق والزيف فى الجانب الموضوعى. وقد وجد أن تحليلا ما تعبر عنه جملة ما يجعل النظرية السيكولوجية لمعنى الكلمات المنطقية ممكنة، مثل كلمات «أو»، «ليس»، «كل» و«بعض».

٣- أخيرا، هناك السؤال الخاص بالعلاقة بين الصدق والمعرفة. لقد بذلت محاولات لتعريف «الصدق» بمدلول المعرفة أو بمفهوم «القابلية للتنفيذ» والتى تشتمل على «المعرفة». تلك المحاولات إذا تمت بصورة منطقية تقود إلى تناقضات لا يوجد مبررٌ لقبولها. وإننى لأقرر أن «الصدق» هو المفهوم الأصولى بينما المعرفة فيجب تعريفها

بمدلول «الصدق» وليس العكس. يؤدى ذلك إلى أن المقدمات قد تصبح صادقة رغم أننا لا نرى سبيلا للحصول على دليل يؤيدها أو يدحضها. وتشتمل أيضا على التخلى عن اللاأدرية الميتافيزيقية التى يفضلها الإيجابيون المنطقيون.

يبدو من تحليلنا للمعرفة أنها ما لم تكن أشد محدودية عمًّا نفترض، لكان علينا قبول أسس الاستنتاج غير الإيضاحى والذى من الصعب أن يتوافق مع الفعلية البحتة. تنجم هذه المشكلة عند نقاط مختلفة ولكنى امتنعت عن مناقشتها، جزئيا لأنها تتطلب لمعالجتها كتابًا فى ضخامة هذا الكتاب، وبالأساس، لأن أية محاولة للحل يجب أن ترتكز على تحليل للأمور التى هى موضوع للفصول التالية. وحيادية هذا التحليل قد تهدد بالبحث المتسرع لتوابعه.

* * *



الفصل الأول

ما هى الكلمة

(١)

نأتى الآن إلى الاعتبار المبدئى للسؤال: «ماهى الكلمة»؟ ولكن ما سأقوله الآن سوف يتم تدعيمه بمناقشات مفصلة فى مراحل لاحقة.

الكلمات، منذ الأزمنة الأولى التى تتوافر لدينا عنها سجلات تاريخية، كانت مواضعَ للرعب الناجم عن الخرافة. الرجل الذى كان يعرف اسم عدوه كان يستطيع بواسطته أن يكتسب قدرات سحرية عليه. ونحن لا نزال نستعمل جملاً مثل «باسم القانون» من السهل القبول بمقولة «فى البدء كانت الكلمة»، فتلك النظرة تشكل فلسفات أفلاطون وكارناب ومعظم الميتافيزيقيين بينهما.

قبل أن نستطيع أن نفهم اللغة، يجب تجريدها من خصائصها الغامضة والموحية بالرعب. وغرض هذا الفصل هو القيام بذلك.

قبل النظر فى معنى الكلمات، فلنختبرها فى البداية كحادثات فى العالم المحسوس. من وجهة النظر هذه، فالكلمات أربعة أشكال: منطوقة، مسموعة، مكتوبة، ومقروءة. لن يضر افتراض وجود إحساس مشترك بالأشياء المادية، حيث إننا نستطيع دائما ترجمة ما قيل بمدلولات الحس المشترك إلى أية لغة فلسفية نفضلها. وبالتالى، فمن الممكن ضم الكلمات المكتوبة والمقروءة معًا على أن يحل محل كل منها، شىء مادىٌ - قدر من الحبر، كما يقول نيوراث - عبارة عن كلمة مكتوبة أو مطبوعة وفقًا للظروف.

التمييز بين الكتابة والقراءة هو بالطبع أمر مهم ولكن تقريبا فإن كل شيء يمكن أن يقال عن ذلك بالإمكان قوله متعلق بالفرق بين الكلام والسمع.

بالنسبة لكلمة معينة مثل «كلب»، يمكن نطقها، أو سماعها، أو كتابتها، أو قراءتها بواسطة العديد من الناس فى مناسبات عديدة. الذى يحدث عندما ينطق إنسان بكلمة ما سوف أسميه «نطقًا لفظيا»، وعندما يسمع إنسان كلمة ما سأسميه «صوتًا لفظيا»، والشيء المادى الذى هو عبارة عن كلمة مكتوبة أو مطبوعة سأسميه «شكلا لفظيا». من الواضح بالطبع أن النطق اللفظى، الأصوات والأشكال تتميز عن غيرها من صور النطق بخصائص سيكولوجية –«بالغرض» أو «المعنى». ولكننى أرغب حاليا فى ترك تلك الخصائص جانبا والنظر فقط لوضع الكلمات كجزء من العالم المحسوس.

الكلمة المنطوقة «كلب» ليست مفردة بذاتها، فهى قسم من حركات مماثلة؛ اللسان، الزور، الحنجرة. فكما أن القفز عبارة عن قسم من الحركات الجسمية، والمشى قسم آخر، فالكلمة المنطوقة «كلب» هى قسم ثالث من الحركات الجسمية. كلمة «كلب» كونية كما أن الكلب كونيٌّ. نحن نقول إننا نستطيع النطق بنفس كلمة «كلب» فى مناسبتين، ولكننا فى الحقيقة ننطق بمثالين للنوع نفسه، تمامًا مثل عندما نرى كلبين فإننا نرى مثالين للنوع نفسه. وبالتالى لا يوجد فرق فى الوضع المنطقى بين «كلب» وكلمة «كلب»؛ كلاهما عام ويوجد فقط فى حالات معينة. كلمة «كلب» هى قسم معين من المنطوقات اللفظية، كما أن الكلب هو قسم من رباعيات الأرجل. تنطبق الملاحظات نفسها تماما على الكلمات المسموعة والمكتوبة.

قد يبدو أننى أؤكد بلا مبرر حقيقة شديدة الوضوح بالإصرار على أن الكلمة كونية. ولكن يوجد ميل لا يمكن مقاومته، أينما كنا غير منتبهين، للتفكير فى الكلمة على أنها شيء واحد، ونجادل بأنه رغم وجود العديد من الكلاب فإن الكلمة الواحدة «كلب» تنطبق عليها جميعا. وهكذا نأتى للتفكير فى أن الكلاب تشترك كلها فى خاصية كلابية معينة، هى ما تعنيه فعلاً كلمة كلب. وبالتالى نصل إلى أفلاطون والكلب طريح السماء، بينما ما لدينا فى الواقع هو مجموعة من رباعيات القدم المتشابهة.

(٢)

عندما نحاول تعريف الكلمة المنطوقة «كلب» نجد أننا لا نستطيع ذلك دون النظر إلى الغرض. بعض الناس يقولون «كليب» ولكننا نعرف أنهم يقصدون «كلب».

فيما يختص بالكلمة المكتوبة، تنطبق الاعتبارات نفسها على الذين يكون خطهم رديئًا، وبالتالى فرغم أن التشابه مع صوت قياسى أو شكل قياسى – مثل ذلك الخاص بمذيع فى بى. بى. سى أو خطاط – يعد ضروريا فى تحديد وقع الكلمة، فإنه لا يعد كافيا وأن الدرجة الضرورية من التشابه مع ما هو قياسى لا يمكن تحديدها بدقة الكلمة، فى حقيقة الأمر، هى «عائلة» كما أن الكلاب عائلة، وهناك حالات وسطية مشكوك فيها مثلما كان فى التطور حيث كانت توجد حالات وسطية بين الكلاب والذئاب.

فى هذا الخصوص، تكون الطباعة مفضلة. فما لم يكن الحبر باهتا، فمن الصعب على إنسان طبيعى فى القدرة على الرؤية أن يشك فيما إذا كانت كلمة «كلب» مطبوعة فى مكان ما أم لا. فى الحقيقة، الطباعة صنعة مصممة لإرضاء ذوقنا فى التبويب. فشكلين للحرف A يكونان شديدى التشابه وكل منهما يختلف عن شكل الحرف B. وباستعمال الطباعة باللون الأسود على ورق أبيض نجعل كل حرف يقف بحدة على الخلفية المستعملة. وبالتالى فالصفحة المطبوعة تتكون من مجموعة من الأشكال المتقطعة التى يسهل تبويبها وهى على ذلك جَنَّة لعلماء المنطق. ولكن يجب ألا يخدعوا أنفسهم بالاعتقاد أن العالم الخارج عن الكتاب له هذا السحر نفسه.

الكلمات المنطوقة، المسموعة أو المكتوبة، تختلف عن الأقسام الأخرى من الحركات الجسمية، الأصوات أو الأشكال فى أن لها «معنى». كثير من الكلمات لا يكون لها معنى إلا عندما توجد فى إطار لفظى مناسب – مثل كلمات «عن»، «أو»، «رغم ذلك» والتى لا يمكن أن تستخدم بمفردها. نحن لا نستطيع أن نبدأ شرح معنى بتلك الكلمات، لأنها توحى بوجود كلمات قبلها. هناك كلمات، بما فى ذلك كل ما يتعلمه

الطفل فى البداية يمكن استخدامها بمفردها: أسماء الأعلام، أسماء أقسام عائلات الحيوانات المعروفة، أسماء الألوان .. وهكذا. هذه هى ما أسميها «كلمات الأشياء» وهى تكوِّن «لغة الأشياء»، والتى سأستفيض فى تناولها فى فصل لاحق. فلتلك الكلمات خصائص عديدة. أولا: معانيها يتم تعلُّمها (أو يمكن تعلمها) بالمواجهة بالأشياء التى تعنيها أو بحالات تعنيها. ثانيا: أنها لا توحى بوجود كلمات قبلها. ثالثا: كلٌّ منها، بذاته، يمكن أن يعبر عن مقدمة كاملة. أنت تستطيع أن تصرخ «حريق!» بينما سيكون سخيفا أن تصرخ بـ «عن!» من الواضح أنه بتلك الكلمات يجب أن يبدأ شرح «المعنى»، لأن «المعنى» مثله مثل «الصدق» و «الزيف» له بناءٌ هرمىٌّ من المعانى تقابل البناء الهرمى للغة.

(٣)

تستخدم الكلمات بطرق شتى: فى السرد، فى الطلب، فى الأمر، فى التصوير الخيالى، وهكذا. ولكن الاستخدام الأولى لكلمات الأشياء هو الاستخدام التوضيحى مثل الصراخ بكلمة «ثعلب» عندما يكون الثعلب ظاهرا للعيان. ويماثل ذلك فى بدائيته النداء: استخدام اسم علم للتعبير عن رغبة فى وجود الشخص المنادى. ولكن هذا لا يعد شديد البدائية لأن معنى كلمة شىء يجب تعلمه فى وجود الشىء (أنا أستبعد مثل تلك الكلمات حيث يتم تعلمها عبر التعريفات اللفظية لأنها توحى بوجود لغة قائمة بالفعل).

من الواضح أن معرفة لغة ما تتكون من استخدام الكلمات بطريقة مناسبة والسلوك بطريقة مناسبة عند سماعها. وليس من الضرورى أن تكون قادراً على قول ما تعنيه كلمة ما، أكثر من ضرورة أن يعرف لاعب الكريكت النظرية الرياضية للتصادم والمقذوفات. بالطبع، للعديد من كلمات الأشياء من المستحيل تماما القول بما تعنيه إلا عن طريق اللغة، لأن اللغة قد بدأت بتلك الكلمات.

فمثلا يمكن شرح كلمة مثل «أحمر» بالإشارة إلى شىء أحمر. الطفل يفهم الكلمة المسموعة «أحمر» عندما تنشأ علاقة بين الكلمة المسموعة واللون الأحمر، فهو يتمكن من نطق كلمة «أحمر» عندما يلاحظ شيئًا أحمر، يكون قادراً على نطق «أحمر» ولديه الدافع لفعل ذلك.

تعلم كلمات الأشياء فى البداية يعد مسألة واستخدام الخطاب عند التحكم فى آليته مسألة أخرى. عند النضج، يكون كل الخطاب مثل النداء باسم ما، بصيغة الأمر. وعندما يبدو أنه مجرد مقولة، فلا بد وأن تستهل بكلمات «اعلم أن». نحن نعرف الكثير من الأشياء، ونؤكد على البعض منها فقط، وتلك التى نؤكدها هى ما نرغب أن يعرفها [illegible]عون. عندما نرى نجمًا يهوى ونقول ببساطة «انظر» فنحن نأمل أن تؤدى تلك [illegible] إلى أن يراه الشخص الواقف بجوارنا أيضا. إذا كان لديك ضيف غير مرغوب فيه، فقد تقذف به أسفل السلم أو قد تقول له «اخرج من هنا». وحيث إن «اخرج من هنا» تشتمل على مجهود عضلى أقل، فإنها المفضلة عند تساوى النتيجة. يتبع ذلك أنه فى الحياة الناضجة، عندما نستعمل كلمة ما، القاعدة إنك تفعل ذلك ليس فقط لأن ما «تشير» إليه الكلمة يعد متواجداً للحس أو للتصور وإنما لأنك تود ممن يسمعك أن يفعل شيئًا حيالها. الحال ليس كذلك بالنسبة للطفل الذى يتعلم الكلام وليس هو الحال دائما فى السنوات اللاحقة، لأن استعمال الكلمات فى المناسبات المثيرة للاهتمام يصبح عادة آلية. لو أنك رأيت فجأة صديقًا اعتقدتَ خطأً أنه قد مات، فربما تنطق باسمه حتى لو لم يسمعك هو أو أى شخص آخر. ولكن هذه المواقف استثنائية.

بالنسبة لمعنى جملة ما، توجد ثلاثة عناصر سيكولوجية: المسببات البيئية للنطق بها، وآثار سماعها والآثار التى يتوقع المتكلم أن تحدثه فى السامع (كجزء من مسببات النطق بها). قد نقول، عموما، إن الخطاب يتكون من أصوات يحدثها الأشخاص بهدف إحداث أفعال مرغوبة بواسطة أشخاص آخرين، وتبقى خصائصها الإشارية والتأكيدية أساسية، حيث إنه نتيجة تلك الخصائص أننا عندما نسمع خطاباً فقد يؤدى بنا إلى السلوك بطريقة مناسبة لبعض خصائص البيئة، يدركها المتكلم ولا يدركها السامع،

أو التى يتذكرها المتكلم مـن إدراكات ماضية. عندما تقود زائراً لخارج منزلك ليلا، قد تقول «توجد هنا سلّمتان»، هذا يعنى درجة ما من المشاعر الطيبة تجاه ضيفك. ولكن تقرير الحقيقة ليس دائما هو غرض الخطاب، فمن الممكن أن يكون الخطاب بغرض الخداع. «لقد أعطينا اللغة لتمكننا من إخفاء أفكارنا». وبالتالى عندما نفكر فى اللغة كوسيلة لتقرير حقائق نكون قد افترضنا بالتالى وجود رغبات معينة للمتحدث. فمن المثير أن اللغة بمقدورها تقرير حقائق، ومن المثير أيضا أنها تستطيع تقرير الزيف. عندما تقرر أيا من الأمرين، فإنها تفعل ذلك لكى تحدث بعض الأفعال من جانب السامع، فلو كان السامع عبداً، طفلا أو كلبًا فالنتيجة ستحدث ببساطة عند استخدام صيغة الأمر. ولكن يوجد فرق بين مدى تأثير كذبة ما ومدى تأثير الصدق: الكذبة تنتج فقط النتيجة المرغوبة طالما كان الصدق متوقعًا. فى الواقع، لا يمكن لأى شخص أن يتعلم الكلام إلا إذا كان الصدق هو القاعدة: فإذا قلت عندما يرى طفلك كلبا أو «قطا»، «حصانًا» أو «تمساحًا» بصورة عشوائية فلن تستطيع أن تخدعه بقولك «كلب» عندما لا يكون ما يراه كلبًا. الكذب بالتالى يعد نشاطًا اشتقاقيا يفترض أن التحدث بالصدق هى القاعدة المعتادة.

(٤)

يظهر بالتالى أنه رغم أن معظم الجمل هى مبدئيا بصيغة الأمر، فإنها لا تفى بوظيفتها فى إحداث الفعل المطلوب من السامع إلا بفضل الخاصية الإشارية لكلمات الأشياء. افترض أننى قلت «اجر» وأن الشخص المخاطب جرى بالتبعية، فقد حدث ذلك فقط لأن كلمة «اجر» تشير إلى فعل معين، هذا الموقف يظهر فى صورته الأبسط فى التدريبات العسكرية: فالانعكاس الشرطى يتم طالما أن نوعًا معينًا من الصوت (كلمة القيادة) تنتج نوعًا معينًا من الحركة الجسمية. قد نقول فى هذه الحالة، نوع الصوت موضع السؤال هو اسم لنوع الحركة موضع السؤال. ولكن الكلمات التى ليست أسماءً لحركات جسمية علاقتها المباشرة بالفعل، تعد أقل.

فى حالات معينة فقط يكون «معنى» نطقًا لفظيا معينًا مميزًا الأثر المرغوب إحداثه فى السـامـع. كلمـة القـيـادة وكلمـة «انـظر» هـى أمـثلة لذلك، لكن إذا قلت «انـظر، يوجـد ثعلب» فأنا لا أرغب فى مجرد إحداث فعل ما فى السامع وإنما أنا أعطيه الحافز للفعل بوصفى للبيئة، فى حالة الخطاب السردى تكون التفرقة بين «المعنى» والأثر المرغوب أكثر وضوحًا. الجـمل فقط هى التى لها آثار مـقصودة بينمـا لا يقـتصر المعنى على الجمل. كلمات الأشياء لها معنى لا يعتمد على حدوثها فى جمل.

عند الدرجة الدنيا من الخطاب، لا يوجد التمييز بين الجمل والكلمات المفردة، عند تلك الدرجة، تستخدم الكلمات المفردة للإشارة للوجود المحسوس لما تميزه تلك الكلمات. خـلال هذا الشكل من الخطاب تكتسب كلمـات الأشـيـاء مـعنـاها، وفى هذا الشـكل من الخطاب تكون كل كلمـة تأكيداً، وأى شىء يخرج عن التـأكيدات لما هو قـائم ومـحسـوس وحـتى بعض التــأكـيـدات التى لا تـوقع ذلك، يمكن أن يتم بواسـطة الجُـمل، ولكن إذا اشتملت الجمل على كلمات أشياء، فإن ما تؤكده يعتمد على معنى كلمات الأشياء. هناك جمل لا تحتوى على كلمات أشياء وهى الخاصـة بالمنطق والرياضيات. ولكن كل التقريرات الفعلية تحتوى على كلمات أشياء أو كلمات قاموس تتحدد بواسطتها. وعلى ذلك فمعنى كلمات الأشياء يعد رئيسيا فى نظرية المعرفة الفعلية، حيث إنه عبر تلك الكلمات ترتبط اللغة بالحادثات غير اللغوية بالأسلوب الذى يجعلها قادرة على التعبير عن الحقيقة والزيف الفعليين.

* * *

الفصل الثانى

الجُمل، النحو وأجزاء الخطاب

(١)

قد تكون الجُمل للاستفهام، للتمنى، أو للنداء، أو للأمر، كما أنها قد تكون وصفية. عبر معظم ما تبقى من مناقشاتنا، قد نقتصر على الجمل الوصفية، لأنها هى فقط التى قد تكون صادقة أو زائفة. بالإضافة لذلك، لكى تكون صادقة أو زائفة، فللجمل الدلالية خاصيِّتان مهمتان، تشتركان فيهما مع الجمل الأخرى. الأولى، هى أنها مكونة من كلمات ولها معنى مشتق من معانى الكلمات التى تحتويها؛ الثانية، هى أن لها طرازًا خاصا من الوحدة بفضله تكون لها القدرة على حمل خصائص لا توجد فى الكلمات المكونة لها. كل من هذه الخصائص يحتاج إلى البحث، ولنبدأ بوحدة الجملة.

الجملة المفردة نحوِيا قد لا تكون مفردة منطقيا. الجملة «اتجهت للخارج فوجدت أنها تمطر» لا يمكن تمييزها منطقيا عن الجملتين: «اتجهت للخارج» و «وجدت أنها تمطر» ولكن جملة «عندما اتجهت للخارج وجدت أنها تمطر» هى مفردة من الناحية المنطقية، لأنها تقرر أن حادثتين تقعان معًا. «قيصر وبومباى كانا قائدين عظيمين»، هى منطقيا جملتان، ولكن «قيصر وبومباى كانا متماثلين فى كونهما قائدين عظيمين» هى جملة واحدة من الناحية المنطقية. ولغرضنا الحالى، سيكون من المناسب استبعاد الجمل التى ليست مفردة منطقيا وإنما مكونة من تأكيدين تربطهما «و» أو «لكن» أو «بالرغم من» أو «ما عدا ذلك» من الروابط. الجملة المفردة، لغرضنا الحالى، لا بد أن تقول شيئًا لا يمكن قوله فى جملتين منفصلتين بسيطتين.

بالنظر إلى جملة مثل «سأكون آسِفًا إذا ما سقطت مريضًا»، لا يمكن تجزئة هذه الجملة إلى «سأكون آسفا» و «ستسقط مريضا» حيث إن لها طرازًا من الوحدة هو ما نتطلبه فى الجملة. ولكنها تشتمل على تعقد لا تشمله بعض الجمل، فبإهمال زمن الفعل، فإنها تحدد علاقة بين «أنا آسف» و «أنت مريض». قد نفسِّر ذلك على أنه تقرير، وإنه عند أى زمن تكون الجملة الأولى صادقة عندما تكون الجملة الثانية صادقة. مثل تلك الجمل يمكن أن تسمى «جزيئية»، فيما يتعلق بالجمل المكونة لها والتى بالعلاقة نفسها يمكن أن تسمى «ذرية(*)»، فأينما كانت الجمل «ذرية» بمدلول غير نسبى، فيمكن حاليا تركها كسؤال مفتوح، ولكن أينما وجدنا جملة جزيئية فسنكون فى وضع أفضل بنقل اهتمامنا فى المقام الأول إلى مكوناتها الذرية. عمومًا الجملة الذرية هى التى تحتوى على فعل واحد، ولكن ذلك يعد دقيقًا فى اللغة المنطقية تمامًا.

هذا الأمر ليس بسيطا بأى حال. فأنا أقول "A" فى البداية ثم "B" ، فيمكن الحكم بأن :الصوت "A" يسبق الصوت "B"، ولكن ذلك يشمل ضمنيا أن «الصوت "A" قد حدث و «الصوت "B" قد حدث أيضا»، لكن يضيف إلى أن أحد الحدثين كان أسبق من الآخر. الجملة بالتالى هى فى الحقيقة مماثلة لإقرار مثل «بعد أن اتجهت للخارج صرت مبتلا». فهى إقرار جزيئى مكوناته الذرية هى "A" قد حدثت» ، "B" قد حدثت». ما المقصود بأن "A" قد حدثت»؟ المعنى أنه كان هناك صوت من قسم معين، القسم يسمى "A". وبالتالى عندما نقول "A" تسبق "B" فإن إقرارنا يشتمل على صورة منطقية مختفية هى نفسها مثل الإقرار نفسه «فى البداية كان هناك نباح الكلب ثم صهيل الحصان».

فلنتتبع ذلك أكثر. أقول "A". ثم أقول «ما الذى قلته؟» فتقول أنت «لقد قلت "A". الصوت الذى أصدرته عند قولك "A" فى هذا الرد يختلف عن الصوت الذى أصدرته أنا

(*) استخدم المؤلف تعبير Atomic Sentence فى الأصل الإنجليزى وقد ترجمناها حرفيا لإعطاء المعنى الذى يقصده المؤلف، أى الجملة غير القابلة للتجزئة.

فى البداية، وبالتالى إذا كانت "A" هى اسم لصوت معين فإن إقرارك سيكون زائفًا. فلأن "A" هى اسم لقسم من الأصوات يكون إقرارك صادقًا، فإقرارك يُصنِّف الصوت الذى أصدرته بالطريقة نفسها كما لو كنت قد قلت «لقد نبحتُ كالكلب». يُظهر ذلك كيف تجبرنا اللغة على العمومية حتى عندما نرغب فى تجنب ذلك بشدة.

(٢)

إذا تكلمنا عن الصوت المعين الذى أصدرته أنا، فعلينا أن نعطيه اسم علم، وليكن «توم»، والصوت الذى أصدرته أنت عندما قلت "A" سنسميه «ديك»، وبالتالى يمكننا أن نقول «توم و ديك كلاهما "A"». يمكننا القول أن نقول «أنا قلت توم» وليس «أنا قلت "توم"». بالتحديد، يجب ألا نقول «أنا قلت "A"»، بل يجب أن نقول «أنا قلت إحدى "A"». كل ذلك يشير إلى قاعدة عامة هى أنه عندما نستعمل مدلولاً عامًا مثل "A" أو «شخص» فليس فى عقولنا مدلول كونى وإنما مثال يكون المثال الحالى مطابقا له. عندما نقول «لقد قلت "A"» فإن المقصود فى الحقيقة هو «لقد أصدرت صوتا مطابقا بشدة للصوت الذى أنا على وشك إصداره: "A"». ولكن هذا يعد تعسفًا.

سنعود إلى افتراض أننى أقول فى البداية "A" ثم "B" سنسمى الحدث المعين الذى كان نطقى الأول «توم» والذى كان نطقى الثانى «هارى»، يمكن بالتالى أن نقول «توم يسبق هارى». وهذا هو ما نعنيه فعلا عندما نقول «الصوت "A" يسبق الصوت "B"» والآن يبدو أننا قد وصلنا أخيرًا إلى جملة ذرية (غير قابلة للتجزئة) وليست قابلة للتصنيف.

(٣)

قد يتم الاعتراض بأننى عندما أقول «توم يسبق هارى» أن ذلك ينطوى على أن «توم قد حدث» و«هارى قد حدث» تماما مثلما أقول «الصوت "A" يسبق الصوت "B"»،

والذى ينطوى على أن "A" حدث و ""B" حدث» وهذا كما أعتقد خطأ منطقى. عندما أقول إن عضوا غير محدد من قسم قد حدث، فإن إقرارى يكون مهمًا طالما أننى أعرف القسم الذى أعنيه، ولكن فى حالة اسم علم حقيقى فإن الاسم يكون عديم المعنى ما لم يكن يسمى شيئًا، وإذا كان يسمى شيئًا فلا بد وأن هذا الشىء يحدث. قد يبدو هذا تذكيراً بالجدل الخاص بطبيعة المخلوقات ولكنه فى الحقيقة مجرد جزء من تعريف «الاسم». اسم العلم يسمى شيئًا لا يشتمل على جمع من الأمثلة ويسميه اصطلاحيا وليس بوصف مكون من كلمات لها معانٍ محددة مسبقا. وبالتالى ما لم يكن الاسم يعنى شيئًا فهو مجرد صوت أجوف وليس كلمة. عندما نقول «توم يسبق هارى» حيث «توم» و «هارى» أسماء لأصوات معينة، فإننا لا نفترض مسبقًا أن «توم قد حدث» و«هارى قد حدث» لأن كليهما عديم المعنى تمامًا. عمليا، أسماء الأعلام لا تعطى لحادثات مفردة، لأن معظمها غير مثير للاهتمام بدرجة كافية. عندما تكون هناك مناسبات لذكرها، فإننا نفعل ذلك بواسطة الأوصاف مثل «موت القيصر» أو «مولد المسيح». وعند الكلام بمدلولية الفيزياء، فإننا نعطى أسماء العلم لامتدادات مستمرة معينة لأشياء مثل الفراغ – الزمن، ومثل سقراط وفرنسا أو القمر. فى الأيام الخوالى، كان يقال إننا نعطى اسم علم لمادة أو لمجموعة من المواد، ولكننا يجب أن نوجد معنى للتعبير عن غرض اسم العلم.

اسم العلم، عمليا، دائما ما يشتمل على حادثات وليست أمثلة منه. فلنأخذ «مات قيصر». مات تعد كلمة شاملة لعدد من الحادثات لها تشابهات معينة فيما بينها ولكن ليست بالضرورة علاقات فراغية– مرحلية، كل منها هو موت «قيصر». على النقيض، يمثل سلسلة من الحادثات جمعيا وليس تعدديا. عندما نقول «مات قيصر» نقول إن واحدة من سلاسل من الحادثات والذى كان قيصر فيه عضوا من قسم الموت، وهذه الحادثة تسمى «موت قيصر».

من وجهة نظر منطقية، اسم العلم يمكن أن يعطى لأى جزء مستمر من الفراغ – الزمن، (استمرارية المرئيات تكفى). فجزئين لحياة أى شخص قد يكون لهما أسماء

مختلفة، مثلا: إبرام وإبراهام أو أوكتافيوس وأوجستوس. الكون يمكن اعتباره اسم علم لكل الفراغ - الزمن. يمكننا أن نعطى اسم علم لأجزاء شديدة الصغر من الفراغ- الزمن طالما كان من الممكن ملاحظتها. إذا قلت "A" مرة واحدة عند الساعة السادسة صباحًا فى تاريخ محدد، فيمكن إعطاء اسم علم لذلك الصوت أو للإحساس السمعى الذى كان لشخص ما يسمعنى. ولكن حتى عندما نصل إلى هذه الدرجة من الدقة، لا نستطيع القول إننا سمينا ما هو خالٍ من البناء. يُفترض بالتالى، على الأقل حاليا، أن كل اسم علم هو اسم لبناء وليس لشىء خالٍ من الأجزاء. ولكن هذه حقيقة فعلية وليست ضرورة منطقية.

(٤)

إذا أردنا تجنب التشابك فى أسئلة ليست لغوية، فيجب تمييز الجمل، ليس بتعقدها ولكن بما يوحى به شكلها. «الإسكندر يسبق قيصر»، جملة معقدة نتيجة تعقد الإسكندر وقيصر، ولكن "X" تسبق "Y" ليست جملة معقدة، فنتيجة شكلها لا توحى بأن "X"، "Y" معقدين. فى الحقيقة، لأن الإسكندر مات قبل مولد قيصر، فإن كل مكون من مكونات الإسكندر سبق لها مكون من مكونات قيصر. قد نقبل بالتالى أن "X" تسبق "Y" على أنها شكلٌ شديد البساطة للمقدمة حتى لو لم نستطع أن نذكر بالفعل "X"، "Y" التى تعطى مقدمة متناهية البساطة. نستطيع القول إذن، إن شكل المقدمة يكون متناهى البساطة إذا كانت الحقيقة فى أن المقدمة بهذا الشكل لا توحى منطقيا بأنها بناء مكون من مقدمات تابعة. ونضيف أنه ليس بالضرورة المنطقية أن يُسمى اسم العلم بناءً يشتمل على أجزاء.

النقاش السابق يعد استهلالا ضروريا لمحاولة اكتشاف مكون الوحدة الضرورية للجملة، لأن هذه الوحدة مهما تكن طبيعتها توجد واضحة فى الجملة ذات الشكل الذرى وتجب دراستها فى الجمل التى من هذا النوع.

فى كل جملة مهمة، من الضرورى وجود صلة بين ما تعنيه الكلمات العديدة – مع إسقاط الكلمات التى تخدم مجرد البناء النحوى. لقد رأينا أن «قيصر مات» تؤكد وجود عضو مشترك من قسمين، قسم الحادثات وهو الذى كان «قيصر» وقسم الحادثات الذى كان «الموت». هذه مجرد إحدى العلاقات التى يمكن للجملة تأكيدها، ويظهر النحو فى كل الأحوال طبيعة العلاقات التى تأكدت. بعض الجمل تكون أبسط من «قيصر مات» والبعض الآخر أكثر تعقيداً. افترض أننى أشرت إلى زهرة نرجس وقلت «هذه صفراء»، «هذه» هنا قد تؤخذ على أنها اسم لقسم. هذه المقدمة، كما تم تفسيرها تعد أبسط من «قيصر مات»، حيث أنها تقسِّم شيئًا معينا، وأنها منطقيا شبيهة بجملة «هذا موت». يجب أن يكون بمقدورنا معرفة تلك المقدمات قبل أن يكون بمقدورنا معرفة أن قسمين بينهما عضو مشترك، هو الذى تقرره «قيصر مات». ولكن «هذه صفراء» ليست بالبساطة التى تبدو عليها. عندما يتعلم طفل معنى كلمة «صفراء» فلا بد فى البداية من وجود شىء (أو جملة أشياء) أصفر بالتحديد ثم إدراك أن أشياء أخرى تماثله فى اللون. وعلى ذلك عندما نقول لطفل «هذا أصفر» فإن ما نوصله له هو «هذا يشبه فى اللون الشىء الذى هو أصفر بالتحديد». فالمقدمات التقسيمية أو المحمول المعين، ستبدو مقدمات حقيقية تؤكد التماثل. فإذا كان هذا هو الحال، فإن أبسط المقدمات تكون نسبية. يوجد بالرغم من هذا فرقٌ بين علاقات تعد متناظرة، وعلاقات تعد غير متناظرة. تكون العلاقة متناظرة عندما توجد بين "X"، "Y" وتوجد أيضًا بين Y، X بينما تكون غير متناظرة إذا كان وجودها بين X ، Y يعنى عدم إمكان وجودها بين "Y" ، "X". وعلى ذلك فالتماثل يكون متناظراً. وكذلك عدم التماثل ولكن «قبل»، «أعظم»، «إلى اليمين من» وما شابه ذلك فهى غير متماثلة. وتوجد أيضا علاقات ليست متناظرة ولا غير متناظرة؛ «أخ» مثال لتلك العلاقات حيث إنه إذا كان "X" أخًا لـ "Y" فإن "Y" قد يكون أخًا لـ "X". هذه العلاقات والعلاقات غير المتناظرة تسمى علاقات عدم التناظر، وهى ذات أهمية قصوى ، وقد تم دحض العديد من الفلسفات الشهيرة نتيجة لوجودها.

(٥)

فلنحاول تحديد الحقائق اللغوية الخاصة بعلاقات عدم التناظر. الجملتان «بروتس قتل قيصر» و «قيصر قتل بروتس» يتكونان من الكلمات نفسها المرتبة فى كل حالة وفقا للعلاقة التتابعية المؤقتة. بالرغم من ذلك، فإن إحداهما صادقة والأخرى زائفة. استعمال الترتيب لهذا الغرض هو بالطبع غير ضرورى؛ فاللغة اللاتينية تستعمل العطف بدلا من ذلك. ولكن لو كنت مدرسًا رومانيا تقوم بتدريس الفرق بين الفاعل والمفعول فسوف تكون مضطرا عند نقطة ما لإدخال العلاقات غير المتناظرة، ولوجدت أنه من الطبيعى أن تشرحها عن طريق الترتيب الفراغى أو المرحلى. فلننظر للحظة لما حدث عندما قتل بروتس قيصر: لقد تحرك خنجر بسرعة من بروتس إلى قيصر. المخطط التجريدى هو "A" تحرك من "B" إلى "C" والحقيقة التى نهتم بها هى أن هذا مختلف عن "A" تحرك من "C" إلى "B". كانت هناك حادثتان، واحدة هى "A" كانت عند "B" والأخرى "A" كانت عند "C" والتى سنسميهما "X" ، "Y" على الترتيب. إذا تحرك "A" من "B" إلى "C" فإن "X" تسبق "Y" بينما إذا تحرك "A" من "C" إلى "B" فإن "Y" تسبق "X". وبالتالى فالمصدر النهائى للفرق بين «بروتس قتل قيصر» و «قيصر قتل بروتس» هو الفرق بين "X" تسبق "Y" ، "Y" تسبق "X" حيث "X" ، "Y" عبارة عن حادثتين. بالمثل، فى المجال البصرى توجد العلاقات الفراغية أعلى وأسفل، يمين وشمال، والتى لها الخاصية نفسها لعدم التناظر. «ألمع»، «أصعب» وغيرها من المقارنات هى أيضا غير متناظرة.

(٦)

وحدة الجملة تعد واضحة بصورة خاصة فى حالة العلاقات غير المتناظرة: "X" تسبق "Y" و "Y" تسبق "X" تتكون من الكلمات نفسها المرتبة بنفس علاقة التتابع الفراغى، ولا يوجد شيء مهما كان فى مكوناتهما يميز إحداهما عن الأخرى. الجمل تختلف ككل وليس فى أجزائها، وهذا ما أعنيه عندما أتحدث عن الجملة كوحدة.

عن هذه النقطة، إذا ما كان لنا أن نتجنب الاضطراب، فمن الضرورى تذكر أن الكلمات كونية. ففى النطقين «"X" تسبق "Y"» و«"Y" تسبق"X"»، فإن الرمزين "X" ليسا متماثلين ولا الرمزين "Y". فإذا كانت "S_1" ، "S_2" هما اسمى علم للنطقين "X"، "Y_1"، "Y_2" للنطقين "Y_1"،" "P_1"، "P_2" لكل من «يسبق»، فإن "S1" تتكون من الثلاث منطوقات "X_1"، "P_1" ، "Y_1" بهذا الترتيب و "S_2" تتكون من المنطوقات الثلاثة "X_2" ، "P_2" ، "Y_2". بهذا الترتيب ، الترتيب فى كل حالة هو حقيقة تاريخ محددة وغير قابلة للتغير مثل حقيقة أن الإسكندر سبق قيصر. عندما نلاحظ أن ترتيب الكلمات يمكن تغييره، وأننا نستطيع القول إن «قيصر قتل بروتس» بنفس سهولة قول «بروتس قتل قيصر» فإننا قد نفكر أن الكلمات هى أشياء محددة بمقدورها أن تترتب ترتيبا مختلفا. وهذا يعد خطأً: فالكلمات تجريدات والنطق اللفظى هو الوحيد الذى يمكن أن يكون بالترتيب الذى تكون عليه. فرغم أن حياتها قصيرة، فالكلمات تعيش وتموت وليس بمقدورها أن تبعث من الموت. كل شىء له ترتيبه الخاص به وليس بقادر على أن يعاد ترتيبه.

لا أريد أن يُعتَقد أننى متحذلق بلا داعٍ، وبالتالى سوف أشير إلى أن وضوح هذا الأمر يعد ضروريا «لفهم» «الممكن». نحن نقول إنه من الممكن القول إما «بروتس قتل قيصر» وإما «قيصر قتل بروتس» ولا ندرك أن ذلك شبيه تمامًا بحقيقة أنه من الممكن لإنسان أن يكون إلى يسار امرأة فى إحدى المناسبات ورجل آخر يكون إلى يمين امرأة أخرى فى مناسبة مختلفة. فلتكن "B" هى قسم المنطوقات اللفظية والتى هى الكلمة المنطوقة «بروتس» و "X" قسم المنطوقات اللفظية التى هى الكلمة المنطوقة «قتل» و "Y" القسم من المنطوقات اللفظية التى هى الكلمة المنطوقة «قيصر». إذن للقول بأننا نستطيع أن نقول إما «بروتس قتل قيصر» وإما «قيصر قتل بروتس» هو أن نقول:

(١) هناك حادثات Y، P ، X بحيث إن X عضو من B و P عضو من α ، و Y عضو من C وأن X قبل P و P قبلY .

(٢) هناك حادثات ´Y، ´P، ´X، تستوفى الشروط السابقة بالنسبة لعضويتها فى α و B ولكن Y، قبل ´P ، ´P قبل ´X. ولكل الحالات الممكنة، يوجد موضوع يعد متغيرا،

يتم تعريفه على أنه يوفر شرطًا توفره العديد من قيم المتغيرات، ومن هذه القيم بعضها يوفر شرطًا إضافيا بينما غيرها لا يوفره، وبالتالى نقول إنه من «الممكن» للموضوع أن يوفر مثل هذا الشرط الإضافى رمزيا، إذا كانت (X Ψ و Ø) و (X Ø وليس X Ψ)، كل منهما يعد صادقا لقيمة مناسبة من X فإن القيم X Ψ وX Ø ممكنة، ولكنها ليست ضرورية. (تجب التفرقة بين الضرورة الفعلية والضرورة المنطقية، ولكنى لا أريد الخوض فى هذه المسألة).

نقطة أخرى يجب ملاحظتها. عندما نقول إن الجمل "X P Y" و " Y P X"، (حيثP علاقة غير متناظرة) ليستا متوافقتين. إن الرمز "X" والرمز "Y" يكونان كونيين حيث إنه فى إقرارنا توجد حالتان لكل منهما، ولكن لا بد وأنهما أسماء لخصوصيات. «النهار يسبق الليل» و «الليل يسبق النهار، كلاهما صادق. وبالتالى ففى تلك الحالات عند غياب التجانس المنطقى بين الرمز والمعنى: يكون الرمز كونيا بينما يكون المعنى خصوصيا.

(٧)

كل الرموز هى من الطراز المنطقى نفسه: فهى أقسام من منطوقات متماثلة، أو أصوات متماثلة أو أشكال متماثلة، ولكن معانيها قد تكون من أى طراز أو من طراز غامض مثل معنى كلمة «طراز» نفسها. العلاقة بين الرمز ومعناه يختلف بالضرورة وفقًا لطراز المعنى، وهذه الحقيقة مهمة فى النظرية الرمزية.

بعد تعاملنا مع الاضطراب الذى يمكن أن ينشأ عند القول بأن الكلمة نفسها يمكن أن تقع فى جملتين مختلفتين، يمكننا بعد ذلك استخدام هذا التعبير بحرية مثلما يمكننا أن نقول «الزراف يوجد فى أفريقيا وفى حديقة الحيوان» دون أن يقودنا ذلك إلى الخطأ بالاعتقاد بأن هذا يعد صادقًا لأية زراف معين.

فى لغة كالإنجليزية، حيث ترتيب الكلمات يعد ضروريا لمعنى الجملة يمكننا وضع العلاقات غير المتناظرة على النحو التالى: بالنسبة لمجموعة الكلمات التى بمقدورها

تكوين جملة، غالبا ما يحدث أن يكون بمقدورها تكوين جملتين أو أكثر، إحداهما صادقة والجمل الأخرى زائفة، وتختلف تلك الجمل بالنسبة لترتيب الكلمات. وعلى ذلك، فمعنى الجملة يتحدد فى بعض الحالات بسلسلة الكلمات وليس بقسمها . فى مثل تلك الحالات، فإن معنى الجملة لا يمكن الحصول عليه كتجمع من معانى الكلمات المختلفة. عندما يعرف شخص من كان بروتس ومن كان قيصر وما هو القتل، فإنه لا يزال لا يعرف من قتل من عندما يسمع الجملة «بروتس قتل قيصر»، فلكى يعلم ذلك مطلوب النحو والمفردات حيث إن شكل الجملة ككل يشارك فى المعنى.

(٨)

لتجنب الإطالة غير الضرورية، لنفترض أن هناك خطابا منطوقًا فقط. سيكون لكل كلمة ترتيب زمنى ، وبعض الكلمات ستقرر الترتيب الزمنى. نحن نعرف أنه إذا كانت "X"، "Y" أسماء لحدث معين، فإنه إذا كانت "X" تسبق "Y" جملة صادقة تكون "Y" تسبق "X" جملة زائفة. مشكلتى الحالية هى التالى: هل نستطيع القول بشىء يكافئ ما سبق بمدلولات ليست مهتمة باللغة وإنما بالأحداث؟ قد يبدو أننا مهتمون بخاصية من خصائص العلاقات المؤقتة ولكن عندما نحاول تحديد ماهى تلك الخاصية سيبدو أننا مضطرون لتقرير خاصية للجمل تتعلق بالعلاقات المؤقتة، وما ينطبق على العلاقات المؤقتة ينطبق بالتساوى على كل العلاقات غير المتناظرة.

عند سماعى لجملة «بروتس قتل قيصر» أدرك الترتيب الزمنى للكلمات، فإذا لم أدركه لن أستطيع معرفة أننى قد سمعت تلك الجملة وليست جملة «قيصر قتل بروتس». إذا استطردت لتأكيد الترتيب الزمنى بالجملتين «بروتس» تسبق «قتل» و«قتل» تسبق «قيصر» لابد أن أكون مدركا للترتيب الزمنى للكلمات الموجودة بهذه الجمل. يجب بالتالى أن ندرك الترتيب الزمنى للحادثات فى الحالات التى لا نؤكد فيها أنها لها ذلك الترتيب الزمنى، لأنه ما لم نفعل ذلك سوف نقع فى انحدار لا ينتهى. فما الذى ندركه فى مثل تلك الحالة؟

(٩)

فيما يلى نظرية يمكن افتراضها: عندما نسمع كلمة «بروتس» فإن هناك خبرة شبيهة بصوت الناقوس الذى يخفت تدريجيا، فلو كانت الكلمة قد سُمعت منذ دقيقة مضت، فلا يزال الآن إحساس باقٍ شبيهًا بذلك الذى حدث منذ دقيقة مضت ولكنه أكثر خفوتا. فما أن انتهينا من سماع الجملة «بروتس قتل قيصر» فلا يزال لدينا الإحساس السمعى الذى يمكن تمثيله بالتالى

بروتس قتل قيصر

بينما إذا كنا قد انتهيا للتو من سماع «قيصر قتل بروتس» فإن إحساسنا قد يمكن تمثيله بالتالى :

قيصر قتل بروتس

وهذان إحساسان مختلفان وإن هذا الاختلاف هو الذى يمكننا من التعرف على الترتيب فى الزمن. وفقا لتلك النظرية، عندما نفرِّق بين «بروتس قتل قيصر» و «قيصر قتل بروتس» فإننا نفرِّق ليس بين كليين مكونين من أجزاء متماثلة تماما ومتتابعة، وإنما بين كليين مكونين من أجزاء غير متماثلة بعض الشىء تحدث فى الوقت نفسه أى متزامنة. كل من هذين الكليين يتصف بمكوناته ولا يحتاج لذكر ترتيب ما.

فى هذه النظرية يوجد بلا شك عنصر صدق. فما يبدو واضحًا كأمر سيكلوجى، أن هناك حادثات يمكن تصنيفها على أنها إحساسات فيها الصوت الحالى يتلاحم مع الشبح الخافت للصوت المسموع منذ دقيقة مضت. ولكن إذا لم يكن هناك أكثر من ذلك، فلن يكون بمقدورنا معرفة أن الحادثات الماضية قد حدثت. بافتراض وجود إحساسٍ باقٍ، فكيف لنا أن نعرف مدى مشابهته أو اختلافه عن الإحساس فى قوته الأولى؟ إذا كنا نعرف فقط الحادثات الحالية والتى هى فى الحقيقة على علاقة بالحادثات الماضية، فلن يكون بمقدورنا أبدا معرفة هذه العلاقة. من الواضح أننا أحيانا، بمدلول ما، نعرف الماضى، ليس استنتاجًا من الحاضر، وإنما بالأسلوب المباشر نفسه الذى نعرف به

الحاضر. لأنه ما لم يكن الحال كذلك، فلا شيء فى الحاضر يمكن أن يؤدى إلى افتراض أنه كان هناك ماضٍ أو حتى فهم هذا الافتراض.

(١٠)

فلنعد إلى المقدمة: «إذا كانت "X" تسبق "Y" فإن "Y" لا تسبق "X". من الواضح أننا لا نعرف ذلك فعليا ولكنها لا تبدو مقدمة منطقية. ولكنى لا أرى كيف يمكننا أن نقول إن ذلك يعد اصطلاحًا لغويا. المقدمة "X" تسبق"Y" يمكن تأكيدها على أساس الخبرة. فنحن نقول إنه إذا وقعت الخبرة فلن تحدث خبرات أخرى تؤدى إلى أن تصبح "Y" تسبق "X". من الواضح أنه مهما حاولنا إعادة صياغة الوضع فدائما ما سيوجد تعارض فى إقرارنا. وأعتقد أنه من الواضح أن التعارض يقودنا إلى حيِّز اللغة. عندما نقول "Y" لا تسبق "X" قد يبدو أننا نعنى فقط: الجملة» "Y" تسبق "X" زائفة. حيث إننا إذا تبنينا أى تفسير آخر، فيجب أن نقر بأننا نستطيع إدراك حقائق سالبة، مما يعد غير معقول، ولكن ربما لا يكون كذلك لأسباب سنوردها لاحقًا.

أعتقد أن شيئًا مماثلا يمكن قوله عن «إذا»: فأينما حدثت هذه الكلمة فلا بد وأن تطبق على جملة. وبالتالى يبدو أن المقدمة التى نبحثها يجب صياغتها كالتالى: «على الأقل واحدة من الجملتين، ""X" تسبق "Y"" و "Y" تسبق "X"، زائفة. إذا كانت "X"، "Y" أسماء علم لحادثات. والاستطراد فى الموضوع يتطلب تعريفا للزيف، وبالتالى فسوف نؤجل هذا الأمر حتى نصل إلى مناقشة الصدق والزيف.

أجزاء من الكلام التى تظهر فى النحو ليست لها صلة وثيقة بالنحو المنطقى، فكلمة «قبل» هى «حرف جر» وكلمة «يسبق» فعل، ولكنهما يعنيان الشىء نفسه. الفعل الذى قد يبدو ضروريا للجملة قد يغيب فى العديد من اللغات وحتى فى الإنجليزية كالجملة «استعجال أكثر، سرعة أقل». فمن الممكن تركيب لغة منطقية بنحو منطقى وأن نجد عند تركيبها مقترحات معينة فى اللغة الدارجة تقود إليها.

(١١)

أكثر أجزاء المنطق اكتمالا هى نظرية العاطفات، فهى كما تحدث فى المنطق، تأتى فقط بين جمل كاملة، وتؤدى إلى جمل جزيئية فيها الذرات تنفصل عن بعضها بالعاطفات. هذا الجزء من الموضوع تم تحليله تمامًا بما لا يجعلنا نضيع وقتًا فى استعراضه. كذلك، كل المشكلات السابقة التى نحن بصددها نتجت من الجمل ذات الشكل الذرى.

فلنأخذ عددا قليلا من الجمل: (١) هذا أصفر (٢) هذا قبل ذاك (٣) "A" أعطى كتابًا لـ "B".

(١) فى «هذا أصفر»، كلمة «هذا» تعد اسم علم. حقا إنه فى حالات أخرى يطلق على أشياء أخرى كلمة «هذا»، ولكن هذا يعد صادقًا لـ«جون». عندما نقول «ها هو جون»، فإننا لا نعنى «هنا بعض أعضاء القسم من الناس الذين يطلق عليهم "جون"»، بل نعتبر أن الاسم ينتمى إلى شخص واحد فقط. الشىء نفسه يصدق على «هذا» فى حين أن كلمة «رجال» تنطبق على كل الأشياء التى تسمى «رجل» ولكن كلمة «هؤلاء» لا تنطبق على كل الأشياء التى تسمى «هذا» فى مناسبات مختلفة.

كلمة «أصفر» أكثر صعوبة. يبدو أنها تعنى كما سبق القول «مماثلاً فى اللون لشىء معين» ، هذا الشىء أصفر بالتحديد، وعلى ذلك فحيث إن هناك ظلالاً كثيرة للأصفر فنحن نحتاج لأشياء كثيرة تكون صفراء بالتحديد. ولكن يمكن إهمال هذا التعقيد. ولكن حيث إننا نستطيع التمييز بين التماثل فى اللون والتماثل فى اعتبارات أخرى (مثل الشكل)، فنحن لم نتجنب ضرورة درجة معينة من التجريد فى الوصول إلى ما تعنيه كلمة «أصفر». نحن لا نستطيع رؤية اللون بدون الشكل، أو الشكل بدون اللون، ولكننا نستطيع إدراك الفرق فى التماثل بين دائرة صفراء ومثلث أصفر وفى التماثل بين دائرة صفراء ودائرة حمراء. يبدو إذن أن الخبر المحسوس مثل «أصفر» ، «أحمر»، «صاخب»، «صلب»، مشتقة من إدراك طرز التماثل. ينطبق هذا أيضا على الخبر العام مثل «بصرى»، «مسموع»، «ملموس».

بالعودة إلى «هذا أصفر» فإن المعنى يبدو «هذا له تماثل لونى مع ذاك» حيث «هذا» و «ذاك» أسماء علم، والشيء المسمى «ذاك» يكون أصفر بالتحديد. سوف يُلاحظ أن التماثل اللونى هو علاقة تناظرية، وهذا هو السبب الذى يجعل من الممكن معاملة «أصفر» كخبر مع إهمال المقارنة. ربما أن ما قيل عن المقارنة ينطبق فقط على «تعلم» كلمة «أصفر» وربما عند تعلمها تكون خبرا صادقًا.

(٢) «هذا قبل ذاك»، نوقشت بالفعل. وحيث إن العلاقة «قبل» هى غير متناظرة، فلا نستطيع اعتبار أن المقدمة تحدد خبرًا عاما لهذا أو لذاك. ولو اعتبرناها توفر أخبارًا مختلفة (مثلا التواريخ) لهذا أو لذاك، فإن هذه التواريخ نفسها ينبغى أن تكون لها علاقة غير متناظرة شبيهة «بقبل» وبالتالى فقد نتعامل مع المقدمة على أنها تعنى «تاريخ هذا أسبق من تاريخ ذاك» ولكن «أسبق» هى علاقة غير متناظرة مثل «قبل». ليس من السهل إيجاد طريقة منطقية لتصنيع عدم التناظر من معطيات متناظرة.

(١٢)

كلمة «قبل» مثل كلمة «أصفر» قد تشتق من مقارنة. قد نبدأ من حالة تتابع شديدة الوضوح مثل ساعة تدق الثانية عشرة، وأخذ حالات أخرى من التتابع ليس لها أى تشابه واضح بالساعة التى تدق، يقود تدريجيا لتركيز الانتباه على التتابع. يبدو واضحا أنه مهما كانت الحالة المتعلقة بـ «أصفر»، فإنه فيما يختص بـ «قبل» ينطبق هذا فقط على تعلم الكلمة. معنى تلك الكلمات مثل «قبل» أو «التشابه اللونى» لا يمكن أن تشتق دائما من المقارنات حيث إن ذلك سيؤدى إلى انحدار ليس له نهاية. المقارنة تكون منبهًا ضروريا للتجريد، ولكن التجريد لا بد وأن يكون ممكنا على الأقل فيما يخص التشابه. وإذا كان ممكنا بالنسبة للتشابه فلا معنى لإنكاره فيما عدا ذلك.

لكى نقول إننا نفهم كلمة «قبل» فإن ذلك يعنى القول بأننا عندما ندرك حدثين "A"، "B" فى تتابع زمنى، فإننا نعرف ما إذا كنا نقول ""A" تسبق "B"" أو ""B" تسبق "A""، وفيما يتعلق بإحداهما، فإننا نعرف أنها تصف ما ندركه.

(٣) "A" يعطى كتابًا لـ "B". هـذه تعنى: «يوجد "X" بحيث "A" يعطى "X" إلى "B" و " X" مطبوعًا. استعمال المطبوع، جايا، يعنى الخاصية المحددة للكتب. فلنركز على"A يعطى C إلى B" حـيث A ، B ، C هى أسـمـاء علم (السـؤال الذى نجم عن «يوجـد X بحـيث" سـوف نناقشـه فى الحـال. أريد أن أناقش الحـادثات التى تعطينا الدليل على صدق ذلك الإقرار. فإذا كنا نعرف صدقها، لا يكون ذلك لغوًا، وإنما بدليل من حواسنا الذاتية، فلا بد وأن نرى A، B ونرى A يمسك C ويحرك C تجاه B وأخيرا يعطى C إلى يدى B . (أنا أفترض أن C عبارة عن شىء صغير مـثل الكتاب وليس عـقارًا أو حق ملكية فكرية أو أى شىء آخر تكون ملكيته تجريدًا شرعيا معقدًا). ويعد هذا مطابقًا منطقيا لجملة «بروتس قتل قيصر بخنجر»، ما يعد ضـروريا هو أن A، B، C لا بد وأن تكون موجودات محسوسة خلال فترة زمنية محددة، تتغير العلاقات الفراغية خلالها بين C، A، B.

(١٣)

منهجيا، الحد الأدنى الهندسى هو كالتالى: نرى فى البداية ثلاثة أشكال C_1، B_1، A_1 منها C_1 قريب مـن A_1، ثم نرى ثلاثة أشـكال شـديدة التشابه بها C_2، B_2، A_2، منها C_2 قريب من B_2 (أسقطت أنا هنا بعض الدقة) ومع ذلك، فـأى من هاتين الحقيقتين لا يعد كافيا، المهم هنا وقوعها فى تتابع سريع، حتى هذا أيضًا لا يعد فى الواقع كافيا: فعلينا إذن أن نعتقد أن A_1 ، A_2 و B_1 ، B_2 و C_1 ، C_2 هى مظاهر لنفس الأشياء المادية أيا كان تعريفها. سوف أهمل حقيقة أن «الإعطاء» يشتمل على القصد، ولكن حتى مع ذلك فإن التعقيدات كبيرة. فعند الوهلة الأولى سيبدو أن أقل تأكيد موجود يجب أن يكون شيئًا مثل:C_1 وB_1 و A_1 هى مظاهر لثلاثة من الأشياء المادية عند زمن معين :C_2 وB_2 و A_2 ثلاثة مظاهر "لنفس" الأشـيـاء عند زمن تالٍ؛ C_1 تلمس A_1 ولكن لا تلمس B_1؛ C_2 تلمس B_2 وليس A_2. فى الحقيقة أنا لا أتجه إلى الدليل المطلوب لإثبات أن مظهرين عند زمنين مـختلفـين همـا مظهرين "لنفس" الشىء، فـإن هذا بكليته يعد موضـوعًا للفيزياء، ولكن فى التطبيق العملى وفى الطرق المتبعة فى محاكم القانون يتم قبوله.

(١٤)

النقطة المهمة لنا هى أنه من الواضح أننا بصدد صيغة ذرية تشتمل على ستة عناصر هى قرب C_1 من A_1 وبعدها المقارن عن B_1 يعد حدثًا خارجًا بدرجة بسيطة عن قرب C_2 من B_2 وبعدها المقارن من A_2 ". يغرينا ذلك باستنتاج أنه لا يمكننا تجنب صيغة ذرية لدرجة التعقيد إذا ما كان لنا أن نحصل على دليل معقول لمثل هذا الأمر الخاص بشخص يعطى شيئًا لشخص آخر.

ولكن ربما كان هذا خطأ. فبالنطر إلى المقدمة: C_1 قريب من A_1، C_1 بعيد عن B_1، A_1 متزامن مع B_1، B_1 متزامن مع C_1 ، A_1 خارج قليلا A_2 عن ، A_2 متزامن مع B_2 ، B_2 متزامن مع C_2، C_2 قريب من B_2، C_2 بعيد عن A_2. هذه المجموعة من تسع مقدمات هى مكافئة منطقيا للمقدمة الواحدة المشتملة على C_2 ، B_2، A_2، C_1، B_1، A_1.

المقدمة الواحدة إذن يمكن أن تعد استنتاجا وليست معطى. تبقى صعوبة قائمة، فكلمات مثل «بالقرب من» و «بعيداً عن» مدلولان نسبيان، ففى علم الفلك، الزهرة قريبة من الأرض ولكن ليس من وجهة نظر شخص يعطى شيئا لشخص آخر، فنحن يمكننا تجنب ذلك، ويمكننا إحلال "C_1 تلمس A_1" محل "C_1 قريب من A_1" وشىء ما بين "C_1 ، B_1" محل "C_1 بعيد عن B_1". هنا «تلمس» و «بين» ليسا معطيات مرئية وبالتالى فالعلاقة بين العناصر الثلاثة وهى «بين» هى أقصى المعطيات المطلوبة تعقداً.

(١٥)

أهمية الصور الذرية ومناقضاتها هى أن - كما سنرى - كل المقدمات أو على الأقل لكل المقدمات غير السيكلوجية، المبررة بالمشاهدة دون استنتاج، تعد من هذا النوع. يعنى هذا - إذا ما أخذنا الاحتياط الواجب - أن كل الجمل التى تشتمل على معطيات مادية فعلية سوف تثبت أو تدحض مقدمات من الشكل الذرى. كل الجمل الفيزيائية يمكن نظريا إما إثباتها وإما دحضها (أيا كانت حالتها) أو تعد ممكنة أو غير ممكنة، بواسطة جُمل من هذه الأنواع. ويجب علينا ألا نُضَمن كمعطى أى شىء يمكن إثباته أو دحضه منطقيا بواسطة معطيات أخرى. ولكن هذا بمحض التوقع.

فى جملة من الطراز الذرى تعبر بلغة منطقية بحتة، يوجد عدد محدد من أسماء الأعلام (أى عدد محدد من واحد فما فوق) وتوجد كلمة واحدة ليست باسم علم. الأمثلة هى: «" X هو أصفر» ، "X أسبق من Y " ، " X هى بين Y، Z" وهكذا.

يمكن تمييز أسماء الأعلام عن الكلمات الأخرى بحقيقة أن اسم العلم يمكن أن يحدث فى كل صور الجمل الذرية، بينما الكلمة التى ليست اسم علم يمكن أن تقع فقط فى الجملة الذرية التى بها عدد مناسب من أسماء الأعلام، بالتالى «أصفر» تتطلب اسم علم واحد، «أسبق» تتطلب اسمين، و «بين» تتطلب ثلاثة. هذه العناصر تسمى مسندات، علاقات ثنائية، علاقات ثلاثية، وهكذا. أحيانا، ومن أجل التجانس، يمكن تسمية المسندات بالعلاقات الأحادية.

(١٦)

نأتى الآن لأجزاء الخطاب، التى ليست عاطفات والتى لا يمكن أن تحدث فى صور ذرية. أمثلة ذلك « a »، «الـ» ، «كل»، «بعض»، «كثير» ، «لا شيء». بالنسبة لتلك الكلمات يجب إضافة «ليس» ولكنها مماثلة للعاطفات. فلنبدأ بالـ «a». افترض أنك تقول (بصدق) «رأيت رجلاً». من الواضح أن «رجلا» ليست طراز الشيء الذى يمكن رؤيته، لأنه تجريد منطقى. ما رأيته كان شكلا معينا سوف نعطيه اسم العلم «A» و «A هو إنسان» يمكناك من استنتاج «رأيت رجلا» ولكن هذه الجملة الأخيرة لا تنطوى على أنك رأيت A أو أن A إنسان. عندما تقول لى إنك رأيت رجلا، لا أستطيع تحديد ما إذا كنت رأيت A أوB أوC أو أى رجل آخر موجود. ما يعد معروفا هو صدق مقدمة ما من الطراز «رأيت X و X إنسان».

الصورة للجملة السابقة ليست ذرية ولكنها مركبة من «رأيت X» و«Xإنسان». يمكن من "رأيت A و A إنسان" استنتاج الجملة السابقة وبالتالى يمكن إثباتها بمعطيات فعلية رغم أن ليس هذا الطراز من الجمل ما يعبر عن معطى دائم التكرار. حيث إن مثل هذه الجملة لا بد وأن تذكرA أوB أوC أو أيا كان من رأيته. على العكس، فلا توجد معطيات دائمة التكرار بمقدورها دحض الجملة «رأيت رجلا».

(١٧)

المقدمات التى تحتوى على كلمة «كل» أو كلمة «لا شىء» يمكن دحضها بمعطيات فعلية ولكن لا يمكن إثباتها فى المنطق أو الرياضيات. يمكننا إثبات أن «كل الأعداد الأولية ما عدا 2 هى فردية، لأن ذلك يتبع التعريف ولكننا لا نستطيع إثبات أن «كل البشر فانون» لأننا لا نستطيع إثبات أننا لم نتخط واحداً. فى الحقيقة فإن «كل البشر فانون» هى إقرار عن كل شىء وليس فقط عن كل البشر، فهى تقرر، بالنسبة لكل X، أن X إما فانية وإما ليست إنسانا. وما لم نختبر كل شىء فلن نكون متأكدين من أن شيئا لم يختبر، هو إنسانى ولكنه ليس بفانٍ. وحيث إننا لا نستطيع اختبار كل شىء، فلن نستطيع معرفة المقدمات العامة بطريقة فعلية.

لا يمكن إثبات أى مقدمة تحتوى على "الـ" (المفردة) بالإثبات الفعلى. نحن لا نعرف أن «سكوت» هو مؤلف رواية وافرلى، ما نعرفه هو أنه كان مؤلفًا لوافرلى. فربما كان واحد يعيش فى المريخ قد كتب أيضا "وافرلى" ، لإثبات أن سكوت كان "المؤلف"، يجب فحص الكون بكامله وإيجاد أن كل من فيه إما لم يكتب "وافرلى" وإما أن كل من فيه كان «سكوت». وهذا خارج نطاق قدرتنا.

الدليل الفعلى يمكنه إثبات مقدمات تشتمل على "أحد" أو "بعض" ويمكنه دحض مقدمات تحتوى على "الـ" و"كل" و"لاشىء". ولكن لا يمكنه دحض مقدمات تشتمل على "أحد" أو "بعض" ولا يمكنه إثبات مقدمات تشتمل على "ال"، أو "كل" أو "لا شىء". إذا كان الدليل الفعلى يقودنا إلى عدم الاعتقاد فى مقدمات عن "بعض" أو الاعتقاد فى مقدمات عن "كل" فلا بد أن يكون ذلك بفضل بعض أسس الاستنتاج المغايرة للاستنباط البحت – ما لم توجد مقدمات تحتوى على الكلمة "كل" بين مقدماتنا الأساسية.

* * *

الفصل الثالث

الجُمــل التى تصف الخبرات

(١)

كل الذين تعلموا الكلام بمقدورهم استعمال جملٍ لوصف الأحداث، فالأحداث هى الدليل على صدق الجُمل. من جهة ما، الأمر برمته شديد الوضوح، حيث إن من الصعب رؤية أية مشكلة، ومن جهة أخرى، فإنه شديد الغموض بحيث يصعب رؤية أية حلول. إذا قلت "إنها تمطر" فقد تعرف أن ما رأيته صادق لأنك رأيت المطر وشعرت به وسمعته؛ هذا من الوضوح بحيث لا يمكن أن يكون هناك أوضح منه. ولكن تنجم الصعوبات عندما نحاول تحليل ما حدث. عندما أصدرنا إقرارًا مثل ذلك على أساس الخبرة اللحظية، فبأى مدلول "نعرف" حدثًا مستقلا عن استعمال كلمات عنه؟ كيف يمكن مقارنة هذا الحدث بكلماتنا بحيث نعرف أن كلماتنا صحيحة؟ ما هى العلاقة التى يجب أن توجد بين الحدث وكلماتنا، بحيث تكون كلماتنا صحيحة؟ كيف نعرف بأى حال، ما إذا كانت العلاقة مستمرة أم لا؟ هل من الممكن معرفة أن كلماتنا صحيحة دون أن يكون لدينا معرفة غير لفظية بالحدث الذى تنطبق عليه؟

فلنبدأ بالنقطة الأخيرة أولا. قد يحدث أنه فى بعض المناسبات أن ننطق ببعض الكلمات، ونشعر بأنها صحيحة، بدون أن تكون لدينا أى معرفة مستقلة لأسباب نطقنا بها. أعتقد أن ذلك يحدث أحيانا. فمثلا، قد تبذل مجهودًا كبيرًا لكى تحب السيد "A" ولكن فجأة تجد نفسك تصيح "أنا أكره السيد "A" وتدرك أن تلك هى الحقيقة.

الشىء نفسه يحدث عندما يتم تحليل شخص ما نفسيا بواسطة محلل نفسى. ولكن مثل تلك الحالات تعد استثناءات. فعموماً، بالنسبة للحقائق المحسوسة بأية درجة، يوجد الشعــور الذى نعرفها به بدون استخدام كلمات. قد نلاحظ أننا نشعر بالحر أو بالبرد أو أن هناك رعداً أو برقًا، فإذا ما عبرنا عن ذلك بكلمات فإننا نسجل ما نعرفه بالفعل. أنا لا أصر على أن حالة ما قبل النطق هذه توجد باستمرار ما لم نكن نعنى "بمعرفة" خبرة ما، ليس أكثر من أننا لدينا الخبرة، لكننى أصر على أن هذه المعرفة قبل اللفظية تعد شديدة الشيوع. من الضرورى، رغم ذلك، التمييز بين الخبرات التى نلاحظها والأخرى التى تحدث لنا رغم أن التمييز مجرد تمييز للدرجة. ولنشرح ذلك ببعض الأمثلة.

لنفترض بأنك تمشى بالخارج فى يوم مطير ورأيت بركة من الماء وتجنبتها. ليس من المرجح أن تقول لنفسك "هناك بركة ماء، من الحكمة ألا أخطو فيها". ولكن إذا قال أحد الناس "لماذا تنحيت جانبا فجأة؟" فقد تجيب "لأننى لم أرغب فى أن أخطو فى بركة الماء". أنت تعرف، مسبقا، أن لديك الإدراك البصرى الذى تفاعلت معه بطريقة مناسبة، وفى الحالة المفترضة عبرت عن هذه المعرفة بكلمات. ولكن ما الذى كنت سوف تعرفه وبأى مدلول إذا لم تكن قد سؤلت عن الأمر من ذلك الشخص؟

عندما سؤلت، كانت الحادثة قد انتهت وأختفت من الذاكرة. هل يمكن للمرء أن يتذكر ما لم يعرفه أبداً؟ هذا يعتمد على معنى كلمة "يعرف".

(٢)

كلمة "يعــرف" حمالة بدرجــة كبيرة. فى أغلب المعانى للكلمة، "أن تعرف" حادثة ما هى واقعة تختلف عن الواقعة التى يتم معرفتها، ولكن هناك إحساساً "بالمعرفة" فيه عندما تكون لديك خبرة ما لا يوجد فرق بين الخبرة ومعرفة أنك لديك تلك الخبرة. قد يكون هناك إصرار على أننا دائما نعرف خبراتنا الحالية، ولكن لا يمكن أن يكون هذا

هو الحال إذا كانت المعرفة شيئًا يختلف عن الخبرة. لأنه، إذا كانت الخبرة شيئًا، ومعرفتها شيئًا آخر، فإن افتراض أننا دائما نعرف خبرة ما عندما تحدث يشتمل على مضاعفات لا نهائية لكل حادثة. أنا أشعر بالحر، هذه حادثة. أنا أعرف أننى أشعر بالحر، هذه حادثة ثانية. أنا أعرف أننى أعرف أننى أشعر بالحر، وهذه حادثة ثالثة. وهكذا بلا نهاية، وهذا يعد لا معقولاً. لا بد بالتالى أن نقول إما أن خبرتى الحالية لا يمكن تمييزها عن معرفتى بها بينما هى قائمة، أو أننا، كقاعدة، لا نعرف خبراتنا الحالية. أنا أفضل استخدام كلمة "يعرف" بمدلول يتضمن أن المعرفة تختلف عما هو معروف مع قبول ما يتبع ذلك، كقاعدة، بافتراض أننا لا نعرف خبراتنا الحالية. علينا أن نقول إذن إن رؤية بركة الماء شيء ومعرفة أننى أرى بركة الماء شيء آخر. المعرفة يمكن تحديدها على أنها "السلوك المناسب"، وهذا هو المدلول الذى به نقول إن الكلب يعرف اسمه أو أن الحمام الزاجل يعرف طريقه للبيت. بهذا المدلول تتكون معرفتى ببركة الماء من التنحى جانبا. ولكن هذا يعد غامضا، لأن أشياء أخرى قد تكون هى التى جعلتنى أتنحَّى جانبًا أو أن "المناسب" يمكن تحديده فقط بمدلول رغباتى. قد أكون قد رغبت فى أن أبتل لأننى قمت بالتأمين لزوجتى على حياتى بمبلغ كبير واعتقدت أن الموت من الالتهاب الرئوى سوف يكون مناسبا، ففى هذه الحالة التنحى جانبا سوف يكون دليلا على أننى لم أرَ البِرْكة. إضافة لذلك، إذا استبعدنا الرغبة، فالسلوك المناسب لمنبه معين يتضح فى الأدوات العلمية ولكن لن يقول أحد إن الترمومتر "يعرف" عندما يكون الجو باردًا.

(٣)

إذن، ما الذى يجب عمله مع خبرة ما لكى نقول إننا قد نعرفها؟ العديد من الأشياء تعد ممكنة، قد نستعمل كلمات تصفها أو قد نتذكرها إما بالكلمات وإما بالصور أو قد "نلاحظها" مجرد ملاحظة. ولكن "الملاحظة" هى أمر خاص بالدرجة الأولى ومن الصعب جدا تحديده ويبدو أنها مكوَّنة بالدرجة الأساسية من عزلها عن البيئة

المحسوسة. فقد تستمع إلى قطعة موسيقية وتلاحظ متعمداً العزف الصادر من آلة التشيلو. صحيح أنت تسمع الباقى كما يقال "لا شعوريا"، ولكن هذه الكلمة من المستحيل أن نقرن بها أى معنى محدد. وبمعنى آخر، قد يقال إنك "تعرف" خبرة حالية إذا ما أثارت فيك أى عاطفة مهما كانت ضعيفة ومهما كانت تسرك أو تسوءك أو كانت تثير اهتمامك أو ضجرك أو تدهشك أو كانت هى ما تعرفه فعلا.

هناك إذن حاسة بها تستطيع أن تعرف أى شىء موجود فى مجالك الحِسىّ الحالى. إذا قال لك شخص ما "هل ترى الآن لوناً أصفر؟" أو "هل تسمع صوتاً؟" يمكنك الإجابة بثقة تامة حتى لو لم تكن تلاحظ الشىء الأصفر أو تسمع الصوت قبل أن تُسأل. وعادة ما تكون متأكدا أنها كانت موجودة قبل توجيه انتباهك لها.

يبدو إذن أن المعرفة الآنِيَّة جدا التى لنا بها خبرة تشتمل على الحاضر المحسوس، بالإضافة إلى شىء أكثر، ولكن أى تحديد دقيق مطلوب لما هو أكثر، من الأرجح أن يقود إلى ضلال لمجرد وجوده حيث إن الأمر ضبابى، وكذلك طبيعته. ما هو مطلوب يمكن أن يسمى "الانتباه"، وهذا يعد جزئيا شحذاً للأعضاء الحسية المناسبة وجزئياً انفعالا عاطفيا. إن صوتاً صاخبا مفاجئا من المؤكد أن يستثير الانتباه، ولكن سيؤدى الصوت شديد الخفوت إذا كان عاطفيا بالدرجة للأثر نفسه.

كل مقدمة فعلية تقوم على أساس حدث محسوس أو أكثر تلاحظ عند وقوعها أو بعد وقوعها مباشرة، بينما لا يزال الحدث يشكل جزءاً من الحاضر. هذه الحادثات قد نقول إنها "معروفة" عندما تتم ملاحظتها. كلمة "يعرف" لها العديد من المعانى وهذا مجرد أحدها ولكن لغرض بحثنا هذا فهى أساسية.

الإحساس "بالمعرفة" لا يشتمل على كلمات. مشكلتنا التالية هى: عندما نلاحظ حدثاً ما، كيف نصوغ عبارة نعرف "بمدلول مختلف" أنها صادقة بحكم وقوع الحدث؟

إذا لاحظت (مثلا) أننى أشعر بالحر، ما هى العلاقة بين الحدث الذى لاحظته بالكلمات "أنا أشعر بالحر"؟ قد نهمل "أنا" لأنها تؤدى إلى مشكلات لا صلة لنا بها،

ولنفرض أننى مجرد قلت "توجد حرارة" (أقول "حرارة" وليس حَرا لأننى أريد كلمة تعبر عمّا يمكن الإحساس به وليس بالنسبة للنظرية الفيزيائية. ولكن نظرًا لأن هذه الجملة غريبة، سوف أواصل القول "أنا أشعر بالحر" على أن يكون معناها هو ما سبق قوله.

(٤)

فلنكن واضحين بالنسبة لمشكلتنا الحالية. لسنا مهتمين حاليا بالسؤال: "كيف لى أن أعرف أننى أشعر بالحر؟" كان هذا هو سؤالنا السابق والذى أجبنا عليه - رغم أن الإجابة لم تكن مرضية- عندما قلنا لأننى ألاحظ ذلك. سؤالنا ليس عن معرفة أننى أشعر بالحر، وإنما عن معرفة، عندما أكون أعرف ذلك، أن كلمات "أنا أشعر بالحر" تعبر عن ما لاحظته وأنها صادقة بفضل ما لاحظته. كلمات "تعبر" و "صادقة" التى وقعت هنا ليس لها مكان فى مجرد الملاحظة وتؤدى إلى شىء جديد تمامًا. قد تُلاحظ الأحداث أو لا تلاحظ، ولكنها لا يمكن أن تلاحظ إذا لم تقع، وبالتالى فيما يتعلق بالملاحظة لا يتأتى الصدق أو الزيف هناك. أنا لا أقول إنهما يتأتيان فقط مع الكلمات لأن الذاكرة الصورية قد تكون زائفة ولكن يمكن إهمال ذلك حاليا، وفى حالة إقرار يهدف إلى التعبير عن ما نلاحظه، يظهر الصدق أو الزيف عندما نستعمل الكلمات.

عندما أشعر بالحر، كلمة "حَر" من الأرجح أن تأتى إلى عقلى. قد يكون هذا هو السبب فى قولى "أشعر بالحر". ولكن فى هذه الحالة ماذا يحدث عندما أقول (بصدق) "أنا لست محتَرًا"؟ هنا كلمة "حر" جاءت إلى عقلى رغم أن موقفى ليس من الطراز الذى كان من المفترض أن يكون له هذا التأثير. أعتقد أننا يمكن أن نقول إن المنبه لمقدمة تشتمل على "حَر" هو دائما جزئيا، لفظى، البعض يقول "هل أنت محتر"؟ وتجيب "لست كذلك". هذه المقدمة السلبية سوف تنجم عندما تتنبه بكلمة وليس بما يحفز عادة تلك الكلمة. أنت تسمع كلمة "حر" ولكنك لا تشعر بالحر، وبالتالى تقول "لا" أو "لست محتَرًا". فى هذه الحالة تكون الكلمة قد تم تحفيزها جزئيا بالكلمة (أو بكلمة أخرى)، وجزئيا بخبرة ولكن ليس بالخبرة التى تعنيها الكلمة.

(٥)

المحفزات الممكنة لاستعمال كلمة ما عديدة ومختلفة، قد تستعمل كلمة "حَر" لأنك تكتب قصيدة فيها السطر السابق ينتهى بكلمة "مَر". كلمة "حَر" قد تكون أتت إلى عقلك بواسطة كلمة "برد" أو كلمة "الاستواء"، أو كما فى حالة النقاش السابق عن طريق البحث عن خبرة شديدة البساطة. الخبرة الخاصة التى تعنيها كلمة "حَر" لها بعض الارتباط بالكلمة بما هو أكثر من الإتيان بالكلمة إلى العقل، حيث إنها تشترك فى هذه العلاقة مع الكثير من الأشياء الأخرى. الارتباط يعد جزءًا ضروريا من العلاقة بين أن تكون مُحترًا وكلمة "حَر" ولكنه ليس كل العلاقة.

العلاقة بين خبرة ما وكلمة، تختلف عن الارتباطات الأخرى التى سبق ذكرها فى البداية نتيجة أن أحد العناصر المرتبطة ليس بكلمة. الارتباط بين "حر" و "بارد" أو بين "حر" و "مَر" علاقة لفظية. هذه نقطة مهمة ولكنى أعتقد أنه توجد نقطة أخرى تقترحها كلمة "تعنى". تعنى هى "تقصد"، وفى استعمال الكلمات يوجد القصد بصفة عامة الذى يكون اجتماعيا بدرجة أو بأخرى. عندما تقول "أنا مُحتر"، فأنت تعطى معلومة، وكقاعدة فأنت تقصد ذلك. عندما تعطى معلومة، فأنت تُمَكِّن من يسمعك من أن يسلك وفقًا لحقيقة هو لا يدركها مباشرة، أى الأصوات التى يسمعها تنبه فعلاً معينا فى جانبه، يعد مناسبا لخبرة تخبرها أنت وليس هو. فى حالة "أنا مُحتر"، فإن هذا الجانب ليس ملحوظًا تمامًا ما لم تكن ضيفا وكلماتك تجعل مضيفك يفتح الشباك بالرغم من أنه يرتعد بردًا، ولكن فى تلك الحالة مثل "انتبه، هناك سيارة قادمة"، فإن الأثر الحركى على السامع هو ما تقصده.

(٦)

النطق الذى يعبر عن حقيقة حالية محسوسة هو بشكل ما، جسر بين الماضى والمستقبل (أنا أفكر فى مثل هذا النطق كما يتم فى الحياة اليومية وليس كما اختَرَعَ الفلاسفة). الحقيقة المحسوسة لها أثر معين على "A" وهو يدركه، ويرغب "A" من "B"

أن يسلك بطريقة مناسبة وفقًا لتلك الحقيقة وبالتالى ينطق "A" بكلمات "تعبر" عن الحقيقة، والتى يأمل فى أن تؤدى إلى أن يسلك "B" بطريقة معينة. إن نطقا ما يعبر بصدق عن حقيقة محسوسة يُمكِّن للسامع أن يسلك (إلى درجة ما) كما لو كانت هذه الحقيقة يحسها هو. السامع المدرك لصدق مقولة ما قد يكون افتراضيا، وليس بالضرورة شخصا فعليا. المقولة قد تتم فى عزلة أو لرجل أصم أو لرجل لا يعرف اللغة المستعملة ولكن لا يؤثر أىٌّ من تلك الظروف على صدقها أو زيفها. يفترض فى السامع أن يكون شخصا حواسه وطباعه اللغوية تشبه تلك الخاصة بالمتكلم. قد نقول كتعريف أولى وليس نهائيا، إن النطق الكلامى يعبِّر بصدق عن حقيقة محسوسة عندما يسمع شخص النطق دون أن يكون مدركا للحقيقة، ويسلك عند سماعه للنطق كما يسلك كنتيجة لإدراكه للحقيقة.

هذا ليس واضحًا بصورة مرضية. فكيف لنا أن نعرف كيف كان الرجل سيسلك؟ كيف لنا أن نعرف أى جزء من سلوكه الفعلى يرجع إلى خاصية معينة من البيئة وأى جزء لخاصية أخرى؟ هذا بالإضافة إلى أنه ليس من الصدق الكامل أن تنتج الكلمات الآثار نفسها التى تؤكدها. "الملكة آن ماتت" لها القليل جدا من القوة الحركية ولكن إذا كنا موجودين حول فراش موتها فلربما أدت تلك الحقيقة إلى أفعال أكثر شدة. هذا المثال قد يستبعد حيث إننا مهتمون بالتعبير اللفظى لحقائق موجودة أما الصدق التاريخى فيؤجل لما بعد.

أعتقد أن القصد له دلالة فقط بعلاقته بالجُمَل وليس بالكلمات، فيما عدا عندما يُستعمل كجملة. فلنأخذ كلمة مثل "حر" والتى يعد معناها محسوسًا. قد يتم الإصرار على أن المنبه الوحيد غير اللفظى لتلك الكلمة هو شىء ساخن. فإذا كانت كلمة «بارد" تأتى إلى العقل حال وجود شىء ساخن، فإن ذلك سيكون نتيجة أن كلمة "حر" أتت فى البداية، وأنها استدعت كلمة "بارد". فربما كان فى كل وقت أرى فيه نارًا أفكر فى جبل القوقاز نتيجة الأبيات:

هل يمكن للمرء أن يـمسك بالنار فى يده

وهو يفكر على جـبل القـوقاز المتـجمـد؟

ولكن الارتباط اللفظى المرحلى يعد ضرورة ولن أقع فى خطأ افتراض أن "جبل القوقاز" يعنى "نار". قد نقول إذن: إذا اقتضت مواقف معينة كلمة بعينها دون أن يكون هناك أية ألفاظ مرحلية، فإن الكلمة تعنى تلك المواقف أو شيئًا مشتركا بينها. وفى مثل هذه الحالة فإن سماع الكلمة سيستدعى موقفًا من طراز الموقف موضع السؤال. عندما أتكلم عن كلمة «يستدعى" موقفًا، أعنى شيئًا ليس شديد التحدد، قد يكون صورة أو فعلاً أو يكون فعلاً فى مرحلة التكوين.

(٧)

الجملة تختلف عن الكلمة فى أن لها غرضًا قد يكون مجرد توصيل معلومات. ولكن من معانى الكلمات تشتق الجملة قوتها فى تحقيق هذا الغرض. فعندما ينطق إنسان بجملة ما، فإن قوتها فى التأثير على أفعال السامع تعود إلى معانى الكلمات، والتأثير على أفعال السامع هو غرض المتكلم.

الجمل التى تصف خبرات يجب أن تشتمل على كلمات لها تلك العلاقة المباشرة بالحس الذى ينتمى لتلك الكلمة مثل "حَر". من هذه الكلمات أسماء الألوان وأسماء الأشكال البسيطة الشائعة مثل "صاخب"، "صلب"، "لين" وغيرها. وتحدد السهولة العملية الخصائص الحسية التى يجب أن تكون للأسماء. ففى كل الحالات، ينطبق عدد من الكلمات على ما نعرف من كلمات. افترض أننا نرى دائرة حمراء داخل مربع أزرق. قد نقول "أحمر داخل أزرق" أو "دائرة داخل مربع". كل من الجملتين عبارة عن تعبير لفظى لحظى لخاصية ما نراه، وكل منهما يمكن تفسيره تماما بما نراه. إذا كنا مهتمين بالألوان، فسوف نقول الجملة الأولى، وإذا كنا مهتمين بالهندسة سنقول الثانية.

الكلمات التى نستعملها لا نهاية لها أبداً إذا كان ما نقـوله عن خبرة محسوسة. ما نقوله هو أكثر تجريداً عمًّا نراه. والخبرة التى تبرر مقولتنا عبارة عن جزء صغير مما نعرفه فى اللحظة، فيما عدا حالات التركيز غير المعتاد. كقاعدة، نحن ندرك العديد من الأشكال والأصوات والأحاسيس الجسمية بالإضافة إلى تلك التى تبرر مقولتنا.

(٨)

العديد من المقولات القائمة على الخبرة الآنية تعد أكثر تعقداً من "أنا محتر" وهذا واضح من مثال "دائرة داخل مربع" أو "أحمر داخل أزرق" أو "دائرة حمراء داخل مربع أزرق". مثل تلك الأشياء يمكن تأكيدها كتعبيرات مباشرة لما نراه. بالمثل، يمكننا القول "هذا أكثر سخونة من ذاك" أو "هذا أصخب من ذاك" كنتيجة مباشرة للمشاهدة، و"هذا قبل ذاك" إذا كان الاثنان يقعان فى حاضر واحد. مرة أخرى: إذا كانت "A" بقعة دائرية من الأزرق و "B" بقعة دائرية من الأخضر، "C" بقعة دائرية من الأصفر وكلها تقع فى المجال البصرى نفسه، يمكننا أن نقول كتعبير عما نراه، "A" أكثر شبها بـ "B" عن الشبه بـ "C". ليس هناك – كما أرى – حدٌ نظرى لتعقد ما ندركه. عندما أتحدث عن تعقّد ما يمكن أن ندركه تصبح الجملة مبهمة. قد نشاهد مثلا، مجالاً بصريا، ثم قطعة تلو قطعة، كما يحدث عندما ننظر إلى صورة فى إضاءة سيئة. عادة ما نكتشف أنها تحتوى على أربعة رجال وامرأة وطفل وثور وجحش وإسطبل. بمدلول ما رأينا كل هذه الأشياء فى البداية. وبالتأكيد يمكننا القول عند النهاية إن الصورة تحتوى على تلك الأجزاء. ولكن قد لا توجد لحظة نكون فيها ملمين بالتفاصيل فيما يختص بالإدراك الحسى، بكل تلك الأجزاء وعلاقاتها ببعضها. عندما أتكلم عن التعقد فى المعطى فأنا أعنى أكثر مما هو موجود فى تلك الحالة. أعنى أننا نلاحظ أشياء عديدة متعلقة ببعضها على أنها عديدة وأنها متعلقة ببعضها. يتضح الفرق فى الموسيقى، حيث يمكن للمرء أن يسمع صوتًا كلّيا أو قد يكون مدركًا للآلات الفردية والمكونات التى تعطى الأثر الكلى. ففى الحالة الأخيرة فقط يجب أن أتكلم عن التعقيد فى المُعطى السمعى. التعقيد الذى أهتم به يقاس بالشكل المنطقى للحكم الإدراكى: فالأبسط هو الخبر، أى مقدمة الموضوع، مثل "هذا دافئ" ومثل "هذا إلى اليسار من ذاك" ومثل "هذا بين ذاك والآخر"، وهكذا. المؤلفون الموسيقيون والرسامون قد يذهبون لأبعد من ذلك فيما يتعلق بهذا الطراز من التعقد.

النقطة المهمة هى أن مثل تلك المقدمات رغم أنها قد تصبح معقدة، فإنها لا تزال قائمة بصورة مباشرة على الخبرة، بنفس صدق واكتمال "أنا محرور".

وهذا أمر مختلف تماماً عن معالجة چشتالت فى سيكولوجيته. خذ مثلا ورقة الكوتشينة لعشرة السباتى. أى شخص معتاد على لعب الكوتشينة يرى فى التو أنها العشرة السباتى ويرى ذلك بإدراك چشتالت وليس بالمنهج التحليلى. ولكن باستطاعته أيضا أن يرى أنها مكونة من عشرة أشكال سوداء متماثلة على خلفية بيضاء. سوف يكون ذلك براعة عظيمة ولكن فى حالة الاثنين أو الثلاثة فالأمر يكون أسهل.

إذا قلت عند النظر إلى الاثنين السباتى "هذا الوجه مكون من شكلين أسودين متماثلين على خلفية بيضاء"، فما أقوله ليس مجرد تحليل لمعطى مرئى، وإنما هو تعبير عن معطى مرئى، أى أنه مقدمة يمكننى معرفتها باستعمال عينى دون الحاجة للاستنتاج. حقا أن المقدمة يمكن استنتاجها من "هذا شكل أسود على خلفية بيضاء"، "وذلك أيضا" و "هذا مماثل لذاك" ولكن فى الحقيقة لا تحتاج إلى أن تستنتج.

(٩)

يوجد رغم ذلك فرق مهم بين المقدمات التى لا يمكن استنتاجها وتلك التى يمكن استنتاجها، ولكنها لا تُستَنتج. أحياناً يكون من الصعب جدا معرفة إلى أى قسم تنتمى المقدمة. فلنعد مرة أخرى إلى مثال الاثنين السباتى وإلى المقدمة، "هذا مماثل لذاك". قد نعطى اسماً للشكل ونسميه "ورقة البرسيم" وبالتالى نقول "هذا شكل ورقة البرسيم" و"هذا على شكل ورقة البرسيم"، وأيضا "هذا أسود" و "ذاك أسود". ولكن هذا بمدلول ما يعد استنتاجا من التشابه بين النطقين اللفظيين "على شكل ورقة البرسيم"، والنطقين اللفظيين "أسود". وبالتالى فإن المقدمة من الطراز "هذا مماثل لذاك" ليست فى حد ذاتها تعبيراً عن معطى محسوس، وبالتالى يجب أن تكون مشتقة من فرضية أن إحداها على الأقل من الشكل نفسه. افترض، مثلا، أنك تقوم بتجربة من المهم فيها تسجيل اللون. أنت تشاهد اللون الأسود، وتنطق بكلمة "أسود" فى الديكتافون. فى اليوم التالى تقوم بالعمل نفسه مرة أخرى. فى مرة ثالثة قد تجعل الديكتافون يكرر النطقين "أسود" اللذين تلاحظ أنهما متطابقين وتستنتج أن اللون الذى رأيته فى يومين

مختلفين كانا متطابقين. هنا الديكتافون ليس ضروريا. إذا رأيت بقعتين باللون الأسود في تتابع سريع وقلت في كل حالة "هذا أسود" فقد تتذكر بعد ذلك مباشرة كلماتك ولكن بلا ذاكرة مرئية للبقعتين، في تلك الحالة تستنتج التماثل الخاص بالبقعتين من النطقين "أسود"، وبالتالي لا توفر اللغة مهربًا من التماثل إلى الذاتية.

في مثل تلك الحالات، فإن موضوع ما يعد استنتاجًا وما لا يُعد ليس له إجابة محددة من الناحية النفسية.

(١٠)

في نظرية المعرفة، من الطبيعي محاولة اختزال فروضنا الفعلية إلى الحد الأدنى. إذا كان هناك ثلاث مقدمات r، q، p كل منها نؤكده على أساس خبرتنا الفعلية، وإذا كانت r يمكن استنتاجها منطقيا من q، p فإننا نهمل r كفرض في نظرية المعرفة. في الجملة السابقة رأينا "هذان كلاهما أسود" ولكن يمكننا رؤية "هذا أسود" و "ذاك أسود" ونستنتج أن "هذان كلاهما أسود". ولكن هذا الوضع ليس بتلك البساطة التي يبدو عليها. المنطق لا يتعامل مع النطق اللفظي أو العاطفي وإنما مع مقدمات أو على الأقل جُمل. من منطلق المنطق، عندما نعرف المقدمتين "هذا أسود" و "ذاك أسود" فإن كلمة "أسود" تحدث في كلتا المقدمتين. ولكن كحقيقة سيكلوجية فعلية فإننا عندما ننطق بكلتا الجملتين، يحدث النطق اللفظي بحيث يكون حالتين مختلفتين للكلمة "أسود"، ولكي نستنتج أن "هذا وذاك كلاهما أسود" نحتاج إلى فرض فعلي آخر "النطق الأول أسود" والنطق الثاني "أسود" كلاهما حالتان لكلمة "أسود". ولكن في كل حالة أستطيع فقط نطق حالة للكلمة وليس الكلمة نفسها والتي تبقى بلا حراك في سماء أفلاطونية. المنطق وكل نظرية الكلمات والجمل في مقابل المنطوقات الكلامية أصبحت بالتالي أفلاطونية تمامًا. عندما أقول "هذا أسود" و "ذاك أسود"، أريد أن أقول الشيء نفسه عن كليهما ولكني أفشل في ذلك، أنا أنجح فقط عندما أقول "هذا وذاك أسودان"، وبالتالي أقول

شيئًا مختلفا عن أيٍّ من الشيئين اللذين قلتهما عن هذا وعن ذاك. وبالتالى فإن الطراز من العمومية التى بدت مشتركة فى الاستعمال المتكرر لكلمة "أسود" كانت وهمية، ما لدينا بالفعل هو التماثل. ولإدراك التماثل لنطقين مختلفين لكلمة "أسود" هو الشيء نفسه لإدراك التماثل بين بقعتين سوداوين. ولكن فى الحقيقة، عندما نستعمل اللغة، فليس من الضرورى إدراك التماثل. إن بقعة واحدة من اللون الأسود تؤدى إلى النطق بلفظ "أسود" وبقعة أخرى تؤدى إلى نطق آخر، البقعتان متماثلتان، وآثارهما اللفظية متماثلة وآثار النطقين اللفظيين متماثلة. هذه التماثلات يمكن مشاهدتها ولكن لا حاجة لذلك، فكل ما هو ضرورى أن توجد فى الواقع. أهمية هذا السؤال تتعلق بالمنطق ونظرية الكونيات وتوضح كيف أن الافتراض السيكولوجى لهذه العقيدة شديد التعقيد والتى يقبلها المنطق قبولا مسلَّمًا به، وهى أن الكلمة نفسها يمكن أن تقع فى مناسبات مختلفة فى منطوقات مختلفة وحتى فى جمل مختلفة. هذا، إذا لم نكن حذرين، قد يكون تضليلا كما لو استنتجنا أن غزالا يوجد فى الوقت نفسه بلندن ونيويورك على أساس أن "غزالا يوجد الآن فى لندن" و"غزالا يوجد الآن فى نيويورك" وكلاهما صادق.

بالعودة إلى المنطق، فلنأخذ ما يمكن أن يحدث عندما نمر من إدراك جشتالت إلى الإدراك التحليلى مثل المرور من "هناك الإثنين السباتى" عندما ندرك الشكل بكامله كوحدة، إلى "هناك علامتان سوداوان متماثلتان على خلفية بيضاء"، حيث نرى أجزاء من الشكل والعلاقات بينها.

اعتياد طراز من المادة المحسوسة يؤثر فى الحكم التحليلى. أنت مدرك أن مجموعة ورق الكوتشينة تحتوى على ثلاثة عشر سباتى وعلى أربعة من كروت "الاثنين" وأنت معتاد على التصنيف الثنائى للأوراق. فى الحقيقة أن هذا يعمل فى كلا الاتجاهين، فهو يمكِّنك من التعرف على ورقة العشرة بشكلها المعتاد، بينما الشخص غير المعتاد على الكوتشينة قد يضطر للعدِّ حتى عشرة - ليس لكى يدرك أن الشكل يختلف عن تسعة أو ثمانية، ولكن ليعطيها اسمها.

(١١)

من السهل المبالغة فى ما هو ضرورى، على سبيل المثال، فى العد. لو كنت مضطرا لعد كومة من البندق ولديك عادة القول "واحد، اثنين، ثلاثة، ... " بالترتيب الصحيح، يمكنك إسقاط حبات البندق واحدة وراء الأخرى فى كيس مع نطق العدد فى كل مرة وفى النهاية تكون قد قمت بعدٍّ البندق دون الحاجة إلى ذاكرة أو فهم للأعداد فيما عدا تتابع الأصوات التى تأتى بترتيب معين نتيجة العادة. يوضح ذلك كيف أن كلمات أكثر بكثير تبدو معروفة عن الكلمات التى يستعملها الفرد. بهذا الأسلوب، الشىء الأسود قد يتسبب فى أن تقول "هذا أسود" كنتيجة لمجرد الميكانيكية دون إدراك لمعنى كلماتك. بالتأكيد، ما يقال بهذا الشكل عديم التفكير ربما كان من الأرجح أن يكون أكثر صدقًا عمًّا يقال بتعمد، لأنك لو كنت تعرف الإنجليزية فإن هناك علاقة سببية بين الشىء الأسود وكلمة "أسود" وهى ما لا توجد بين الشىء نفسه واسم لون آخر. وهذا ما يعطى احتمالاً كبيراً لصدق الجمل التى تشير إليها.

عندما ترى شيئا أسود وتقول "هذا أسود" فأنت، كقاعدة، لا تلاحظ أنك تقول تلك الكلمات، فأنت تعرف أن الشىء أسود، ولكنك لا تعرف أنك تقول إنه كذلك. أنا أستخدم كلمة "تعرف" بمدلول "تلاحظ" كما تم شرحه. يمكنك ملاحظة نفسك وأنت تتكلم ولكنك ستفعل ذلك فقط إذا كان كلامك يثير اهتمامك كما يثيره الشىء -أى إذا كنت مثلا تتعلم اللغة أو تمارس البلاغة، أما إذا كنت تدرس - كما نفعل نحن- علاقة اللغة بالحقائق الأخرى، فستلاحظ علاقة بين كلماتك والشىء الأسود والتى قد تعبر عنها بجملة "لقد قلت، هذا أسود، لأنه أسود". كلمة "لأنه" تتطلب تمحيصاً دقيقا. لقد ناقشت ذلك فى "حدود الفعلية" بإصدارات الجمعية الأرسطية عام ١٩٣٥. حاليا سوف أقتصر على تكرار مختصر للأجزاء ذات الصلة من ذلك البحث.

ما يهمنا هنا هى العلاقات بين ثلاث مقدمات.

"توجد بقعة سوداء" سوف نسميها "p"

"لقد قلت "هناك بقعة سوداء سنسميها "q"

لقد قلت "هناك بقعة سوداء لأن بقعة سوداء هناك وسوف نسميها "r"

بالنسبة للرمز "r" يوجد سؤالان: الأول، كيف لى أن أعرفه؟ والثانى، ما هو معنى كلمة "لأن" كما تقع فى تلك المقدمة؟

بالنسبة للسؤال الأول، لا أرى كيف يمكن الهروب من فكرة أننا نعرف "r"، كما نعرف "p"، "q" لأنها جملة تعبر عن خبرة. ولكن قبل أن نفحص هذه الفكرة، يجب أن نكون أكثر تحديداً بالنسبة لـ"q" والتى قد تعنى مجرد أننى أصدر أصواتًا معينة، أو تعنى أننى قمت بعمل تأكيد، والجملة الأخيرة تقول أكثر من الأولى، لأنها تقرر أن الأصوات التى أصدرناها كان لها قصد معين. كان من الممكن أن أقول "هناك بقعة سوداء" ليس لأننى رغبت فى تأكيد ذلك، وإنما لأنها جزء من قصيدة. فى مثل تلك الحالة، "r" ستكون غير صادقة. وبالتالى، إذا كانت "r" صادقة، فليس كافيا أننى أصدر الأصوات التى تشكل النطق لـ "q"، ولكنى يجب أن أصدرها بقصد عمل تأكيد عن الحقيقة الحالية المحسوسة. ولكن هذا يعد شديد التحديد والتميز. "القصد" يقترح شيئًا شعوريا متعمداً ويجب ألا يكون ضمنيا.

الفرق بين صرخة ألم وكلمة "أسود" هو أن الأولى انعكاس غير شرطى، بينما الثانية ليست كذلك، ولكن هذا الفرق لا يشتمل على فرق فى كلمة "لأن". الناس الذين تعلموا لغة معينة اكتسبوا دافعًا لاستعمال كلمات معينة فى مناسبات معينة، وهذا الدافع عند اكتسابه يماثل تمامًا الدافع للبكاء عند الإصابة.

قد تكون لدينا مسببات مختلفة للنطق بجملة "هناك بقعة سوداء". قد تكون الحقيقة مثيرة للاهتمام بحيث إننا ننطقها دون تفكير، قد نرغب فى إعطاء معلومات، أو نرغب فى جذب انتباه شخص ما لما يحدث، قد نرغب فى الخداع، أو كما فى ترتيل الشِّعر، فقد نرغب فى ترتيل الكلمات دون تأكيد أى شىء. قد نعرف، إذا أردنا، أيا من تلك الأمور كان السبب فى نطق الكلمات، ونعرف ذلك بالمشاهدة -طراز المشاهدة الذى يعد استبطانيا. فى كل حالة توجد علاقة مشاهدة بين خبرتين، أبسط حالة هى التى يكون فيها منظر البقعة السوداء هو السبب فى القول "توجد بقعة سوداء". هذه هى الحالة التى توجد فى مقدمتنا "r". ولكن نقاشًا أوسع لكلمة "لأن" التى توجد فى المقدمة "r" يتم إرجاؤه حتى نأتى لمناقشة الاتجاهات الافتراضية.

الفصل الرابع

لغة الأشياء

(١)

أظهر "تارسكى" فى كتابه العام أن كلمات مثل "صادق" و "زائف" عند تطبيقها على الجُمل الخاصة بلغة ما، تتطلب دائما لغة أخرى، من مستوى أعلى لتعريفها تعريفًا مناسبًا. تصور وجود تنظيمٍ هرَمِىٍّ للغات يعد مكونًا لنظرية الطرُز، والذى هو بشكل ما، يعد ضروريا لحل المعضلة، فهو يلعب دورًا مهمًا فى عمل "كارناب" وأيضا فى عمل "تارسكى". وقد اقترحت فى مقدمتى لكتاب وتجنشتين "تراكتاتس" كمهرب من نظريته، أن النحو يمكن فقط "إظهاره" وليس التعبير عنه بكلمات. الجدل الخاص بضرورة وجود تنظيم هرمى للغات يعد هائلا، وبالتالى سوف أفترض صلاحيته.

التنظيم الهرمى يجب أن يمتد لأعلى بلا نهاية وليس لأسفل، حيث لو حدث ذلك فلا يمكن للغة أن تبدأ مطلقًا. يجب بالتالى أن توجد لغة من الطراز الأدنى. سوف أعرِّف إحدى تلك اللغات وليس اللغة الوحيدة الممكنة. سوف أسميها أحيانا "لغة الأشياء" وأحيانا "اللغة الأولية". هدفى فى الفصل الحالى هو أن أعرِّف وأصف هذه اللغة الأساسية. اللغة التى تليها فى التنظيم الهرمى سوف أسميها ثانوية، وهكذا، ويجب أن يكون مفهومًا أن كل لغة تشتمل على كل أسلافها.

اللغة الأولية يمكن تعريفها منطقيا وسيكولوجيا ولكن قبل محاولة إيجاد تعريفٍ رسمِىٍّ، من المستحسن عمل استكشافٍ أوَّلِىٍّ.

(٢)

من الواضح وفقًا لجدل تارسكى أن كلمات "صادق" و "زائف" لا يمكن حدوثهما فى اللغة الأولية لأن تلك الكلمات كما تنطبق على الجُمل فى اللغة "n^{th}" تنتمى إلى اللغة ("$n+1^{th}$"). لا يعنى ذلك أن الجمل فى اللغة الأولية ليست صادقة أو زائفة وإنما إذا كانت "p" جملة فى اللغة فإن الجملتين"p صادقة" و "p زائفة" تنتميان إلى اللغة الثانوية. هذا بالتأكيد واضح دون النظر إلى جدل تارسكى، حيث إنه إذا كانت هناك لغة أولية، فإن كلماتها يجب ألا تفترض مسبقًا وجود لغة. الآن "صادق" و "زائف" هى كلمات تنطبق على الجمل، وبالتالى تفترضان مسبقا وجود لغة. (لا أعنى إنكار أن ذاكرة مكونة من صور وليس من كلمات، قد تكون "صادقة" أو "زائفة"، ولكن هذا بمدلول مختلف، لا يعنينا حاليا). وبالتالى، ففى اللغة الأولية على الرغم من أن إمكانية عمل تأكيدات لا يمكننا القول إن تأكيداتنا الخاصة أو تأكيدات الآخرين إما أنها صادقة وإما أنها زائفة.

عندما أقول إننا نقوم بتأكيدات فى اللغة الأولية، لا بد من التحذير ضد سوء الفهم لأن كلمة «تأكيد" شديدة الإبهام. تستعمل هذه الكلمة أحيانا كنقيض للإنكار، وبهذا المدلول لا يمكن أن تحدث فى اللغة الأولية. الإنكار يفترض مسبقًا نسقًا من الكلمات ويتقدم ليقرر أن هذا النسق من الكلمات زائف. كلمة "ليس" لها دلالة فقط عندما تتصل بجملة وبالتالى تفترض مسبقًا بصدد لغة. بالتالى، إذا كانت "p" جملة من اللغة الأولية، فإن "ليس p" هى (جملة من اللغة الثانوية. من السهل الوقوع فى اللبس حيث إن "p" دون تغيير لفظى، قد تعبر عن جملة تكون ممكنة فقط فى اللغة الثانوية. افترض، مثلا، أنك أخذت الملح بطريق الخطأ بدلا من السكر وصحت "هذا ليس بسكر" يكون هذا إنكاراً وينتمى إلى اللغة الثانوية. عند استعمالك الوعاء الصحيح فإنك تصيح "هذا سكر" من الناحية النفسية، أنت تجيب بالتأكيد على السؤال "هل هذا سكر؟" فأنت فى الحقيقة تقول دون تحذلق: "جملة "هذا سكر" صادقة". بالتالى ما تعنيه هو شىء لا يمكن قوله فى اللغة الأولية بالرغم من أن نفس شكل الكلمات يمكن أن يعبر عن جملة فى اللغة الأولية. التأكيد الذى هو نقيض الإنكار ينتمى للغة الثانوية، والتأكيد الذى ينتمى للغة الأولية ليس له نقيض.

(٣)

الاعتبارات نفسها التى تنطبق على "ليس" تنطبق أيضا على "أو" وعلى "لكن" وأدوات الربط بصفة عامة. فى الحقيقة فأدوات الربط كما يوحى اسمها تربط بين الكلمات وليس لها معنىً منفرد وهى معزولة، وبالتالى فلا بد من وجود لغة. ينطبق الشىء نفسه على "كل" وعلى "بعض"، حيث يمكنك أن يكون معك كل أو بعض شىء ما وفى غياب كلمات أخرى تصبح كلمة "كل" و "بعض" عديمة المعنى. ينطبق هذا أيضا على "الـ".

الكلمات المنطقية، بلا استثناء، تغيب فى اللغة الأولية، فكلها فى الحقيقة تفترض مسبقا أشكالاً مقدمة تسبقها. "ليس" وأدوات الربط تقترح وجود مقدمات، بينما "كل" و"بعض" و"الـ" تفترض وظيفة مقدمة لها.

اللغة العادية تحتوى على عدد من الكلمات النحوية تماما مثل "يكون" و "عن"، والتى يجب استبعادها من اللغة الأولية. مثل تلك الكلمات على خلاف تلك التى ناقشناها الآن، هى فى الحقيقة غير ضرورية بالمرة ولا تظهر فى اللغة الرمزية المنطقية. فبدلا من "A أسبق من B" نقول "A تسبق B" ، وبدلا من "A هو أصفر" فاللغة المنطقية تقول "(A) الأصفر"، وبدلا من "هناك بعض الأنذال المبتسمين" نقول: من الزائف أن كل قيم "إما أن X لا يبتسم وإما أن X ليس نذلا" زائفة. كلمة "وجود" وكلمة "يصير" كما يحدثان فى الصوفيات التقليدية هى صور لمعانٍ معينة لـ "يكون". وحيث إن "يكون" لا تنتمى للغة الأولية، فإن "وجود" و "يصير" إذا كان لهما أى معنى، لا بد من أن يكونا تصوراً لغويا لا يتعلق مباشرة بالأشياء.

(٤)

توجد طائفة أخرى شديدة الأهمية من الكلمات لا بد من استبعادها وهى كلمة "يعتقد"، وكلمة "يرغب" وكلمة "يشك"، وكلها عندما تحدث فى الجمل، لا بد وأن تتبعها

جملة تابعة تقول ما هو الشيء المعتقد أو المرغوب أو المشكوك فيه. مثل تلك الكلمات وفقًا لما استطعت اكتشافه، دائما ما تكون نفسية وتشتمل على ما أسميه "سلوكيات تقديمية". بالنسبة للحال الآنى، سوف أشير فقط إلى أنها تختلف عن الكلمات مثل "أو" فى جانب مهم وهو أنها ضرورية لوصف ظواهر يمكن مشاهدتها. فإذا كنت أرغب فى رؤية الجريدة فإن تلك تعد حقيقة يمكننى مشاهدتها بسهولة، وبالتالى "أريد" هى كلمة لا بد وأن يتبعها جملة تابعة إذا ما كان للنتيجة أية أهمية. مثل تلك الكلمات تؤدى إلى مشكلات، وربما كانت قادرة على أن يتم تحليلها بطريقة تجعلها تستطيع أن تأخذ مكانًا فى اللغة الأولية. ولكن حيث إن ذلك ليس ممكنا، سوف أفترض هنا أنها يجب استبعادها. وسوف أخصص فصلا تاليا لمناقشة هذا الموضوع.

(٥)

يمكننا الآن تعريف اللغة الأولية، أى لغة الأشياء على أنها لغة مكونة كلية من "كلمات الأشياء" التى يتم تعريفها منطقيا بأنها كلمات لها معانٍ وهى معزولة، ونفسيا على أنها كلمات تم تعلُّمها دون أن يكون من الضرورى أن يكون قد تم تعلم أية كلمات أخرى. هذان التعريفان ليسا متكافئين، وعندما يتعارضان يفضل التعريف المنطقى. قد يصبح التعريفان متطابقين إذا سُمِح لنا بافتراض امتدادٍ لا نهائىٍّ لقدراتنا الإدراكية.

من الواضح استحالة أن تكون معرفة أى كائن باللغة هى بالضرورة يجب أن تبدأ بفهم كلمة "أو" رغم أن معنى هذه الكلمة لا يتم تعلُّمه من التعريف الدقيق لها. وبالتالى فبالإضافة إلى فصيل كلمات الأشياء الفعلية، يوجد قسم من كلمات الأشياء الممكنة. وللعديد من الأغراض، فإن قسم الكلمات الفعلية والممكنة للأشياء أهم من قسم كلمات الأشياء الفعلية.

فى الحياة العادية عندما نتعلم معنى كلمة جديدة، فإننا نفعل ذلك عادة باستخدام القاموس، أى بتعريفها بواسطة كلمات أخرى نعرف بالفعل معناها. ولكن بما أن القاموس يعرِّف الكلمات بواسطة كلمات أخرى، فلا بد وأن هناك بعض الكلمات نعرف معناها دون تعريف لفظى، من تلك الكلمات عدد صغير لا ينتمى للغة الأولية مثل كلمة "أو" وكلمة "ليس" ولكن الكثرة الغالبة هى كلمات من اللغة الأولية، وعلينا الآن النظر إلى عملية تعلم ما تعنيه تلك الكلمات، فكلمات القاموس يمكن إهمالها لأنها نظريا غير لازمة لأنها أينما حدثت يمكن استبدالها بتعريفها.

عند تعلم كلمة من كلمات الأشياء، توجد أربعة أمور لا بد من أخذها فى الاعتبار: فهم الكلمة المسموعة فى وجود الشىء، فهم الكلمة فى غياب الشىء، نطق الكلمة فى وجود الشىء، ونطق الكلمة فى غياب الشىء. وبصورة عامة يعد هذا هو الترتيب الذى يكتسب به الطفل تلك الإمكانيات الأربعة.

فهم كلمة مسموعة يمكن تعريفه سلوكيا أو بمدلول السيكولوجية الفردية. عندما نقول إن الكل يفهم كلمة، فلنا الحق فى أن نعنى أنه يسلك بطريقة مناسبة عندما يسمعها، ولكننا لا نعرف ما الذى "يفكر فيه". خذ مثلا عملية تعليم الكلب معرفة اسمه، تشتمل العملية على النداء عليه، مكافأته عندما يأتى وعقابه عندما لا يأتى. قد نتصور أنه اسمه قد يعنى له: "إما أننى سأكافأ لأننى أتجه إلى سيدى وإما أننى سأعاقَب لأننى لم أفعل". وأيا من البديلين سوف يظهره ذلك الكلب. الارتباط فى هذه الحالة هو ارتباط سرور أو ألم، وبالتالى فالأوامر هى ما يفهمه الكلب بسهولة كبيرة. ولكنه يستطيع فهم جملة إشارية طالما أن محتواها له أهمية معنوية كافية، مثلا جملة «الغذاء" والتى يفهم أنها تعنى: "أنت الآن على وشك الحصول على التغذية التى ترغبها"، عندما أقول إن هذا قد فُهِم أعنى أنه عندما يسمع الكلب تلك الكلمة فإنه يسلك كما لو أنك تحمل طبقًا من الطعام فى يدك. نحن نقول إن الكلب «يعرف" الكلمة ولكن ما يجب أن نقوله هو أن الكلمة تُنتج سلوكًا مماثلا للسلوك الذى ينتجه منظر أو رائحة الطعام البعيد عن متناوله.

(٦)

معنى كلمة من كلمات الأشياء يمكن فقط تعلمها بسماعها عند نطقها متكررة في وجود الشيء. الارتباط بين الكلمة والشيء هو مجرد علاقة مثل أي علاقة اعتياد مثل العلاقة بين النظر واللمس، فعندما يتم الارتباط فإن الشيء يقترح الكلمة والكلمة تقترح الشيء تمامًا مثلما يوحي الشيء المرئي بإحساس اللمس، والشيء الذي يلمس في الظلام يوحي بإحساس الرؤية. الارتباط والعادة ليسا متعلقين بصورة خاصة باللغة، وإنما هما خاصيتان للسيكولوجي والفسيولوجي بصورة عامة. كيف يتم تفسيرهما هو بالطبع موضوع صعب ومثير للجدل ولكنه ليس موضوعًا مهما بالنسبة لنظرية اللغة.

ما إن تتم إقامة العلاقة بين الشيء وبين ما تعنيه الكلمة، فإن الكلمة تكون «مفهومة" في غياب الشيء، أي "توحي" بالشيء تماما بالطريقة نفسها التي يوحي بها النظر أو اللمس أحدهما بالآخر.

افترض أنك في صحبة رجل يصيح فجأة "ثعلب" لأنه رأى ثعلبًا، وافترض أنك رغم سماعك ذلك لا ترى الثعلب. ما الذي يحدث لك في الواقع نتيجة فهمك لكلمة "ثعلب"؟ أنت تنظر حولك، ولكن ذلك هو ما كنت ستفعله إذا كان قد قال "ذئب" أو "حمار وحشي". قد يكون لديك تصور للثعلب. ولكن من وجهة نظر الرائي، فالذي يظهره فهمك للكلمة هو أنك تسلك (في حدود معينة) كما لو أنك قد رأيت الثعلب.

عمومًا، عندما تسمع كلمة تفهمها من كلمات الأشياء، فإن سلوكك حتى نقطة معينة، سيكون السلوك الذي كان سيؤدي إليه وجود الشيء نفسه. قد يحدث ذلك دون أي وساطة عقلية، بواسطة القواعد العادية للانعكاس الشرطي منذ أن صارت الكلمة مرتبطة بالشيء. في الصباح، قد يقال لك "الإفطار جاهز"، أو قد تشم رائحة البيض المقلي. كلا الأمرين سيكون له الأثر نفسه على سلوكك. فالعلاقة بين الرائحة والبيض "طبيعية"، أي أنها ليست نتيجة لأي سلوك إنساني. ولكن الارتباط بين كلمة "إفطار" والإفطار هي أمر اجتماعي يوجد فقط لمن يتكلمون هذه اللغة. هذا يعد ذا دلالة عندما نفكر في المجتمع ككل. كل طفل يتعلم لغة والديه كما يتعلم المشي. وتنتج علاقات معينة

بين الكلمات والأشياء للطفل من الخبرات اليومية وتأخذ مظهر القوانين الطبيعية كالتى لخصائص البيض أو الثقاب، فهى فى الحقيقة على المستوى نفسه تمامًا طالما أن الطفل لم يؤخذ إلى دولة أجنبية.

(٧)

بعض الكلمات فقط هى التى يتم تعلمها بهذه الطريقة. لا أحد يتعلم كلمة "مماطلة" بسماعها تنطق متكررة فى مناسبات يكون فيها أحد الناس متأخرا فى أداء أمرٍ ما. فنحن نتعلم بالربط المباشر مع ما تعنيه الكلمة، ليس فقط أسماء الأعلام للناس الذين نعرفهم، أو لأسماء الأقسام مثل "إنسان" أو "كلب" ، أو لأسماء الخصائص المحسوسة مثل "أصفر" و "الجرى" و "الأكل" و"الشرب" ولكن أيضا كلمات مثل "أعلى" و "أسفل" و "داخل" و "خارج" و "قبل" و "بعد" وحتى "سريع" و "بطىء". ولكننا لا نتعلم بهذه الطريقة الكلمات المعقدة مثل "الاثنى عشرى الأضلاع"، أو الكلمات المنطقية مثل "ليس"، "أو" و "الـ" و "كل" و "بعض" فقط. الكلمات المنطقية، كما رأينا تفترض مسبقا وجود لغة، فى الحقيقة تفترض مسبقًا، ما تكلمنا عنه فى الفصول السابقة على أنه "الأشكال الذرية"، تلك الكلمات تنتمى إلى مرحلة من اللغة لم تعد بدائية ويجب أن تستبعد من أساليب الكلام التى تنتمى بشدة إلى الحادثات غير اللغوية.

إذن، ما هى درجات البساطة التى تجعل من فهم كلمة ما مثالا لفهم كلمة من كلمات الأشياء؟ يجب ملاحظة أن الجملة قد تقال بلغة الأشياء وتُفهم بلغة من مستوى أعلى أو العكس.

إذا أثرت كلبًا بقولك "فئران!" عندما لا يكون هناك فئران، فإن حديثك ينتمى إلى لغة من مستوى أعلى، حيث إنها لم تنتج من وجود فئران ولكن فهم الكلب لها ينتمى إلى لغة الأشياء. الكلمة المسموعة تنتمى للغة الأشياء. عندما تتسبب فى انفعال مناسب لما تعنيه الكلمة، إذا قال أحد "أنصت، أنصت، للقنبرة" فقد تنصت أو قد تقول "تغنى

على أبواب السماء"، ففى الحالة الأولى ما سمعته ينتمى إلى لغة الأشياء، وفى الحالة الأخيرة، لا ينتمى إليها. إذا شككت فيما يقال لك أو رفضته، فإن سماعك لا ينتمى إلى لغة الأشياء، حيث إنه فى مثل هذه الحالة أنت تتأنى فى الكلمات بينما فى لغة الأشياء تكون الكلمات شفافة، أى أن آثارها على سلوكك تعتمد على ما تعنيه فقط، وهى ، إلى حد معين، مطابقة للآثار التى قد تكون الوجود المحسوس لما تشير إليه.

(٨)

عند تعلم الكلام يوجد عنصران، الأول المهارة العضلية والثانى عادة استعمال الكلمة فى المناسبات الملائمة. قد نهمل المهارة العضلية التى يمكن أن يكتسبها الببغاء. يصدر الأطفال العديد من الأصوات بطريقة تلقائية ولديهم الدافع لتقليد الأصوات التى يصدرها البالغون. عندما يصدرون صوتًا يعتبره البالغون مناسبًا للبيئة، يجدون أن النتيجة تبعث على السرور. وبالتالى، نتيجة الميكانيكية المعتادة للسرور أو الألم والتى يتم توظيفها فى تدريب الحيوانات التى تقوم ببعض الألعاب، يتعلم الأطفال مع مرور الوقت نطق أصوات تناسب الأشياء الموجودة والمحسوسة، وبالتالى يتعلمون فى الحال استعمال الأصوات نفسها عندما يرغبون فى تلك الأشياء. حين يحدث ذلك، فهم يمتلكون لغة الأشياء: الأشياء توحى بأسمائها، وأسماؤها تستدعى الأشياء، وأسماؤها قد يتم استدعاؤها ليس فقط بوجود الأشياء، ولكن بالتفكير فيها.

سأمر الآن من تعلُّم لغة الأشياء إلى خصائصها عندما يتم تعلمها.

قد نقسِّم الكلمات إلى ثلاثة أقسام:

١ – كلمات الأشياء، والتى نعرف معناها بالاكتساب المباشر للعلاقة بين الكلمة والشىء.

٢ – كلمات المقدمات وهى التى لا تنتمى لكلمات الأشياء.

٣) كلمات القاموس والتى نعرف معناها من تعريف لفظى.

الفرق بين (١) و (٣) يختلف بشدة من شخص لآخر. "النجمة الخماسية" هى لمعظم الناس كلمة قاموس ولكن لطفل تربى فى منزل مزين بالنجوم الخماسية قد تكون كلمة أشياء. الصليب المعقوف كان كلمة قاموس ولم يعد الآن كذلك. ولكن من المهم ملاحظة وجوب وجود كلمات الأشياء وإلا لما كان لكلمات القاموس القدرة على توصيل أى شىء.

(٩)

فلننظر الآن إلى مدى ما يمكن أن تفعله كلمات الأشياء بمفردها. سوف أفترض لهذا الغرض أن الشخص موضع الاعتبار توافرت له كل فرصة ممكنة لاكتساب كلمات الأشياء: لقد رأى جبل إفرست وبوبا كاتا بتل، وحية الأناكوندا ويعرف شيانج كاى شيك وستالين وشاهد أعشاش الطيور وزعانف القرش، وله خبرة واسعة بالعالم المحسوس. ولكنه كان مشغولا برؤية العالم عن اكتساب كلمات مثل «ليس" و "أو" و "بعض" و "لم" .. إلخ إذا قلت له "هل هناك دولة لم تزرها؟" فلن يعرف ماذا تعنى. السؤال هو: ما الذى يعرفه مثل هذا الشخص وما الذى لا يعرفه؟

هل يمكننا القول: "سوف يعرف كل شىء يمكن معرفته بالمشاهدة فقط، ولكن لن يعرف شيئًا يحتاج إلى استنتاج"؟ فلنغير سؤالنا فلا نقول ما الذى يمكنه معرفته، ولكن ما الذى يمكنه أن يعبِّر عنه بكلمات؟

بداية، إذا كان بمقدوره أن يضع كل حقيقة مشاهدة فى كلمات، فلا بد من أن يكون من الكلمات ما يعادل الحقائق ولكن بعض الكلمات هى من الحقائق وبالتالى فعدد كلماته لا بد وأ يكون لا نهائيا، وهذا مستحيل. وبالتبعية، فإن هناك حقائقَ سيتركها دون أن يعبِّر عنها. الحالة هنا شبيهة بزجاجة رويس ذات البطاقة التى عليها صورة للزجاجة التى تشتمل بالطبع على صورة للبطاقة.

ولكن بالرغم من أننا يجب أن نستبعد بعض الحقائق المشاهدة فلا توجد حقيقة مشاهدة واحدة يمكننا أن نقول عنها "يجب عليه أن يترك هذه جانبًا"، فهو إذن فى موقف رجل يرغب فى إدخال ثلاث حقائب فى حقيبة لا تسع إلا حقيبتين فقط، ولا بد من أن يترك حقيبة دون إدخال، ولكن لا يمكنه ترك واحدة.

فصديقنا الذى سافر كثيراً، سنفترض أنه رأى رجلاً يدعى توم وبدون صعوبة يقول: "أنا أرى توم". هذه الملاحظة هى فى حد ذاتها حقيقة مشاهدة، وبالتالى يقول: "أقول إننى أرى توم". هذه مرة أخرى حقيقة مشاهدة، وبالتالى يقول: "أقول إننى أقول أنا أرى توم". لا توجد نقطة محددة عندها يجب أن يوقف هذه السلسلة، ولكنه لا بد وأنه سيكسرها عند نقطة ما، وعندئذ ستكون هناك حقيقة مشاهدة هى أنه من المستحيل لشخص ما أن يعطى تعبيراً لفظيا لكل حقيقة يمكن مشاهدتها، ولكن كل حقيقة مشاهدة يمكن للشخص أن يعطى تعبيرا لفظيا عنها ولا يُعد ذلك تناقضاً.

(١٠)

لدينا الآن مجموعان يجب النظر إليهما: الأول، مجموع التقريرات الفعلية للرجل، والثانى مجموع التقريرات الممكنة التى منها يجب اختيار التقريرات الفعلية. ولكن ما هو التقرير "الممكن"؟. التقريرات حادثات مادية مثل العواصف الرعدية أو حوادث القطارات التى لم تقع مطلقًا. ولكن من الصعب وصف تقرير ما دون فعله. عند وصف خطاب سياسى قد تكون ملاحظاتك: "الذى لم يقله السيد فلان، الذى هو كذا وكذا، ثم يتبع ذلك تقريراً أى أنه لكى تقول إن تقريرا لم يحدث، يجب علينا أن نقوم بعمله فيما عدا فى الحالات النادرة للتقريرات التى لها اسم مثل قَسَم التتويج.

توجد رغم ذلك طرق أخرى لتفادى هذه الصعوبة أفضلها يرجع إلى جودل. نحن نفترض لغة كاملة التشكل ذات مفردات واضحة التميز ونحو صريح. ونحن نرمز بأرقام لكلمات المفردات، وبالتالى، ووفقا للقواعد الحسابية، لكل الجمل الممكنة فى اللغة.

فـإذا كانت المفردات الأصليـة، كمـا نفـتـرض، مـحـدودة ولكن لا يوجـد حـد لطول الجملة، (إلا أنهـا لا بد وأن تكون مـحـدودة)، فـإن عدد الجـمل الممكنة سيكون هو نفسـه العدد المحدود للأعداد الكاملة. بالتبعية، إذا كانت "n" هـى أى عدد كامل مـحدود، فـإن هناك جملة واحـدة محددة هى الجملة "n^{th}" وتمكننا قواعدنا من تشكيلها بمعرفة "n". يمكننا الآن عمل كل التقريرات الممكنة عن تقرير السيد "A"، دون أن يكون علينا عمل تقريره. فقد نقول إن "السيد A لا يقوم بعمل تقرير يكون فيه العدد قابل للقسمة على 13" أو "كل تقريرات السيد A بأعداد أولية".

ولكن لا تزال توجـد صـعـوبات من الطراز الذى أشـار إليـه المؤلفـون بالمحـدودية. اعتـدنا التـفكير فى السلسلة الكاملة للأعداد الطبـيـعيـة على أنهـا بمدلول مـا "مـعطاة" واستغللنا هذه الفكرة لإعطاء محدودية لنظرية التقريرات الممكنة. ولكن ماذا عن الأعداد التى لم يذكرها أحد أو يفكر فيـها؟ مـا هو العدد الذى لـم يذكر فى تقرير ما؟ وإذا كـان الأمـر كذلك، فـالـعدد الذى لم يذكر أبدا يشـتـمل على تقرير ممكن، ولا يمكن دون تواتر تعريفه بواسطة مثل هذا العدد.

لا يمكن تتـبع الموضـوع حـاليـا لأنه سيـأخذنا بعمق إلى موضـوع اللغـة المنطقيـة. فلننظر فيـمـا إذا كنا بإهمـال تلك النقـاط المنطقية نسـتطيع أن نكون أكثر تحـديداً فيـمـا يتعلق بالممكنات للغة تحتوى فقط على كلمات الأشياء.

(١١)

من بين كلمات الأشـيـاء، كمـا رأينا، يوجد عدد من الأفـعـال مـثل "يجرى"، "يأكل"، "يصـيح" وحـتى بعض حـروف الجـر مـثل "فـى" و "أعلى" و "قـبل"، وكل مـا هو ضـرورى لكلمـة من كلمـات الأشـيـاء هو بعض التمـاثل بين عدد من الظواهـر يكون ظاهراً بدرجـة كافـية لإقامـة علاقـة ارتباط بين حـالات الظواهر وحـالات الكلمـة. وطريقـة إقامـة الارتبـاط هـى - مؤقتـاً - أن تكون الكلمة تسـمـع بتـكـرار عنـد مشاهدة إحـدى هـذه الظـواهر.

من الواضح أن ما يمكن تعلمه بهذا الأسلوب يعتمد على القدرة السيكولوجية والاهتمام. التماثل بين الحالات المختلفة للأكل من المرجح أن تدهش الطفل لأن الأكل مثير للاهتمام، ولكن لكى يتعلم بهذا الأسلوب معنى كلمة دوديكاجون (الشكل الاثنى عشرى الأضلاع) يحتاج الطفل إلى اهتمام هندسى يفوق اهتمام باسكال وقدرة فهم أكبر من جشتالت. مثل تلك المواهب ليست مستحيلة من الناحية المنطقية. ولكن ماذا عن "أو"؟ فى الحقيقة لا يمكنك أن توضح للطفل أمثلة لها فى العالم المحسوس. يمكنك أن تقول: "هل ترغب فى بودنج أو فطيرة؟ لكن إذا قال الطفل نعم، فلن تستطيع أن تجد ما هو "بودنج أو فطيرة". رغم ذلك فإن "أو" لها علاقة بالخبرة، فهى متعلقة بخبرة الاختيار. ولكن فى الاختيار يكون أمامنا مساران للفعل، أى فكرتين فعليتين عن مسارين للفعل. هاتان الفكرتان قد لا تشتملان على جُمل محددة، ولكن لا تغير يحدث فيما هو ضرورى إذا افترضنا أنهما محددتان. على ذلك فإن "أو" كعنصر خبرة تفترض جملاً مسبقة أو شيئًا عقليا على علاقة بحقائق أخرى بالأسلوب نفسه. عندما نقول "هذا أو ذاك" فنحن لا نقول شيئا ينطبق مباشرة على شىء ما، دائما نقرر علاقة ما بين قول "هذا" وقول "ذاك". قولنا يكون عن التقريرات وبصورة غير مباشرة عن الأشياء.

فلننظر بالطريقة نفسها إلى المقدمات السلبية التى يبدو أن لها علاقة لحظية بالخبرة. افترض أنك قد قيل لك "يوجد زبد بالكرار ولكن لا يوجد جبن". رغم أن كلا الجملتين قائمتان على خبرة محسوسة بالكرار، فإن "يوجد زبد" و "لا يوجد جبن" هما فى الحقيقة على مستويين مختلفين. هناك حدث محدد كان رؤية الزبد وربما كان هو ما وضع كلمة "الزبد" فى عقلك حتى لو لم تفكر فى الزبد. ولكن لم يكن هناك حدث يمكن وصفه بأنه "عدم رؤية جبن" أو "رؤية غياب الجبن". فلا بد وأنك قد نظرت إلى كل شىء فى الكرار وحكمت فى كل حالة بأنه "لا يوجد جبن". لقد حكمت بذلك ولكنك لم تر ذلك، لقد رأيت ما كان عليه كل شىء وليس ما لم يكن. حكمك أنه "لا يوجد جبن" لا بد وأنه توافر له كلمة "جبن" أو ما يكافئها، فى عقلك، هناك تضارب بين ما تراه والارتباطات لكلمة "جبن" وبالتالى تحكم بأنه "لا يوجد جبن". بالطبع الشىء نفسه قد

يقع مع حكم ثبوتى إذا كان يجيب على سُؤال سابق، فيمكنك أن تقول "نعم، يوجد جبن". أنت هنا تعنى "تقرير يوجد جبن صادق" وعندما تقول "هذا ليس جبنًا"، فأنت تعنى "تقرير هذا جبن زائف". فى كلا الحالين، أنت تتكلم عن تقرير، أنت لا تفعله بحكم مباشر للإدراك. بالتالى فإن الرجل الذى يفهم كلمات الأشياء فقط، سيكون بمقدوره أن يقول لك كل شىء موجود فى الكرار ولكنه لن يستطيع استنتاج أنه لا يوجد جبن. لن يكون لديه تصور عن الصدق والزيف، حيث سيمكنه أن يقول "هذا زبد" ولكن ليس "من الصدق أن هذا زبد".

(١٢)

الاعتبارات نفسها تنطبق على "كل" و "بعض". افترض أن رجلنا غير المتفلسف ذهب إلى قرية صغيرة فى ويلز فيها كل شخص يسمى ويليامز. سوف يكتشف أن "A" يسمى ويليامز و"B" يسمى ويليامز، وهكذا. ربما يكون قد قام باكتشاف ذلك عن كل شخص بالقرية ولكنه لا يستطيع معرفة أنه فعل ذلك. لكى يعرف ذلك عليه أن يعرف أن "A، B، C كلهم أناس فى هذه القرية"، ولكن ذلك مثل معرفة أنه لا يوجد جبن فى الكرار، ويشتمل على معرفة «لا أحد فى هذه القرية ليس A أو B أوC ..". وهذا لا يمكن بالطبع معرفته بالإدراك فقط.

تعد حالة "بعض "أقل وضوحًا. فى الحالة السابقة، ما لم يعرف صديقنا أن "بعض الناس فى هذه القرية يسمُّون ويليامز". وهذا مثل "البودنج – أم –الفطيرة". فمن منطلق الإدراك، لا أحد منهم يكون "بعض الناس"، فهم الناس على ما هم عليه، لأنه عن طريق اللغة فقط نفهم عبارة "بعض الناس". أينما قمنا بعمل تقرير عن "بعض" من مجموع، ستوجد احتمالات بديلة فى عقولنا، ففى كل حالة بعينها قد يكون التقرير صادقًا أو زائفًا ونؤكد أنه صادق فى حالات معينة ولكن ربما ليس فى كل الحالات. لا نستطيع التعبير عن البدائل دون إدخال الصدق والزيف، وهما مدلولان لغويان. لغة الأشياء البحتة، بالتالى لا يمكن أن تحتوى على كلمة "بعض" مثلما لا تحتوى على كلمة "كل".

(١٣)

رأينا أن لغة الأشياء على خلاف اللغات من المستويات الأعلى، لا تحتوى على كلمتى "صادق" و "زائف" بأية دلالة مهما كانت. المرحلة التالية فى اللغة هى التى فيها لا نستطيع فقط الكلام بلغة الأشياء وإنما نستطيع أيضا التكلم عنها. فى هذه اللغة التى هى من الطراز الثانى، يمكننا تعريف المعنى المقصود بأن نقول عن جملة من الطراز الأول للغة إنها صادقة. ما نعنيه هو أن الجملة لا بد وأن تعنى شيئا يمكن ملاحظته فى معطى إدراك. إذا رأيت كلبًا وقلت "كلب" فأنت قلت جملة صادقة. إذا رأيت كلبا فى مرقده وقلت "كلب فى المرقد" فأنت قلت جملة صادقة. لا حاجة هناك لأفعال لمثل هذه الجمل وربما تكونت من كلمات مفردة.

من الأشياء التى بدت محيرة عن اللغة أنه فى الخطاب العادى تكون الجمل صادقة أو زائفة ولكن الكلمات المفردة ليست كذلك، كل كلمة مفردة فى هذه اللغة يمكنها الوقوف مفردة وعندما تقف مفردة تعنى أنها تنطبق على معطى الإدراك الآنى. فى هذه اللغة، عندما تقول "كلب" فإن تقريرك يكون زائفًا إذا كان ذئبًا هو ما تنظر إليه. فى الخطاب العادى من المستحيل أن تعرف عند حدوث كلمة «كلب" ما إذا كانت تستعمل ككلمة من كلمات الأشياء أو تستعمل بطريقة لغوية كما يحدث عندما نقول "هذا ليس كلبًا". من الواضح أنه عندما يمكن استعمال كلمة «كلب" لإنكار وجود كلب وأيضا لتأكيد وجوده فإن الكلمة المفردة تفقد كل قوة تأكيدية، ولكن فى لغة الأشياء والتى تقوم عليها اللغات الأخرى، تكون كل كلمة مفردة هى تأكيد.

(١٤)

فَلْنُعِدْ كتابة الموضوع الخاص بلغة الأشياء بكليته. كلمة الشيء هى قسم من الأصوات المتماثلة أو المنطوقات التى بحكم العادة تصبح مرتبطة بقسم من الحادثات المماثلة التى تُخبر بتكرار فى الوقت نفسه كأحد الأصوات أو المنطوقات موضع

الاعتبار. هذا يعنى أنه بغرض أن .... A_3، A_2، A_1 هى مجموعة من الحادثات المتماثلة وبفرض أن .... a_3، a_2، a_1 هى مجموعة من الأصوات أو المنطوقات المتماثلة، وبافتراض أنه عندما تحدث A_1 تسمع الصوت a_1 وعندما تحدث A_2 تسمع الصوت a_2 وهكذا. بعد وقوع ذلك لعدد كبير جدا من المرات، تلاحظ حادثا A_n والذى يماثل .... A_3، A_2، A_1 ويسبب ذلك نتيجة ارتباطه، أن تنطق أو تتصور صوتا a_n والذى يشبه .... 3، a_2، a_1. فإذا كانت A هى قسم من الحادثات المتماثلة التى تكون An ... A3، A2، A1 أعضاء به وa قسم من الأصوات المتماثلة أو المنطوقات أعضائه a_n .... a_3 ، a_2، a_1 فيمكننا أن نقول إن a هى كلمة تمثل اسم القسم A أو "تعنى" القسم A. هذا يعد غامضا، حيث قد يوجد العديد من الأقسام ينطبق عليه الشرط السابق لكل من A، a. الطفل الذى يتعلم لغة الأشياء يطبق أسلوب ميل للاستحداث ويصحح أخطاءه تدريجيا. فلو كان يعرف كلبا يسمى "قيصر" فقد يعتقد أن هذه الكلمة تنطبق على كل الكلاب. من ناحية أخرى، إذا عرف كلبا يطلق عليه "كلب" فقد لا يستعمل هذه الكلمة لأىٍّ كلبٍ آخر.

لحسن الحظ فإن الكثير من الحادثات تندرج فى طرز طبيعية، ففى حياة معظم الأطفال، أى شىء يشبه القطة هو قطة، وأى شىء يشبه أم الطفل هو أمه. ولكن تعلُّم الكلام سيكون صعبًا جدا. فمن المستحيل عمليا أن تكون هناك درجة للحرارة ومعظم المواد غازية.

فإذا كنت مدفوعًا فى موقف معين لقول "قطة"، فسنقول قطة (طالما اقتصرت على لغة الأشياء) لأن بعض خصائص البيئة مرتبط بكلمة "قطة"، والذى يوحى بالضرورة أن هذه الخصائص تشبه القطط السابقة التى أدت إلى هذا الارتباط، ومع ذلك قد لا تكون تشبهها بدرجة كافية تقنع المتخصص فى علم الحيوان، فقد يكون الحيوان فهدًا صغيرًا.

(١٥)

علاقة الارتباط بين الكلمة والشيء ليس من المرجح أن تكون "صحيحة" حتى تكون قد رأيت العديد من الحيوانات التي لم تكن قططًا ولكنها بدت كما لو أنها قطط، والعديد من الحيوانات التي كانت قططًا ولكن بدت كما لو أنها ليست قططًا. ولكن كلمة "صحيحة" هنا كلمة اجتماعية تشير إلى سلوك سليم. ما إن تستدعي رؤية حيوانات معينة كلمة "قطة" لك وغيرها لا يفعل فأنت تملك لغة رغم أنها قد لا تكون صحيحة.

نظريا، إذا توافرت قدرات كافية، يمكننا أن نعبر بلغة الأشياء عن كل الحادثات غير اللغوية. يمكننا في الحقيقة ملاحظة حادثات معقدة بدرجة ما مثل "بينما كان چون يضع الحصان في العربة، انطلق الثور بسرعة وسارعت بالفرار". أو "بينما كان الستار ينزل، كانت هناك صيحات "نار" وسقوط تحت الأقدام". مثل تلك الأمور يمكن قولها بلغة الأشياء رغم أنها قد يكون من الضروري ترجمتها إلى لغة بريدية. هل من الممكن التعبير بلغة الأشياء عن حقائق مشاهدة مثل الرغبات والمعتقدات والشكوك يعد سؤالا صعبًا سأناقشه بالتفصيل في فصل لاحق.. ما هو مؤكد أن لغة الأشياء لا تشتمل على كلمات "زائف" وصادق"، أو كلمات منطقية مثل "ليس" و "أو" و "بعض" و "كل" الكلمات المنطقية سوف تكون موضوع الفصل التالي.

* * *

الفصل الخامس

الكلمـــات المنطقيـــة

(١)

فى الفصل الحالى، أرغب فى مناقشة كلمات معينة تحدث فى اللغة الثانوية وفى كل اللغات الأعلى، ولكنها لا تحدث فى لغة الأشياء. الكلمات موضع الاعتبار مميزة للمنطق. سوف أناقش بصفة خاصة "صادق" و "زائف" و "ليس" و "أو" و "بعض" و"كل".

نعرف من المنطق أن تلك المصطلحات لا يمكن تعريفها جميعًا بمدلولاتها. مشكلتنا تخص نظرية المعرفة، فنحن أقل اهتمامًا بتعريف تلك المصطلحات عن الطريقة التى نعرف بها المقدمات التى تحدث بها.

فلنبدأ بكلمات "صادق" و "زائف" و "ليس". من غير الضرورى أن يكون لدينا كلمتا "زائف" و "ليس" لأنه إذا كان P مقدمة، فإن "P – زائفة" ولا تكون "ليس –P" وهما بالقطع مترادفتان. الفرق، عمليا، هو فرق فى التأكيد. إذا كنت مهتما بالشىء، فأنت تقول "ليس P" ولكن إذا كنت مهتما بالتقرير الذى تقوله فأنت تقول " P زائفة". إذا أردت زبداً ونظرت فى خزانة ووجدت جبنًا فسوف تقول "هذا ليس زبداً" ولكن إذا قدم لك بائع الألبان للبيع مادة مكتوبًا عليها "زبد" ووجدت أنها مارجرين، فسوف تقول "لقد قلت إن هذا زبد ولكن ذلك زائف لأنك أكثر اهتماما بخداعه لك عن اهتمامك ببضاعته. مثل تلك النقاط النظرية لا تسترعى انتباهنا ويمكننا أن نتعامل مع "زائف" و"ليس" على أنهما مترادفان. فى اللغة الثانوية، تهمنا كلمات لغة الأشياء، ليس ببساطة

فى أنها أصوات أو حركات جسمية، حيث إنه بالنسبة لهذا الجانب تنتمى للغة الأشياء ولكن علـى أن لها معنى. نهتم بالعـلاقة بين كلمات الأشياء وجُمَل الأشياء من ناحية وما تشير إليه أو تعنيه من ناحية أخرى. "الكلمة" لا يمكن أن تحدث فى لغة الأشياء، ولكن "كلمة الشيء" يمكن أن تحدث فى اللغة الثانوية. افترض أن كلمات منطقية تحدث فى اللغـة الثانوية، فإن "الكلمـــة المنطقية" ســـوف تحدث أولا فى اللغـة الثالـثة. وإذا تم تعريف "الكلمات الثالثة" على أنها التى تحدث فى اللغة الثالثة وليس فى اللغة الأولية أو الثانوية، فإن "الكلمة الثالثة" تنتمى للغة الرابعة وهكذا. من الواجب فهم أن كل لغة تحتوى على كل اللغات التى من المستوى الأقل. "الكلمة" هى فى حد ذاتها، من مستوى غـير محـدد وبالتالى ليس لها معنى محدد، فإذا نسينا ذلك سوف تنجم التناقضات. خـذ على سبيل المثال التناقض بالنسبـة لـ "متعارض". يكون الخبر "متعارضا" عندما لا يمكنه أن يخبر عن نفسه وبالتالى فكلمة "طويل" متعارضة لأنها ليست كلمة طويلة ولكن كلمة "قصير" متجانسة. والآن نسأل: هل كلمة "متعارض" متعارضة؟ أى من الإجابتين سوف تقود إلى التناقض. لتجنب هذه التناقضات فإن هرمية اللغات تعد ضرورة.

كلمتا "صادق" و "زائف" كما سننظر إليهما فى هذا الفصل تنطبقان فقط على الإقرارات فى اللغة الأولية.

فى التطبيق العملى، على عكس الفلسـفة، نطلق كلمـتى "صادق" و "زائف" على الإقرارات التى سمعناها أو قرأناها أو لاحظناها قبل أن نملك الدليل الذى يمكننا من تحديد أىٍّ من الكلمتين ينطبق. قد يخبرك شخص ما أن القطط من النوع مانكس ليس لهـا ذيل ولكن لأنـه قـال لك سـابقًـا إن البـشـر من النوع مـانكس لـهم ثـلاث أرجـل فـأنت لا تصـدقه. عندما يريك قطته من النوع مـانكس فإنك تصـيح "إذن ما قلتـه كان صادقًا!". الجرائد فى وقت ما قالت إننى توفيت، ولكن بعد اختبار الدليل بعناية وصلت إلى استنتاج أن المقولة زائفة. عندما يأتى الإقرار أولا ثم الدليل بعد ذلك، توجد عملية تسمى "التفنيد" تشتمل على مواجهة الإقرار بالدليل. فى حالة إقرار باللغة الأولية، يجب أن يتكون الدليل من خبرة حسية أو من مجموعة من تلك الخبرات.

(٢)

رأينا بالفعل جملاً تصف خبرات. فإذا تحدثنا بتعميم، فإن عملية التفنيد هى كالتالى: أولا، تسمع أو تقرأ أو تنظر بعين الاعتبار لـ جملة S ثم تكون لك خبرة E ثم تلاحظ أن S جملة تصف E. فى هذه الحالة تقول إن S "صادقة". لا أعنى بذلك أن هذا تعريف لكلمة "صادق" وإنما أعنى أنه وصف للعملية التى بها تعرف أن هذه الكلمة تنطبق على جملة أولية معينة. كلمة "زائف" هى أكثر صعوبة. ولكن قبل النظر لتلك الكلمة توجد بعض الأمور التى يجب أن تقال عن كلمة "صادق".

فى المقام الأول، كلمة "صادق" قد تنطبق على نطق لجملة ما، أو على جملة أو على مقدمة. إن نطقين لجملتين هما حالتان للجملة نفسها؛ أو لجملتين هما حالتان للمقدمة نفسها، وهما إما صادقتان وإما زائفتان. وعلى ذلك فلتحديد الصدق أو الزيف فإن المقدمة هى التى تهم.

فى المقام الثانى، الجملة أو المقدمة تكون "صادقة" إذا كان لها علاقة معينة بخبرة ما. فى حالة "التفنيد"، تأتى الجملة أولا والخبرة ثانيا، ولكن هذا غير مهم من الناحية المنطقية، إذا أتت الخبرة أولا فإنها تثبت بالكيفية نفسها أن الجملة صادقة، طالما كانت الجملة "تصف" الخبرة. المقصود بكلمة "تصف" شرحناه قبلا، ولن أضيف أكثر فى المرحلة الحالية.

فى المقام الثالث، ليست كل الجُمل فى اللغة الأولية يمكن أن يقال بطريقة صحيحة أنها تصف خبرة مفردة. إذا رأيت شيئًا وقلت "هذا كلب"، فأنت تتجاوز ما يمكن رؤيته فى تلك اللحظة. للكلب ماضٍ ومستقبل، وله خصائص سمعية وشميِّة وغيرها. كل تلك الأمور تقترحها كلمة "كلب" والتى هى تكثيف لعديد من الاستنتاجات. لحسن الحظ، تندرج الكلاب فى طرز طبيعية. إذا أخذ كلبك فى المواء كالقطة، وأنتج نسلا مختلطًا من الجراء والقطيطات، فلن تسعفك الكلمات.. بالكيفية نفسها الرجل الذى يخطئ بأخذ الملح على أنه سكر قام بعمل استنتاج فحواه "ما يشبه هذا يكون مذاقة حلوًا". فى مثل هذه

الحالة، يكون الاستنتاج زائفا. إذا قال عرضا "هذا أبيض" فلن يكون قد اقترف خطأً. حتى لو أنه قال "هذا رمادى" لأنه يعنى بالرمادى ما يعنيه الناس بكلمة "أبيض"، فلن يكون قد اقترف خطأ فكريا وإنما استعمل لغة بطريقة غير معتادة. طالما أن الإنسان يتجنب الكلمات التى تمثل استنتاجات مكثفة واقتصر على الكلمات التى يمكن أن تصف خبرة مفردة، فمن الممكن لخبرة مفردة إظهار أن كلماته صادقة.

عندما أقول إن كلمة مثل "كلب" تشتمل على استنتاجات مكثفة، لا أعنى بذلك أن الاستنتاجات واعية أو متعمدة. هناك مواقف معينة تقترح عليك كلمة "كلب" وتلك المواقف مع الكلمة تثير توقعات معينة. عندما قلت "هذا كلب" فالأحداث اللاحقة قد تدهشك، ولكن عندما قلت "هذا أبيض" فلا يوجد فيما تقول أى أسباب للدهشة لما يحدث لاحقًا، أو لافتراض أنك كنت مخطئًا فى قولك إن ما رأيته كان أبيض. طالما أن كلماتك تصف خبرات آنيَّة، فالأخطاء الوحيدة الممكنة هى الأخطاء اللغوية وتلك تشتمل فقط على سلوكيات خاطئة اجتماعيا وليس على الزيف.

(٣)

نأتى الآن إلى الزيف والنفى واللذان يثيران بعض المشكلات المعقدة.

لقد اتفقنا على أنه عندما تفعل ما يسميه المنطقيون "تأكيد ليس-P". فأنت تقول إن " P زائفة". الموضوع الذى يعنينى حاليا هو: كيف يمكن للخبرة أن تظهر لك أن مقدمة ما زائفة؟ فلنأخذ بعض النفى البسيط مثل "هذا ليس أبيض". أنت تقول ذلك، كما نفترض، فى معرض نقاش مع عمال المغسلة. جملة "هذا أبيض" موجودة فى عقلك، "هذا" أمام عينيك، و "هذا رمادى" هى جملة تصف خبرتك. ولكن "هذا ليس أبيض" ليست جملة تصف ما تراه، ورغم ذلك، وعلى أساس ما تراه، فأنت متأكد أنها صادقة، بمعنى أن "هذا أبيض" زائفة. قد يجادل أحد بقوله أنت تعرف المقدمة العامة "ما هو رمادى ليس بأبيض" وأنه من ذلك، ومع "هذا رمادى" تستنتج "هذا ليس أبيض". أو قد

يقال إنك قد تواجه كلمة "أبيض" بما تراه، وتدرك عدم التوافق بينهما. فى اعتقادى أن وجهتى النظر كل منهما لها صعوباتها.

فلنكن واضحين منذ البداية بالنسبة لنقطة منطقية. من الفروض التى لا يحتوى أى منها على كلمة "ليس" أو كلمة "زائف" (أو ما يكافئها) من المستحيل منطقيا استنتاج أى مقدمات منها تشتمل على أى من تلك الكلمات. وعلى ذلك، إذا كانت هناك مقدمات سلبية فعلية، فلا بد من أن يوجد فى المقدمات الأساسية إما نفى خالص مثل "هذا ليس أبيض" أو ضمنى من طراز "P تتضمن ليس −q" على سبيل المثال "إذا كان هذا رمادى فهو ليس أبيض". المنطق لا يسمح باحتمال ثالث.

نحن نعرف بالتأكيد – رغم صعوبة القول كيف نعرف ذلك – أن لونين مختلفين لا يمكن أن يتواجدا معًا فى المكان نفسه فى مجال رؤية واحد. الموقع فى مجال الرؤية يكون مطلقًا، ويمكن تحديده بالعلاقة بمركز المجال بواسطة إحداثيين زاويين يمكن تسميتهما θ ، ∅ . ما أقوله هو إننا نعرف المقدمة التالية: "عند وقت معين وفى مجال رؤية معين، إذا كان اللون A فى المكان θ ، ∅ فلا لون آخر B يكون فى هذا المكان". ببساطة أكبر: "هذا أحمر" و "هذا أزرق" ليسا متوافقين.

عدم التوافق ليس منطقيا. الأحمر والأزرق ليسا أكثر فى عدم التوافق منطقيا عن الأحمر والمستدير. كذلك فإن عدم التوافق ليس تعميمًا من الخبرة. لا أعتقد أننى أستطيع إثبات أنه ليس تعميمًا من الخبرة ولكنى أعتقد أن ذلك من الوضوح بحيث إنه لا أحد فى أيامنا هذه ينكره. أنا لا أنكر ذلك، ولكنى متأكدٌ مما يعنيه.

(٤)

هناك مجموعتان من الخصائص المحسوسة التى لها نفس طراز عدم التوافق الذى للألوان. إحساس اللمس فى أصبع القدم له خاصية تمكننا من إرجاعه لأصبع القدم، وإحساس اللمس على الذراع له خاصية تمكننا من إرجاعه إلى الذراع. هاتان

الخاصيتان غير متوافقتين. "الحار" و "البارد"، "الصلب" و "اللين" ، "الحلو" و "المالح" كلها غير متوافقة بالنسبة للخبرات الحسية فى كل تلك الحالات نحن "نرى" عدم التوافق. ولكن يحتاج الأمر لبعض التأمل لإدراك أن عدم التوافق مثل الذى بين "أبيض" و "أسود" ليس منطقيا.

إذا اعتبرنا مثل عدم التوافقات تلك على أنها من بين المقدمات الأساسية، فلا بد وأن نفترض أننا نعرف المقدمات الأساسية العامة من الطراز "بالنسبة لكل قيمة ممكنة لـ x فإن Ø تتضمن ليس x Ψ ". هنا " x Ø" قد تكون "x زرقاء" و x Ψ قد تكون "x حمراء". فى تلك الحالة، إذا كان الحكم الإدراكى هو "هذا أزرق" يمكننا استنتاج "هذا ليس أحمر". بهذا نصل إلى مقدمة فعلية سلبية، ولكن بمساعدة مقدمة عامة ليست فعلية.

ليست هذه نظرية مرجحة أو مقبولة. قد نقول بدلا من ذلك أننا أينما ندرك "هذا أزرق" نستطيع أن نعرف كمقدمة أساسية "هذا ليس أحمر" . ولكنى لست متأكدا أن هذا سيفيدنا كثيراً. فلا بد وأن نسأل: كيف نعرف أن باستطاعتنا معرفة ذلك؟ هذا يبدو بالكاد على أنه استنتاج، ولا يمكن أن يكون استنباطا منطقيا. سوف يجرنا ذلك إلى تبنى مقدمة أساسية أكثر تعقيدا عن الأولى وهى: "من يرى الأحمر ويسأل نفسه " هل هذا أزرق؟" يعرف أن الإجابة هى "لا"".

سوف أعود إلى تلك النقطة فيما له علاقة بالمقدمات الأساسية. فى الوقت الراهن سوف أتركها دون حل.

نأتى الآن إلى كلمة "أو" ومرة ثانية أكرر أننى مهتم بالظروف التى نعرف فيها مقدمات تحتوى على تلك الكلمة من غير أن نعرف أى من البديلين هو الأصح.

الانفصالات تنجم عمليا، كما سبق أن رأينا، فى صورة اختيار. أنت ترى لافتة على الطريق تقول "إلى أكسفورد" وبعد قليل تصل إلى تفريعة فى الطريق ولا توجد لافتة. أنت عندئذ تصدق المقدمة "أكسفورد تقع على طول الطريق الذى إلى اليمين

أو أكسفورد تقع على طول الطريق الذى إلى اليسار". فى مثل تلك المواقف تحدث الانفصالات عمليا.

(٥)

من الواضح أن الانفصالات لا تشير إلى شىء فى العالم غير اللغوى أو غير النفسى. افترض أنه فى الواقع كانت أكسفورد تقع فى الطريق الذى إلى اليمين: هذا أمر غير لفظى لأنه حقيقة جغرافية ولو سلكت الطريق الذى إلى اليمين فسوف تصل إليها. بالمثل إذا كانت أكسفورد تقع على الطريق الذى إلى اليسار فليس هناك موقع محتمل ثالث "شمال أو يمين". الحقائق هى ما تكون عليه دون إبهام، وإذا كان الانفصال " P أو q" صحيحًا، فإنه يكون كذلك لأن P صادقة، أو لأن q صادقة، فإذا كانP، q تنتميان إلى اللغة الأولية، فإن "P أو q " صادقة بفضل حقيقة تعبر عنها P أو حقيقة تعبر عنها q. بالتالى فإن "أو" تعيش فى عالم المقدمات ولا يمكن أن تشكل جزءًا من أى لغة فيها كما فى اللغة الأولية، كل كلمة تنتمى مباشرة لشىء أو لمجموعة أشياء، هى معناها.

من الناحية السيكولوجية، تمثل "أو" حالة من التردد. فالكلب سوف ينتظر عند مفترق الطرق لكى يرى أى طريق ستسلكه.

إنك إذا وضعت بعض فتات الخبز على حافة النافذة، فستستطيع رؤية الطيور تسلك بطريقة يمكن التعبير عنها كالتالى: "هل أقتحم الخطر أم أظل جائعًا؟". فى إحدى المرات، ولكى أختبر قصة جحش بوريدان، وضعت قطة فى المنتصف بينها وبين قطيطتين من بناتها كانتا أصغر من أن تستطيعا الحركة: ولفترة من الوقت أدى الانفصال إلى حدوث شلل للقطة. أعتقد أن الحيوانات فى حالة التردد، رغم أنها لا تستعمل الكلمات، لديها شيئًا شبيها بدرجة ما بما يسمى "السلوك الاقتراحى" وأعتقد أن أى تفسير نفسى صالح لكلمة "أو" يجب أن يكون منطبقا بتكييف مناسب على أى سلوك يُظهر التردد.

ينجم التردد عندما نشعر بدافعين غير متوافقين، لا يكون أى واحد منهما قويا بدرجة كافية للتغلب على الآخر:

يجب عليك أن تتـــــجنب الدب

ولكن إذا هربت تجاه البحر الهائج

فـــإنك ســتـــقـــابل الدب بأنيـــابه

أما إذا لم يكن البحر شديد الهياج، فقد تصبح فى شك تام عمًا يعد الأسوأ؛ سيكون أمامك انفصال فى جسدك وليس فقط فى عقلك.

علينا أن نتذكر أننا اعتبرنا كل الخطاب آمراً بصورة أساسية: أى أنه مصمم لإحداث سلوك معين فى السامع. عندما «يصيح من هم بالخلف "إلى الأمام" ويصيح من هم بالأمام "إلى الخلف» فنتيجة ذلك على من هم فى الوسط هو الانفصال بمدلول يمكن للحيوانات أن تخبره، على سبيل المثال النمور فى الصيد عندما يحيط بها الصيادون. فى الواقـع ليس مــن الضــرورى أن يوجد غرباء ليصيحــوا "إلى الأمــام" أو "إلى الخلف". أنت نفسك قد يكون لديك الدافعان، وإذا كنت معتاداً على الكلمات فإن الدافعين سيقترحان الكلمتين، وسيكون لديك فى هذه الحال انفصال لفظى. عندما تتعرض المادة الجامدة إلى قوتين متزامنتين فإنها تأخذ طريقًا وسطًا وفقا لقانون توازى القوى ولكن الحيوانات نادراً ما تفعل ذلك ولا قائد سيارة عند مفترق الطرق يأخذ الطريق الوسط عبر الحقول. وكما فى حالة قائدى السيارات يكون الحال مع الحيوانات، فإما أن يتغلب دافع ما تماما وإما لا يكون هناك فعل على الإطلاق. ولكن عدم الفعل يختلف تماما عن ذلك الخاص بالحيوان المحاصر: فهو يشتمل على الصدام والتوتر وعـدم الراحة، فهـو ليس عـدم فعـل حقيقى، وإنما بحث عـن طريقة للوصول إلى قرار.

(٦)

الانفصال هو التعبير اللفظى لعدم اتخاذ القرار أو فى حالة السؤال، الرغبة فى البحث عن قرار.

وعلى ذلك فعندما يقرر أحد "P أو q" فلا P ولا q يمكن أخذهما على أنه يقول شيئًا عن العالم كما يكون عليه الحال عندما نقرر واحدا من البدائل، علينا أن نأخذ فى الاعتبار حالة الشخص الذى يقوم بالتقرير. عندما نقررP نكون فى حالة معينة وعندما نقرر q نكون فى حالة أخرى. وعندما نقرر"P أو q" نكون فى حالة مشتقة من الحالتين السابقتين ونكون معبرين عن هذه الحالة وليس عن العالم. حالتنا تكون "صادقة" إذا كانت P صادقة وأيضا إذا كانت q صادقة وليس العكس، ولكن هذا تعريف جديد.

ولكن قد يتم الاعتراض على ذلك، إذا علمنا "P أو q" هل من المؤكد أننا نعرف شيئا عن العالم؟ بالنسبة لهذا السؤال قد نجيب بنعم بمفهوم معين وليس بمفهوم آخر. ففى البداية نأتى للأسباب التى دعت للإجابة بلا: عندما نحاول أن نقول ما نعرفه، يجب أن نستعمل كلمة "أو" مرة أخرى. يمكن أن نقول: فى عالم فيه P صادقة، وبالمثل إذا كانت q صادقة . فى توضيحنا الخاص بمفترق الطرق، "هذا الطريق يصل إلى أكسفورد" قد تعبر عن حقيقة جغرافية، ثم "هذا الطريق أو ذاك يصل إلى أكسفورد" صادقة، بالمثل إذا كان هذا الطريق يصل إلى أكسفورد، ولكن لا توجد حالة للأمور فى العالم غير اللغوى توجد فقط عندما يصل هذا الطريق أو ذاك إلى أكسفورد. وعلى ذلك فنظرية التقابل المباشر للصدق والتى تكون صالحة فى اللغة الأولية لم تعد متاحة فيما يختص بالانفصال.

(٧)

هنا، رغم ذلك، توجد صعوبة يجب اختبارها، تضعنا أمام أسباب الإجابة المضادة لسؤالنا. عادة ما تكون الكلمة المفردة مكافئة منطقيا للانفصال. قد يحدث الحوار

التـالى بين رجل وزوجتـه: "هل وضـعت السـيدة فـلانة طفلها؟". "نعم". "هـل هو ولد أم بنت؟". "نعم". الإجابة الأخيرة، رغم أنها منطقيا مقبولة، سوف تكون مثيرة للغضب. قد يقـول أحـد "الطفل لا يكون ولدًا أو بنتًـا ولكن فـقط أحـد البـديلين". لأغـراض مـعـينة، المقدمات المشـتملة على كلمة"طفل" مكافئة للمقدمات نفسها التى بها كلمتا "ولد أو بنت" تحل مـحل كلمة "طفل"، ولكن لأغراض مـعينة أخرى يفشل التكافؤ. لو قيل لى "السيدة فلانة أنجبت طفلاً فيمكننى أن أستنتج أنها أنجبت ولدًا أو بنتًا. ولكن إذا أردت معرفة مـا إذا كانت قد أنجتب ولدًا أو بنتًا فإننى لا أرغب فى مـعرفة مـا إذا كانت قد أنجبت طفلا لأننى أعرف ذلك بالفعل. فى هذا السؤال من الضرورى فصل السيكولوجى عن المنطق. عندما نستعمل كلمة "أو" فى الحوار اليومى، نفعل ذلك، كقاعدة، لأننا فى شك ونرغب فى تحديد بديل. إذا لم تكن لنا رغبة فى تحديد البديل فسوف نقنع بكلمة تغطى الاحتمالين. إذا كنت سترث مال السيدة فلانة عندما تموت ويكون ليس لها أبناء فسوف تكون مـهتما بالسؤال عمـا إذا كان لديها طفل، ولكن سيكون من التأدب أن تسـأل عما إذا كـان ولدًا أم بنتًا. ومن الواضـح أنك تعرف بإحـسـاس مـا شـيئًـا عن العالم عندما تعرف أن طفلاً قد ولد حتى لو لم تعرف جنسه.

هل يوجد أى فرق بين الخبر المنفصل وغيره؟ إذا كان "A" ، "B" خبران، فإن "A" يكافئ منطقيا "A و B أوA وليس B " . فيمـا يتـعلق بالمنطق، يمكن لأى خبر أن يحل محله انفصال. من وجهة النظر السيكولوجية، يوجد فرق واضح. الخبر يكون انفصاليا إذا أحسسنا بالرغبة فى تحديد بدائل تكون مفتوحة، فإذا لم تكن هناك رغبة لا تكون هناك بدائل. ولكن هـذا لا يعد مـلائمـا بدرجة كافية. البدائل يجب أن تكون كما يقترح الخبر نفسه وليست احتمالات غير ذات علاقة بالموضوع. وبالتالى كلمة "ولد" لا تعتبر انفصالية لأنـها تترك السـؤال مفتوحًا "أسمـر أو أبيـض؟". فـالخـبر يكون انفصاليا إذا اقـترح سؤالاً ومـا إذا كـان يفعـل ذلك أم لا يعتمـد كلية "على اهتمامات الـفرد محل الاعتبار.

(٨)

كل معرفتنا عن العالم والتى يمكن التعبير عنها بكلمات هى بدرجة أو بأخرى عمومية، لأن كل جملة تتضمن على الأقل كلمة واحدة ليست باسم علم، وكل الكلمات من هذا الطراز هى عمومية. بالتالى، فكل جملة هى مكافئ منطقى لانفصال، يحل فيه محل الخبر بديلا من بديلين أكثر تحديداً. وما إذا كانت الجملة تعطينا إحساسا بالمعرفة أو الشك يعتمد على ما إذا كانت تترك البدائل مفتوحة وتدعو لأفعال مختلفة وانفعالات مختلفة أم لا. كل انفصال غير مستنفد منطقيا (ليس على شاكلة "A أو ليس A") يعطى بعض المعلومات عن العالم إذا كان صادقًا ولكن المعلومات قد تتركنا شديدى التردد فيما يختص بما نفعل بحيث نشعر به ونجهله.

لا شك أن الكلمات عمومية وهذا يرجع إلى حقيقة أن التقابل بين الحقيقة والجملة والذى يشكل الصدق يكون كثيراً، أى أن صدق الجملة يترك صفة الحقيقة غير محددة. عدم التحدد هذا قد يتلاشى نهائيا، وفى عملية التلاشى يحل الانفصال محل الكلمات المفردة السابقة. قد تكفينا جملة "هذا معدن" لبعض الأغراض، أما بالنسبة لأغراض أخرى مثل هذه الجملة يجب أن يحل محلها "هذا حديد أو نحاس.. إلخ" ويجب علينا أن نبحث فى تحديد الاحتمالات التى يتم التوصل إليها. لا توجد نقطة فيما يختص بالدقة اللامتناهية للغة لا نستطيع تجاوزها، فلغتنا يمكنها دائمًا أن تصبح أقل فى عدم الدقة ولكنها لا يمكن أبدًا أن تصبح بالدقة التامة.

على ذلك فالفرق بين بيان انفصالى وآخر ليس كذلك لا يرجع إلى أى فرق فى وضع الأمور الذى يجعله صادقًا، وإنما يرجع كلية إلى ما إذا كان الفرق بين الاحتمالات التى يتركها بياننا مفتوحة يعد مهمًا من عدمه.

(٩)

هناك حالة يكون فيها الانفصال ناجحًا فى الممارسة، وذلك عندما تكون الذاكرة غير كاملة. "من قال لك ذلك؟" "إما براون أو جونز ولكنى لا أستطيع أن أتذكر أيهما".

"ما هو رقم تليفون فلان؟". "أعرف أنه ٥١٤ أو ٥٤١ ولكنى غير متأكد أيهما الصحيح دون البحث عنه". فى مثل تلك الحالات كانت هناك فى الأصل خبرة أدت إلى حكم إدراكى لم يكن فيه انفصال وإذا ما بدأت العمل فى البحث عن الصدق، فسوف تثبت أحد البدائل ومرة أخرى لن يكون هناك انفصال. المقدمات الأساسية إذا كانت تعبيرات عن خبرات حالية لا تشتمل مطلقا على كلمة "أو" ما لم تكن الخبرة لفظية ولكن الذكريات قد تكون انفصالية.

نأتى الآن للمقدمات المشتملة على كلمة "بعض" أو كلمة "كل". نحن ناقشناها فى الفصل السابق إلى المدى المطلوب لإقناع أنفسنا أنها لا يمكن أن تكون موجودة فى اللغة الأولية ولكننا نريد الآن أن نعتبرها أكثر إيجابية وخاصة فى الحالات التى تقودنا لاستعمال مثل تلك المقدمات.

تنجم المقدمات عن "بعض" فى الممارسة بأربع طرق: الأولى، كتعميمات لانفصالات، الثانية عندما نكون مهتمين بالتوافق بين عنصرين عامين يعتقد أنهما ليسا متوافقين، الثالثة كخطوات فى سبيل تعميم والرابعة فى حالات الذاكرة غير الكاملة الشبيهة بالحالات التى ناقشناها فيما يختص بالارتباط مع الانفصال. فلنوضح تلك الطرق بالترتيب.

فى إيضاحنا السابق عن الطريق إلى أكسفورد، بدلا من مجرد مفترق طرق جئنا إلى مكان تتفرع منه طرق عديدة، فربما قلنا "لا بد أن أحد هذه الطرق يؤدى إلى أكسفورد. يمكن تعديد البدائل ولدينا مجرد اختصارات لانفصال " p أو q أو r..." حيث p، q، r... يمكن جمعها فى صيغة لفظية واحدة.

الطراز الثانى من الحالات يعد مثيرا للاهتمام. فقد أوضحه هاملت عندما قال: "قد يبتسم المرء ويبتسم ويكون نذلاً، على الأقل أنا متأكد أن الأمر كذلك فى الدنمارك". لقد اكتشف شخصا (هو الملك) يجمع الابتسام مع النذالة ووصل إلى المقدمة: "على الأقل فإن نذلا واحداً يبتسم". القيمة النفعية للمقدمة هى: "عندما أقابل رجلا يبتسم ويبتسم ويبتسم سوف أشك فى نذالته". إنه يفعل ذلك فى حالة روز نكرانتز وجلند شتيرن. يماثل ذلك المقدمة "بعض البجع أسود" و "بعض الطيور السوداء أبيض" وهى تحذيرات

ضد التعميمات المرجحة. نحن نضع تلك المقدمات عندما يكون التعميم أكثر أهمية لنا عن الحدث المعين - رغم أنه فى حالة هاملت كان ادعاءً تهكُّميا.

الطراز الثالث من الحالات ينشأ عندما نحاول إثبات تعميمٍ استنتاجىٍّ وأيضا عندما تقودنا وقائع إلى اكتشاف مقدمة عامة فى الرياضيات. تلك الحالات متشابهة فيما عدا أنه فى الحالة الأخيرة يتم الوصول إلى اليقين بينما فى الحالات السابقة لا يتم الوصول سوى للاحتمال. فلنأخذ الحالة الأخيرة أولا. أنت تلاحظ أن:

$$1+3^2=2^2 \;,\; 1+3+5=3^2 \;,\; 1+3+5+7=4^2$$

فتقول لنفسك "فى بعض الحالات، يكون مجموع n من الأرقام الفردية هو n2 وقد يكون هذا صادقا لكل الحالات". وما إن تطرأ هذه النظرية الفرضية لك حتى يكون من السهل إثبات أنها صحيحة. فى المادة الفعلية، يكون التعداد الكلى أحيانا ممكنًا. أنت تكتشف (مثلا) أن الحديد والنحاس وهما معدنان، موصلان جيدان للكهرباء وتشك أن هذا قد يكون صحيحًا لكل المعادن. فى هذه الحالة، يكون للتعميم نفس درجة اليقين التى للحالات الخاصة. ولكن عندما تجادل بالقول " A وB وC ماتوا وكانوا رجالاً وبالتالى فبعض الرجال فانون، وعلى ذلك فربما كل الرجال فانون" فلا يمكنك جعل تعميمك بنفس يقين حالاته الخاصة، لأنك لا تستطيع إحصاء الرجال ولأن البعض لم يموتوا بعد. أو فلتأخذ علاجًا لمرض تمت تجربته على القليل من المرضى ولكنه أثبت فى تلك الحالات نجاحه، فى مثل هذه الحالة فإن مقدمة عن "بعض" تكون شديدة النفع فى اقتراح إمكانية مقدمة عن "الكل".

فيما يختص بالذاكرة غير الكاملة، تكون الحالات مناظرة لتلك المتعلقة بالانفصالات. "أنا أعرف أن ذلك الكتاب يوجد فى مكان ما على الأرفف، لأننى رأيته بالأمس". "لقد تناولت الغذاء مع السيد ب، الذى ألقى نكتة طريفة جدا ولكن لسوء الحظ نسيتها". "توجد بعض العبارات شديدة البلاغة فى قصة "الرحلة" ولكنى لا أستطيع أن أتذكر أيا منها".

إذن فالكثير مما نعرفه عند أى وقت يتكون من مقدمات عن "بعض" ولا يمكننا، فى هذه اللحظة، استنتاجه من مقدمات خاصة بأشياء فردية ولا من مقدمات عن "الكل".

(١٠)

إن بيانا عن البعض كما أظهرت الحالات الأربع، له ثلاث طرز للاستعمال: فقد يكون خطوة فى سبيل إثبات مقدمة لها موضوع مفرد أو فى سبيل مقدمة عامة، أو قد يكون نفيا لتعميم مضاد. فى الحالة الأولى والرابعة، فإن المقدمة عن البعض المقصود به أن يؤدى إلى مقدمة لموضوع مفرد: "هذا هو الطريق إلى أكسفورد" أو "ها هو الكتاب" (مع أخذه هو على أنه الموضوع).

يوجد هذا الفرق بين الحالة الأولى والرابعة، ففى الحالة الأولى المقدمة عن البعض دائما ما تكون استنتاجا بينما فى الحالة الرابعة لا تكون كذلك. فى الحالتين الثانية والثالثة فالمقدمة "بعض S هو P" تستنتج من الحالات "S_1 هىP" ، "S_2 هىP" إلخ، وهى تخبرنا أقل مما تفعل، ولكنها تخبرنا الجزء المفيد للغرض الحالى.

ما الذى نعرفه بالضبط عندما نعرف مقدمة من الطراز "بعض S هو P" من دون أن نعرف لا "كل S هوP" ولا المقدمة من الطراز "S_1 هوP"؟ فلنأخذ كمثال "أنا أعرف أن الكتاب يوجد فى مكان ما من هذه الغرفة". توجد حالتان يبرران منطقيا قولك هذا، رغم أنه فى الحالتين لن تقول ذلك ما لم تكن منطقيا محترفًا. الأولى ستكون عندما تمتلئ الغرفة بذلك الكتاب - مثل غرفة ناشر، تمتلئ تمامًا بنسخ من كتاب معين هو الأكثر مبيعًا. يمكنك عندئذ أن تقول "كل مكان فى هذه الغرفة يحتوى على الكتاب موضع السؤال وبالتالى (حيث إن الغرفة موجودة)، فإن مكانًا ما يحتوى عليه". أو قد تكون ترى الكتاب وتجادل: "هذا المكان يحتويه وبالتالى فإن مكانًا ما يحتويه". ولكن فى الحقيقة، ما لم تكن تقوم بتدريس المنطق، فلن تجادل بهذه الطريقة. عندما تقول "الكتاب فى مكان ما من هذه الغرفة" فإنك تقول ذلك لأنك لا تستطيع أن تكون أكثر تأكدًا من ذلك.

من الواضح أن "الكتاب فى مكان ما من هذه الغرفة" لا يمكن أن يكون حكمًا إدراكيا، فأنت لا تسطيع إدراك "مكان ما"، ما تستطيع إدراكه هو "هناك". ولكن حكم الذاكرة مختلف. قد تتذكر "رأيت الكتاب عندما كنت فى هذه الغرفة"، أو شىء من هذا

القبيل. قد تتذكر قائلا "ها هو الكتاب" حينما كنت فى الغرفة. أو قد تكون لك ذاكرة لفظية تمامًا بقولك "أرى أننى وضعت ذلك الكتاب على رف". هذه عبارة عن مجرد مسببات لحكمك وليست تحليلاً له.

تحليل مثل ذلك الحكم يجب أن يكون بالضرورة مماثلا لذلك الخاص بانفصال. هناك حالة للعقل فيها تدرك "الكتاب موجود فى هذا المكان" وحالة أخرى تدرك "الكتاب موجود فى ذلك المكان" وهكذا. حالة العقل عندما تحكم "الكتاب فى مكان ما من هذه الغرفة" تشتمل على ما تشترك فيه هذه الأمور بالإضافة إلى الارتباك. وأنه نتيجة غياب الارتباك فإنك لا تصدر حكمًا فى الحالتين السابقتين يمكن استنتاجه من أحكام أكثر تحديداً. يوجد استثناء رغم ذلك من تلك القاعدة: إذا شككت فى أن الكتاب فى تلك الغرفة، ثم رأيته، فقد تقول "إذن فالكتاب بالغرفة". هذا ليس وضعنا الحالى ولكنه وضع النذل المبتسم. فى حالة الحكم عن "بعض"، كما فى حالة الانفصال، لا يمكننا تفسير الكلمات إلا بمدلول حالة العقل. ولا نستطيع فى الحقيقة تفسير كلماتنا إلا فى اللغة الأولية.

(١١)

معظم ما قلناه عن "بعض" ينطبق أيضا على "كل"، ولكن يوجد فرق مهم فيما يتعلق بالمعرفة. نحن عادة ما نعرف المقدمات عن "بعض" ويمكن إثباتها فعليا، رغم أنها لا تعبر عن حقائق من الملاحظات المباشرة. ولكن المقدمات عن "كل" تعد أكثر صعوبة فى المعرفة، ولا يمكن إثباتها أبدا ما لم تكن هناك بعض هذه المقدمات فى الفروض. وحيث إنه لا توجد مثل هذه المقدمات فى أحكام الإدراك، فقد يُعتقد أننا يجب إما أن نتنازل عن المقدمات العامة وإما أن نتخلى عن الفعلية. ولكن ذلك يتعارض مع الحس المشترك. خذ مثالاً ناقشناه مسبقًا "لا يوجد جبن فى الكرار". قد يبدو من غير المعقول الإصرار على أننا إذا قبلنا بيانا من هذا الطراز فإننا قد تخلينا عن الفعلية. أو خذ مثالا آخر ناقشناه "كل فرد فى القرية يدعى ويليامز" والذى وصلنا إليه

بالإحصاء الكامل. هناك رغم ذلك صعوبة أوضحتها أم هاملت عندما سألها إذا كانت لا ترى الشبح:

هاملت: ألا ترين أى شىء هناك؟

الملكة: لا شىء على الإطلاق رغم أننى أرى كل شىء هناك.

لقد تعجبت دائما كيف أنها رأت "كل شىء هناك"، ولكنها كانت محقة فيما يتعلق بذلك كفرض أساسى لإنكارها الشبح، وأيضا بالنسبة للرجل الذى يقول لا يوجد جبن فى الكرار، وأنه لا فرد فى القرية لا يدعى ويليامز. من الواضح أن قضية معرفتنا بالمقدمات العامة تشتمل على صعوبات لم يتم حلها بعد. أنا لست متأكدا على الإطلاق أن الفعليين على صواب عندما يرفضون كل البيانات العامة الأعلى منطقية من المقدمات الأساسية. لقد ناقشنا البيان "لا مكان منظور يشتمل على لونين مختلفين"، والذى يبدو أنه حالة إثبات. أو لنأخذ حالة لا يمكن الهروب منها. افترض أنك تعيش فى مكان ريفى منعزل وأنك تتوقع وصول صديق فى سيارة. زوجتك تقول "هل تسمع أى شىء؟" وبعد إنصاتك للحظة تجيب "لا". فهل تخليت عن الفعلية عندما أعطيت هذه الإجابة؟. لقد ألزمت نفسك بتعميم عجيب وهو : "كل شىء فى الكون ليس صوتًا مسموعًا الآن لى". ولكن يمكن القول بأن هذه الخبرة لا تبرر بيانك. أعتقد بالتالى أنه بعيد عن المنطق، فإننا نعرف بالفعل مقدمات عامة مخالفة للتعميمات الاستنتاجية. ولكن هذه القضية شديدة التعقيد وسأعود إليها فى فصل لاحق. أما فى هذه اللحظة فإننى أرغب فقط فى الدخول فى تحذير.

(١٢)

السؤال الذى ينجم هو: هل الكلمات المنطقية تشتمل على أى شىء سيكولوجى؟ قد ترى شيئًا وتقول "هذا أصفر" وبعد قليل قد تقول "لقد كان أصفر أو برتقاليا ولكنى لا أتذكر أيهما". يكون للمرء إحساس بأن فى مثل تلك الحالات فالأصفر كان

حقيقـة مـن حقائق العالم بينما "أصفر أو برتقالى" فتوجد فقط فى عقل شخص ما. من الصعـوبة الشـديدة تجنب الاضطراب فى مناقشة هذه القضية، ولكنى أعتقـد أن ما يمكن قوله هو: أن العالم غير العقلى يمكن وصفه بالكامل دون حاجة إلى استخدام أى كلمات منطقية، ولكننا لا نستطيع بدون كلمة "كل" أن نقول إن الوصف يعد كاملا. ولكن عندما نأتى للعالم العقلى فإن هناك حقائق لا يمكن ذكرها بدون استـعمال الكلمات المنطقية. فى الحالة السابقة، تذكرت أنه كان أصفر أو برتقاليا، وفى وصف كامل للعالم، فإن هـذا التذكر يجـب ذكره، ولا يمـكن ذكره بدون استعمـال كلمة "أو" أو ما يكافئها. وعلى ذلك، فطالما كلمة "أو" لا تحدث فى المقدمات الأساسية للفيزياء، فإنها تحـدث فى بعض المقدمات الأسـاسـية فى السيكولوجى لأنها حـقـيقـة يمكن مشاهدتها حيث إن الناس أحيانا ما يصدقون الانفصالات. ينطبق ذلك أيضا على كلمات "ليس"، "بعض" و "كل".

إذا كان ذلك صـــادقًا، فــهو مهم. يظهر ذلك بوضـــوح فـى المثال التالى، نحن لا نستطيع قبول تفسير واحد ممكن للمقولة التى يسميها كارناب "الفيزيائية" والتى تقرر أن كل العلم يمكن التعبير عنه بلغة الفيزياء. قد يمكن الاقتناع بأنه عند وصف ما يحدث حين يعتقد شخص فى "P أوq" ، " فإن "أو" التى يجب أن نستعملها ليست هى نفسها "أو" المنطقية. ومن المكن الاقتناع عمومًا، أنه عندما نقرر أن " A يصدقP" أن A" وأن الفرق لا بد وأن يتضح بكتابة " P ليست هـى نفسـها كما عندما نقرر "P يصدق'P' ". إذا كنا نتحدث عما يقوله A وليس على ما يصدقه، فلا بد أن نقوم بهذا التمييز. يقول A "حريق"، ونقول "A يقول "حريق"" . عندما نقول "حريق" تقع على أنها تمثل كلمة، بينما فيما يقوله A تمثل شيئًا. هذا السؤال برمته شديد الصعوبة وسوف أناقشه فى فصل لاحق فيما له علاقة بالسلوكيات الافتراضية. ومع ذلك فيجب أن نفطن إلى أن الكلمات المنطقية رغم أنها ليست بالضرورة تصف حقائق مادية، إلا أنها لا غنى عنها فى وصف بعض الحقائق العقلية.

* * *



الفصل السادس

أسمــاء الأعــلام

(١)

من المعتاد فى المنطق تقسيم الكلمات إلى أقسام: أسماء، مسندات، علاقات ثنائية، علاقات ثلاثية.. إلخ. ليس هذا كل الكلام، فهو لا يشتمل على الكلمات المنطقية، ومن المشكوك فيه فيما إذا كان يشتمل على كلمات «السلوكيات الاقتراحية" مثل "يصدِّق"، "يرغب"، "يشك" .. إلخ. هناك صعوبة أخرى تخص الضمائر الفردية مثل "أنا"، "هذا"، "الآن"، "هنا" .. إلخ.

السلوكيات الاقتراحية والضمائر الفردية سوف نناقشها فى سياقها المحدد، أما حاليا، فإن الأسماء هى ما أرغب فى مناقشته.

لتجنب الإسهاب، سوف أتحدث عن المسندات متى كان ذلك مناسبًا على أنها "علاقات أحادية". وعلى ذلك فنحن مهتمون بالتمييز بين الأسماء والعلاقات وبالتالى علينا طرح سؤالين:

١ - هل بمقدورنا اختراع لغة ليس بها تمييز بين الأسماء والعلاقات؟

٢ - إذا لم يكن ذلك ممكنا، فما هو الحد الأدنى من الأسماء الذى يكون مطلوباً والتى تمكننا من التعبير عما نعرفه أو نفهمه؟

وفيما يتصل بهذا السؤال، فأى من الكلمات العادية يمكن اعتبارها أسماء.

بالنسبة للمشكلة الأولى، ليس لدى سوى القليل لأقوله. قد يكون من الممكن اختراع لغة ليس بها أسماء ولكن بالنسبة لى فأنا غير قادر بالمرة على تصوّر مثل تلك اللغة. هذا ليس جدلاً استنتاجيا فيما عدا ذاتيته؛ فهو ينهى قدرتى على مناقشة الموضوع.

إن غرضى هو اقتراح وجهة نظر قد تبدو للوهلة الأولى مكافئة لإلغاء الأسماء. أنا أقترح إلغاء ما يسمى عادة بالضمائر، وأقتنع بكلمات معينة يمكن اعتبارها كونيات مثل "أحمر"، "أزرق"، "لين" وغيرها. تلك الكلمات، هى كما أقترح، أسماء بالتعريف النحوى، وأنا لا أبحث بالتالى عن إلغاء الأسماء، ولكنى أقترح توسيع كلمة "اسم" بصورة غير عادية.

فلنبدأ بتعريف كلمة "اسم". لهذا الغرض لا بد أولا من تعريف "الصور الذرية".

تكون الجملة على الصورة الذرية عندما لا تحتوى على أى كلمات منطقية أو على أى جملة تابعة. فيجب ألا تحتوى على "أو" و "ليس" و "كل" و "بعض" أو ما يكافئ أيا منها، ويجب ألا تكون على شاكلة "أعتقد أنها ستمطر" لأنها تشتمل على الجملة التابعة "إنها ستمطر". إيجابيا، تكون الجملة من الطراز الذرى إذا اشتملت على كلمة ذات علاقة واحدة (قد تكون خبراً) وأصغر عدد من الكلمات الأخرى لتكوين جملة. إذا كانت R_1 خبرا، R_2 علاقة ثنائية، R_3 علاقة ثلاثية.. إلخ ، فإن

$$R_1 (x) \ , \ R_2 (x, y) \ , \ R_3 (x, y, z) \ldots\ldots$$

ستكون جملا ذات شكل ذرى بشرط أن تكون X, Y, Z كلمات تجعل الجمل معنوية.

إذا كانت $R_n (X_1 ، X_2 ، X_3 \ldots. X_n)$ جملة من الشكل الذرى، فيها X_n علاقة من الدرجة n فإن $X_1 ، X_2 \ldots. X_n$ عبارة عن أسماء. قد يتم تعريف "الاسم" على أنه كلمة يمكن أن تحدث فى أى نوع من الجمل الذرية، أى فى جملة تكون موضوع خبر أو جملة بها علاقة ثنائية أو جملة بها علاقة ثلاثية، وهكذا. الكلمة التى ليست اسماً،

إذا كان من الممكن أن تحدث فى جملة ذرية، فإنها يمكن أن تحدث فى جملة ذرية من نوع واحد؛ مثل إذا كانت R_n علاقة من الطراز n فإن النوع الوحيد من الجملة الذرية الذى يمكن أن تقع فيه R_n هو $Rn(X_1 ، X_2 ، X_3 ....X_n)$. يمكن للاسم أن يقع فى جملة ذرية تشتمل على أى عدد من الكلمات، فى حين أن العلاقة لا تحدث إلا فى توفيقه مع عدد محدد من الكلمات الأخرى المناسبة لتلك العلاقة.

(٢)

يوفر ذلك تعريفًا نحويا لكلمة "اسم". يجب أن يلاحظ أنه لا توجد افتراضات ميتافيزيقية فى مدلول "الأشكال الذرية". فتلك الافتراضات تظهر فقط إذا افْتُرِضَ أن الأسماء والعلاقات التى تظهر فى جملة ذرية غير قابلة للتحليل. فيما يتعلق بمشكلات معينة، قد يكون من المهم معرفة ما إذا كانت مدلولاتنا يمكن تحليلها، ولكن فيما يتعلق بالأسماء، فإن ذلك لا يعد مهما. الأسلوب الوحيد الذى يمكن به لأى سؤال مشابه أن يدخل إلى النقاش الخاص بالأسماء هو ما يختص بالأوصاف والتى عادة ما تتخفى كأسماء. ولكن حين تكون الجملة من الشكل

"x التى تفى x $\varnothing$ تفى x Ψ "

نحن نفترض مسبقا وجود جملة من الطراز "$\varnothing\,\alpha$" والطراز "Ψ a" بحيث إن α هو اسم. بالتالى فالسؤال عما إذا كانت جملة ما هى اسم أو وصف يمكن إهماله فى النقاش الأساسى لمكان الاسم فى النحو. لغرضنا الحالى، ما لم ينجم سببٌ لعكس ذلك، فقد نقبل الاسم مهما كان اعتباره، مثل: توم وديك وهارى، الشمس والقمر، إنجلترا، فرنسا.. إلخ. ولكن عندما نتقدم، فسوف يظهر أنه حتى لو كانت هذه الكلمات أسماء فإنها فى أغلبها ليست حتمية للتعبير عمًا نعرفه. وعلى العكس من ذلك، فرغم أن بعضها حتمى، فأنا أعتقد أنها تصنف كأسماء وكلها كلمات لا تصنف عادة على هذا النحو.

(٣)

الأسماء، بالضرورة، من طرازين، تلك التى تشير إلى جزء مستمر من المكان - الزمان، وتلك التى لها تعريف ضمائرى مثل "أنا"، "أنت"، "هذا" ، "ذاك". هذه الفئة الأخيرة من الكلمات سأرجئ مناقشتها، ولكن حاليا سأهملها. نحن مهتمون فقط ببعض الأسماء التى تشير بلا غموض بالأساس إلى شق مستمر من المكان - الزمان.

السؤال الأول هو: كيف نميِّز بين منطقة من المكان-الزمان ومنطقة أخرى؟. يقود هذا فى النهاية إلى أسئلة مثل: إذا كان فى نيويورك برج إيفل مماثلاً تماما لذلك الموجود فى باريس، هل يكون هناك برجا إيفل أم برج إيفل واحد فى مكانين؟ إذا كان التاريخ يعيد نفسه، فهل يكون العالم فى حالتين متماثلتين تمامًا فى مناسبتين مختلفتين أم أن حالة واحدة هى نفسها تتكرر مرتين، أى تسبق نفسها؟ الإجابات على تلك الأسئلة هى جزئيا عرفية، وعلى أى حال، لا غنى عنها لنظرية الأسماء.

نظرية الأسماء أُهمِلَت لأن أهميتها واضحة فقط لعلماء المنطق والذى تظل الأسماء بالنسبة لهم افتراضية تمامًا لأنه لا مقدمة للمنطق يمكن أن تشتمل على أية أسماء فعلية. بالنسبة لنظرية المعرفة، من المهم أن نعرف نوع الأشياء التى يمكن أن يكون لها أسماء، بافتراض أن هناك أسماء. من المغرى اعتبار "هذا أحمر" مقدمة موضوع - خبر، ولكن إذا فعلنا ذلك سنجد أن "هذا" تصبح مادة، شىء من غير الممكن معرفته يتلازم معه الخبر ولكنه رغم ذلك ليس مطابقًا لمجموع مسنداته. مثل هذه النظرة مفتوحة لكل الاعتراضات الشائعة لمفهوم المادة. ولكن لها بعض المزايا فيما يختص بالفراغ-الزمن. إذا كانت "هذا أحمر" مقدمة تنسب خاصيته إلى مادة، وإذا كانت المادة ليست محددة بمجموع مسنداتها، فمن الممكن "لهذا" و"ذاك" أن يكون لهما المسندات نفسها دون أن يتطابقا. قد يكون ذلك ضروريا إذا كان علينا أن نقول، إن برج إيفل الذى افترضنا أنه موجود فى نيويورك لن يكون مطابقًا لذلك الموجود بباريس.

(٤)

أرغب فى اقتراح أن "هذا أحمر" ليس مقدمة موضوع أو خبر، وإنما من طراز "الاحمرار هنا"، إن "أحمر" هو اسم وليس خبر وأن ما يمكن أن يسمى عادة "شيئًا" ليس إلا حزمة من الخصائص المرتبطة ببعضها مثل الاحمرار، الصلابة.. إلخ. إذا تبنينا هذه النظرة فإن ذاتية الشيء الذى لا يمكن تمييزه تصبح تحليلية، وبرج إيفل المفترض وجوده فى نيويورك سيكون مطابقا تماما لذلك الموجود بباريس إذا كان لا يمكن فعلا تمييز الآخر عنه. يتطلب هذا عند تحليله أن العلاقات المكانية والزمانية مثل "إلى اليسار من" أو "قل" يجب ألا تتضمن تعدداً. تنجم تلك الصعوبات فى بناء المكان-الزمان كما هو مطلوب فى الفيزياء. وتلك الصعوبات يجب التغلب عليها قبل أن تصبح وجهة النظر التى اقترحتها ممكنة. أعتقد أنها يمكن التغلب عليها ولكن فقط بالتسليم ببعض المقدمات على أنها فعلية ومشكوك فيها والتى بدت مؤكدة مثل "إذا كان A إلى اليسار من B فإن A و B ليسا متطابقين" حيث A و B هما أقرب الطرق "للأشياء تسمح به نظريتنا.

فلنقم أولا بإنشاء مجموعة مفيدة من المفردات اللفظية. فلنعط الاسم "خصائص" لدرجات معينة من اللون، درجات معينة من الصلابة وأصوات تتحدد تمامًا بالنبرة والعلو وبأى خصائص أخرى مميزة، وهكذا.

فرغم أننا لا نستطيع بالإدراك وحده أن نفرق بين التماثل التام والتقريبى سواء فى اللون أو الخصائص الأخرى، فإننا نستطيع بالخبرة أن نصل إلى تصور التماثل التام، حيث إنه يكون حادا، بينما التماثل التقريبى ليس كذلك. ففى مساحة للنظر يمكننا تحديد لونها على أنه المجموعة من المساحات المرئية المماثلة لها فى اللون ولكل منها، وليست كلها مماثلة فى اللون لأى شيء خارج المجموعة. بهذا التحديد افترضنا أنه حين توجد أى درجة للون فى مساحتين مرئيتين، فإن كل مساحة للرؤية يمكن إعطاؤها اسمًا، أى أننا افترضنا فى الحقيقة فرقًا بين هذا وذاك، بخلاف الخاصية وهو ما اعتزمنا تجنبه. فلنقبل إذن الخصائص على أنها عناصر غير محددة فى الوقت

الحالى، ونعود مرة أخرى إلى موضوع التفرقة بين اثنتين من الخصائص شديدتى التماثل لدرجة لا يمكن معها تمييزهما بالإدراك اللحظى.

الحس المشترك يعتبر أن "الشىء" له خصائص ولكنه ليس كما تحدده الخصائص، وإنما يتحدد بموقعه فى المكان-الزمان. أود أن أقترح أنه أينما وجد، بالنسبة للحس المشترك، "شىء" له الخاصية c، فيجب أن نقول، بدلا من ذلك، إن c نفسها توجد فى ذلك المكان وأن "الشىء" يجب أن يحل محله مجموعة الخصائص الموجودة فى المكان موضع الاعتبار. على ذلك، فإن c تصبح اسمًا وليس خبرًا.

(٥)

السبب الرئيسى لتفضيل هذه النظرة هو أنها تتخلص من الذى لا يمكن معرفته. نحن نعرف الخصائص وليس الموضوع الذى من المفترض أن تشترك معه. إدخال غير الممكن معرفته ممكن عموما، وربما يمكن تجنبه دائما بآلية تكنيكية مناسبة ومن الواضح أنه يجب تجنبه ما أمكن ذلك.

الصعوبة الرئيسية فى وجهة النظر التى أوضحتها هى ما يتعلق بتعريف "المكان". فلنر ما إذا كانت هذه الصعوبة يمكن التغلب عليها.

افترض أننا نرى فى الوقت نفسه بقعتين لهما درجة معينة من اللون c ولتكن إحداثيات الزاوية لبقعة منهما فى مجال النظر هما ∅ و θ وللبقعة الأخرى ∅ و θ. إذن يمكن القول إن c هى فى الموقع (∅ ، θ) وأيضا فى الموقع (∅ ، θ).

إحداثيات زاوية شىء ما فى مجال الرؤية يمكن اعتبارها خصائص. وبالتالى (∅ ، θ، c) هى حزمة من الخصائص و (∅ ، θ، c) حزمة أخرى. إذا عرَّفنا "الشىء" على أنه حزمة الخصائص (∅ ، θ و c) فقد نقول إن هذا الشاهد فى المكان (∅ ، θ) وليس فى المكان (∅ ، θ).

ولنمد هذه العملية إلى بناء مكان - زمان فيزيائى. إذا بدأت من جرينتش مع كرونومتر جيد، أو بجهاز استقبال استقبل فيه رسالة يومية عند الظهر بتوقيت جرينتش فيمكننى تحديد خط الطول والعرض بالمشاهدة. بالمثل، أستطيع قياس خط الطول. وبالتالى يمكننى تحديد ثلاث إحداثيات تحدد موقعى بالنسبة لجرينتش وجرينتش نفسها يمكن تحديدها بمشاهدات مماثلة. ويمكن للتبسيط معاملة الإحداثيات الخاصة بمكان كخصائص، وفى هذه الحالة يمكن تعريف المكان على أنه إحداثياته، وبالتالى نثبت بالتحليل أن من غير الممكن أن يكون لمكانين الإحداثيات نفسها. هذا كله طيب جدا، ولكنه يخفى عنصر الحقيقة الفعلية التى عليها تعتمد استخدامات خطوط الطول والعرض. افترض أن سفينتين على بُعد عشرة أميال من بعضهما ولكن باستطاعتهما رؤية بعضهما البعض. وبالتالى، إذا كانت أجهزتهما دقيقة بدرجة كافية ستعطى قيمًا مختلفة لخطوط الطول والعرض للسفينتين. هذا موضوع للحقائق الفعلية وليس للتعريفات لأننى عندما أقول إن السفينتين على بُعد عشرة أميال من بعضهما، فإننى أقرر شيئًا يمكن إثباته بالمشاهدة المستقلة عن ما تحدده خطوط الطول والعرض. والهندسة كعلم فعلى تتعلق بتلك الحقائق المشاهدة على النحو التالى: إذا كانت المسافة بين السفينتين محسوبة من الفرق بين خطوط الطول والعرض لهما فسوف نحصل على النتيجة نفسها كما لو كانت محسوبة بواسطة المشاهدة المباشرة من إحدى السفينتين للأخرى. كل تلك الحقائق المشاهدة تجمعها حقيقة أن الفراغ إقليدى وأن سطح الأرض كروى.

(٦)

إذن فالعامل الفعلى يدخل فى الاعتبار عندما نشرح فائدة خطوط الطول وخطوط العرض وليس عندما نعطى التعريف. إذن فخطوط الطول والعرض تتعلق بقوانين طبيعية، بأشياء أخرى ليست متعلقة بها منطقيا. فمن الأمور الفعلية أنك إذا رأيت أن مكانين بعيدين جدا عن بعضهما، فلن يكون لهما خط الطول وخط العرض نفساهما،

وهذا ما يجب بالطبع التعبير عنه بقولنا إن مكانًا على سطح الأرض يتحدد بموقعه من خط الطول وخط العرض.

عندما أقول إن الاحمرار يمكن أن يوجد فى مكانين فى اللحظة نفسها، أعنى أن الاحمرار يمكن أن يكون له مع نفسه واحدة أو أكثر من العلاقات الفراغية والتى وفقًا للحس المشترك لا يمكن "لشىء" أن تكون له مع نفسه. الاحمرار قد يكون إلى يمين الاحمرار، أو فوق الاحمرار، وقد يكون فى أمريكا أو أوروبا بالمدلول الفيزيائى. وبالنسبة للفيزياء فهو شىء لا يمكن أن يوجد بأمريكا وأوروبا فى الوقت نفسه، ولا يمكن اعتبار أى شىء على أنه "شىء" ما لم يحتل شقا مستمرا من الفراغ -الزمن، والذى لا يوفره الاحمرار. وفوق ذلك فالذى يحتل أكثر من نقطة فى المكان -الزمان لا بد، من وجهة نظر الفيزياء، أن يكون منقسمًا إلى "أشياء" أصغر.

غرضنا إذن هو البناء من الخصائص حزمًا لها الخواص المكانية -الزمانية التى تتطلبها الفيزياء فى "الأشياء". فخطوط الطول، وخطوط العرض والارتفاع هى بالطبع ليست خصائص مرئية ولكنها تتحدد بمدلول الخواص، وبالتالى فإنه تجنب غير ضار – للالتفاف حول المعنى– أن يطلق عليها خصائص. فهى، على خلاف الاحمرار، لها الخصائص الهندسية الضرورية. إذا كانت h، Ø، θ هى خط عرض، وخط طول، وارتفاع، فسوف نجد أن الحزمة (h ، Ø، θ) لا يمكن تكون شمالاً أو جنوبًا أو شرقًا أو غربًا أو فوق أو تحت، كما يمكن للاحمرار أن يكون. وإذا حددنا "مكانًا" بالإحداثيات (h ، Ø، θ)، فإن العلامات الفراغية سوف يكون لها الخصائص التى نتوقعها منها، أما إذا حددناها بواسطة تلك الخصائص مثل الاحمرار والصلابة فلن يكون لها ذلك.

كان ذلك عن المكان – فلنتحدث عن الزمان.

فيما يختص بالزمن، نحن نرغب فى إيجاد أشياء فعلية يكون الزمن بالنسبة لها متسلسلاً، أى أننا نرغب فى إيجاد قسم يتحدد بمدلول أشياء يمكن رؤيتها، مثلاً إذا كانت x ،y ، z أعضاء فى القسم فسوف يكون:

١ – X لا تسبق X.

٢ – إذا كانت X تسبق Y، و Y تسبق Z فإن X تسبق Z.

٣ – إذا كانت X، Y مختلفتين، فإن X إما تسبق Y أو Y تسبق X.

يمكن فى البداية إهمال الشرط الثالث من هذه الشروط والذى ينطبق فقط على اللحظات وليس على الأحداث. بناء اللحظات كأقسام من الأحداث يعد مشكلة ناقشتها فى مكان آخر. ما يزيده هو قسم من الأحداث لها مرحلية مميزة تشبه التميز المكانى لخطوط العرض والطول والارتفاع. اصطناعيا، يمكننا أخذ التاريخ والزمن ليوم كما يتحدد بواسطة مرصد. ولكن الأخطاء هنا ممكنة، نحن نريد بقدر الإمكان شيئًا أقل اصطناعًا.

(٧)

استخدم إدنجتون لهذا الغرض القانون الثانى للديناميكا الحرارية. عيوب ذلك أن القانون ينطبق على الكون بكامله، وقد يكون من الزائف تطبيقه على أى حجم محدود ولكن الأحجام المحدودة فقط هى التى يمكن مشاهدتها. فرغم أن طريقة إدنجتون قد تكون كافية للعلم الكلى فهى ليست كافية لنا من الناحية الفعلية.

ذاكرة برجسون، إذا كان من الممكن الاعتقاد فيها، قد تخدم غرضنا تماما، فوفقا له، لا شىء نخبره يُنسى على الإطلاق، بالتالى، فذكرياتى فى وقت سابق هى تحت قسم لذكرياتى لوقت لاحق له. ذكرياتى الكلية فى أوقات مختلفة يمكن بالتالى أن تتسلسل مرتبة وفقا لعلاقات الأقسام التى تنتمى إليها ويمكن أن يتسلسل الزمن بالتزام مع الذكريات الكلية. ربما يمكن استخدام الذاكرة لغرضنا دون افتراض أن شيئًا لا يُنسى، ولكنى أميل للشك فى ذلك. على أى حال، الذاكرة عديمة القيمة فى علاقتها بالأزمنة الجيولوجية والفلكية والتى تشتمل على فترات لم توجد فيها أية ذاكرة.

قبل الانتقال إلى البحث عن قسم من الأحداث له الخصائص المرغوبة، فلنناقش بدقة أكبر الذى نفترضه. نحن نفترض أن هناك خصائص فقط وليس حالات من

الخصائص، وحيث إن درجة معينة من اللون يمكن أن توجد فى زمنين مختلفين، فيمكن أن تسبق نفسها، وبالتالى "السبق" ليس عدم تناظر عام وإنما سوف يكون كذلك، فى أفضل الأحوال، فيما يتعلق بطراز معين من الخصائص أو حزم الخصائص. وليس من الضرورى من الناحية المنطقية أن مثل هذه الطرز من المحتم أن توجد، وإذا وجدت، فستكون حقيقة فعلية محفوظة.

(٨)

تصور الكثيرون من الكُتَّاب أن التاريخ له دورات وأن الحالة الحالية للعالم كما هو عليها الآن تمامًا سوف تحدث مرة أخرى عاجلاً أو آجلاً. كيف نبين هذه النظرية الفرضية من وجهة نظرنا؟ سيكون علينا أن نقول إن الحالة الأخيرة ستكون مطابقة عدديا للحالة السابقة ولا يمكننا القول إن هذه الحالة تحدث مرتين، حيث إن ذلك سيوحى بنظام للتأريخ يكون وفقًا للنظرية الفرضية مستحيلا. سيكون الوضع مشابهًا لذلك الرجل الذى يسافر حول العالم: إنه لا يقول إن نقطة بدايته ونقطة وصوله هما نقطتان مختلفتان أو مكانان متماثلان تمامًا، ولكنه يقول إنهما المكان نفسه. النظرية الفرضية التى تقول إن التاريخ له دورات يمكن التعبير عنها على النحو التالى: من مجموعة كل الخصائص المناظرة لخاصية معينة، فى حالات معينة تسبق المجموعة الكلية لهذه الخصائص نفسها. أو: فى تلك الحالات، كل مجموعة من الخصائص المتزامنة مهما كانت كبيرة، تسبق نفسها. مثل تلك النظرية لا يمكن اعتبارها مستحيلة منطقيا طالما أننا نقول إن الخصائص فقط هى التى تحدث، ولكى نجعلها مستحيلة، علينا افتراض موضوعٍ لحظِىٍّ للخصائص ونصر على أن هذا الموضع لا يدين بذاتيته لخاصيته ولكن لموقعه المكانى-الزمنى.

الذاتية التى لا يمكن التأكد منها والتى والتى تنبع تحليليا من نظريتنا، يرفضها وتجنشتين وآخرون على أساس أنه حتى إذا اتفق a ، b فى كل خصائصهما، فقد

يظلان اثنين، هذا يفترض أن الذاتية لا يمكن تعريفها. إضافة لذلك، فإنه يجعل الإحصاء مستحيلاً نظريا. افترض أنك تريد عدَّ مجموعة من خمسة أشياء A ،B ،C ،D ،E وافترض أن B، C لا يمكن تمييزها عن بعضهما. يتبع ذلك بالتالى أنك ستستنتج أن هناك أربعة أشياء هى التى يمكن عدُّها. القول بأن B، C هما "حقيقة" شيئان، رغم أنهما يبدوان واحداً، معناه أن تقول إن B، C لا يمكن تمييزهما عن بعضهما مطلقًا وهو ما ليس له معنى على الإطلاق. بالتأكيد يجب أن أعتبر ذلك هو الميزة الرئيسية للنظرية التى أروِّج لها وهو أنها تجعل ذاتية ما لا يمكن التأكد منه تحليلية.

(٩)

فلنعد الآن إلى البحث عن مجموعة الخصائص أو مجموعات الخصائص، التى لها الصفات المطلوبة لبناء السلسلة الزمنية. لا أعتقد أنه يمكن عمل ذلك دون أن نأخذ فى الاعتبار القوانين الفعلية، ويتبع ذلك أنه لا يمكن عمل ذلك بيقين. ولكن طالما أننا لا نبحث عن اليقين المنطقى فيمكننا الوصول إلى ما هو كافٍ فعليا بواسطة ما سبق أن رفضناه، مثل الذاكرة والقانون الثانى للديناميكا الحرارية. ليست كل القوانين السببية التى نعرفها قابلة للانعكاس، والتى لا تقبل الانعكاس توفر وسيلة للتأريخ. من السهل بناء ساعة، وبالإضافة إلى إظهارها للساعات والدقائق، تظهر كل يوم عدداً يكون أكبر بواحد عن العدد الذى تظهره فى اليوم السابق. بهذه الوسيلة يمكننا التأكد من أن لدينا معقداً من الخصائص التى لن تعود إلى الحدوث بأى حال ما استمرت مدنيتنا. أكثر من هذا لا نستطيع أن نعرف، رغم أننا قد نجد سببا للاعتقاد أن عودة الحدوث بالدقة نفسها على نطاق واسع غير محتمل بدرجة كبيرة.

استنتاجى هو أن الخصائص تكفى، من غير أن يكون علينا افتراض أن لها حالات. لقد اختزلنا خصائص معينة من العلاقات المكانية - الزمنية إلى المستوى الفعلى مما يهدد الحقائق العامة المبدئية لأن تصبح تخليقية.

من ناحيـة نظرية المعرفـة، يظل هـناك سـؤال تجب الإجابة عليه قـبل اعتـبـار أن نظريتنا قد أقيمت. إنه جزء من السؤال الأكبر عن العلاقة بين الدقة النظرية والضبابية الحسية. كل العلوم تستعمل نظريات هى من الوجهة النظرية دقيقة ولكنها فى الممارسة تكون ضبـابية بدرجة أو بأخرى. "مـتر واحـد" ثم تعريفه بكل العناية الممكنة بواسطة الحكومـة الثورية الفرنسية على أنه: المسافة بين علامـتين على قضيب معين عند درجة حـرارة معينة. ولكن كانت هناك صعـوبتـان: العلامات ليست نقاطًا ودرجــة الحــرارة لا يمكن تحديدها بدقة. أو خذ مـحددات الزمن وليكن منتصف الليل بتوقيت جرينتش عند نهـاية ٣١ ديسمـبر عـام ١٩٠٠ (اعـتقد الإنجليز أن هذا التـاريخ هو نهـاية القرن التاسع عشر ولكن كان يجب عليهم أن يجعلوا الظهر فى بيت لحم يحل محل جرينتش) منتصف الليل يمكن تحديده بالمشاهدات فقط وبالكرونومترات، ولكن لا توجد مشاهدة دقيقة دقة تامة. أى أن هناك فترة مـحددة من الزمن يكون خلالها أى كرونومتر يبدو وكأنه يشير إلى منتصف الليل، وأكثر من ذلك، فلا يوجد كرونومتـر صـحيح بدقة كافية. وتبعا لذلك فـلا يمكن لأحد أن يعرف بالضـبط متى انتـهى القرن التـاسـع عشـر. هناك نظرتـان يمكن أخذهمـا من هذا الوضـع: الأولى، هـى أنه كانت هناك لحظة محـددة انتهى عندها القرن والثانية هى أن الدقة وهمية والتأريخ الدقيق محال.

(١٠)

فلنطبق معـايير مماثلة على حالة الألوان والتى تهم مشكلتنا الحـالية. لقد افـترضت أن اسم العلم يجب أن يعطى لكل درجـة من اللون، ولكن درجـة اللون لـهـا نفس درجـة الدقة مثل التاريخ المضبوط أو المتر المضبوط، ولا يمكن أن يتحدد فى الممارسة.

هناك طريقة مـقررة تنطبق على كل الحـالات التى نرغب فى أن نـخرج منهـا، من شىء يدرك بالحس، إلى نظرية لها ضبط ليس جزءًا من المعطى. هذه وسيلة للمرور من عدم التمييز إلى الذاتية. فلتكن "S" ترمز "لعدم التمييز". إذن البقعتان من اللون، قد

نشاهد أن درجة بقعة منهما لها العلاقة "S" مع درجة البقعة الأخرى. يمكننا إثبات أن S لا توحى بالذاتية لأن الذاتية انتقالية بنيما S ليست كذلك. هذا يعنى أنه إذا وجدت ثلاث درجات من اللون Z، Y , X فى ثلاث بقع مرئية فقد يكون لدينا X S Y و Y S Z وليس X S Z. بالتالى فإن X ليست متطابقة مع Z وعلى ذلك فإن Y لا يمكن أن تكون متطابقة مع X أو Z رغم أنها غير متميزة عن كل منهما. يمكننا فقط أن نقول إن X، Y متطابقتين إذا كانت X S Z دائما توحى بأن Y S Z والعكس صحيح . درجة اللون X يمكن تعريفها الآن على أنها اللون المشترك لكل البقع Y بحيث إن ما لا يمكن تمييزه فى اللون عن X لا يمكن أيضا تمييزه فى اللون عن Y والعكس صحيح، بحيث إن كل بقعة يمكن تمييزها عن كل من X ، Y أو لا يمكن تمييزها عن أى منهما.

يختزل ذلك تحديد الدرجة الدقيقة لبقعة لونية معينة إلى مجموعة من المعطيات كل منها يمكن، من حيث المبدأ، الحصول عليه من المشاهدة. الصعوبة، الآن، ليست متعلقة بأى من المعطيات المطلوبة، وإنما متعلقة بتضاعفها. يفترض تعريفنا فى بنده الثانى أن كل بقعة من اللون Z يمكن مقارنتها بكل بقعة من Y لا يمكن تمييزها عن X. هذا فى الممارسة مستحيل لأنه يتطلب حصراً كاملاً للكون المرئى، الماضى والحاضر والمستقبل. نحن لا يمكننا معرفة أن بقعتين من X، Y لهما نفس درجة اللون، لأن كل Z شاهدناها قد يكون لها العلاقة S إما مع الاثنين وإما لا تكون لها هذه العلاقة، وقد توجد Z جديدة بعد ذلك ولا يكون ذلك صادقًا بالنسبة لها. وبالتبعية، إذا كانت "C" هى اسم درجة لون مضبوطة، فلن توجد مقدمة من الطراز "C توجد هنا" يمكن معرفتها مطلقًا ما لم يتم تعريف "C" على أنها "درجة اللون الموجودة هنا".

(١١)

يجب أن يلاحظ أن صعوبات من الطراز نفسه توجد بالنسبة لكل النظريات الفعلية. خذ على سبيل المثال فكرة "إنسان". لو أن كل مراحل التطور للإنسان الحديث

طرحت أمامنا، فسوف توجد بعض النماذج سنقول بلا تردد عنها "هذا إنسان" ونماذج أخرى سوف نقول بلا تردد "هذا ليس إنسانًا" ولكن ستوجد نماذج وسطية سنكون فى حالة شك بالنسبة لها. نظريا، لا يمكننا عمل أى شىء لجعل تعريفنا أكثر دقة أو لتجنب عدم التأكد. قد يكون فى الحقيقة أنه عند مراحل معينة من التطور حدثت طفرة عظيمة فجائية تبرر إعطاءنا اسم "إنسان" لما جاء بعدها ولكن ليس لما كان قبلها ولكن إذا كان الأمر كذلك فستكون ضربة حظ. وستظل الصور الوسطية متخيلة. باختصار، كل فكرة فعلية لها طراز من الضبابية تتضح فى أمثلة "طويل" أو "أصلع". بعض الرجال بالتأكيد طوال القامة وبعضهم الآخر ليسوا طوالاً ولكن بالنسبة للرجال متوسطى القامة يجب أن نقول: "طويل؟ نعم.. أعتقد ذلك" أو "لا، لن أميل لتسميته طويلاً". هذه الحالة توجد بدرجة أو بأخرى فى كل خاصية فعلية.

يتكون العلم بدرجة كبيرة من أساليب لاختراع نظريات لها درجة أكبر من الدقة عما هو موجود فى النظريات الخاصة بالحياة اليومية، درجة الدقة الخاصة بنظرية ما بمقدورها أن تصل إلى التعريف العددى المضبوط. إذا كانت "P (x)" تعنى "X لها المسندP ". فلنمسح كل الحالات المعروفة للأشياء من الطراز الذى يمكن أن يكون له المسندP؛ ولنفترض أن عدد هذا الشىء هو a. افترض أنه فى m من تلك الحالات يمكننا أن نؤكد "ليس – (P cx" وبالتالى m/n مقياس لدقة نظريتنا P. خذ على سبيل المثال مقاييس البيان، عندما نقول طول هذا القضيب يتجاوز أو يقل عن المتر" يمكن بطرق علمية إظهار أنه صادق فيما عدا نسبة ضئيلة من الحالات، ولكن الطرق البدائية تترك نسبة أكبر من الحالات المشكوك فيها. ولكن خذ الآن "طول هذا القضيب هو متر واحد" هذا لا يمكن إثباته مطلقا ولكن لا يمكن دحضه فى الحالات التى لا يمكن فيها إثبات مقدمتنا السابقة. وعلى ذلك فكلما زادت درجة الدقة للنظرية، كلما زادت فرصة إثبات عدم انطباقها وزادت ندرة إثبات أنها قابلة للتطبيق. عندما تكون النظرية مضبوطة تماما، لا يمكن إثبات مدى انطباقها.

لو أن "المتر" قصد به أن يكون نظرية دقيقة، لكان علينا تقسيم الأطوال إلى ثلاثة أقسام:

(١) تلك التى هى أقل من المتر.

(٢) تلك التى هى أطول من المتر.

(٣) تلك التى لا تنتمى لأى من القسمين السابقين.

قد نعتقد أنه من الأفضل جعل "المتر" نظرة غير دقيقة فعندئذ ستعنى "أى طول، بالطرق العلمية الموجودة، لا يمكن تمييزه عن المتر القياسى". فى هذه الحالة، يمكننا أحيانا أن نقول "طول القضيب هو متر واحد"، ولكن صدق ما نقول يكون نسبيا للتقنية الموجودة، وأى تحسين فى جهاز القياس قد يجعله زائفًا.

كل ما قلناه عن الطول ينطبق على درجات اللون. إذا كانت الألوان يتم تعريفها بطول الموجة، فإن الجدل ينطبق كلمة بكلمة. من الواضح أنه من خلال ما سبق كله، فإن النظرية الفعلية الأساسية هى عدم التمييز. الأساليب التقنية بمقدروها تقليل وليس إزالة عدم الضبط الضرورى لهذه النظرية.

(١٢)

سوف نقول إن لون هذه البقعة سوف يسمى "C". وبالتالى فإن ألوان كل البقع الأخرى سوف تنقسم إلى قسمين:

١ – تلك التى نعرف أنها ليست "C".

٢ – تلك التى لا نعرف أنها ليست "C".

الفرق الكلى لطرق الضبط هو جعل القسم الثانى صغيرا بقدر الإمكان. ولكننا لا يمكننا الوصول إلى النقطة التى عندها نعرف أن عدداً من القسم الثانى لا بد وأن

يكون متطابقًا مع "C"، كل ما نستطيع معرفته هو أن نجعل من القسم الثانى مكونا من ألوان شبيهة أكثر وأكثر مع "C".

بذلك نصل إلى البيان التالى: أنا أعطى الاسم "C" إلى درجة اللون التى أرى فى المكان المنظور (∅، θ). وأنا أعطى الاسم "C" للون عند (θ،∅). قد يكون إذن C و'C يمكن تمييزهما عند بعضهما، وبالتالى فهما بالتأكيد مختلفين. وقد لا يمكن تمييزهما عن بعضهما ولكن يوجد اللون "C" يمكن تمييزه عن أحدهما، ولكن ليس عن الآخر، فى هذه الحالة أيضا فإن C، 'C يكونان مختلفين بالتأكيد. أخيرا، قد يكون كل لون معروف لى إما متميزا عن كلا اللونين وإما غير ممكن التمييز عنهما، وفى هذه الحالة فإن C، 'C قد يكونان متطابقين، أى أن "C"، "'C" اسمان للشىء نفسه. ولكن حيث إننى لا يمكننى أبدا معرفة أننى استعرضت كل الألوان، فأنا لن أستطيع أبدا أن أكون متأكدا من أن C، 'C متطابقين.

هذا يجيب على السؤال الخاص بالعلاقة بين الضبط للنظرية وغموض الإحساس.

يبقى اختبار الاعتراضات الممكنة لنظريتنا والتى تشتق من ما أسميه "أسماء الإشارة". وهذا يأتى فى الفصل التالى.

* * *

الفصل السابع

أسمـــاء الإشــارة

(١)

الكلمات التى أهتم بها فى هذا الفصل هى تلك التى تكون الإشارة فيها نسبية للمتكلم، مثل هذا، ذاك، أنا، أنت، هنا، الآن، عندئذ، بعد، حاضر، مستقبل. زمن الأفعال يجب أن يكون موجوداً. فليس مجرد "أنا محتر" ولكن "جونز محتر" لها أهمية، فقط تكون الأهمية عندما نعرف الوقت الذى قيلت فيه الجملة. الشىء نفسه ينطبق على "جونز كان محترا" والتى تعنى أن "احترار جونز كان سابقا عن الحاضر"، وبالتالى يتغير معناها عندما يتغير الزمن.

كل كلمات الإشارة يمكن تعريفها بمدلول "هذا". وبالتالى "أنا" تعنى "السيرة الذاتية التى ينتمى هذا إليها" و "هنا" تعنى "مكان هذا" و "الآن" تعنى "وقت هذا" وهكذا. قد يمكننا أن نُقصر بحثنا إذن على "هذا". ولا يبدو مجديا أخذ كلمات إشارة أخرى على أنها أساسية ونقوم بتعريف "هذا" بمدلولها. ربما إذا أعطينا اسمًا لـ "أنا الآن" فى مقابل "أنا - عندئذ" فقد يحل هذا الاسم محل "هذا" ولكن لا توجد كلمة فى الحديث العادى بمقدورها أن تحل محلها.

قبل الدخول فى أسئلة أشد صعوبة، فلنعلم أن اسم الإشارة لا يحدث فى لغة الفيزياء. الفيزياء تنظر إلى المكان - الزمن بحيادية كما يفترض فى نظرة الله لهما، فلا توجد، بالنسبة للإدراك، منطقة تكون على وجه خاص دافئة وحميمية ومشرقة

ومحاطة من كل الاتجاهات بظلام يتنامى تدريجيا . فعالم الفيزياء لن يقول "رأيت منضدة" وإنما مثل نيوراث أو يوليوس قيصر، "أوتو رأى منضدة"، فلن يقول رجل الفيزياء "إن شهابًا يظهر الآن" ولكن "إن شهابًا كان ظاهرا عند الساعة الثامنة وثلاث وأربعين دقيقة بتوقيت جرينتش" وفى هذه الجملة "كان" قصد بها أن تكون بلا زمن. لا جدال فى أن العالم غير العقلى يمكن وصفه بالكامل دون استعمال كلمات الإشارة ومن المؤكد أن الكثير مما يرغب علم النفس فى قوله ممكن أيضا بدون استعمالها . فهل هناك، عندئذ أى حاجة لهذه الكلمات على الإطلاق؟ أم هل من الممكن أن يقال كل شىء دون استعمالها؟ إن هذا السؤال ليس سهلاً.

(٢)

قبل البحث فى هذا السؤال، يجب أن نقرر -كلما أمكن ذلك- ما هو المقصود بكلمة "هذا" ولماذا كانت أسماء الإشارة مريحة؟

كلمة "هذا" يظهر أن لها خاصية اسم العلم بمدلول أنها تشير إلى شىء دون أن تصفه بأى شكل. قد يعتقد أنها تنسب إلى الشىء خاصية إثارته للانتباه، ولكن ذلك يعد خطأً، فالكثير من الأشياء فى العديد من المناسبات يثير الانتباه ولكن فى كل مناسبة يكون شيئا واحدا هو "هذا" . قد نقول: "هذا" يعنى "الشىء لهذا الفعل من الانتباه" ولكن من الواضح أن "هذا" ليس تعريفًا . "هذا" هو اسم نعطيه للشىء الذى نحضره ولكننا لا نستطيع تعريف "هذا" على أنه "الشىء الذى أحضره الآن" لأن "أنا" و "الآن" يشتملان على "هذا" . فكلمة "هذا" لا تعنى "ما هو مشترك بين كل الأشياء التى تسمى بالتوالى "هذا" لأنه فى كل مناسبة تستعمل فيها كلمة "هذا" يكون هناك شىء واحد تنطبق عليه الكلمة. من الواضح أن كلمة "هذا" اسم علم تطلق على أشياء مختلفة فى كل مناسبة مختلفة عندما تستعمل، ورغم ذلك فإنها ليست مبهمة. فهى ليست كاسم "سميث" الذى يطلق على العديد من الأشياء، ولكن دائما على الشىء نفسه،

فكلمة "هذا" تنطبق فقط على شيء واحد في وقت واحد، وعندما يبدأ انطباقها على شيء جديد لا تصبح منطبقة على الشيء القديم.

قد نضع المشكلة على النحو التالي: كلمة "هذا" كلمة واحدة لها -بمدلول معين- معنىً ثابت.. ولكن إذا تعاملنا معها على أنها مجرد اسم، فلن يكون لها بأى مدلول معنىً ثابت، حيث إن الاسم يعنى مجرد ما يشير إليه، وما تشير إليه كلمة "هذا" يتغير باستمرار. فإذا تعاملنا مع "هذا" على أنها وصف مستتر، مثل "محط الانتباه" فإنها ستنطبق باستمرار على كل شيء هو "هذا"، بينما في الحقيقة، لا تنطبق هذه الكلمة على أكثر من شيء واحد في وقت واحد. إن أى محاولة لتجنب هذا التعيم غير المرغوب ستشتمل على إعادة إدخال كلمة "هذا" في التعريف.

(٣)

توجد مشكلة أخرى خاصة بكلمة "هذا" ترتبط بأسماء الأعلام وتثير الشك في الاستنتاج الذى خلصنا إليه في الفصل السابق. إذا رأينا في الوقت نفسه بقعتين من لون معين سوف نقول: "هذا وذاك متطابقان بدقة في اللون". لن يكون لدينا شك في أن أحدهما هو "هذا" والآخر "ذاك" ولن يقنعنا شيء في أن الاثنين شيء واحد. يعد الأمر مربكًا على هذا النحو ولكن من السهل حل هذا الارتباك. فما نراه ليس مجرد بقعة من اللون، وإنما بقعة في اتجاه بصرى معين. إذا كانت كلمة "هذا" تعنى "بقعة في اتجاه معين" و "ذاك" تعنى بقعة في اتجاه آخر فإن الاثنين يكونان مختلفين ولا يوجد سبب لاستنتاج أن اللون المجرد ثنائى المظهر.

فإذا كانت كلمة "هذا" تعد اسمًا أو وصفًا أو فكرة عامة، فإن لكلٍّ من هذه التعريفات اعتراضات. إذا قلت إن كلمة "هذا" تعد اسمًا ستبقى مشكلة تفسير الأساس الذى عليه قررنا ما هى الأسماء في المناسبات المختلفة. فالعديد من الناس يسمون "سميث" ولكن لا تجمعهم أية خصائص مشتركة، فكل حالة هى مجرد اصطلاح

عرفى فى أن يكون للإنسان هذا الاسم. (ما من شك فى أن الاسم يكون عادة موروثًا، ولكن يمكن تبنيه أيضا بإجراء شرعى. فاسم الرجل هو من الناحية الشرعية أى شىء يعلن أنه يرغب فى أن ينادى به). ولكنه ليس اصطلاحا عرفيا ما يقودنا إلى أن ندعو الشىء "هذا" عندما ندعوه بذلك، أو نتوقف عن أن ندعوه "هذا" فى مناسبات لاحقة.

فى هذا الخصوص، تختلف كلمة "هذا" عن أسماء الأعلام المعتادة. تنجم صعوبات مساوية إذا قلت إن "هذا" تعد وصفًا. يمكن بالطبع أن تعنى "ما ألاحظه الآن" ولكن ذلك ينقل المشكلة إلى "أنا الآن". فقد اتفقنا على جعل "هذا" اسم الإشارة الأساسى وأى قرار آخر سوف يتركنا مع المشكلة نفسها بحذافيرها. لا يوجد وصف لا يشتمل على اسم إشارة يمكن أن يكون له الخاصية المتفردة التى لكلمة "هذا" بمعنى أنها تنطبق فى كل مناسبة لاستعمالها على شىء واحدٍ فقط ولكن على أشياءٍ مختلفة فى مناسبات مختلفة.

ينطبق الاعتراض نفسه تمامًا على محاولة تعريف كلمة "هذا" على أنها فكرة عامة. فإذا كانت فكرة عامة، فسوف تكون لها حالات كل منها دائمًا يمثل حالة لها وليس فقط فى لحظة واحدة. هناك بالطبع فكرة عامة تشتمل على "موضع الاهتمام" ولكن شيئًا أكبر من الفكرة العامة يعد مطلوبًا لتأمين التفرد المرحلى لكلمة "هذا".

قد يعتقد أنه من الواضح عدم وجود أسماء إشارة فى العالم المادى البحت. هذا ليس تعبيراً دقيقًا لما هو صادق. جزئيا، لأنه فى عالم مادى بحت لن توجد كلمات على الإطلاق. ما يعد صادقًا هو أن كلمة "هذا" تعتمد على العلاقة بين المستعمل لكلمة والشىء الذى تعنيه الكلمة. لا أريد أن أدخل "العقل" هنا، فالماكينة يمكن بناؤها بحيث تستعمل كلمة "هذا" بطريقة صحيحة، حيث يمكنها أن تقول "هذا أحمر"، "هذا أزرق"، "هذا رجل شرطة" فى مناسبات معينة. فى حالة مثل هذه الماكينة كلمات "هذا يكون" عبارة عن إضافة لكلمة لاحقة أو كلمات لاحقة، والماكينة يمكن بناؤها لتقول "آبراكادابرا أحمر"، "آبراكادابرا أزرق" وهكذا. فإذا قالت الماكينة فيما بعد "هذا كان أزرق" فسوف تقترب بذلك من قدرات الخطاب الإنسانى.

(٤)

لنفترض أن ماكينتنا لديها تلك المقدرة، فسوف نفترض أن الضوء الأحمر عندما يقع عليها سوف يشغل ميكانزمًا يجعلها فى البداية تقول "هذا أحمر" ثم، بعد اكتمال عمليات داخلية أخرى، "ذاك كان أحمر". يمكننا وصف الظروف التى تقول الماكينة تحتها "هذا" والظروف التى تقول تحتها "ذاك"، فهى تقول "هذا" عندما يعمل المؤثر الأول عليها وتقول "ذاك" عندما يقود الأثر الأول إلى حدوث عمليات معينة فى الماكينة. لقد رأيت ماكينات أتوماتيكية تلعب الجولف مقابل عملة معدنية، فالعملة تبدأ عملية تستمر لمدى معين من الزمن. فمن الواضح أنه من الممكن للعملية أن تبدأ بالماكينة وهى تقول "هذا قرش" وتنتهى بالقول " كان ذاك قرشًا". أعتقد أن تلك اللعبة العبقرية قد تمكننا من إزالة مشكلات ليس لها علاقة بالموضوع.

ما تفعله الماكينة هو أنها تمكننا من وصف الظروف التى تحتها يقول الناس "هذا يكون" أو "ذاك كان". الاستجابة اللفظية لمنبه ما قد تكون مباشرة أو متأخرة. عندما تكون مباشرة، يسرى التيار الناقل إلى المخ ويستمر على طول عصب ناقل إلى أن يؤثر على العضلات المناسبة وينتج جملة تبدأ بـ "هذا يكون". عندما تكون الاستجابة متأخرة فإن المنبه يذهب إلى خزان ما وينتج تنبيهًا ناقلاً استجابة لمنبه جديد. المنبه الناقل فى هذه الحالة ليس هو الذى كان فى الحالة السابقة وينتج جملة مختلفة بدرجة بسيطة وهى التى تبدأ بـ "ذاك كان"، نأتى مرة أخرى هنا إلى سلاسل سببية أخرى. السلسلة السببية الأدنى فى هذا الخصوص هى أقصر سلسلة ممكنة من المنبه الخارج عن المخ إلى الاستجابة اللفظية. السلاسل السببية الأخرى دائمًا ما تشتمل على منبهات إضافية مؤدية إلى إطلاق الأثر المختزن للمنبه السابق منتجًا استجابة لفظية متأخرة. فى حالة السلسلة السببية الأدنى نقول "هذا يكون" وفى حالة سلسلة أطول نقول "ذاك كان". هذا بالطبع شديد التجريد عن أن يكون فسيولوجيا فعليا ولكنه يبدو كافيا لحل صعوباتنا فيما يختص بأسماء الإشارة.

فلنوسع هذه الجملة، ما إن أنطق بكلمة "قط" فإننى أفعل ذلك لأننى أدركت وجود القط أو كنت أدرك وجوده. (محدودية هذه الجملة يمكن إهمالها). إذا كنت أفعل ذلك لأننى كنت أدرك وجود القط، فإن هذه الحقيقة التى من الماضى ليست هى السبب الكلى لقولى "قط"، فلا بد من وجود منبه حالى. على ذلك فالاستعمال المدرك لكلمة "قط" ليس نتيجة لمسببات مماثلة تماما. فبالنسبة لشخص له خصال لفظية متطورة فإن الآثار ليست مطابقة تمامًا، فالأثر الإدراكى يبدأ بكلمات "هذا يكون" والأثر الباقى بكلمات "ذاك كان". وعلى ذلك، فالفرق بين جملة تبدأ بـ "هذا يكون" وأخرى تبدأ بـ "ذاك كان" يكمن ليس فى معناهما وإنما فى مسبباتهما. وبالتالى، فالجملتان "إعلان الاستقلال كان عام ١٧٧٦" عندما ننطقها و "إعلان الاستقلال هو فى عام ١٧٧٦" التى قد يكون قالها جيفرسون، لهما المعنى نفسه تمامًا ولكن الجملة الأولى تنطوى على أن المسبب ليس مباشرا، والثانية على أن المسبب مباشر أو مباشر بقدر الإمكان.

(٥)

قد يتم الاعتراض بأن العديد من الأقوال عن الحاضر تكون غير مباشرة كالأقوال عن الماضى. إذا قلت "فنلندا يتم غزوها" فإننى أفعل ذلك، أولا، لأننى أتذكر ما قرأته فى الجريدة وثانيا، أننى أستنتج أن الغزو ليس من المرجح أن يكون قد توقف فى الساعات القليلة الماضية. ولكن هذا يعد اشتقاقًا واستنتاجا لكلمة "يكون"، يشتمل على قوانين سببية عن طريقها تتم معرفة الحاضر من معرفة الماضى. "الحاضر" المشتمل عليه هنا ليس هو "الحاضر" بالمدلول النفسى، فهو ليس شيئًا تم حضوره. فهو "الحاضر" بالمدلول المادى، أى شىء فى الزمن المادى مقابل للحاضر النفسى. "الحاضر" و "الماضى" هما أساسًا دلالات نفسية بمدلول اشتمالهما على علاقات سببية مختلفة بين المتكلم والشىء الذى يتكلم عنه، استعمالاتهما الأخرى تتحدد بمدلول هذا الاستعمال الأولى.

هل تشرح النظرية السابقة استعمال كلمة "أنا"؟ لقد قلنا فى بداية هذا الفصل أن "أنا" يمكن تعريفها بمدلول "هذا": "أنا" هى السيرة الذاتية التى ينتمى إليها "هذا". ولكن بالرغم من أننا قد شرحنا استعمال كلمة "هذا"، فقد فعلنا ذلك بتجريد هذه الكلمة من أية أهمية معنوية عند وجودها منفردة. وبالتالى، لا يمكننا التأكد من أن التعريف السابق لـ "أنا" يمكن استخدامه.

إذا كانت نظريتنا عن "هذا" صحيحة، فهى كلمة ليست ضرورية للوصف الكامل للعالم. فنحن نرغب فى إثبات أن الاستنتاج نفسه صحيح بالنسبة لـ "أنا" وغيرها من أسماء الإشارة.

(٦)

كلمة "أنا"، حيث إنها تنطبق على شىء مثابر عبر فترة معينة من الزمن، تعد مشتقة من "أنا-الآن" على أنها السلسلة من الأحداث التى تنتمى لـ "أنا-الآن" بواسطة سلسلة معينة من العلاقات. الجملة التى تعتبر "أنا أكون" والتى يمكن استبدالها بجملة "أنا-الآن أكون" هى التى فيها "أكون" تعتبر عديمة الزمن.

العلاقة بين "أنا-الآن" و"هذا" هى شديدة القوة. "أنا-الآن" تشير إلى مجموعة من الأحداث هى كل تلك الأحداث التى تحدث لى فى هذه اللحظة. "هذا" تشير إلى أحد هذه الأحداث. "أنا" فى مقابل "أنا-الآن" يمكن تعريفها بالعلاقات السببية لـ "هذا" كما لـ "أنا-الآن" حيث إننى أشير فقط بـ "هذا" إلى شىء أخبره.

ولأسباب ستتضح بالكامل فى فصول لاحقة، أعتقد أن جملة "أنا أكون" يمكن دائما أن يحل محلها جملة "هذا يكون" والعكس صحيح، واستخدام أى من الجملتين يعتمد على الحادث أو التحيز. نحن نقول "أنا مُحتر" بدلا من ""هذا حرور" إذا كنا محترين من أداء تمارين رياضية وليس نتيجة درجة حرارة الجو. ولكن عند الذهاب إلى غرفة ماكينة السفينة تقول "أف، إنه حرٌّ هنا" والذى يعد مكافئًا لـ "هذا حرور". نحن

نقول "هذا قط" ونقصد عمل بيان عن شيء نخبره مباشرة، ولا يمكن أن ينطبق على القط كشيء فى العالم الخارجي وإنما على إدراكنا الخاص بالقط. وبالتالى فيجب ألا نقول "هذا قط" وإنما "هذا مُدْرَك نربط بينه وبين القط"، أو "هذا مدرك قط". هذه الجملة بدورها، قد يحل محلها "أنا مدرك للقط" والتى تؤكد حالتى الذاتية، وتعد صادقة فى المناسبات نفسها تماما كتلك التى أقول فيها "هذا قط" والتى أكون مُبرّرًا بقولى "هذا مُدْرَك قط". ما نعرفه مباشرة عندما نقول "هذا قط" هى حالة لذاتنا، مثل إحساسنا بالحر.

على ذلك، فكل بيان يشتمل على "هذا" يمكننا أن نحل محلها "ما ألاحظه الآن" وكل جملة تحتوى على "أنا-الآن" قد يحل محلها "ما يتزامل مع هذا". يتبع ذلك أن ما قيل عن "هذا" ينطبق بالتساوى على "أنا-الآن" وما يميز "أنا-الآن" عن اسم العلم ليس جزءًا من ما قيل فى جملة تشتمل على "أنا-الآن" وإنما مجرد تعبير عن العلاقة السببية بين ما قيل وقوله. كلمة "أنت" تشتمل على صعوبات مغايرة لتلك الخاصة بأسماء الإشارة، تلك الصعوبات سوف نتناولها فى فصل لاحق. بالنسبة لمشكلتنا الحالية، يكفى ملاحظة أن "أنت" دائما ما تتحدد بعلاقة بمدرك حاضر يكون فى هذه اللحظة "هذا" وبالتبعية، تفسير "هذا" يشرح أيضا "أنت" فيما يختص بأسماء الإشارة.

فى حدود ما أستطيع تأكيده حتى هذه اللحظة، فقد تم حل مشكلة أسماء الإشارة واتضح أنها ليست مطلوبة فى أى جزء من وصف العالم سواء المادى أو النفسى.

* * *

الفصل الثامن

الإدراك والمعرفــــة

(١)

كلمة "إدراك" أخذها الفلاسفة فى مرحلة مبكرة، بطريقة غير دقيقة، من الحس المشترك. عندما سأل سقراط تلميذه ثياتيتس تعريفا للمعرفة أجاب بأن المعرفة هى الإدراك، فأقنعه سقراط بالتخلى عن هذا التعريف على أساس أن الإدراك مؤقت بينما المعرفة يجب أن تكون خالدة، لكن الآخر لم يتساءل عن حدوث الإدراك المحسوس كعلاقة بين المدرك والشىء الذى يتم إدراكه. بالنسبة للحس المشترك؛ يبدو واضحا أننا ندرك "الأشياء" وعلى أى درجة من حواس النظر واللمس. النظر قد يكون أحيانا خادعًا كما فى حالة خنجر ماكبث، ولكن اللمس لا يكون مضللا أبدًا. "الشىء" هو ما وقع فى طريقى، فإذا اصطدمت بعامود فى الظلام فأنا أقتنع أننى أدرك شيئًا وليس مجرد أننى أمر بتجربة ذاتية. هذه هى النظرة التى تضمنها نقض د. جونسون لبيركلى.

من وجهات نظر مختلفة، خضعت نظرة الحس المشترك للإدراك للتمحيص. أنكر الديكارتيون التفاعل بين العقل والمادة، وبالتالى لم يمكنهم التسليم بأنه عندما يصطدم جسدى بعامود، فإن هذه الحادثة هى السبب فى الأحداث العقلية التى نسميها "إدراك العامود". من هذه النظرية كان طبيعيا اللجوء إما إلى التوازى النفسى وإما إلى عقيدة مالبرانش فى أننا نرى كل الأشياء فى الله أو إلى أحاديات ليبتز وكلها تعانى أوهامًا تسمى "استبصار الكون" فى كل تلك النظم، كان هناك ما يعتقد بأنه شىء رائع وأن الفلاسفة المدربين طويلاً على اللامعقول هم فقط الذين ينجحون فى فهمها.

جاء الهجوم الأعنف على نظرية الحس المشترك للإدراك حال دراسة مسببات الإحساسات. أول أثر لذلك الهجوم على آراء الفلاسفة قاد إلى عقيدة جون لوك فى أن الخصائص الثانوية ذاتية. إنكار بيركلى للمادة مشتق جزئيا وليس بصورة أساسية من النظريات العلمية للصوت والضوء. أصبح التحول العلمى للعقائد الخاصة بالحس المشترك للإدراك مهمًا بدرجة كبيرة للفعليين البريطانيين. كان تعريف جون ستيوارت ميل للمادة على أنها "إمكانية دائمة للإحساس" نتيجة لتوفيقه بين العلم وبيركلى وكذلك كانت عقيدة الماديين التى قدسها الاتحاد السوفييتى تحت سطوة لينين فى أن "المادة" هى "سبب الإحساسات".

لكى نكون واضحين بالنسبة لما يقوله العلم فى هذا الخصوص، من المهم أن ننسى من البداية فلسفة بيركلى التى قد تقود إليها المجادلة، فيجب أن نتذكر أننا نميز من البداية طرازين من نظرية المعرفة، الأولى مستلهمة من الشك الديكارتى والبحث عن اليقين والأخرى مجرد فرع من العلم فيه يتم قبول ما يصل إليه العلم ونسعى لتعريف الأحداث التى يمكن تسميتها إدراكًا والعلاقة بينها وبين الأحداث الأخرى التى تجعلها كذلك. فلنتبين حاليا الطراز الثانى لنظرية المعرفة ونختبر تلك الأحداث التى يعتبرها الحس المشترك "إحساسات" لكى نحدد ما إذا كانت مدركات أم لا، وإذا لم تكن، فكيف تتعلق بمعرفتنا الفعلية بالأمور الواقعية. فى هذا البحث سوف نفترض أن العالم هو على الحالة التى تظهر للعلم دون أن نسأل أنفسنا ما إذا كان هذا الفرض مبررًا أم لا.

(٢)

فلنبدأ بكوكب من الكواكب، وليكن الشمس. لدينا خبرات نسميها "رؤية الشمس"، وهناك أيضا وفقًا لعلم الفلك قطعة ضخمة من المادة الملتهبة هى الشمس. ما هى العلاقة بين هذه القطعة بأحد الأحداث التى تسمى "رؤية الشمس؟". العلاقة السببية هى كالتالى: عند كل لحظة، يطلق عدد ضخم من الذرات فى الشمس طاقة إشعاعية فى صورة موجات ضوئية أو "كوانتا" ضوئية تسافر عبر الفضاء بين الشمس وعينى خلال فترة ثمانى دقائق. عندما تصل إلى عينى، فإن طاقتها تتحول إلى طرز جديدة:

أشياء تحدث فى القضبان والمخاريط فى العين ثم يتبعها اضطراب يسرى عبر العصب البصرى ثم يحدث شيء (لا أحد يعرف ما هو) فى الجزء المناسب من المخ، عندئذ "أرى الشمس". ولكن ما نريد أن نعرفه هو التشابه بين الشمس و "رؤية الشمس" حيث إنه طالما وجد التشابه يمكن لـ"رؤية الشمس" أن تشكل مصدراً للمعرفة الخاصة بالشمس.

التزاماً بقبولنا غير الممحص للعلم، نجد أن هناك تشابها مهماً بين الشمس و"رؤية الشمس". ففى البداية، تبدو الشمس دائرية وهى بالفعل دائرية. هذا التشابه ليس شديداً كما قد نتصور لأن الشمس تبدو دائرية فى فراغى البصرى وهى دائرية فى الفراغ الفيزيائى. ولكن، يمكن القول بوضوح إن التشابه موجود. تعريف الاستدارة هو نفسه فى فراغ ما أو أى فراغ آخر، وهناك علاقات مشتركة بين الفراغ الفيزيائى والبصرى يأتى منها الاتصال.

مرة أخرى، إذا رأينا بقعًا شمسية فإنه بالفعل توجد بقع شمسية. وبالمدلول الذى شرحناه للتو، فإن البقع فى الشمس الكونية لها الشكل نفسه كالبقع فى الشمس المرئية. كذلك فالشمس حارة والشمس الكونية لها الخاصية المقابلة على عكس المناطق المحيطة من الفراغ الفيزيائى.

توجد رغم ذلك حدود للتماثل بين الشمس المرئية والكونية. فخلال كسوف جزئى تبدو الشمس مثل هلال القمر رغم أنها على الاستدارة التى هى عليها دائما. بالنظر شزراً يمكننا رؤية شمسين، ولكننا لا نستطيع خلق شمسين حقيقيتين. كل هذه الأمور يمكن تفصيلها ولا تؤدى إلى أية صعوبات فى الأساسيات.

(٣)

بدأنا بشيء كوكبى نتيجة للبساطة المشتقة من أنه يُحس بحاسة واحدة فقط. فلنأخذ أشياء أرضية عادية. يأخذ بيركلى الشجرة مثلا. فبالنسبة لحاسة البصر، ينطبق كل ما قلناه عن الشمس على الشجرة فيما عدا أن الضوء الذى نراها به هو ضوء منعكس بحيث إنها لا تُرى إلا عند تعرضها لضوء الشمس أو لبرق أو لضوء

صناعى. ولكن الشجرة يمكن أن تُلمس، تُسمع، تُشم، ويمكن تذوقها. عندما "ألمس" الشجرة، فإن إلكترونات معينة فى إصبعى تكون قريبة بدرجة كافية لإلكترونات معينة فى الشجرة بما يسمح لقوى التنافر العنيفة أن تحدث ويؤدى ذلك إلى اضطراب يرحل فى الأعصاب من إصبعى إلى مُخى حيث يكون له أثر غير معروف طبيعته يؤدى فى النهاية إلى إحساس اللمس. هنا يجب أن نسأل أنفسنا مرة أخرى ما هو التشابه الموجود بين إحساسى باللمس والجزء من الشجرة الذى تخيلت زيفًا أن أصبعى يلمسه؟ فى هذه القضية لا بد من اختبار التمييز الفسيولوجى بين "إحساس" و"إدراك" – فالإدراك هنا مجرد حدث معين ينتج عن منبه ما وليس من المفترض أن يكون له أية وضعية خاصة.

عندما نتفاعل مع منبه حسى، يوجد عنصران يمكن تمييزهما نظريا عن بعضهما، الأول الذى يرجع إلى المنبه والثانى الذى يعود إلى المرافقات المعتادة معه. الإحساس بالرؤية لا يكون نقيا أبدا، فحواس أخرى يتم تنبيهها وفقا لقانون الاعتياد. عندما نرى قطة فإننا نتوقع أن تموء وأن تكون ناعمة وأن تتحرك بطريقة القطط، فإذا نبحت أو كان ملمسها كالحجر أو تحركت كالدب فسوف تصيبنا صدمة عنيفة من الدهشة. يرجع ذلك إلى اعتقادنا بأننا نرى "أشياء" ولا نخبر إحساسات بصرية. إذا نظرنا إلى سيكولوجية الحيوانات وليس فقط لتلك الخاصة بالبشر، فليس من الأمان إرجاع ذلك فقط للاعتياد، فبعضها يبدو أن له طبيعة الانعكاس الغريزى. يبدو ذلك مثلا فى قدرة الدجاجة على التقاط الحبوب دون أن تتعلم التنسيق بين المنقار والعين. قضية الاعتياد فى مقابل الانعكاس غير المشروط ليست مهمة فى هذا السياق، فما هو مهم أن الإحساسات يتم تهذيبها بتصورات تلقائية من توقعات المرافقات المعتادة لها.

(٤)

عندما تكون لدينا خبرة "رؤية قط" فإن هناك سلسلة سابقة من المسببات شبيهة لتلك التى لاحظناها بالنسبة "لرؤية الشمس". عندما تكون الخبرة ممكنة التفنيد، فإن

تلك السلسلة السببية عند نقطة معنية من مسارها للخلف، تصل إلى القط (لا زالت هناك خصائص للمس - صلب وطرى، خشن وناعم- تقابل خصائص الشيء الذى يتم لمسه. بالتحسس حول شيء يمكننا استنتاج شكله) كما لو كنا نراه، الشكل "الحقيقى" المستنتج هو نفسه بالنسبة لرجل يراه وآخر أعمى لا يراه ولكن يتحسسه. عندما نقول "هو نفسه" نقصد حرفيا ذلك: حيث لا يوجد فرق بين الشكل الفيزيائى المستنتج من التحسس وذلك المستنتج من النظر، فيما عدا درجة النعومة.

بالإضافة إلى الشكل، يوجد الموقع. الشيء الذى يُلمس ولكن لا يُرى، قد يكون فوق رأسى أو عند قدمى أو عند أى مستوى وسطى، فقد يكون على بعد ذراع أو يلامس وجهى، أو عند أى موقع بالنسبة لجسدى فى كل تلك الحالات، هناك تماثل بين إحساساتى وخصائص الشيء المادى.

ليس من الضرورى الحديث عن السمع والشم والتذوق لأن الاعتبارات السابقة نفسها تنطبق عليها.

(٥)

الاستعراض السابق يقوم على القبول النظرى للفيزياء والفسيولوجى. قبل أن نترك هذه النظريات المريحة، هناك نقاط لا بُد أن تضاف: الإحساسات المتولدة نتيجة أشياء خارجية هى أحداث كغيرها من الأحداث وليس لها الخصائص نفسها التى لكلمة "إدراك". لا بد من وصل هذه الحقيقة بنظرة الحس المشترك حيث توجد حوادث تسمى إحساسات فيها نعى الأشياء. فهل نهمل نظرة الحس المشترك تمامًا أم نحتفظ بها بأن نجعل الشيء المدرك شيئًا مختلفا تماما (فيما عدا التشابه الذى لاحظناه سابقا) عن الشيء المادى؟ مع افتراض صدق الفيزياء). من الواضح أنه عند أى نقطة من هذه السلسلة يمكن للحدث (موجات الضوء، اضطراب القضبان والمخاريط البصرية أو اضطراب العصب البصرى أو المخ) الذى عادة ما يكون فى حالة القط ينتج بطريقة أخرى، فسوف يكون لدينا خبرة مطابقة تماما تسمى "رؤية قط" دون أن يوجد قط على

الإطلاق. إننى أطلب من القارئ تذكر أننى أتكلم علميا وليس فلسفيا، فأنا أفكر فى تلك الأشياء على أنها صور لانعكاسات فى مرآة، أو لاضطرابات مخية (مهما كانت) والتى قد تسبب رؤيتى للقط فى حلم.

(٦)

يمكننا جعل الأمر تخطيطًا على النحو التالى. خبرة معينة E (مثل الشق البصرى فيما نسميه "رؤية قط") كانت فى تاريخى السابق عادة مصحوبة بخبرات أخرى معينة. بالتالى، بفضل قانون العادة، الخبرة E مصحوبة الآن بما قد يسميه هيوم "أفكارًا" والذى أفضل تسميته "توقعات" والتى قد تتحدد جسديا تماما. على أى حال، تستحق تلك التوقعات أن تسمى "عقائد" كما سنجد لاحقا عندما نصل إلى تحليل العقائد. بالتالى فبينما أساس الإحساس ليس إدراكيا فإن المرافقات المتلازمة معه، لأنها عقائد، لا بد وأن تكون إدراكية (مشتملة على عقائد خاطئة أيضا). فإذا بدت هذه النظرة شاذة فإن ذلك يرجع إلى أننا نميل للتفكير فى العقائد بطريقة فكرية غير مبررة.

لا أفضل استعمال كلمة "إدراك" للخبرة الكاملة المكونة من جوهر إحساس بالإضافة إلى توقعات، لأن كلمة "إدراك" تشير بقوة شديدة إلى أن العقائد المشتملة صحيحة. على ذلك، سوف أستعمل الجملة "خبرة إدراكية". وبالتالى فمتى اعتقدت أننى أرى قطا، ستكون لدىَّ خبرة إدراكية "لرؤية قط" حتى ولو لم يكن هناك قط.

وحيث إن تحول الإحساس إلى خبرة إدراكية يعد مثالاً للعادة، فإنه يتبع ذلك أنه فى الماضى الخاص بى، تكون المجموعات التى تفترضها الخبرة الإدراكية موجودة.

ضع باختصار - مع افتراض الفيزياء - أننى عندما كنت أرى قطا عادة ما يكون هناك قط مرئى، حيث إنه لو لم يكن هذا هو الحال فلا يكون بإمكانى اكتساب العادات التى أملكها الآن. لدينا الآن مسببات استنتاجية لإقرار (على أساس الحس المشترك) أنه عندما "أرى قطا" فربما كان هناك قط. لا يمكننا تجاوز "ربما" حيث إننا نعرف أن الناس أحيانا يرون قططا ليست موجودة مثلما يحدث فى الحلم، واحتمال حدوث

الخبرات الإدراكية كنتائج للمنبهات الحسية يعتمد كلية على حقيقة أننا نعيش فى عالم فيه الأشياء لها ثبات خاص وتندرج أيضا فى طرز طبيعية. هذه الأشياء تعتمد على درجة الحرارة. بالتالى فلا شك أن إمكانية الحياة أيضا يعتمد على درجة الحرارة. من المؤكد أن "الخبرة" تعتمد على توافر جسد ثابت لنا بدرجة أو بأخرى، و "الروح" بالمعنى الاشتقاقى – أى غاز فى حالة حركة – لن يكون لها الثبات الفيزيائى المطلوب للخبرة أو لتكوين عادات. يمكن تلخيص هذا الجزء من النقاش كما يلى: فى بيئتنا كثيراً ما يحدث أن تقع الأحداث معًا فى حزم– تلك الحزم هى التى تميز القط عن غيره من الأشياء. أى من حواسنا قد يتأثر بمنبه ينجم من خصائص معينة للحزم موضع الاعتبار. فلنفترض أن المنبه بصرى، هنا تسمح لنا الفيزياء باستنتاج أن الضوء الذى له ترددات معينة يخرج من الشىء إلى أعيننا، ويسمح لنا الاستقراء أن نستنتج أن تلك الأشكال من الضوء والتى سنفترض أنها تشبه القط، ربما تبدأ من منطقة توجد بها خصائص أخرى للقطط. حتى نقطة معينة، يمكننا اختبار هذه النظرية الفرضية تجريبيا:

يمكننا أن نلمس القط، وأن نمسكه من الذيل لنرى ما إذا كان يموء، عادة ما تنجح التجربة، وعندما لا تنجح، فإن فشلها يمكن بسهولة تسبيبه دون الحاجة إلى تعديل قوانين الفيزياء. (فى هذا الخصوص فإن الفيزياء أرقى من الحسّ المشترك الجاهل). ولكن كل تلك الاستنتاجات تتعلق جزئيا بالحس المشترك وليس بالعلم، تتم تلقائيا بحكم العادة، مما ينقل الإحساس إلى خبرة إدراكية. بصورة عامة، الخبرة الإدراكية هى عقيدة مركزية لما تُظهر الفيزياء ويظهر الاستنباط بأنه محتمل، لأنه خطأ كعقيدة، ولكنه عادة ما يكون صحيحًا فى محتواه الكلى.

(٧)

ينتج مما سبق أنه فى الخبرة الإدراكية فإن الشق الحسى له قيمة استنباطية أعلى من الباقى. قد أرى قطا، أو أسمعه يموء أو أتحسس فراءه فى الظلام. فى كل تلك الأحوال، تكون عندى خبرة إدراكية بالقط، ولكن الأولى خبرة بصرية والثانية

سمعية والثالثة باللمس. لكى أستنتج من خبرتى البصرية الترددات الضوئية على سطح القط، أحتاج (إذا لم أكن أحلم وبصرى طبيعى) لقوانين الفيزياء ولكن لكى أستنتج الخصائص الأخرى للقط، أحتاج بالإضافة لذلك إلى خبرة أن الأشياء التى لها أشكال ملونة بهذه الكيفية من الأرجح أن تموء لا أن تنبح. وحيث إن أى استنتاج من الخبرة الإدراكية لا يعد مؤكدا، فإن الاستنتاجات المشتقة من الشق الحسى لها احتمال أكبر عن تلك الخاصة بالأجزاء الأخرى المشتقة من الخبرة الإدراكية. يمكن إنكار ذلك فقط بواسطة أولئك الذين ينكرون الفيزياء أو الفسيولوجى.

أنتقل الآن إلى موضوع مختلف قليلا وهو العلاقة بين الخبرات الإدراكية ومعرفة الأمور الواقعية. توجد مثل هذه العلاقة وفقا للفروق بين المعرفة بالخبرات الماضية والحالية من ناحية، ومعرفة المستقبل والماضى غير المجرب من ناحية أخرى. نحن نعرف أن قيصر قُتِل ولكن حتى وقوع ذلك الحدث لم يكن ذلك معروفًا. كان معروفا للشهود لأنهم أدركوه، وهو معروف لنا نتيجة ما هو مدوَّن فى كتب التاريخ. أحيانا نعرف حقائق مستقبلية مثل تواريخ حدوث كسوف شمسى قادم ولكن مثل هذه المعرفة مستنتجة من المعرفة القائمة مباشرة على مدركات وهى أقل تأكدا من المعرفة التى تقوم عليها. كل معارفنا عن الحقائق الواقعية- أى المعرفة التى لها مرجعية من موقع مؤقت- تعتمد سببيا على الخبرات الإدراكية وتشتمل على الأقل على فرض واحد يشير إلى الحاضر أو الماضى. ولكن على الرغم من وضوح ذلك، فإن العلاقة المنطقية للمعرفة الفعلية بالخبرة الإدراكية ليس من الممكن بيانها بوضوح.

بعض المدارس الفلسفية - وأشهرها الهيجليين- ينكرون التفرقة بين المعطيات والاستنتاجات بصورة تامة. هم يصرون على أننا فى كل معارفنا يوجد عنصرٌ استنتاجيٌّ وأن المعرفة هى كلٌّ عضويٌّ وأن اختبار الصدق هو الالتصاق بالحقيقة وليس مجرد التوافق معها. أنا لا أنكر وجود عنصر صدق فى هذه النظرة، لكننى أعتقد أنه إذا أُخذَت على أنها الحقيقة كلها، فإنها تجعل الشق الذى يلعبه الإدراك فى المعرفة غير قابل للشرح. بالتأكيد أن كل خبرة إدراكية، إذا اخترتُ أن ألاطفها، توفر لى إمّا معرفة

جديدة لم يكن باستطاعتى استنتاجها من قبل، وإما على الأقل كما فى حالة الكسوف الشمسى، توفر لى يقينًا أكبر عمًا كنت أستطيع الحصول عليه سابقا بالاستنتاج فقط. يرد الهيجليون على ذلك بأن أى بيان عن المعرفة الجديدة المتحصل عليها بالإدراك دائما ما يكون تفسيرًا قائمًا على نظريات مقبولة، وأن الأمر قد يتطلب تصحيحًا لاحقًا إذا ثبت أن هذه النظريات غير مناسبة. إذا قلت مثلا، "انظر، هناك كسوف للقمر" فإننى أستعمل معرفتى بالفلك لتفسير ما أراه. لا توجد كلمة، وفقا للهيجليين، لا تحتوى على نظريات أو فرضيات.

(٨)

أعتقد أن هذه النظرة تقلل من تقدير قوى التحليل، ولا يمكن إنكار أن تفسيراتنا اليومية للخبرات الإدراكية وكل كلماتنا اليومية تشتمل على نظريات. ولكن ليس مستحيلا استبعاد عنصر التفسير أو اختراع لغة مصطنعة تشتمل على الحد الأدنى من النظرية. بهذه الطرق يمكننا الوصول إلى المعطى الخالص. وضرورة وجود معطى خالص هو ناتج لا يمكن دحضه لحقيقة أن الإدراك يؤدى إلى معرفة جديدة. افترض مثلا، أننى هنا تعاملت مع عدد من النظريات ولكنى الآن أدرك أنه فى مكان ما بين هذه النظريات يوجد ما هو خطأ. بالضرورة يكون هذا شيئًا لا يمكن استنتاجه من النظريات السابقة، وهذا الشىء هو معطى جديد لمعلوماتى عن الحقائق الفعلية لأننا نعنى "بالمعطى" مجرد قطعة من المعرفة ليست مستنتجة. بإنكار المعطيات التى من هذا الطراز يبدو لى ممكنًا فقط للهيجليين المنطقيين.

موضوع المعطيات تم خلطه بطريقة خاطئة بموضوع اليقين. الخاصية الأساسية للمعطى هى أنه ليس مستنتجًا. قد لا يكون صادقًا وقد لا نكون متأكدين من أنه صادق. أفضل مثال لذلك هو الذاكرة. نحن نعرف أن الذاكرة عرضة للخطأ ولكن هناك الكثير من الأشياء التى نصدقها وفقا للذاكرة فقط. وإن لم يكن بالتأكد التام. مثال آخر

مشتق من الإدراك المتلاشى. افترض أنك تستمع لأصوات تتخافت تدريجيا مثل صوت طائرة تبتعد. عند نقطة معينة من الزمن، تكون متأكدا أنك سمعته، وعند زمن لاحق تكون متأكدا أنك لم تعد تسمعه، ولكنك لا تستطيع التأكد، عند تلك الأوقات يكون لديك معطى غير مؤكد. أنا مستعد للموافقة على أن كل المعطيات بها درجة من عدم التأكد، وبالتالى يجب تأكيدها بمعطيات أخرى. ولكن ما لم تكن هذه المعطيات الأخرى لها درجة من المصداقية المستقلة، فإنها لن تؤكد المعطيات الأصلية.

هناك تمييز يجب القيام به هنا، فرغم إقرارى بأنه لا يوجد بيان فعلى فى كلمات يكون مؤكدا تماما، فإنه من الممكن تعريف فئة من البيانات تكون صادقة بالتأكيد وفى هذه الحالة ما هو مشكوك فيه هو ما إذا كان بيانا معينا ينتمى إلى إحدى هذه الفئات أم لا. لأغراض عديدة، من المناسب تعريف القسم من الفروض بحيث يكون الكل صادقا، ولكن إذا فعلنا ذلك فلن نكون متأكدين أبدا أن بيانًا معينًا ينتمى إلى هذا القسم من الفروض.

سوف أفترض بالتالى أن هناك معطيات، بمدلول مقدمات الدليل عليها ليس مشتقا من علاقته المنطقية بمقدمات أخرى. لن أفترض أن المعطيات الفعلية التى يمكننا الحصول عليها هى يقينية تماما، ولا أن مقدمة تعد معطى لا يمكن أن تكون تابعة لمقدمات أخرى مقبولة. هذه الحالة الأخيرة تحدث أينما رأينا خسوفًا متوقعا. ولكن عندما تكون المقدمة المتعلقة بأمر معين من الأمور الواقعية مقدمة مُستنتجة، فلا بد دائما من أن يكون من بين الفروض أمور واقعية أخرى يتم الوصول منها بالاستنتاج إلى قوانين عامة. وبالتالى، فمن المستحيل أن تكون معرفتنا بالأمور الواقعية مُستنتجة.

(٩)

موضوع كيفية الحصول من الخبرات الإدراكية على مقدمات هى فروض للمعرفة الفعلية هو موضوع صعب ومعقد، ولكنه ضرورى وأساسى لأى نظرية فعلية للمعرفة.

يجب الآن أن نختبر موضوعًا على درجة من الأهمية وهو الجزء الذى تلعبه أسماء الإشارة فى الأحكام الإدراكية. فلنطرح أولا طبيعة المشكلة على النحو التالى: رأينا فى الفصل السابع أن من مثاليات العلم التخلص من أسماء الإشارة، وسيبدو من مناقشات ذلك الفصل كما لو أن هذه المثاليات ممكنة التحقق. إذا كانت ممكنة التحقق، فمن الممكن وجود معرفة فعلية غير شخصية، وإن رجلين كلاهما يعتقد (مثلا) أن الهيدروجين هو الأخف من كل العناصر قد يعتقد أن ذلك فى المقدمة نفسها. فإذا كانت كل المعرفة الفعلية محددة بمدلول أسماء الإشارة، إذن وحيث أن اثنين من الناس لا يمكن أن يلصقا المعنى نفسه بنفس كلمات الإشارة، فلا يمكن أن يلصق اثنان من الناس المعنى نفسه بأى كلمة إشارة. ولا توجد مقدمة فعلية يمكن لاثنين من الناس أن يصدقاها. هذه النتيجة غير السارة يمكن تأييدها بالعديد من الأمور.

مفرداتنا الفعلية تعتمد على كلمات ذات تحديدات قاطعة، والتحديد القاطع يتكون من سلسلة من المدركات التى تصنع اعتياداً. وعندما يتم التحكم تمامًا فى المفردات، فإن الإدراك هو الذى يعطينا المعرفة الأولية للأمور الفعلية التى عليها يقوم العلم. والمعرفة الإدراكية تتطلب كلمات إشارة فى تعبيراتها اللفظية. يجب تمحيص هذا الجدل الآن.

فلنبدأ بـ "المعنى"، ولنأخذ كلمة "حار" ولسوف أفترض تبسيطًا للخبرات التى بها عرفت معنى الكلمة فى الطفولة: كانت هناك نار فى حجرة طفولتى، وكلما اقتربت منها قال أحدهم "حار"، واستخدموا الكلمة نفسها عندما كنت أتصبب عرقا فى أيام الصيف، وكذلك عندما سكبت عرضًا الشاى على نفسى، كانت النتيجة أننى كنت أصيح "حار" كلما حدث شىءُ مشابهٌ. حتى الآن لا يوجد ما هو أبعد من القانون السببى، طراز معين من الحالة الجسدية يؤدى إلى صوت من طراز معين. سيكون من السهل بناء ماكينة تقول "حار" عندما تصل الحرارة إلى درجة معينة، هذه ليست بالنسبة لنا النقطة المهمة. ما هو مهم لنا أن هذا الاستعمال البدائى لكلمة "حار" له الخاصية المميزة لأسماء الإشارة وهو أنه "يعتمد على العلاقة بين مستخدم الكلمة والشىء الذى تتعلق به الكلمة". لقد داومنا عبر نقاشنا لكلمات الأشياء أنها فى أشد استعمالاتها بدائية، تكون

عبارة عن أحكام إدراكية، ما نعبر عنه فى البداية بكلمة "حار" هو ما نعبر عنه بعد ذلك بالتعبير "هذا حار" أو "أنا محتر". يعنى ذلك أن كل كلمة شىء فى استعمالها البدائى، لها إشارية ضمنية يجعلها التطور اللاحق فى الخطاب محددة.

ولكن عندما تقدمنا إلى النقطة التى عندها يمكن فهم معنى الكلمات بطريقة أكثر تحديدًا، رأينا أن هذه الإشارية ليست جزءًا من معنى كلمة "حار" كما توجد فى اللغة المتطورة. كلمة "حار" تعنى فقط حالة حادثات، إذا كانت على علاقة مناسبة بى ستؤدى إلى أن أهتف بكلمة "حار" وعند المرور من "حار" إلى "هذا حار" نصنع تحليلا: حالة "حار" تم تحريرها من الإشارية، والعنصر الإشارى الذى كان متضمنا أصبح محددًا بالكلمة "هذا يكون". وبالتالى ففى اللغة المتطورة تكون كلمات الأشياء مثل "حار"، و"أحمر"، و "ناعم"... إلخ ليست إشارية.

(١٠)

هذا لا يحدد رغم ذلك العنصر الإشارى فى الحكم بالإدراك. السؤال هو: هل نستطيع التعبير عما نعرفه عندما نصدر تلك الأحكام دون استخدام "هذا" أو "أنا- الآن"؟ إذا لم نكن نستطيع، فإن نظرية أسماء الأعلام المقترحة فى الفصل السادس يجب التخلى عنها.

الأحكام الإدراكية من طرازين، عند النظر إلى النار قد نقول "هذا حار" و "هذا لامع" وهما من الطراز الأول. ولكننا قد نقول أيضا "الأحر والألمع متواكبان"، وهذا من الطراز الثانى. عندما نستطيع القول "هذا A، هذا B، هذا C... إلخ. حيث "A" ، "B"، "C" ... هى أسماء لخصائص يمكننا القول إن A ، B، C.. متواكبة. ولكن فى الحكم الأخير فإن التفرد الفراغى- المرحلى لكلمة "هذا" يضيع، فنحن لا نتكلم الآن عن هذا الحدث، وكما يوضح حكمنا، فقد يكون هناك العديد من المناسبات التى فيها ... C، A،B تعد متواكبة.

إذا كنا سنحتفظ بنظرية الفصل السادس، فعلينا أن نقول إن "هذا" هو اسم (بالتحديدات المشروحة نفسها فى الفصل السابع) لحزمة من الخصائص المتواكبة، وأنه إذا كانت خصائصنا منتقاة بطريقة مناسبة أو كانت متعددة بدرجة كافية، فإن الحزمة بكاملها لن تحدث أكثر من مرة، أى لن يكون لها أى من هذه العلاقات الفراغية أو المرحلية التى نعتبرها تشير إلى الاختلاف مثل: قبل و أعلى و إلى اليمين.. إلخ. إذا كان لهذه النظرية أن تستمر فى الوجود، فإن الإشارية فى المقدمات التى على شاكلة "هذا حار" تكمن ليس فيما هو معروف ولكن فى سببية معرفتنا، وفى الكلمات التى عن طريقها نعبر عنها. كلمة "هذا" يمكن أن تحل محلها مجموعة معقدة من الخصائص هى التى تكوِّن ما أخبره الآن. الصدق غير الشخصى الذى يتقرر عندما أقول "هذا حار" سوف يترجم عندئذ إلى الكلمات "الحر جزء من W". بهذه الصيغة، ما عرفته من الإدراك يكون من الممكن إدخاله فى العلم اللاشخصى.

(١١)

ما إذا كنا نقبل أو نرفض هذه النظرة فإن الصعوبات ستواجهنا. فلنختبر أولا الصعاب المشتملة عند قبولها.

هناك صعوبات خاصة بالفراغ-الزمن وقد عولجت فى الفصل السادس، ولسوف أفترض أنها تم التعامل معها بطريقة مرضية.

الأكثر صعوبة هو الناتج الواضح بأن كل الأحكام الإدراكية تحليلية. إذا كانت "W" اسمًا لكل مكون من حزمة من الخصائص، وأن "هذا حار" تعنى مجرد أن الحر هو خاصية من الخصائص المكونة لـ "W"، بالتالى ما إن يتم تعريف "W"، فإن المقدمة "هذا حار" تصبح شبيهة للمقدمات مثل "الحيوانات العاقلة هى حيوانات" أو "الأشكال السداسية هى أشكال مركبة". لكن هذا غير معقول: فهذا يذهب بالتمييز بين المعرفة الفعلية والمعرفة المنطقية ويجعل الجزء الذى تلعبه الخبرة فى المعرفة الفعلية غير قابل للشرح.

الإجابة الوحيدة هى القـول بأنه رغم أن "W" هى فى الحقيقة اسم لحزمة معينة من الخصائص، فنحن لا نعرف، عندما نعطى الاسم، ما هى الخصائص المكونة لـ W. أى أنه يجب افتراض أننا نستطيع الإدراك والتسمية والتعرف على كل دون أن نعرف مكوناته. فـى هـذه الحالة، المُعطى الذى يظهر كموضـوع لحكم إدراكى هـو كلٌ مـعقد لا نعـرف بالضـرورة مدى تعـقده. الحكم الإدراكى هو دائمـا حكم قـائم على التحليل وليس حكمًا تحليليا، فـهو ينص على أن "الكل W والخـاصـية Q مرتبطـان ككل وجزء، "حيث W وQ مستقلان. حقيقة أنهما معطيان تدخل فى التسبيب لما نعرف وفى التعبير اللفظى إذا استخدمنا كلمة "هذا" ولكن ليس إلى التعبير اللفظى بالصورة " Q هى جزء من W ".

النظرية السابقة لها تابع هو أننا لا نستطيع التعبير عن معرفتنا بدون أسماء لكليات معقدة، وأننا يمكن أن نتعرف على كليات معقدة دون معرفة مكوناتها التى تكونها. سوف أعود إلى هذا الموضوع فى الفصل الرابع والعشرين حيث سنستعرض الأسباب الخاصة بقبول النظرة إلى الكليات التى تتطلبها نظريتنا الحالية.

ومع استنتاجنا بأن الصعوبات المتعلقة بقبول نظريتنا الحالية ليست غير قابلة للحل. فلنستعرض الآن الصعوبات المتعلقة برفضها.

إذا رفضنا نظريتنا، سنقبل إمَّا "هذا" وإما "أنا-الآن" مكونات ضرورية لحكم الإدراك. سوف أفترض أننا ملتزمون بـ "هذا". الجدل هو نفسه مهما كان البديل الذى نختاره.

الصعوبة التى تنشأ هنا ليست خاصة بأسماء الإشارة، وإنما بـ"المادة". إذا قبلت مقدمات من الطراز "هذا حار" حيث "هذا" لا تشير إلى حزمة من الخصائص، فإن "هذا" تصبح اسم شىء هو مجرد موضوع للخبر لا يخدم أى غرض عدا أن الخبر "داخله". كل المقدمات من الطراز "هذا حار" من المفترض أنها مخلَّقة بحيث إن "هذا" ليست معرفة عندما يتم إحصاء كل خبر لها. إذا كانت معرَّفة، فسوف تكون زائدة عن

الحاجة ويمكننا العودة إلى نظرية أن "هذا" تشير إلى حزمة من الخصائص (والتى لا تصبح الآن خبرية مُصنَّعة). يجب إذن الإصرار على أنه من الممكن لهذا وذاك أن يكون لهما الخبر نفسه. ذاتية ما لا يمكن تأكيده، إذا كانت صادقة، سوف تكون مجرد حظ، و"الذاتية" سوف تكون غير قابلة للتعريف. إضافة لذلك، قد يحدث أن تكون هذا وذاك ليستا متماثلتين رغم عدم وجود دليل على ذلك يمكن تصوره. العد سيكون مستحيلاً لأنه إذا كانت a ، b غير متميزين عن بعضهما فسوف أعطيهما الاسم نفسه، وأى حدث أعد فيه أحدهما سوف يكون بالضرورة حدث أعد فيه الآخر. من الواضح بالتالى أنه إذا كان هناك تصور يسمح لما لا يمكن التأكد منه أن يصبح متماثلاً، فإن هذا التصور لا يمكن تطبيقه ولن يكون له علاقة بمعرفتنا. وعلى ذلك فيجب تفضيل نظرة لا تتطلب ذلك.

أستنتج بالتالى أن نظرية أسماء الأعلام التى تشكلت فى الفصل السادس يجب الإبقاء عليها، وأن كل المعرفة التى تم بيانها بواسطة أسماء الإشارة يمكن بيانها دون استعمالها.

* * *



الفصل التاسع

فروض نظرية المعرفة

(١)

أصبحت نظرية المعرفة صعبة نتيجة اشتمالها على علم النفس والمنطق، بالإضافة إلى العلوم الطبيعية، مما جعل تداخل وجهات النظر المتباينة خطراً ماثلا، وهذا الخطر يعد حادا بصورة خاصة فيما يختص بمشكلة الفصل الحالى، وهى الخاصة بتحديد فروض معرفتنا من وجهة نظر نظرية المعرفة. وهناك مصدر إضافى للتداخل كما سبق ملاحظته، وهو أن نظرية المعرفة ذاتها يمكن إدراكها بطريقتين مختلفتين، فهى من ناحية تأخذ كمعرفة ما يعتبره العلم أنه معرفة، وبالتالى فقد نسأل: كيف اكتسبنا هذه المعرفة؟ وما هى أفضل الطرق لتحليلها إلى فروض واستنتاجات؟ من ناحية أخرى، فقد نتبنى وجهة النظر الديكارتية ونسعى إلى تقسيم ما نعتبره معرفة إلى أجزاء أكثر يقينية وأخرى أقل يقينية. هذان البحثان ليسا شديدى التميز كما قد يبدوان، حيث إن أشكال الاستنتاجات المشتملة عليها ليس من الممكن إيضاحها، ففروضنا سوف يكون لها يقين أكبر من استنتاجاتنا. ولكن هذه الحقيقة فقط تجعل من الأصعب تجنب التداخل بين البحثين.

الفرض الخاص بنظرية المعرفة لن نحاول تعريفه، وإنما يجب أن يشتمل على ثلاث خصائص، فيجب أن يكون:

(أ) فرضاً منطقيا.

(ب) فرضاً سيكولوجيا.

(جـ) صادقًا بقدر الإمكان.

وفيما يلى بعض ما يتعلق بكل من هذه الخصائص:

(أ) إذا توافرت مجموعة من المقدمات النظامية مثل التى توجد فى علم له قوانين عامة، فمن الممكن عادة، بعدد لا نهائى من الطرق، التقاط مقدمات معينة على أنها فروض ونستنتج الباقى من النظرية النيوتونية للنظام الشمسى، على سبيل المثال، يمكننا أن نأخذ كفروض قانون الجاذبية بالإضافة إلى مواقع وسرعات الكواكب عند لحظة معينة. أى لحظة ستفى بالغرض، وبالنسبة لقانون الجاذبية نستطيع أن نضع مكانه قوانين كبلر الثلاثة. عند القيام بمثل تلك التحليلات، فإن علماء المنطق لن يهتموا بصدق أو زيف مجموعة المقدمات موضع الاعتبار، طالما أنها متماسكة تبادليا (إذا لم تكن كذلك، فلن يستطيعوا فعل أى شىء حيالها). علماء المنطق، سوف يقبلون اعتبار نظامٍ كوكبىٍّ تخيلىٍّ وقانونٍ للجاذبية مخالفين لقانون مربع المعكوس. ولن يدعوا أن فروضه تعطى أساسًا للاعتقاد فى توابعها حتى عندما يكون كلاهما صادقًا. عندما نكون بصدد تمحيص أسس الاعتقاد، فإن قانون الجاذبية هو استنتاج وليس فرضاً.

علماء المنطق فى بحثهم عن فروض، لديهم غرض واحد لا يقاسمهم فيه علماء الإبستمولوجيا، وهو أنهم يبحثون عن أقل مجموعة ممكنة من الفروض. ومجموعة الفروض هى مجموعة تمثل الحد الأدنى بالنسبة لمجموعة معطاة من المقدمات، إذا كان من المجموعة بكاملها وليس من أى جزء منها يمكن استنتاج كل المجموعة من المقدمات. عادة ما يتواجد العديد من مجموعات الحد الأدنى، ويفضل علماء المنطق تلك التى تكون الأقصر، ومن بين اثنين كلاهما قصير يفضل الأبسط، ولكن هذه التفضيلات تعتبر شخصية.

(ب) الفرض السيكولوجى قد يمكن تعريفه على أنه اعتقاد لا يسببه اعتقاد آخر أو معتقدات أخرى. من الناحية السيكولوجية، أى اعتقاد يمكن اعتباره مُستنتجًا إذا ما كان السبب فيه اعتقاد آخر مهما كان الاستنتاج غير صالح بالنسبة للمنطق. أوضح قسم للمعتقدات التى لا تسببها معتقدات أخرى تلك التى تنتج مباشرة من الإدراك، رغم أنها ليست المعتقدات الوحيدة التى تمثل الفروض السيكولوجية، فغيرها مطلوب لجعلنا نؤمن بالجدل الاستنتاجى. ربما كان الاستنتاج يعتمد أيضا من الناحية السيكولوجية على معتقدات بدائية. وعن المعتقدات الأخرى لن أتحدث الآن.

(جـ) حيث إننا مهتمون بنظرية المعرفة، وليس بمجرد الاعتقاد، فإننا لا نستطيع قبول كل الفروض السيكولوجية كفروض معرفية، لأن فرضين سيكلوجيين يتعارض أحدهما مع الآخر، وبالتالى فليست جميعها صادقة. مثلا، قد أعتقد أن "هناك رجل ينزل السلم" وفى اللحظة التالية أدرك أن ذلك كان انعكاسًا لنفسى فى المرآة. لهذا السبب، فإن الفروض السيكولوجية لا بد من إخضاعها للتحليل قبل قبولها كفروض لنظرية المعرفة. فى هذا التحليل نكون على أقل درجة ممكنة من الشك. نحن نفترض أن الإدراك يمكن أن يسبب المعرفة رغم أنه قد يسبب الخطأ إذا كنا مهملين من الناحية المنطقية. بدون هذا الفرض الجوهرى، سوف نتراجع إلى الشك التام فيما يتعلق بالعالم الفعلى. الجدل لا يوصف بأنه ممكن منطقيا سواء لتأييد أو معارضة الشك الكامل والذى يجب قبوله على أنه واحد من بين عدة فلسفات ممكنة. إلا أنه رغم ذلك يكون شديد القصر والبساطة بما لا يثير الاهتمام. ولسوف أطوِّر بالتالى النظرية المضادة والتى وفقًا لها تكون المعتقدات الناشئة عن الإدراك مقبولة، ما لم تكن هناك أسباب توجب رفضها.

وحيث أنـــنا لا يمكن أن نكون شديدى التأكد من أن أية مقدمة تعد صادقة، لا يمكننا أبدا أن نكون متأكدين أنه فرض معرفى، حتى لو اشتمل على الخاصيتين المحددتين وبدا لنا صادقًا.

(٢)

سوف نعطى "أوزانا" مختلفة للمقدمات المختلفة التى نعتقد فيها والتى إذا كانت صادقة تكون فروضا معرفية، وأكبر وزن سوف نعطيه لتلك التى نحن على أقل درجة تأكد منها. عندما يكون هناك تعارض منطقى فسوف نضحِّى بالأقل تأكُّدًا، ما لم يكن هناك عدد كبير منها مناقضا لعدد صغير جدا من الأكثر تأكداً.

ونتيجة لغياب اليقين، فلن نبحث مثل رجال المنطق عن اختزال فروضنا إلى الحد الأدنى. على النقيض، سوف يسرنا وجود عدد من المقدمات يؤيد بعضها البعض ويمكن

قبولها جميعًا كفروض معرفية حيث إن هذا يزيد احتمال كل منها (لا أفكر هنا فى الاستنتاج المنطقى ولكن فى التوافق الاستنتاجى).

الفروض المعرفية مختلفة وفقًا لكونها لحظية، فردية أو اجتماعية. ولنوضح ذلك: أعتقد أن (١٦)٢ = ٢٥٦، فى هذه اللحظة وأعتقد ذلك على أساس الذاكرة، ولكن ربما فى وقت آخر قمت بعمل الحسبة وأقنعت نفسى بأن القواعد الخاصة بالضرب تتبع فروض المنطق. وبأخذ حياتى ككل فإن ٢٥٦= (١٦)٢ مُستنتجة ليس من الذاكرة، وإنما من المنطق. فى هذه الحالة إذا كان منطقى صحيحًا فلا فرق هناك بين الفروض الفردية والاجتماعية.

ولكن فلنأخذ الآن وجود خطوط ماجلان - مرة أخرى، الفرض اللحظى المعرض هو الذاكرة. ولكن كان عندى فى أوقات مختلفة أسباب أفضل مثل الخرائط، كتب الرحلات إلخ. أسبابى كانت تأكيدات الآخرين الذين اعتقدت أنهم يعرفون جيدا وشرفاء. إذا تعقبنا هذه المناسبات خلفًا فسوف تقودنا إلى مدركات: ماجلان وآخرون كانوا فى المنطقة موضع الاعتبار، عندما لم يكن الجو ضبابًا، رأوا أن هناك أرضًا وبحرًا وبعمل استنتاجات منتظمة قاموا برسم خرائط. بمعاملة معرفة البشر ككل واحد، فإن مدركات ماجلان والرجال الآخرين هى التى وفرت فروضا معرفية للاعتقاد فى خطوط ماجلان. الكتاب المهتمون بالمعرفة كظاهرة اجتماعية يركزون على الفروض المعرفية الاجتماعية، ولأغراض معينة يعد ذلك أمرًا مشروعًا، ولكن لأغراض أخرى لا يعد كذلك. الفروض المعرفية الاجتماعية تكون صحيحة عند تقرير إنفاق المال العام على شراء تلسكوب جديد أو عمل بحث عن سكان جزر تروبرياند.التجارب المعملية تهدف إلى تحديد فروض حقيقية جديدة يمكن دمجها فى النظام المقبول للمعرفة الإنسانية. ولكن بالنسبة للفيلسوف فإن هناك سؤالين أوليين: ماهو السبب (إذا كان هناك سبب) فى اعتقادى فى وجود أناس آخرين؟ وما هو السبب (إن وجد) الذى على أساسه أعتقد أننى كنت موجودًا فى أزمان ماضية، أو بصورة أكثر عمومية، أن معتقداتى الحالية الخاصة بالأزمان الماضية هى صحيحة بدرجة أو بأخرى؟ بالنسبة لى حاليا، فإن فروضى اللحظية المعرفية هى الفروض الحقيقية، والباقى لا بد وأنه مستنتج

بطريقة ما. بالنسبة لى فى مقابل الآخرين، فروضى الفردية هى فروض، ولكن مدركات الآخرين ليست كذلك. فقط أولئك الذين يعتبرون السلالة الإنسانية كما فى بعض المدلولات الصوفية كيانًا مفردا يملك عقلا فرديا مثابراً، لهم الحق فى قصر معرفتهم على الاعتبارات الخاصة بالفروض المعرفية.

(٣)

فى ضوء هذه التمييزات، فلنأخذ التعريفات الممكنة للفعلية. أعتقد أن الأغلبية العظمى من الفعليين هم فعليون اجتماعيون والقليل فعليون فرديون، والقليل جدا فعليون لحظيون. ما يشترك فيه الفعليون هو التأكيد على الفروض الإدراكية. سوف نبحث عن تعريف لهذا المصطلح حاليا، وسوف أقول بعض كلمات التقديم أولا.

إذا تحدثنا من الناحية السيكولوجية، "الفرض الإدراكى" يمكن تعريفه على أنه اعتقاد ينجم فى التوِّ نتيجة إدراك. لو اعتقدت أنه سوف يحدث خسوفًا للقمر لأن علماء الفلك قالوا ذلك، فإن اعتقادى ليس فرضًا إدراكيا، ولكن إذا اعتقدت أنه سوف يحدث خسوف لأننى أراه فإن هذا يعد فرضًا إدراكيا. ولكن الصعوبات تنشأ فى التو واللحظة، فما يطلق عليه الفلكيون خسوفًا هو ظاهرة عامة بينما ما أراه قد يكون راجعا لعيب فى عينىَّ أو فى التلسكوب. حيث إن الاعتقاد بأن هناك خسوفًا" قد يثور فى نفسى دون استنتاج واعٍ، وبالتالى فإن هذا الاعتقاد يتجاوز مجرد التعبير عما أراه. وعلى ذلك فإننا مرغمون على تعريف "الفرض الإدراكى" بصورة أدق عما يتطلبه علم النفس، وذلك لأننا نريد "للفرض الإدراكى" أن يكون شيئًا لا يوجد سبب مقنع لاعتباره زائفا أو شيئًا تم تعريفه جيدا بحيث إن فرضين إدراكيين لا يمكن أن يتناقضا.

بافتراض أن "الفروض الإدراكية" معرَّفة جيدا، فلنعد إلى تعريف "الفعلية". معرفتى اللحظية مكونة بدرجة كبيرة من الذاكرة ومعرفتى الفردية مكونة بدرجة كبيرة من الشهادة. ولكن الذاكرة عندما تكون صحيحة تكون على علاقة بفرض إدراكى سابق، والشهادة عندما تكون صحيحة تكون على علاقة بفرض إدراكى لشخص آخر.

الفعلية الاجتماعية تأخذ هذه الفروض الإدراكية لأوقات أخرى أو لأشخاص آخرين على أنها الفروض الفعلية لما نقبله الآن، وبالتالى تتجنب المشكلات المتعلقة بالذاكرة والشهادة. من الواضح أن هذا غير مشروع، حيث إن هناك أسبابا للاعتقاد بأن كلا من الذاكرة والشهادة أحيانا ما تكونان خادعتين. الآن أستطيع فقط الوصول إلى الفروض الإدراكية للأوقات الأخرى والأشخاص الآخرين باستنتاج من الذاكرة والشهادة. إذا كان لدى الآن أى سبب للاعتقاد فى ما قرأته بالأمس فى الموسوعة، يجب الآن أن أجد سببا للوثوق فى ذاكرتى وللاعتقاد - فى الظروف المناسبة - فى ما يأتى إلىّ فى صورة شهادة. يجب أن أبدأ من الفروض المعرفية اللحظية. إذا قمت بأى شىء آخر فإننى أتجنب مشكلات هى جزء من المعرفة عليها أن تحله. يتبع الاعتبارات السابقة أن نظرية المعرفة لا يمكنها القول بأن "المعرفة مشتقة كلية من فروض إدراكية بالإضافة إلى أسس الاستنتاج الإيضاحى والاحتمالى". فروض الذاكرة على الأقل يجب أن تضاف إلى الفروض الإدراكية.

(٤)

ما هى الفروض التى يجب إضافتها لكى تكون الشهادة مقبولة (مع محدودية الحس المشترك)؟ هذا سؤال صعب يجب أن يطرأ على العقل، ولكن يحتاج إلى نقاش فى هذه اللحظة. الأهمية الشاملة للإدراك فى أى صورة فعلية هى أهمية سببية. الذاكرة، عندما تكون صادقة، تعتمد سببيا على الإدراك السابق، والشهادة عندما تكون صادقة تعتمد سببيا على إدراك شخص آخر. قد نقول بالتالى "كل المعرفة الإنسانية للأحداث الفعلية هى جزئيا ناتجة عن الإدراك". ولكن هذه المقولة لا يمكن معرفتها أساسًا إلا بالاستنتاج، ولا يمكن أن تكون فرضًا معرفيا. من الواضح أن جزءًا من سبب اعتقادى فى خطوط ماجلان هو أن أناسًا معينين قد رأوها ولكن ليس هذا هو سبب اعتقادى، حيث إنها يجب أن يتم إثباتها لى (أو جعلها محتملة)، وأن هؤلاء الناس كان لديهم تلك الإدراكات. بالنسبة لى، مدركاتهم كانت استنتاجات وليست فروضا.

* * *

الفصل العاشر

المقدمات الأساسية

(١)

المقدمات الاستنتاجية، كما أرغب فى استخدام هذا المصطلح، هى قسم من أقسام الفروض المعرفية، أى تلك التى تنجم لحظيا بقدر الإمكان من الخبرات الإدراكية. يَستبعد ذلك الفروض المطلوبة للاستنتاج سواء كانت إيضاحية أو محتملة. ويستبعد أيضا أى فروض أعلى منطقية وتستعمل فى الاستنتاج، لو كان هناك مثل "ما هو أحمر ليس بأزرق"، "إذا كان A أكبر من B فإن B ليست أكبر من A" . مثل هذه المقدمات تتطلب نقاشا حذرًا ولكن ما إذا كانت فروضًا أم لا فإنها ليست بأى حال تعد أساسية بالمدلول السابق.

يصر كثير من الذين يكتبون عن نظرية المعرفة على أنه لا شىء يمكن تعلمه من حدث مفرد. هم يعتقدون فى أن كل المعرفة الفعلية مكونة من استنتاجات من عدد من الخبرات المتماثلة. بالنسبة لى، أعتقد أن هذه النظرة تجعل التاريخ مستحيلا وتجعل الذاكرة عاجزة عن الفهم. أنا أعتقد أنه من خلال أى حدث يلاحظه إنسان، يمكنه أن يحصل على معرفة والتى، إذا كانت عاداته اللغوية مناسبة، يستطيع أن يعبر عنها بجُمَل. عاداته اللغوية بالطبع نتجت عن خبرات ماضية ولكن ذلك يحدد فقط الكلمات التى يستعملها. إن صدق ما يقول، وفقا لمعانى كلماته، ووفقا لتوافر العناية الكافية، سوف يعتمد كلية على خاصية حدث واحد يلاحظه. عندما يكون هذا هو الحال فإن ما يقرره هو ما أسميه "مقدمة أساسية".

(٢)

يشتمل النقاش الخاص بالمقدمات الأساسية على جزءين. الجزء الأول، من الضرورى الجدل فيه ضد الآراء المناقضة له، وهو أن هناك مقدمات أساسية. الجزء الثانى الذى يقول، إنه من الضرورى تحديد ما هى طرز الأشياء التى يمكن للمقدمة تأكيدها وإيضاح أن هذا عادة ما تكون أقل كثيراً مما يؤكده الحس المشترك فى المناسبات التى تكون فيها المقدمة موضع الاعتبار مبررة معرفيا.

للمقدمة الأساسية عدة خصائص، هى أنها يجب أن تكون معروفة باستقلال عن الاستنتاج من فروض أخرى، ولكن ليس باستقلال عن الدليل حيث يجب أن يوجد حدث إدراكى يوفر السبب، ويعتبر أنه يوفر إجابة السؤال لماذا يجب أن نصدق المقدمة. من وجهة النظر المنطقية، يجب أن يكون ممكنا تحليل معرفتنا الفعلية ومقدماتها البدائية (بعيداً عن المنطق والتعميمات) حال كونها جميعا فى لحظة تصديقها فى البداية تكون مقدمات أساسية. يتطلب ذلك ألاً تتناقض المقدمات الأساسية مع بعضها بعضًا، وتجعل من المرغوب إن أمكن إعطاؤها صورة منطقية، مما يجعل التناقض المتبادل مستحيلا. هذه الشروط تتطلب بالتالى أن يكون للمقدمة الأساسية خاصيتان:

١ - أن تحدث نتيجة لوقائع محسوسة.

٢ - أن تكون بالصورة التى لا يمكن لمقدمة أساسية أخرى أن تتناقض معها.

بالنسبة للخاصة الأولى، لا أرغب فى الإصرار على كلمة (تحدث) ولكن يجب أن ينجم الاعتقاد فى حالة حدوث واقعة محسوسة، وأن يكون على الصورة التى إذا ما تم التساؤل عنها أمكن الدفاع عنها بالقول "ولكنى أراها" أو بشىء مماثل. يشير الاعتقاد إلى زمن محدد والسبب فى الاعتقاد فى الواقعة لم يوجد قبل ذلك الزمن. إذا كان الحادث موضع السؤال قد استنتج من قبل أو تم توقعه، فإن الدليل السابق سيختلف عن ذلك الذى يوفره الإدراك، وسوف يعتبر أقل تحديداً. يوفر الإدراك دليلا للاعتقاد يعتبر أقوى الممكن، ولكنه ليس كلاميا.

بالنسبة للخاصية الثانية: الحكم الذى يقيمه الحس المشترك على أساس الإدراك مثل "هناك كلب" عادة ما يتجاوز المعطى الحالى ويمكن بالتالى دحضه بالدليل التالى. لا يمكننا معرفة أى شىء عن الأزمنة الأخرى بالإدراك فقط، ولا عن المدركات الخاصة بالآخرين أو عن مفاهيم لها دلالات غير شخصية. وهذا هو السبب فى أنه فى البحث عن معطيات نساق مجبرين إلى التحليل: فنحن نبحث عن لُب مستقل منطقيا عن أحداث أخرى. عندما تعتقد أنك ترى كلبا، ما تدركه فى الواقع يمكن التعبير عنه بالكلمات "توجد بقعة متجمعة من اللون". لا حدث سابق ولا لاحق، ولا خبرة لآخرين بمقدورها إثبات زيف هذه المقدمة. من الصدق أنه بالمدلول الذى نستنتج فيه الخسوف، يمكن أن يوجد دليل ضد الحكم الحالى للإدراك، ولكن هذا الدليل استنباطى ومجرد احتمالى ولا يمكنه الصمود أمام "دليل الحواس". عندما نكمل تحليلَ حكمٍ إدراكىٍّ بهذه الطريقة، فإننا ننتهى بشىء لا يمكن إثبات أنه زائف.

(٣)

يمكننا إذن تعريف المقدمة الأساسية كالتالى: هى مقدمة تنجم فى حالات الإدراك، وهى الدليل على صدقها، وتكون بالشكل الذى لا يمكن فيه لمقدمتين أن تتعارضا إذا كانتا قد اشتقتا من مدركين مختلفين.

الأمثلة على ذلك: "أنا محتر"، "ذاك أحمر" "يا لها من رائحة كريهة". كل المقدمات الأساسية بالمدلول السابق شخصية، لأنه لا يمكن لأى فرد آخر أن يشاركنى إدراكى، ومرحلية لأنها بعد لحظة سوف تحل الذكريات محلها.

فى ضوء التعريف السابق، يمكننا تبنى تعريف منطقى، حيث يمكننا أن نأخذ فى الاعتبار كل المعرفة الفعلية ونحدد المقدمات الأساسية لها على أنها تلك التى يمكن إيضاحها منطقيا، وهى فى حد ذاتها فعلية أى تقرر بعض الأحداث المرحلية. هذا التعريف كما أعتقد يكافئ التعريف المعرفى السابق.

بعض الإيجابيين المنطقيين وعلى الأخص نيوراث وهمبل ينكرون أن أى مجموعة من المقدمات يمكن تمييزها بأنها أساسية، أو بأى مدلول معرفى مهم، على أنها فروض للباقى. وجهة نظرهم هى أن "الصدق" مدلول نحوى وليس إشاريا: فالمقدمة تكون صادقة فى إطار نظام معين إذا كانت متسقة مع باقى النظام ولكن قد تكون هناك نظم أخرى غير متسقة مع ذلك النظام وتكون فيها المقدمة موضع الاعتبار "زائفة". لا توجد مثل هذه العملية، وفقا لهم، لاشتقاق صحة مقدمة من بعض الأحداث غير اللفظية: عالم الكلمات يعد عالمًا مغلقًا يحتوى ذاته ولا يحتاج الفيلسوف لأن يشغل نفسه بأىٍ شىء خارجه.

فى المنطق وفى الرياضيات، فكرة أن "الصدق" يعد فكرة نحوية هى فكرة صحيحة، حيث إن النحو هو الذى يضمن صدق اللغو المتكرر. الصدق، فى هذا المجال، يمكن اكتشافه بدراسة الشكل الخاص بالمقدمة موضع الاعتبار، ولا حاجة هناك للخروج خارج أشياء تعنيها المقدمة أو تقررها. المؤلفون موضع الحديث يساوون بين الصدق الفعلى والصدق المنطقى فيرتدون بذلك دون وعى إلى أسلوب اسبينوزا، ليبنتز وهيجل. عند رفض هذه النظرة، كما أعتقد أنه واجب علينا، فإننا نكون قد ألزمنا أنفسنا بالرأى الذى يقضى بأن "الصدق" فى الأمور الفعلية له معنى يختلف عن ذلك الذى يوجد فى المنطق والرياضيات.

(٤)

نظرية التماسك للصدق كما سبق القول، خاصة بهيجل، وقد شرحها من وجهة النظر الهيجلية جواكيم فى كتابه "طبيعة الصدق" والذى قمت بنقده من ناحية نظرية التطابق فى كتاب مقالات فلسفية (١٩١٠). النظرية الهيجلية تختلف عن نظرية نيوراث لأنها تقرر أن كيانا واحداً من المقدمات المتماسكة تبادليا هو الممكن فقط. على النقيض، يأخذ نيوراث نظرة برانديللو: "هى هكذا، إذا اعتقدت ذلك".

نظرية نيوراث وهمبل تم وضعها فى مقالات بمجلة التحليل حيث قررا التالى:

يقال إن تأكيدا ما صواب عندما نستطيع دمجه بتلائم.

التأكيدات تقارن بتأكيدات وليس بخبرات.

لا توجد بروتوكولات أولية أو مقدمات لا تتطلب تأييداً.

يجب أن توضع البروتوكولات فى الصورة التالية:

"بروتوكول أوتو عند الساعة ٣:١٧ (كلمات تفكير أوتو عند الساعة ٣:١٧ "فى الغرفة عند الساعة ٣:١٥ كانت هناك منضدة أدرك أوتو وجودها".

هناك الاستعمال المتكرر لكلمة "أوتو" بدلا من أنا يعد ضروريا.

رغم أنه، وفقا لما سبق، يبدو أننا قد حرمنا من معرفة أى شىء عن العالم المادى فيما عدا ما يقرره علماء الفيزياء كتأكيدات عنه، فإن نيوراث يلزم نفسه بالبيان بأن الجُمل عبارة عن قطرات من الحبر أو نظم من الموجات الهوائية، فهو لا يقول لنا كيف اكتشف هذه الحقيقة، وربما كان يعنى فقط أن علماء الفيزياء يؤكدون ذلك.

يصر نيوراث على ما يلى:

١ - كل المدركات الخاصة بالعلم بما فى ذلك البروتوكولات يتم اختيارها كنتيجة لقرارات ويمكن تغييرها.

٢ - نقول عن المُدرك إنه زائف عندما لا يمكن أن يندمج بتلاؤم فى منظومة العلم.

٣ - التحكم فى مدرك معين هو تآلف مع بروتوكول معين: بدلا من المدرك لدينا عدد من المقدمات المتماسكة داخليا وإن لم تكن متآلفة تبادليا، والاختيار بينها يكون منطقيا. ممارسة الحياة، كما يقول نيوراث، يختزل الإبهام والغموض أكثر مما تؤثر آراء الجيران فينا.

(٥)

فى مقالة "عن نظرية المنطقيين الإيجابيين للمعرفة" التى نشرت فى مجلة التحليل- عام ١٩٣٥" وضع كارل همبل تاريخ وجهات نظر المنطقيين الإيجابيين بالنسبة للبروتوكولات، فهو يقول إن النظرية تطورت خطوة بخطوة من نظرية التقابل إلى نظرية التماسك، ويقول إن نيوراث ينكر إمكانية مقارنة الواقع بالمقدمات، وأن كارناب وافق على ذلك.

بدأنا، كما يقول، من المقدمات الذرية لوتجنشتين، والتى استبدلناها بالبروتوكولات فى البداية للتعبير عن نتائج المشاهدات، ولكن الدروتوكولات لم تعد نتيجة للمشاهدة وبالتالى فلا يوجد قسم من الأقسام المبينة تم قبوله على أنه أساسى.

استطرد همبل قائلا إن كارناب يقول إنه لا توجد مبينات أولية على الإطلاق فى العلم، حتى بالنسبة للبروتوكولات يتطلب الأمر تبريراً.

"كارناب ونيوراث لم يقصدا بأى حال أن يقولا: "لا توجد حقائق، وإنما توجد فقط مقدمات"، على العكس فإن حدوث شواهد معينة فى البروتوكول الخاص بمشاهد أو فى كتاب علمى يعد حقيقة فعلية والمقدمات الحادثة أشياء فعلية. ما قصده المؤلفان يمكن التعبير عنه بدقة أكبر والفضل فى ذلك يرجع إلى تمييز كارناب بين المادة والنمط الشكلى للحديث.

"فكرة الصدق يمكن توصيفها فى هذا النمط الشكلى للحديث، على أنها فى تشكيلها البدائى، يوجد توافق كافٍ بين نظام البروتوكولات المعترف بها والتوابع المنطقية التى يمكن استنتاجها من البيان والبيانات الأخرى التى تم تبنيها بالفعل..

"القول بأن البيانات الفعلية" تعبر عن حقائق "وبالتبعية أن الصدق مكوَّن من تقابل معين بين البيانات و"الحقائق" التى تعبر عنها هو صورة مطابقة للنمط المادى للخطاب".

"لكى تكون هناك درجة عالية من التأكد، يجب العودة إلى بروتوكولات المشاهدين الثقات". ينجم هنا تساؤلان:

(أ) كيف نعرف من هم الثقات؟

(ب) كيف نعرف ما يقولون؟

"نظام البروتوكولات الذى نسميه صادقًا.. يمكن توصيفه فقط بالحقيقة التاريخية، بأنه النظام الذى تم تبنيه بواسطة النوع الإنسانى وبخاصة العلماء.

"البروتوكول مثله مثل كل بيان آخر، يمكن فى النهاية تبنيه أو رفضه بواسطة قرار".

(٦)

البروتوكولات هى الآن من نافلة القول، فهى تنطوى على حقيقة أنه لا يوجد عالم محدد له خصائص محددة.

أعتقد أن نيوراث وهمبل قد كانا على صواب فيما يختص بمشكلتهما، وهى بناء موسوعة. لقد أرادا أن تكون هناك مقدمات عامة غير شخصية، ومندمجة فى العلم العام ولكن المعرفة العامة هى بناء يشتمل على أقل من مجموع المعارف الخاصة.

الرجل الذى يبنى موسوعة ليس من المتوقع أن يقوم بإجراء تجارب، ولكن من المتوقع أن يقارن بين آراء أفضل المتخصصين وأن يصل بقدر ما يمكنه إلى الرأى العلمى المتعارف عليه فى زمنه. وعلى ذلك، فعند التعامل مع موضوعٍ علمىٍ، فإن معطياته تكون آراءً، وليست مشاهدات مباشرة على موضوع التقصى. الأفراد العلميون الذين تكون آراؤهم هى الفروض الموسوعية، لم يقوموا بمجرد مقارنة آراء الغير من الباحثين، وإنما قاموا بعمل ملاحظات وإجراء تجارب وعلى أساسها كوَّنوا تلك الآراء. غرض الملاحظة أو التجربة هو أن تؤدى إلى خبرة إدراكية، ونتيجة لها تتكون معرفة

جديدة تكون فى البداية شخصية تمامًا وخاصة. قد يكرر آخرون التجربة وفى النهاية تصبح النتيجة جزءًا من المعرفة العامة ولكن هذه المعرفة العامة هى مجرد ملخص للمعرفة الخاصة.

كل نظريات المعرفة يجب أن تبدأ من السؤال "ما الذى أعرفه؟" وليس من السؤال "ما الذى يعرفه البشر؟" لكن كيف يمكن لى أن أعرف الذى يعرفه البشر؟ يمكن فقط بواسطة :

(أ) مشاهدات شخصية لما يقال فى الكتب.

(ب) تحقيق الدليل المؤيد بأن ما يوجد فى الكتب هو الصدق.

لو كنت كوبرنيكوس، فسوف أرفض تلك الكتب، وإذا كنت تلميذا أدرس الخط المسمارى، فقد أقرر أن داريوس لم يقل ما كان يفترض أن يقوله عن حملاته.

هناك ميل - ليس قاصرا على نيوراث وهمبل ولكنه شائع فى معظم الفلسفات الحديثة - لنسيان مجادلات ديكارت وبيركلى، قد تكون تلك المجادلات من الممكن دحضها فيما يختص بموضوعنا الحالى، ولكنى لا أعتقد أنها كذلك. على أية حال فإنها ذات وزن كبير بما لا يجعلها تهمل هكذا. فيما يختص بموضوعنا الحالى، فإن النقطة الأساسية هى أن معرفتى بالأمور الفعلية يجب أن ترتكز على خبراتى الإدراكية والتى عن طريقها فقط يمكننى التحقق مما يتم استقباله كمعرفة عامة.

ينطبق ذلك على وجه الخصوص، على ما هو موجود فى الكتب. ما تقوله كتب كارناب هو الطراز من الأشياء التى تقبل عموما كمعرفة عامة.

نأتى هنا إلى السؤال: ما الذى أعرفه من الكتب؟

١ - هو ما أراه عندما أنظر إليها.

٢ - هو ما أسمعه عندما يقرأها أحد بصوت عالٍ.

٣ - هو ما أراه عندما يقتبس منها الآخرون كتابة.

٤ - وهو ما أراه عندما أقارن نسختين من الكتاب نفسه.

بالتالى، أنتقل عبر استنتاجات مرتابة إلى المعرفة العامة.

من وجهة نظر نيوراث، لا توجد علاقة للغة بالأحداث غير اللغوية ولكن ذلك يجعل الخبرات اليومية غير قابلة للشرح. مثلا، وصلت إلى ميسينا عبر رحلة بحرية عام ١٩٥١ ووجدت الأعلام منكسة، وبالسؤال عرفت أن ماكينلى قد قتل. لو أن اللغة ليست لها علاقة بالأحداث غير اللغوية لكانت كل هذه العملية غير ذات أهمية.

كما رأينا، يقول نيوراث إن الصيغة الصحيحة للجملة هى: "بروتوكول أوتو عند الساعة ٣:١٧ (كانت الكلمات التى تحملها أفكار أوتو عند الساعة ٣:١٦ هى: فى الغرفة عند الساعة ٣:١٥ كانت توجد منضدة أدركها أوتو".

يبدو لى أنه عند إعطاء هذه الصيغة للجملة البروتوكولية، يوضح نيوراث أنه أكثر ثقة من الرجل الذى يقول "يوجد كلب". فى الجملة المحصورة بين قوسين يدرك منضدة وهو بنفس درجة السوء فى إدراك كلب. خارج القوس هو يجد كلاما يصف به ما تم إدراكه، أى: "فى الغرفة عند الساعة ٣:١٥ كانت هناك منضدة أدركها أوتو". وبعد دقيقة كتب الكلمات التى توصل إليها. المرحلة الأخيرة هذه اشتملت على ذاكرة وعلى استمرارية الذات. المرحلة الثانية اشتملت على ذاكرة أيضا، بالإضافة إلى اشتمالها على الاستبطان الذاتى.

(٧)

يعنى ذلك أن المعرفة الفعلية تعتمد على تذكر لكلمات استعملت فى مناسبات سابقة. لماذا تفضل عملية التذكر على عملية الإدراك، ولماذا لا يجب قبول التذكر إلا لكلمات التفكير؟ تعد تلك أمورًا لم يتم شرحها. محاولة نيوراث لضمان العلنية للمعطيات وصل بالخطأ إلى أحد أكثر الصور ذاتية للمعرفة وهى تذكر أفكار الماضى. هذه النتيجة ليست مشجعة للذين يعتقدون أن المعطيات يمكن أن تكون عامة.

فلنستعرض بعض المقتطفات. "البيانات تقارن ببيانات وليس بخبرات" (نيوراث). "الجملة البروتوكولية مثلها مثل أى جملة أخرى هى فى النهاية مقبولة أو مرفوضة

بقرار" (نيوراث). "نظام البروتوكولات الذى نسميه صادقا.. يمكن تمييزه بالحقائق التاريخية فقط حيث إنه النظام الذى يتبناه بالفعل كل البشر وبصفة خاصة العلماء فى محيطنا الثقافى" (همبل). "بدلا من الحقيقة لدينا عدد من المقدمات غير المتوافقة تبادليا والمتماسكة داخليا والاختيار بينها لا يتحدد منطقيا" (نيوراث).

هذه المحاولة لجعل العالم اللغوى مكتفيا ذاتيا عرضة لعديد من الاعتراضات.. خذ أولا ضرورة البيان الفعلى فيما يختص بالكلمات مثلا "نيوراث يقول كذا وكذا". كيف لى أن أعرف ذلك؟ برؤية علامات سوداء معينة على خلفية بيضاء. ولكن هذه الخبرة يجب ألا تشكل أساسا لإقرارى بأن نيوراث يقول كذا وكذا، وفقا لنيوراث وهمبل. قبل أن أقرر ذلك، يجب أن أتأكد من رأى البشر خاصة من محيطى الثقافى فيما يقوله نيوراث. ولكن كيف لى أن أتأكد؟ أن أذهب إلى كل العلماء فى محيطى الثقافى وأقول: "ما الذى يقوله نيوراث فى الصفحة ٣٦١ مثلا؟" وفى الإجابة سوف أسمع أصواتًا معينة، ولكن هذه خبرة وبالتالى لا توفر لى أساسًا لرأى فيما يتعلق بما يقولونه. عندما يجيب A يجب أن أذهب إلى B، C، D، وباقى دائرتى الثقافية للتأكد مما قاله A. وهكذا عبر عملية لا تنتهى. إذا كانت الأعين والآذان لا تمكننى من معرفة ما قاله نيوراث، فلا مجمع من العلماء مهما تميز، سيستطيع تمكينى من ذلك. فإذا كان نيوراث على حق، فإن آراءه ليست معروفة لى عن طريق كتاباته وإنما عن طريق قرارتى وقرارات محيطى الثقافى. إذا اخترنا أن ننسب إليه آراءً مختلفة تماما عن تلك التى يؤمن بها فعليا، فسوف يكون من المفيد له معارضتها أو الإشارة إلى صفحات فى كتاباته، لأن بمثل هذا السلوك سوف يؤدى بنا إلى أن تكون لدينا خبرات لا تكون صالحة أبدًا للبيان.

(٨)

همبل فى الحقيقة ينكر تلك التداعيات الخاصة بعقيدته، فهو يقول "كارناب ونيوراث لا يقصدان أن يقولا: لا توجد حقائق، بل مقدمات فقط." على العكس، حددت بيان معين فى بروتوكول مشاهد ما أو كتاب علمى ينظر إليه كحقيقة فعلية وتقع المقدمات كأشياء

فعلية". ولكن هذا يجعل النظرية كلها مجرد هراء. فما هى "الحقيقة الفعلية"؟ لتقول: " A هى حقيقة فعلية" هى بالنسبة لنيوراث وهمبل أن تقول "المقدمة " A تقع" متماسكة مع مجموعة من المقدمات المقبولة بالفعل". فى محيط ثقافى مختلف، قد تقبل مجموعة أخرى من المقدمات. وفقًا لتلك الحقيقة، فإن نيوراث يعتبر منفيا. لقد ذكر بنفسه أن الحياة العملية تختزل الغموض وأننا نتأثر بآراء جيراننا. بكلمات أخرى، فإن الصدق الفعلى يتحدد بواسطة الشرطة. هذه العقيدة، من الواضح. أنها تنازل تام عن الفعلية والتى جوهرها أن الخبرة فقط تحدد الصدق أو الزيف للمقدمات.

عقيدة نيوراث تفرغ المقدمات الفعلية من كل معانيها. عندما أقول "الشمس مشرقة" لا أعنى أن هذه هى واحدة من عدد من الجمل التى ليست لفظية، والذى نتيجة له فإن كلمات مثل "الشمس" و "الإشراق" تم اختراعها. غرض الكلمات رغم نسيان الفلاسفة لهذه الحقيقة البسيطة، هو التعامل مع الأمور التى ليست كلمات. إذا ذهبت إلى مطعم وطلبت غذائى، فلست أرغب فى أن تنتظم كلماتى فى نظام مع كلمات أخرى، وإنما فى أن تجلب لى الطعام. كان يمكننى عمل ذلك بدون استخدام الكلمات، بأن آخذ ما أريده، ولكن كان ذلك سيصبح أقل ملاءمة. نظريات الكلام لبعض الفلاسفة المحدثين تنسى الغرض العملى لكلمات كل يوم وينسون أنفسهم فى صوفية أفلاطونية جديدة. يبدو أننى أسمعهم يقولون "فى البدء كانت الكلمة"، وليس "فى البدء كان ما تعنيه الكلمة". من المثير أن هذا النكوص إلى الصوفية القديمة حدث عند محاولة أن نكون شديدى الفعلية.

* * *



الفصل الحادى عشر

الفـــــروض الفعليـــة

(١)

سأفترض – كما سأفعل فيما سيأتى – أن هناك فروضًا أساسية، سيبدو لى بالنسبة لنظرية المعرفة أن "الفروض الأساسية" يمكن تعريفها بطريقة أخرى على أنها "تلك المقدمات الخاصة بأحداث معينة والتى، بعد تمحيصها بدقة، لا نزال نصدقها باستقلال عن الأدلة الخارجية التى تؤيدها". فلننظر إلى خاتمة هذا التعريف، ولنبدأ بافتراض أن هناك دليلا يؤيد فرضًا أساسيا. وهذا الدليل ليس وحده هو السبب فى الاعتقاد. قد تستيقظ فى الصباح وترى نور الصبح وقد ترى فى ساعتك أنه لا بد وأن يكون نور الصباح. ولكن حتى إذا أشارت ساعتك إلى منتصف الليل فلن تشك فى أنه نور الصبح. فى أى نظام علمى، فإن عددا من المقدمات القائمة على مشاهدات يؤيد بعضها البعض، ولكن كلا منها قادر بمفرده على أن يؤدى إلى ذلك التصديق. كذلك فإن التأييد المتضامن بين المقدمات الأساسية لا يكون ممكنا إلا على أساس نظرية ما، هناك حالات – خاصة عندما تكون الذاكرة موضعًا للاعتبار– يكون فيها التصديق، رغم أنه ليس استنتاجيا، غير مؤكد. فى مثل تلك الحالات، فإن النظام المكون من هذه المعتقدات يفوز بقبول أكبر عن أى منها بصورة مفردة. أنا أعتقد أن السيد "س" يدعونى للعشاء يوم الخميس، ، وبالنظر إلى مفكرتى أجد بيانا بهذا الخصوص. ذاكرتى ومفكرتى عرضة للخطأ ولكن عندما يتفقان فأنا أعتقد أنه من غير المرجح أن يكونا على خطأ. سوف أعود إلى هذه الحالة لاحقًا، أما حاليا فأنا أرغب فى استبعاد ذلك. فى الوقت نفسه أرغب فى التأكيد على أن الاعتقاد غير الاستنتاجى لا يحتاج لأن يكون مؤكدا أو غير قابل للجدل.

(٢)

يأتى الآن موضـوع التمحيص الدقيق وهو موضوع شديد الغموض. أنت تقول "هناك كلب" وتشعر بصدق بيانك. لن أفترض أن إيمانك يهاجمه بيشوب بيركلى، وإنما أحد حلفائه المحدثين، سيأتى إليك المخرج قائلا: "كنت آمل أن تعتقد أنه كلب، ولكنه فى الحقيقة تم تسجيله عن طريق النظام الخاص بالألوان والذى أحدث ثورة فى عالم السينما". ربما سيتمكن عالم الفسيولوجى فى المستقبل من محاكاة العصب البصرى بالطريقة اللازمة لرؤية كلب. فقد علمت من أعمال بولدوج دراموند أن وضع قبضة اليد على العين بطريقة ما يمكّن الناس من رؤية نجوم فى السماء. كلنا يعرف ما يستطيع المنومون المغناطيسيون أن يفعلوه كما يُعرف أيضا (أن الإثارة العاطفية يمكن أن تنتج ظواهرَ مثل خنجر ماكبث. على هذه الأسس، والتى هى مشتقة من الحس المشترك وليس من الفلسفة، فإن الرجل الذى يمتلك البراعة الفكرية سوف يتجنب مثل هذا الاندفاع الذى يكمن فى قوله "هناك كلب". ولكن ما الذى يمكن لمثل هذا الرجل أن يقول فى تلك المناسبة؟ فلأنه نشأ نشأة سيئة سوف يكون لديه دافع لأن يقول "كلب"، وعند كبحه، سوف يقول: "توجد بقعة من الألوان".

افترض الآن أنه منبهر بالشك الديكارتى، فسوف يحاول أن يجعل نفسه غير مصدق لذلك. ما هى الأسباب التى يمكن أن تكون وراء عدم تصديقه ذلك؟ لا يمكن دحض ذلك بأى شىء يمكنه سماعه أو رؤيته، ولن يكون لديه سبب للاعتقاد فى أى مناظر أو أصوات عن هذا الشىء، فإذا امتد شكه إلى هذه الدرجة، فلن يستطيع أن يعرف أنه قال "كلب" لو أنه كان فعل.

يجب أن تلاحظ أن المقدمات الأساسية يجب أن تكون بالصدق نفسه عند تطبيقها على الأحلام كما تنطبق على اليقظة، لأن الأحلام تحدث فعلاً. هذه خاصية للتفرقة بين ما هو أساسى وما هو تفسيرى.

(٣)

نصل بذلك إلى أن الشيء اللحظى محل الإدراك هو أقل الأشياء إثارة للتساؤل فى خبرتنا، وبالتالى فهو الخاصية لكل المؤكدات وشبه المؤكدات الأخرى، ولكنه بالنسبة لنظرية المعرفة، لا يعد كافيا أن ندرك شيئًا، فمن الضرورى أن نعبر عما ندركه فى كلمات. معظم كلمات الأشياء عبارة عن استنتاجات مكثفة، يصدق هذا على كلمة "كلب" كما سبق وأن لاحظنا. لا بد إذن أن نتجنب مثل تلك الكلمات إذا أردنا أن نسجل فقط ما ندركه. لكن عمل ذلك شديد الصعوبة، ويتطلب مفردات كلامية خاصة، فقد رأينا أن هذه المفردات تتضمن كلمات خبرية مثل "أحمر" وكلمات للعلاقات مثل "يسبق"، ولكن ليس أسماء لأشخاص أو أشياء مادية أو أقسام من هذه المدلولات.

وقد قمنا باستعراض موضوع "المقدمات الأساسية" أو البروتوكولات وحاولنا إظهار أن المعرفة الفعلية تعد مستحيلة بدونهما. يجب أن نتذكر أننا قمنا بتعريف "المقدمة الأساسية" بخاصيتين:

١ – أنها تنشأ فى مناسبات إدراك وهو دليل صدقها.

٢ – أن لها شكلاً خاصا بحيث لا توجد مقدمتان لهما هذا الشكل وتكونان غير متماسكتين تبادليا إذا اشتقتا من مدركات مختلفة.

المقدمة التى لها هاتان الخاصيتان لا يمكن دحضها، ولكن من العجلة القول بأنها يجب أن تكون صادقة.

ربما لا ينطبق هذا التعريف بدقة على أى مقدمة فعلية. ولكن تبقى المقدمات الإدراكية الخالصة هى "ما يمكننا الاقتراب منه، وكلما زاد اقترابنا منها قلت مجازفتنا بالخطأ".

تتطلب المعرفة الفعلية فروضًا أخرى تؤكد الأمور الفعلية بالإضافة إلى المقدمات الإدراكية الخالصة. سوف أعطى اسم "فرض فعلى" لأى مقدمة غير مُستنتجة تؤكد شيئًا له تاريخ، والتى أصدقها بعد تمحيص دقيق. لا أعنى أن التاريخ هو جزء من التأكيد، وإنما أن بعض الأحداث المؤقتة هى ما يتضمن صدق هذا التأكيد.

الفروض الفعلية ليست كافية بذاتها للمعرفة الفعلية، لأن أغلبها مستنتج. المطلوب بالإضافة إليها فروض ضرورية للاستنباط، والفروض الأخرى مهما كانت هى التى تعد ضرورية للاستنتاجات غير الإيضاحية التى يعتمد عليها العلم. ربما كانت هناك أيضا بعض المقدمات العامة مثل "إذا كان A يسبق B وكانت B تسبق C فإن A يسبق C" و"الأصفر أكثر شبها بالأخضر عن الأزرق". مثل تلك المقدمات تستدعى نقاشا مطولا. أنا مهتم حاليا فقط بالفروض الخاصة بمعرفتنا الفعلية التى لها صلة بأحداث معينة أى بتلك التى أسميها "فروضا فعلية" وهى أربعة:

١ - مقدمات إدراك.

٢ - مقدمات ذاكرة.

٣ - مقدمات أساسية سلبية.

٤ - مقدمات أساسية تتعلق بالسلوك الحالى، أى تتعلق بما أصدقه أو أشك فيه أو أرغبه.. إلخ.

١ - المقدمات الإدراكية:

افترض، كما فى الفصل السابق، أننا نرى مربعًا أحمر مرسومًا داخل دائرة زرقاء. قد نقول "هناك مربع داخل دائرة" و "هناك شكل أحمر داخل شكل أزرق" أو "هناك مربع أحمر فى دائرة زرقاء". كل ذلك عبارة عن أحكام للإدراك. المعطى الإدراكى دائما ما يسمح بالعديد من المقدمات كلها تعبر عن جوانب منه. المقدمات أكثر تجريدا من المعطى وذلك بالضرورة، لأن الكلمات تصنف، ولكن لا توجد حدودٌ نظرية لدقة التصنيف الممكن ولا يوجد شىء فى المعطى الإدراكى لا يمكن التعبير عنه بكلمات.

نظرية التقابل للصدق، عند تطبيقها على أحكام الإدراك، قد تفسر بطريقة زائفة. فمن الخطأ الاعتقاد بأن التقابل لكل حكم صادق للإدراك يعنى وجود حقيقة منفصلة. وبالتالى ففى حالة المربع داخل الدائرة توجد دائرة بلون معين وبأبعاد وزوايا معينة،

وداخلها مربع بلون آخر وبأبعاد زوايا أخرى. كل ذلك معطى واحد اشتقت منه مجموعة من الأحكام. لا يوجد خارج اللغة حقيقة أنه يوجد مربع داخل دائرة" أو حقيقة" أنه يوجد شكل أحمر داخل شكل أزرق". لا توجد حقائق "إنه كذا وكذا". توجد مدركات، منها نشتق بالتحليل مقدمات" إنه كذا وكذا". ولكن طالما أن ذلك قد تحقق، فلن يضر إذا ما سميت المدركات "حقائق".

(٤)

٢ - مقدمات الذاكرة:

هناك صعوبات جمة تخص المقدمات الأساسية لهذا القسم. فأولا، الذاكرة عرضة للخطأ حيث إنه فى أية حالة يكون من الصعب الإحساس بنفس درجة التأكد كما فى حكم إدراكى، ثانيا، مقدمة الذاكرة لا تكون قابلة للتفنيد، حيث لا شىء فى الحاضر أو المستقبل من الضرورى أن يعطى مقدمة عن الماضى، وثالثا، من المستحيل الشك فى أن هناك أحداثا حدثت فى الماضى، أو فى الاعتقاد بأن العالم قد بدأ للتو فقط. الاعتبار الثالث يوضح أنه لا بد من وجود فروضٍ فعلية عن الماضى، بينما الاعتباران الأول والثانى يجعلان من الصعب تحديد ما هى هذه الفروض.

أعتقد أننا يجب أن نستبعد من قسم الذكريات ما نعرفه عن الماضى الحالى. مثلا، عندما نرى حركة سريعة، نعرف أن الشىء موضع الاعتبار كان فى مكان والآن فى مكان آخر، ولكن هذا هو كل ما يمكن أن يشتمل عليه الإدراك ولا يمكن اعتباره كحالة للذاكرة. يتضح ذلك من حقيقة أن رؤية حركة تختلف عن رؤية شىء فى البداية كان فى مكان وأصبح فى مكان آخر.

ليس من السهل إذن التفرقة بين الذاكرة والعادة، ففى الحديث المعتاد يتم إهمال التفرقة عندما تكون العادة اللغوية هى المحك. قد يقال إن الطفل "يتذكر" جدول الضرب

إذا كانت لديه العادة اللغوية الصحيحة، رغم أن جـدول الضـرب لم يحدث مطلقا وقد لا يتذكر أيا من المناسبات التى تعلمه فيها.

ذاكرتنا عن الماضى من الأحداث أحيانا ما تكون من الطراز نفسه: فنحن لدينا عادة لغوية للسرد وليس أكثر من ذلك. يحدث ذلك بعد مدة، خاصة مع أحداث يتذكرها المرء بتكرار. ولكن ماذا عن أحداث ماضية لا يتذكرها المرء حتى الآن أو بأى درجة، لفترة كافية؟ حتى تلك الأحداث قد تستدعيها الذاكرة بالارتباط والذى هو صورة من العادة. مثلا ترجنيف يتذكر برائحة عباد الشمس قصة غرامية حدثت فى الماضى البعيد. الذاكرة هنا قسرية، ولكن توجد أيضا ذكريات مقصودة عند كتابة السيرة الذاتية. أعتقد أن الارتباط لا يزال العامل الأساسى هنا. فنحن نبدأ من واقعة رئيسية نتذكرها بسهولة وتدريجيا تقودنا إلى أشياء لم نفكر فيها لوقت طويل. الحدث الرئيسى فى حد ذاته ظل رئيسيا نتيجة أن له ارتباطات عـديدة مع الحاضر. من الواضح أننا لا نتذكر دائما كل ما نستطيع تذكره وأن ما يجعلنا نتذكر حدثا معينا فى لحظة معينة هو ارتباطه بشىء فى الحاضر. وعلى ذلك فالارتباط هو عامل حيوى فى حدوث التذكر، لكن هذا يتركنا فى شك فيما يختص بالوضع المعرفى للذاكرة.

(٥)

خذ أولا حقيقة أننا نعرف المقصود بالماضى. هل هذا ممكن دون ذاكرة؟ قد يقال إننا نعرف ما هو المقصود بالمستقبل رغم عدم وجود ذاكرة عنه. ولكنى أعتقد أن المستقبل يتحدد بعلاقته بالماضى: فهو "الوقت الذى يكون فيه الحاضر ماضيا". مرور الوقت يمكن فهمه، إلى درجة معينة من الحاضر: عندما ينطق شخص بجملة قصيرة ولتكن "الغذاء مُعَد" نعرف أن وقتًا قد انقضى بين الكلمة الأولى والكلمة الأخيرة، رغم أن الجملة بكاملها جاءت فى الحاضر. ولكن فى الذاكرة الحقيقية هناك ماضٍ من طراز مختلف ليس للارتباطات علاقة به. فإذا قابلت رجلاً لم تره من عشرين عاما، فإن الارتباطات ستكون مسئولة عن أية كلمات أو صور ترتبط بالمقابلة السابقة وتأتى إلى

عقلك، ولكنها لن تكون مسئولة عن مرجعية هذه الكلمات أو الصور مع الماضى. قد تجد أنه من المستحيل أن ترجعها إلى الحاضر، ولكن لماذا لا تعاملها على أنها مجرد خيالات تصورية؟ أنت لا تفعل ذلك، وإنما تعاملها على أنها تشير إلى أشياء حدثت بالفعل. سيبدو بالتالى أن الحقيقة الخاصة بأننا نستطيع فهم كلمة "ماضٍ" ينطوى على معرفة أن شيئًا قد حدث فى الماضى. وحيث إنه من الصعب أن تكون معرفتنا البدائية بالماضى يجب أن تشير إلى "شىء" غامض، فلا بد وأن هناك ذكريات محددة يتم قبولها كمقدمات أساسية.

فلنأخذ الذكريات التى من الصعب جدا الشك فيها. افترض أنك تسلمت برقية تلغرافية تفيد أن عمك بأستراليا ترك لك ثروة تقدر بمليون جنيه، وأنك صعدت السلم لتخبر زوجتك. عند الوقت الذى تصل فيه إليها، فإن قراءتك الأولى للبرقية أصبحت فى الذاكرة، ولكنك لا تشك فى أنها حدثت. أو لنأخذ أحداثا عادية: ففى نهاية اليوم، تستطيع تذكر كثير من الأشياء التى فعلتها منذ استيقاظك، وبالنسبة لبعضها على الأقل تشعر بدرجة كبيرة من التأكد. افترض أنك جلست لتتذكر أكثر ما يمكنك تذكره. هناك أشياء تعرفها لأنها تحدث دائما: أنك ارتديت ملابسك، تناولت فطورك وهكذا. ولكن بالنسبة لتلك الأشياء هناك فرق واضح تماما بين معرفة أنها لا بد وقد حدثت وتذكرك لها.

(٦)

يبدو لى أن لدينا فى الذاكرة الصحيحة صوراً نقول عنها "نعم" أو "لا". فى بعض الحالات نقول "نعم" دون تردد، وفى البعض الآخر نعتمد جزئيا على المضمون. تأتى الصور بثلاث طرق: مجرد تخيل، أو بإحساس القبول، أو بإحساس بالرفض. عندما تأتى بإحساس القبول ولكنها لا تنطبق على واقعنا الحالى فإنها تنسب إلى الماضى. (لا أعنى أن هذا هو ما يحدث كلية" فى الذاكرة). وعلى ذلك، فالذاكرة تشتمل على سلوكيات تقديمية، ومعنى، ومرجعية خارجية، وهو ما تختلف فيه عن الحكم الإدراكى.

لا توجد ذاكرة لا تحتمل الشك. كان لدى ذكريات فى الأحلام بالدقة نفسها كما لو كانت تخص حياة اليقظة ولكنها غير حقيقية تماماً.

حلمت مرة أننى ووايتهيد قمنا بقتل لويد جورج منذ شهر. أحكام الإدراك هى بالصدق نفسه عندما تنطبق على الأحلام كما تنطبق على حياة اليقظة وهذه خاصية للتفسير الصحيح لأحكام الإدراك. ولكن حكم الذاكرة فى الأحلام، فيما عدا أن تكون مكونة من تذكر ماضٍ بعيد للحلم أو حدث حقيقى لحياة اليقظة، هو حكم خاطئ.

وحيث إن الذكريات ليست غير قابلة للشك، فإننا نسعى بطرق مختلفة لتأكيدها. نقوم بعمل تسجيلات آنية أو نبحث عن تأكيدات من شهود آخرين، أو نبحث عن أسباب تظهر أن ما نتذكره هو ما يجب أن نتوقعه. بهذه الطرق يمكننا زيادة ترجيح أى ذكريات على أنها صحيحة، ولكننا لا نستطيع تحرير أنفسنا من الاعتماد على الذاكرة بصورة عامة، يتضح ذلك فيما يختص بشهادة الشهود الآخرين. أما فيما يتعلق بالتسجيلات فهى ليست آنية تماما، وإذا كانت كذلك، فلا يمكن معرفتها لاحقا إلا عن طريق الذاكرة الخاصة بالشخص الذى قام بعمل التسجيل.

افترض أنك تتذكر أنك يوم ٨ نوفمبر، وأنك فى الليلة السابقة شاهدت شهاباً لامعًا، ووجدت على مكتبك مذكرة بخط يدك تقول "عند الساعة الثامنة و٣٢ دقيقة بتوقيت جرينتش فى يوم ٧ نوفمبر شاهدت شهابًا لامعًا فى برج هرقل. المذكرة كتبت الساعة الثامنة و٣٣ دقيقة بتوقيت جرينتش". قد تتذكر كتابتك للمذكرة، فإذا كنت تتذكر.. فإن تذكر الشهاب والمذكرة يؤكدان بعضهما. ولكن إذا استبعدت الذاكرة كمصدر للمعرفة، فلن تعرف كيف وصلت المذكرة إليك. قد تكون قد كتبت بواسطة آخر أو بواسطتك على أنها نكتة. وكأمر منطقى من الواضح عدم إمكان عمل استنتاجات إيضاحية من مجموعة من الأشكال تراها على الورق تخص نورًا لامعًا شاهدته فى السماء فى الليلة السابقة. سيبدو بالتالى أنه بالنسبة للماضى نحن نعتمد جزئيا على المطابقة وجزئيا على قوة اعتقادنا فى ذاكرة معينة هى موضع السؤال، ولكن ثقتنا فى الذاكرة عمومًا هى أننا لا يمكن أن نعتبر النظرية الفرضية بأن الماضى وهم هى وهم بالكامل.

يجب أن نتذكر أننا فى فصول سابقة قررنا أن مقدمات الذاكرة تتطلب عادة كلمة "بعض". نحن نقول "أعرف أننى رأيت ذلك الكتاب فى مكان ما"، أو "أعرف أنه قال شيئا شديد الطرافة". وربما استطعنا أن نتذكر بصورة ضبابية أكثر مثلا "أعرف أن شيئا قد حدث بالأمس". وربما أمكننا أن نتذكر "لقد كانت هناك أحداث ماضية" والذى رفضناه كفرض فعلى منذ لحظات. فلكى نقبل ذلك كفرض فعلى معناه التمادى بعيدا ولكن هناك بالتأكيد مقدمات ذاكرة غير مستنتجة (فى أى لحظة معينة) تشتمل على "بعض".

هذه مستنتجة منطقيا من مقدمات لا تشتمل على "بعض" والتى كانت عند وقت سابق تعبيرا عن إدراك حالى. أنت تقول لنفسك.. فى أحد الأيام أن "هناك ذلك الخطاب الذى فقدته" وفى اليوم التالى "أعرف أننى رأيت ذلك الخطاب فى مكان ما بالأمس". هذا فرق منطقى مهم بين الذاكرة والإدراك، لأن الإدراك لا يكون عاما أبداً أو ضبابيا. عندما نقول إنه ضبابى، فإن ذلك يعنى أنه لا يسمح بالكثير من الاستنتاجات كما تسمح به بعض الإدراكات الأخرى. ولكن الصور، بقدرتها الإيضاحية، قد تكون ضبابية، والمعرفة القائمة عليها قد تشتمل على كلمة "بعض". من المهم ملاحظة أن هذه الكلمة قد تقع فى فرض فعلى.

(٧)

بقبول مقدمات الذاكرة بين الفروض الفعلية فإننا نقبل أن فروضنا قد تكون عرضة للشك، وأنها قد تكون أحيانا زائفة. نحن جميعا نرغب أحيانا فى قبول دليل ضد ما نعتقد أننا نتذكره. الذكريات تأتى إلينا بتدرجات مختلفة من التأكد الذاتى، فى بعضها لا يكون هناك شك فيها فيما يختص بالإدراك الآنى. بينما فى البعض الآخر قد يكون التردد كبيراً جدا. الذكريات، فى الممارسة، تقويها الاستنتاجات بطريقة عرضية، ولكن تلك الاستنتاجات لا تكون إيضاحية مطلقا. قد يكون تبسيطا كبيرا إهمال فروض

الذاكرة أو التفرقة بين طرازين من الذاكرة أحدهما لا يكون عرضة للخطأ. فلنختبر ذلك: فى محاولة للتحلل من الذاكرة، فسوف نسمح بالمعرفة لما يقع فى الحاضر الظاهر، وبالتالى، سوف نكون مدركين للتتابع المرحلى. سوف نعرف معنى "A أكثر تبكيراً من B ، وبالتالى نستطيع تعريف "الماضى" على أنه "ما هو مبكر عن الحاضر الظاهر". سوف نبنى معرفتنا عن الماضى بواسطة قوانين السببية كما نفعل فى الجيولوجيا، حيث لا تدخل الذاكرة إليها. سوف نشاهد أن لنا عادة عمل تسجيل لحادثة تعد مهمة بالنسبة لنا، سواء بالكتابة أو بخلق عادة كلامية فينا ونقوم بعمل ذلك على سبيل المثال عندما يتم تقديمنا إلى رجل، فنكرر اسمه مرات ومرات لأنفسنا. قد نفعل ذلك كثيرا بحيث إننا عندما نلتقى به بعد ذلك نفكر فى اسمه فى الحال. يقال إننا باللغة العامية "نتذكر" اسمه ولكن ليس بالضرورة تذكر أى حدث ماضٍ. هل من الممكن أن نبنى معرفتنا عن الماضى بهذه الطريقة أى بواسطة تسجيلات أو عادات لغوية فقط؟ بهذه النظرة فعندما أرى رجلا وأعرف أن اسمه جونز فسوف أستنتج أننى لا بد قد قابلته فى مناسبة سابقة كما أفعل عندما يكون وجهه مألوفًا لى بصورة ضبابية. عندما أرى تسجيلا أستطيع معه بخط يدى دون إدخال التذكر هنا، لأننى أستطيع نسخ التسجيل وإجراء المقارنة، وأستطيع بذلك أن أستنتج أن التسجيل يخبرنى عن شىءٍ قد حدث لى. نظريا، الفترة الزمنية القصيرة المحددة التى اشتمل عليها الحاضر الظاهر تكفى لاكتشاف القوانين السببية وبواسطتها نستطيع استنتاج الماضى دون الحاجة إلى الذاكرة.

لست مهيئًا للإصرار على أن النظرية السابقة مرفوضة منطقيا. لا شك أننا نستطيع دون الذاكرة معرفة شىء عن الماضى ولكنى أعتقد أنه من الواضح أننا نعرف أكثر عن الماضى عما يمكن الحصول عليه بهذه الطريقة. ففى الوقت الذى يجب علينا فيه التسليم بأننا أحيانا ما نخطئ فيما يتعلق بما نتذكره، فإن بعض الذكريات تكون غير معرضة للخطأ بحيث تكون لها مصداقية حتى لو كان هناك دليل مضاد. وأنا لا أرى هنا سببا لرفض الذاكرة كمصدر للمعرفة الخاصة بمسار الأحداث.

(٨)

يبقى أن نبحث ما إذا كان هناك نوعان من الذاكرة، واحد عرضة للشك والآخر ليس كذلك. قد نصرُّ على ذلك دون الإصرار على أننا نستطيع أن نعرف دون خطأ إلى أى من النوعين. تنتمى ذكريات معينة، ويبقى لدينا سبب لدرجة من عدم التأكد فى كل حالة. ولكننا سيكون لدينا على الأقل سبب للاعتقاد بأن بعض الذكريات تعد صحيحة، وبالتالى فالنظرية تستحق الاختبار.

لن أعتبر بصورة جدية احتمال وجود طرازين من الذاكرة أحدهما ليس عرضة للخطأ، ولكن نظرا لأننى سمعت هذه النظرية تناقش بواسطة ج. إى. مور فسوف أناقشها وأحاول أن أعطيها أكبر ترجيح ممكن.

لا بد من القول تأسيسا على المنطق بأنه لا يوجد حدث يعطى أسبابًا توضيحية مؤيدة للاعتقاد فى أى حدث آخر. ولكن الأسباب عادة ما تكون مؤدية لقبولها بتأكيدات عملية. نحن نرى أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب لعدم تصديق المقدمة "هذا أحمر" عندما تقال فى وجود مدرك أحمر، ولكن لا بد من التسليم بأن الاعتقاد فى هذه المقدمة ممكن منطقيا فى غياب المدرك الأحمر. هذه الأسباب التى تفترض أن ذلك لا يحدث مشتقة من القوانين السببية الخاصة بحدوث اللغة. نستطيع نظريا التفرقة بين الحالتين المتعلقتين بحكم مثل "هذا أحمر": إحداهما تنجم مما هو قائم، والأخرى عندما تدخل الكلمات أو الصور فى مسبباتها. فى الحالة الأولى لا بد وأنها صحيحة، وفى الحالة الثانية ليست كذلك.

يحتاج الأمر إلى شيء من الاستطراد، فما الذى يمكن أن نعنيه عندما نقول إن المدرك "يسبب" كلمة أو جملة؟

لا بد أن نفترض عملية معقدة فى المخ تربط مراكز الرؤية بمراكز الحركة والتسبيب بالتالى لا يكون مباشراً. ربما يمكننا القول: فى عملية تعلم الكلام فإن مسارات سببية معينة (اللغة-العادة) يتم تكونها فى المخ وتقود من المُدرَك إلى النطق.

هذه هى أقصر مسارات ممكنة من المُدرَك إلى النطق، وما عداها يشتمل على صور من الارتباطات أو العادة. النطق إذن يرتبط بالمدرك بأقل مسار سببى، والمُدرَك يقال إنه "معنى" النطق، والنطق يكون "صادقًا" لأن ما يعنيه يقع. وعلى ذلك فوضع الأمور هو أن صدق حكم إدراكى أمر مضمون منطقيا.

(٩)

لا بد من البحث عما إذا كان من الممكن وجود شيء مماثل فيما يخص الذاكرة.

المنبه للحكم على ذكريات ليس الحدث الذى يتم تذكره، لأن ذلك ليس فى الماضى الآنى. المنبه قد يكون مُدْرَكًا أو قد يكون "فكرة". فلنأخذ الحالة الأولى لأنها الأبسط: أنت تجد نفسك فى مكان تحدث فيه مناقشة مثيرة، وأنت تتذكر المناقشة. الميكانيكية المخِّية الفاعلة هى حتى الآن افتراضية، ولكننا قد نفترض أنها مماثلة تماما لتلك الداخلة فى المرور من المُدرك إلى الكلمة التى "تعنيه". عندما يقع مدركان A، B معًا، فإن حدوث مدرك مماثل للمدرك A فى مناسبة مستقبلية قد يؤدى إلى صورة مماثلة للمدرك B. قد يثار الجدل بأن طرازًا معينًا من الارتباط بين مدرك يشبه A وصورة تشبه B يمكن أن يحدث عند حدوث A، B فى مناسبة سابقة معًا، وبالتالى فالتذكر الناجم عن المدرك الشبيه بـ A لا بد أنه صحيح. عندما تحدث الذكريات الخطأ قد يقال إن السلسلة الرابطة للسببية لا بد وأنها أطول عما فى حالة الذكريات الصحيحة، ربما بهذه الطريقة تكون حالة الذاكرة شبيهة بحالة الإدراك.

الجدل السابق رغم أنه قد يكون صحيحًا ليس له علاقة بحالة الفروض الفعلية، لأنه يفترض مسبقا معرفة مستفيضة بالمخ، وهذا لا يمكن بناؤه إلا بواسطة فروض فعلية جزء منها ذكريات.

لا بد إذن من التسليم بأن الفروض الفعلية لا تحتاج لأن يتم استنباطها ولو ذاتيا لأنها لا تحتاج إلا لأن توحى بقدر من المصداقية. يمكن بالتالى تأكيدها إذا ما وجد

أنها تتوافق مع فروض فعلية أخرى. الخصائص المتعلقة بالفروض الفعلية ليست الاستنباط وإنما حقيقة أنها توحى بدرجة كبيرة أو صغيرة من الصدق بذاتها، وباستقلال عن العلاقة بالمقدمات الأخرى. يقودنا ذلك إلى الربط بين الدليل الذاتى والوضوح، أحيانا يكون أحد العاملين أهم كثيرا من الآخر، ولكن فى النظرية يلعب الوضوح دورا أكبر. الوضوح المطلوب ليس هو الوضوح المنطقى، لأن الفروض الفعلية لا بد أن توضع بطريقة تجعلها مستقلة استنتاجيا عن بعضها البعض. الوضوح المشتمل إذن سوف أناقشه فى مرحلة لاحقة.

(١٠)

٣ - المقدمات الأساسية السلبية:

أتيحت لنا بعض المناسبات التى عرضنا فيها للمقدمات السلبية، ولكنى الآن أريد أن أعرض مجدداً لما إذا كانت تعد فروضا فعلية أم أنها مشتقة من مقدمات عدم التوافق. القضية إذن هى: كيف نعرف المقدمات الفعلية السلبية مثل "لا يوجد جبن فى الكرار" أو "لا توجد ثعابين فى أيرلندا"؟ عرضنا للنظرية الفرضية فى فصل سابق يفترض أن مثل تلك المقدمات مستنتجة من فروض من بينها توجد مقدمات مثل "أينما وجد الأحمر لا يوجد الأصفر" أو "الذى يكون ملمسه صلبًا، لا يكون ملمسه طرياً". أريد الآن أن أختبر مجددا الموضوع الخاص بالمعرفة الفعلية السلبية بكامله.

من الواضح فى البداية أن الخصائص المحسوسة تقع فى أجناس. فهناك الألوان، الأصوات، والروائح، والمذاقات، وهناك العديد من أشكال الإحساس باللمس وبالحرارة. بالنسبة لتلك الأمور هناك أشياء يجب ملاحظتها. فيمكننا سماع صوتين فى الوقت نفسه ولا حاجة لأن يكون هناك فرق معروف فى تصورها. الشم ليس له موقع فيما عدا الأنف وليس بالضرورة أن تكون رائحتان غير متوافقتين. الإحساس باللمس له خصائص منها طرازان متميزان: خاصية موضعية وفقًا للجزء من الجسم الذى يتم

لمسه، وخاصية الضغط الكبير أو الصغير، وفى كلا الطرازين تكون الخصائص المختلفة لها هو عدم التوافق الذى يميز الألوان، أى أنها يمكن الإحساس بها فى اللحظة نفسها، ولكن ليس فى المكان نفسه من سطح الجسم. ينطبق الشىء نفسه على الحرارة.

يبدو بالتالى بالنسبة لعدم التوافق أنه توجد فروق بين الخصائص التى تنتمى للحواس المختلفة. ولكن بالنسبة للأحكام السلبية لا توجد مثل هذه الفروق. إذا أحضرك شخص ما فى الظلام إلى خميلة من النباتات وقال لك "ألا تشم رائحة الورد؟" فسوف تجيبه قائلا "لا". عندما تسمع الكروان فأنت تعرف أن تلك ليست أغنية للبلبل. وعندما لا تشم شيئًا ولا تسمع شيئا فأنت تدرك هذه الحقيقة. يبدو أن علينا أن نستنتج أن المقدمات السلبية يمكن معرفتها فعليا دون أن يتم استنتاجها. "اسمع. هل تسمع شيئا؟" "لا". لا شىء يمكن استنتاجه من هذه المناقشة. عندما تقول "لا" فى مثل هذه الحالة فهل تعطى نتيجة لاستنتاج، أم أنك تنطق بمقدمة أساسية؟ لا أعتقد أن هذا الطراز من المعرفة قد قوبل بالاهتمام الذى يستحقه. إذا كانت "لا" عبارة عن نطق بمقدمة أساسية (التى لا بد وأن تكون فعلية)، فإن مثل هذه المقدمات قد لا تكون سلبية فقط وإنما عامة أيضا، لأن "لا" وفقا للمنطق يتم التعبير عنها فى صورة: "كل الأصوات غير مسموعة بواسطتى الآن". وبالتالى فالصعوبات المنطقية للمعرفة الفعلية العامة سوف تقل. ولكن إذا كانت "لا" تعبر عن استنتاج، فلا بد من وجود فرض عام وإلا لما أمكن استنتاج قاعدة عامة، وبالتالى سوف يكون علينا التسليم بأن بعض المقدمات الأساسية التى لا تنتمى للمنطق هى عامة.

(١١)

عندما يقول شخص "اسمع" ولا تسمع صوتًا، فأنت فى حالة ملاحظة لأى صوت إذا كان هناك صوت. ولكن ذلك لا ينطبق فى كل الحالات. "ألم تسمع جرس الغذاء؟" "لا لقد كنت أعمل". هنا لديك حكم ذاكرة سلبى وسبب (وبالتالى مبرر) لصدقه وتكون متأكدا من السلبية رغم أنك لم تكن مستمعًا آنذاك.

الاستنتاج الذى لا يمكن مقاومته هو أن المُدرَك أو الذاكرة قد تؤدى إلى فرض فعلى سلبى، وأيضا إلى فرض إيجابى. ولكن هناك فرقًا مهما: ففى حالة المقدمة الأساسية الإيجابية، قد يكون سبب المدرك هو الكلمات، بينما فى حالة السلبية فإن الكلمات أو الصور المقابلة لا بد وأن توجد مستقلة عن المدرك. تتطلب المقدمة الأساسية السلبية سلوكا تكون فيه المقدمة وفقًا للإدراك منكرة. قد نقول بالتالى إنه بينما المقدمة الأساسية الإيجابية يسببها المدرك (مع توافر عاداتنا اللغوية)، فإن المقدمة السلبية يتسبب فيها المدرك بالإضافة إلى سلوكٍ سابق. لا يزال هناك عدم توافق، ولكنه بين التخيل والإدراك. أبسط طريق لمعرفة ذلك هو القول: كنتيجة للإدراك، أنت تعرف أن مقدمة معينة زائفة. وفى كلمة واحدة، من الممكن بمدلول معين ملاحظة ما لا يوجد بالإضافة إلى ما يوجد. هذه النتيجة إذا كانت صحيحة، تعد مهمة.

(١٢)

٤ - الفروض الفعلية المتعلقة بالسلوك الحالى للمقدمات:

هذه المقدمات، تماما كما فى "هذا أحمر" تشير إلى حدث حالى، ولكنها تختلف عن المقدمات الأساسية من القسم الأول فى صيغتها المنطقية، والتى تشتمل على ذكر مقدمة. فهى مقدمات تؤكد أن شيئًا يتم تصديقه، الشك فيه، مرغوب، وهكذا طالما أن هذه المقدمات تعرف مستقلة عن الاستنتاج، الشئ المصدق أو المشكوك فيه أو المرغوب، يمكن التعبير عنه فقط بواسطة مقدمة تابعة. من الواضح أننا نعلم أننا نصدق أو نرغب فى شىء بطريقة آنية، بحيث إننا نعرف بقعة حمراء عندما نراها. البعض يقول مثلا، "هل اليوم هو الأربعاء؟" وترد "أعتقد ذلك". ردك "أعتقد ذلك" يعبر جزئيا وعلى الأقل عن فرض فعلى يخص رأيك. تحليل المقدمة يؤدى إلى صعوبات، ولكنى لا أعرف كيف يمكن إنكار أنه يشتمل على الأقل على معطى.

سنلاحظ أن المقدمات فى هـذا القسم تكون نفسية عادة، وإن لم تكن دائما، وإن لم كن متأكدا مـن أننا لا نستطيع استعمال هـذه الحقيقـة فى تعـريف علم النفس، وأن المقدمات الأساسية الخاصـة بالمدركات فى الأحلام هى تماما على نفس مستوى المقدمات الأساسية الأخرى الخاصة بالمدركات. ولكن يمكن الرد على ذلك بأن الدراسة العلمية للأحلام ممكنة فقط عندما نكون فى حالة اليقظة، وبالتالى فكل المعطيات لأى علم ممكن للأحلام هى ذكريات. إجابة مماثلة تنطبق على علم نفس الإدراك.

مهما يكن الأمر، فهناك قسم مهم من المعرفة يتميز بحقيقة أنه من بين مقدماته الأساسية يكون للبعض مقدمات تابعة.

(١٣)

الفروض الفعلية التى ناقشناها فيما سبق تشتمل بصفة عامة على خاصية معينة هى أن كلا منها يشير إلى فترة زمنية قصيرة وهى التى فيها تصبح فروضا. فى حالة الذكريات، إذا كانت مفندة، فهى إما متطابقة مع، وإما مستنتجة من أحكام الإدراك التى تتم فى أوقات تشير إليها الذكريات. معرفتنا للحاضر والماضى مكونة جزئيا من مقدمات أساسية بينما معرفتنا بالمستقبل فمكونة كلية من استنتاجات -فيما عدا بعض التوقعات الآنيَّة.

يمكن تعريف "المعطى الفعلى" على أنه مقدمة تشير إلى وقت معين وتبدأ فى أن تعرف فى الوقت الذى تشير إليه. هذا التعريف ليس مناسبا حيث يمكن أن نستنتج ما يقع حاليا قبل أن ندركه. من الضرورى لتصور معطى فعلى أن المعرفة تنتج عن طريق ما هو معروف. لا أرغب فى إدخال السببية من الباب الخلفى، وبالتالى سوف أهمل حاليا هذا الجانب.

من بين فروض معرفتنا لا بد وأن هناك مقدمات لا تشير إلى أحداث معينة. الفروض المنطقية، سواء استنتاجية أو استنباطية عادة ما تقبل ولكن يبدو ممكنا أن

هناك فروضا أخرى. استحالة وجود لونين مختلفين فى الجزء نفسه من الحقل البصرى ربما كان واحداً. قضية المقدمات التى من هذا النوع تعد صعبة ولكن أزيد فى الحديث عنها.

ألاحظ أن الفعلية كنظرية للمعرفة هى ذاتية النفى. فمهما كانت صياغتها فلا بد وأن تشتمل على مقدمات عامة عن اعتماد المعرفة على الخبرة، وأيا من تلك المقدمات، إذا كانت صادقة، لا بد وأن تكون لها كنتيجة . إنها فى حد ذاتها لا يمكن معرفتها، فرغم أن الفعلية قد تكون صادقة فلا يمكن إذا كانت صادقة أن يعرف أنها كذلك، وهذه مشكلة كبرى.

* * *

الفصل الثانى عشر

تحليل للمشكلات المتعلقة بالمقدمات

(١)

الغرض من الباب الحالى هو استعراض المشكلات وليس حلها. محاولات الحل ستأتى فى الفصول اللاحقة.

السؤال الأول هو: هل يحتاج المنطق أو نظرية المعرفة إلى "مقدمات" وأيضا إلى "جمل"؟ هنا نستطيع تعريف "المقدمة" على أنها "ما توضحه الجملة". بعض الجمل جوهرية وبعضها ليس كذلك، من الواضح رغم أنه قد يكون خطأً افتراض أنه عندما تكون الجملة جوهرية فإن هناك شيئًا يعد جوهريا. إذا كان هناك هذا الشىء فهو ما كنت أعنيه بكلمة "مقدمة". وحيث إن "لها الجوهرية نفسها" هى علاقة يمكن أن تقوم بالتأكيد بين جملتين. على سبيل المثال "بروتس قتل قيصر" و "قيصر قُتِل بواسطة بروتس"، فيمكننا التأكد من معنى كلمة "مقدمة" بالقول بأنه إذا لم نجد معنى آخر لها فإنها لا بد تعنى "القسم من كل الجُمل التى لها الجوهرية نفسها التى لجملة أخرى".

أما إذا كانت هناك جوهرية كبيرة، فإن هناك بالتأكيد صفة "الجوهرية" وأطبق هذه الصفة على أى جملة ليست عديمة المعنى. "جوهرية" و "جوهرى" هما كلمتان تطلقان على الجمل فى حين أنه "تعنى" كلمة تطلق على الكلمات المفردة. هذا التمييز ليس له أساس فى الاستعمال، ولكنه مناسب. عندما لا تكون الجملة جوهرية فأنا أسميها "عديمة المعنى".

لا تشتمل أى لغة عادية على قواعد نحوية تمنع بناء الجمل عديمة المعنى، ولكن يبدو واضحا أنه يجب أن يكون ممكنا بناء لغة لها الخاصيتان التاليتان:

١ - كل جملة مبنية وفقا لقواعد النحو من كلمات لها معنى تكون جوهرية.

٢ - كل جملة جوهرية مكونة من كلمات لها معنى وتوضع معًا وفقا لقواعد النحو.

يجب ملاحظة أن معانى الكلمات وجوهرية الجمل متداخلتان فيما عدا ما يتعلق بكلمات الأشياء. الكلمات الأخرى تتحدد بواسطة جوهرية أبسط الجمل التى يمكن أن تحدث فيها.

ولكن رغم أنه من الممكن فى اللغة الجيدة وضع القواعد النحوية المحددة للسؤال: متى تكون الجملة جوهرية؟، فلا يجوز افتراض أن "الجوهرية" هى أمر نحوى. على النقيض، الجملة تكون جوهرية بفضل بعض العلاقات التى لها ببعض حالات الشخص الذى يستعمل الجملة. هذه الحالات هى "تصديقات" وأحوال للاعتقاد نفسه الذى تعبر عنه الجملة. عند تعريف العلاقة بين الجملة والاعتقاد (الذى لا يكون لغويا فيما بعد) يجب تذكر أن الجمل الزائفة تكون جوهرية بالكيفية نفسه للجمل الصادقة. وعندما يتم تحديد العلاقة، يجب إظهار أن قواعدنا النحوية الجوهرية هى على النحو الذى تبرره.

(٢)

تحليل الاعتقاد كحالة للمعتقد لا يشتمل على فكرة "الصدق" و "الزيف". فبينما نحن نهتم بالاعتقاد فى الجانب الذاتى فإننا نحتاج فقط لاعتبار أن الجمل حالات "تعبير" للذى يستعملها. ولكن جزءًا من عرض الجملة "الإشارة" لحقيقة أو أكثر وهى بصفة عامة ليست حالات للشخص الذى ينطق الجملة. فما إن نعتبر هذا الجانب من الجمل، إلا ونصبح مهتمين بالصدق أو الزيف لأن الجملة الصادقة فقط تنجح فى الإشارة. ما تشير إليه الجمل سنستعرضه فى الفصل الخامس عشر ومن هذه النقطة إلى ما بعدها فإننا سنهتم بالقضايا المشتملة على "الصدق" و "الزيف".

فى تحليل ما أسميه "السلوكيات التقديمية" أى الحادثات مثل الاعتقاد، الشك، الرغبة ... إلخ، والتى توصف بالطبق بجمل تشتمل على جمل تابعة، مثل "أعتقد أنها ستمطر" يصبح لدينا خليط معقد من القضايا الفعلية والنحوية. الصورة النحوية من الطراز " A يصدق P " تعد خاصة لأنها تشتمل على جملة تابعة "P". الحدث الذى يجعل "A يصدق P " صادقة يبدو معقدا مشتملا على معقد تابع وعلينا أن نبحث ما إذا كانت هناك طريقة لتجنب مثل هذا التصديق. السلوكيات المقدماتية تثير الشك فى قاعدتين يفترضهما العديد من المنطقيين الرياضيين وهما الاتساع والذرية.

قاعدة الاتساع لها شقان:

١- قيمة الصدق لأى دالة لمقدمة تعتمد فقط على قيمة الصدق للجدل، أى إذا كان P، Q كلاهما صادق أو كلاهما زائف فإن أى جملة تشتمل على P تبقى صادقة أو زائفة، وفقا للحالة، إذا حلت Q محل P.

٢- قيمة الصدق لأى دالة لدالة تعتمد فقط على اتساع الدالة، أى كلما كانت QX صادقة وكانت X Ψ صادقة وكان العكس صحيحا، فإن أى جملة عن الدالة Q تظل صادقة أو زائفة وفقا للحالة، إذا حلت Ψ محل Q. ومع ذلك فلا واحدة من هذه الأمور تبدو سلوكا مقدماتيا صادقا. قد يعتقد رجل فى مقدمة صادقة دون أن يعتقد فى أخرى، فقد يعتقد أن بعض ثنائيات الأرجل عديمة الريش ليست بشرا دون أن يعتقد فى أن بعض البشر ليسوا بشرا. فنحن بالتالى دخلنا إلى تحليل الاعتقاد وسلوكيات تقديمية أخرى عند محاولتنا تقرير ما يبدو قضية منطقية بحتة.

(٣)

قاعدة الذرية وضعها وتجنشتين كالتالى: "كل جملة عن معقدات يمكن تحليلها إلى بيانات خاصة بأجزائها البنائية، وإلى تلك المقدمات التى تصف تماما المعقدات. إذا كان ذلك صحيحاً فيعنى أنه فى جملة " A يصدقP " لا تحدث P كوحدة، وإنما تحدث مكوناتها فقط.

فى الصورة السابقة، معنى قاعدة الذرية ليس واضحًا. ولكن هناك صيغة تكنيكية للقاعدة، ليست مطابقة تماما لصيغة وتجنشتين ولكنها أسهل فى النقاش وأكثر تحديدا وبالتالى أكثر أهمية. فى هذه الصيغة، يقال إن كل شىء نود قوله يمكن أن يقال فى جمل تنتمى إلى "الهرمية الذرية"، والتى سوف نعرفها فى القسم جـ من الفصل الثالث عشر.

من المهم للمنطق معرفة ما إذا كانت القاعدة صادقة فى صورتها التكنيكية، المقصود بالقول إن القاعدة "صادقة" هو أنه من الممكن بناء لغة بحيث:

(أ) كل جملة فى اللغة تبنى متوافقة مع القاعدة.

(ب) كل جملة جوهرية فى أى لغة يمكن أن تترجم إلى لغتنا المبنية.

علينا بالتالى أن نناقش القضايا التالية بالترتيب التالى:

١ – ما المقصود بجوهرية جملة ما وما هى القواعد النحوية التى يمكننا أن نعطيها لتحديد ما إذا كانت الجملة جوهرية؟

٢ – هل هناك أى حاجة لمقدمات فى مقابل الجُمل؟

٣ – ما هو التحليل الصحيح لـ "A يصدق P" وبأى مدلول تحدث "P" فى "A يصدق P"؟ (ما قيل عن التصديق يمكن أن يتسع لسلوكيات تقديمية أخرى).

٤ – هل باستطاعتنا بناء لغة مناسبة تكون قاعدة الاتساع فيها قائمة؟ أقصد بكلمة لغة مناسبة أنها التى نستطيع أن نترجم إليها أى جملة جوهرية بأية لغة.

٥ – هل باستطاعتنا بناء لغة مناسبة تقوم فيها قاعدة الذرية؟

* * *

الفصل الثالث عشر

أهمية الجُمل

(١)

(أ) عموميات

قضية ما الذى يجعل جملة ما جوهرية تفرض نفسها على العديد من المشكلات فى المقام الأول، توجد القواعد المتعارف عليها للنحو فى اللغات العادية.

"سقراط هو إنسان" مبنية وفقا لهذه القواعد وهى جوهرية ولكن "هو إنسان" تعتبر جملة معقدة وتنتهك القواعد وليس لها معنى. (استعمل "ليس لها معنى" كنقيض للجوهرية). قواعد النحو فى اللغات العادية يقصد بها منع اللغو عديم المعنى ولكنها تفشل فى تحقيق هذا الفرض تماما، فكما لاحظنا يجب أن يكون جزءًا من مشكلتنا الحالية بناء قواعد أفضل للنحو، والتى ستمنع تلقائيا اللغو عديم المعنى. فى المرحلة السابقة من مناقشتنا، كانت تقودنا مشاعرنا لمعرفة ما هو جوهرى، ولكننا نأمل فى النهاية إلى الوصول لما هو أفضل.

هناك مدلول واحد لكلمة "إمكان" والتى ترتبط بمشكلتنا الحالية. قد نقول إنه كل ما يمكن أن يتقرر بجملة جوهرية له طراز معين من الإمكانية، وسوف أعرِّف ذلك على أنه إمكانية نحوية. قد يكون أضيق من الإمكانية المنطقية ولكنه بالتأكيد أوسع من الإمكانية الفيزيائية. "القمر مصنوع من الجبن الأخضر" تعد ممكنة نحويا وليس

فيزيائيا. من الصعب إعطاء أمثلة محددة للإمكانية المنطقية التى لا تكون إمكانية نحوية، ولكن قد تكون: "هذا عبارة عن كل من الأحمر والأزرق" مثالا لذلك وربما "صوت الطبلة أزرق" مثال آخر.

لن أسأل فى هذه المرحلة ما هو الذى يعد ممكنا فى حالة جملة جوهرية وزائفة. لا يمكن أن تكون الجملة، ولا يمكن أن تكون: "أن الجملة صادقة"، لأن هذه مجرد جملة زائفة أخرى، هناك بالتالى مشكلة ولكنى لن أناقشها الآن.

(٢)

قضية "الجوهرية" صعبة ومضللة، وقد يساعد فى إيضاح المناقشة الإشارة إلى النتيجة التى سأصل إليها وهى على النحو التالى:

التأكيد له جانبان، ذاتى وموضوعى. ذاتيا، هو "يعبر" عن حالة للمتكلم قد يطلق عليها "اعتقاداً" وهى يمكن أن توجد دون كلمات، وحتى فى الحيوانات والأطفال الذين لا يملكون لغة. موضوعيا، التأكيد إذا كان صادقًا "يشير" إلى حقيقة، فإذا كانت زائفة فإنها تقصد الإشارة إلى حقيقة ولكنها تفشل فى القيام بذلك. هناك بعض التأكيدات، وهى التى تؤكد الحالة الحاضرة للمتكلم والتى يلاحظها، وفيها ما يتم "التعبير" عنه وما تتم "الإشارة" إليه يتطابقان، ولكنهما بصفة عامة يختلفان. جوهرية الجملة هى ما "تعبر عنه". الجُمل الصادقة والزائفة كلاهما جوهرى، ولكن سلسلة من الكلمات التى لا يمكن أن تعبر عن حالة المتكلم تعد عديمة المعنى.

فى النقاش التالى ستظهر النظرية السابقة تدريجيا على أنها، فى تقديرى، الوحيدة التى تعطى حلا واضحا للمشكلات المنظورة. قضية الجوهرية لها اتصال بالجمل المسموعة عنها بالجمل المنطوقة. سماع جملة جوهرية له تأثيرات تعتمد على طبيعة الجملة وليس على صدقها أو زيفها، فسماع ما يعتبر عديم المعنى ليس له هذه الآثار. من المعروف أن ما هو عديم المعنى قد يكون له آثار كتلك التى للجمل الجوهرية،

ولكن فى هذه الحالة يتخيل السامع معنى ليس للكلمات علاقة به. بصفة عامة، قد نقول إن الجملة المسموعة التى يفسرها السامع كمعنوية، قادرة على إحداث آثار ليس بوسع اللغو عديم المعنى إحداثها. يصدق هذا على النقاط التى ستطرأ على العقل عند بحثه عن تعريف للجوهرية.

(٣)

موضوع الجوهرية اتضح أنه أكثر صعوبة عما بدا بالتناقضات المشتمل عليها. من الواضح أن كل التناقضات تنجم من إضفاء الجوهرية لجمل هى فى الواقع عديمة المعنى. التناقض يجب عمل حسابه عند تشكيل القواعد النحوية لاستبعاد اللغو عديم المعنى.

مشكلة قاعدة الوسط الممتنع مرتبطة أيضا بقضيتنا الحالية. من المعتاد القول بأن كل مقدمة هى إما صادقة وإما زائفة، ولكننا لا نستطيع القول بأن كل جملة هى إمَّا صادقة وإما زائفة حيث إن الجُمل عديمة المعنى ليست كذلك. إذا طبقنا قاعدة الوسط المستبعد على الجمل، فيجب أولا معرفة أى الجمل تعد جوهرية حيث إنها هى فقط التى تنطبق عليها القاعدة. وما إذا كانت تنطبق عليها جميعا فهى قضية سوف أعيرها اهتمامًا بعد مناقشة السلوكيات التقديمية.

سوف أعرض فى البداية لصفة "جوهرى" ثم أختبر موضوع ما إذا كان هناك شىء تعنيه الجملة عندما تكون جوهرية. كلمة "قيصر" تعنى قيصر، فهل هناك شيئا مشابها فيما يتعلق بالجملة؟ من ناحية الأسلوب إذا كانت "P" جملة فيمكننا التفرقة بين "P" و P كما نفرق بين "قيصر" وقيصر.

بهذه الأوليات ندخل إلى التفاصيل.

الجمل من طرز ثلاثة: صادقة، وزائفة، وعديمة المعنى. يتبع ذلك أن "زائفة" عند انطباقها على الجمل، ليست مماثلة لجملة "غير صادقة" لأن الجملة عديمة المعنى ليست صادقة ولكنها أيضا ليست زائفة. لا بد وأن نفرِّق بين " P زائفة" و " P من الصادق

أنها زائفة". الجملة الأخيرة سوف تكون صادقة ولكن ليست الجملة الأولى. بافتراض أن "ليست P" تعنى " P زائفة" فسوف يكون لدينا، إذا كانت P عديمة المعنى، "ليست P صادقة"، ولكن لن يكون لدينا "ليست P" فسوف نقول إنه عندما تكون "P" عديمة المعنى فسوف تكون "ليست P" هى الأخرى كذلك.

فإذا كانت "P" جملة، لم نقرر بعد ما إذا كان لها معنى أم لا، فإن الموقف يكون كالتالى:

من "P صادقة" يمكن استنتاج "P" والعكس صحيح.

من "P" زائفة يمكن استنتاج "P" ليست صادقة ولكن العكس غير صحيح.

من "P زائفة – هذا صحيح" يمكن استنتاج " P صادقة هذا زائف" وليس العكس.

من "P زائفة" هى زائفة" يمكن استنتاج فقط أن "P صادقة أو عديمة المعنى" ولكن من "P' ليست' صادقة ليست صحيحة" يمكن استنتاج أن "P صادقة".

فلنوضح بأمثلة. سنبدأ بجملة "هذا أحمر" حيث إن "هذا" اسم علم. فلنسمى هذه الجملة "P". فلننظر إلى الجملة "P يكون أحمر". يبدو واضحا أنها جملة عديمة المعنى، ولكن إذا كنا نعنى بـ "P" شكلا مطبوعًا أو مكتوبا، فلن تكون عديمة المعنى لأنه قد يكون الشىء أحمر. يسهل فهم ذلك إذا قبلنا التمييز بين "P" وP حيث "P" جملة وP المقدمة التى تعنيها، لأن "P" قد يكون أحمر ولكن "P يكون أحمر" عديم المعنى. قد نأخذ P على أنها فكرة و "P" الجملة التى يتم التعبير فيها عن الفكرة. فى هذه الحالة، "P يكون أحمر" عديمة المعنى. إذا استطعنا التمييز بين "P" وP يصبح الأمر واضحًا.

فلنعط اسم العلم "P" للنطق "هذا أحمر". هنا نقول: إن P تعبر عن P وإن P صادقة، وإن P تعبر عن حقيقة. ولنعط الاسم Q للنطق " P يكون أحمر". فى هذه الحالة فلا جملة من الطراز " Q تعنى q" تكون صادقة، وQ لا تعبر عن حقيقة ولا عن زيف. بافتراض أن هناك تمييزا بين "P" وP ، فإنى أفضل القول بأن "P" تعبر عنP وليس أن "P" تعنى P، لأن "تعنى" يفضل الاحتفاظ بها للكلمات المفردة. فى هذه الحالة،

سنقول إن مقدمة ما هى شىء تعنيه جملة ما، وإن الجمل عديمة المعنى لا تعنى شيئا. المشكلة الباقية فى هذه الحالة هى أن نقرر ما هى الجمل التى تعبر عن شىء وما هو هذا الشىء.

كل هذا يفترض أننا نستطيع دحض الأسباب التى تؤدى إلى إنكار التمييز بين "P"، P، أو على الأقل الوصول إلى بعض التمييز الذى لا يتأثر بتلك الأسباب وسوف أعود لهذا لاحقا.

(٤)

التمييز بين سلسلة من الكلمات تعبر عن شىء وسلسلة من الكلمات التى لا تعبر عن شىء هو أمر شديد الوضوح. "سقراط هو إنسان" تعبر عن شىء ولكن "هو إنسان" لا تعبر عن شىء. "بعد أن شرب سقراط السم، قام بوداع أصدقائه" تعبر عن شىء ولكن "بعد أن شرب السم قام بوداع" لا تعبر عن شىء. فى هذين المثالين، هناك كلمات قليلة جدا لها معنى ولكن قد توجد كلمات كثيرة جدا. مثلا، "سقراط هو إنسان" بها "هو إنسان" ليس لها معنى. "قانون التناقض هو أصفر" هى بالمثل عديمة المعنى. أحيانا قد يوجد شك، مثل فى حالة "صوت الطبلة أزرق" ينجم التناقض من جمل تبدو كأنها تعبر عن شىء، ولكنها لا تفعل.

من هذه الجمل: "أنا أكذب" حيث إن لها عدداً لا نهائيا من المعانى ولكن لا واحد منها هو ما يجب أن نعتقد أنها تعنيه. فلو كنا نعنى "لقد نطقت بمقدمة زائفة باللغة الأولية" فإننا نكون كاذبين، لأن هذه مقدمة باللغة الثانوية والحجة فى أننا إذا كنا نكذب فنحن إذن نقول الصدق تفشل، لأن جملتنا هى من المستوى الثانى وقد قلنا إننا ننطق بجملة زائفة من المستوى الأول. بالمثل؛ إذا كنا نعنى "أنا أنطق بجملة زائفة من المستوىn" إذا حاولت القول "أنا أنطق بمقدمة زائفة من الطراز الأول، وبالمثل بأخرى من الطراز الثانى، والثالث والرابع.. إلى ما لا نهاية"، فأنا أؤكد فى الوقت نفسه عدداً

لا نهائيا من المقدمات من بينها الأول، والثالث، والخامس.. وهى زائفة، بينما الثانى، والرابع، والسادس.. صادقة.

(٥)

موضـوع مـا إذا كانت صـور الكلمات تعنى أى شىء، ليـس سهـلا دائما، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن بعض صـور الكلمـات تعنى شـيئا، بينمـا البـعض الآخر فلا يعنى شيئًا. وأنه من بين تلك الصور التى تـعنى شيئا، البعض يعنى ما هو صـادق بينما البعض الآخر يعنى ما هو زائف. لا بد بالتالى أن نجد طريقة لتـعريف الفرق بين سلسلة من الكلمات ليس لها معنى وسلسلة من الكلمات تعنى شيئا، فلا بد من أن نبحث عما إذا كان الشىء لا بد وأن يكون مختلفًا عن اللغو عديم المعنى، أم أن المعنى يمكن أن يكون مجرد وصف.

إذا كـانت صـورة من الكلمـات تعنى مـقدمـة، فـإننى أسـمـى المقـدمـة "الجـوهرية" للصورة من الكلمات. حاليا، سأفترض أن هناك مقدمات تعنيها الجملة الجوهرية.

ينجم هنا سؤالان:

١ – ما الذى تعنيه "جوهرية" صورة من الكلمات؟

٢ – ما هى القواعد النحوية التى يمكن إعطاؤها عندما تكون صورة من الكلمات جوهرية؟

مـا الذى تعنيه "جـوهـرية" صـورة من الكلمـات؟ أنا أسـتـعـمل كلمـة جـوهرية هنا بمدلول محدد، فالجوهرية موضع السؤال يجب أن يكون تقديمية مثلا "ملك إنجلترا" هـى جـملة لهـا مـعنى بمدلول مـا ولكن ليس لـهـا "جـوهـرية" بالمدلول الذى أعنيـه. لفـرضنا الحـالى، ما تشـيـر إليه الجملة يجب أن يكون شيـئًـا صـحـيحًـا أو زائفًا. مـا أسـميـه "جوهرية" يمكن أن يسمى "جوهرية تقديمية" للتمييز بينها وبين غيرها من الطرز، ولكن للاختصار سوف أسقط كلمة "تقديمية".

(٦)

من الخصائص الكافية، وإن لم تكن بالضرورة مهمة للجوهرية، هى أن الخبرات الإدراكية يمكن تخيلها أو وقوعها بالفعل، وهو ما يستعمل الجملة (أو مضادها) كتأكيد. فى أحوال خاصة، قد نقول، عندما نخبر ما ندركه "الجليد أبيض" وبالتالى فالجملة "الجليد أبيض" جوهرية. فى ظروف إدراكية معينة قد نقول "الجليد ليس أسود" وبالتالى، فالجملة "الجليد أسود" جوهرية. قد يعطى ذلك إشارة تعبر عنها الجملة التى لها جوهرية.

عندما أقول "الجليد أبيض" فإن ما يجعل بيانى صادقًا شىء، وما أعبر عنه شىء آخر. الذى يجعل جملتى صادقة هو فى الحقيقة الفيزياء المتعلقة بالجليد ولكنى أعبر عن حالة عقلية هى معتقد معين- أو للسماح بالكذب، رغبة فى أن يكون للآخرين تصديق معين. قد نهمل هذا التعقيد، ونفترض أننا بتأكيد الكلمات، نعبر عن عقيدة. ولكنى لا أؤكد أن لدىَّ عقيدة، وإنما أؤكد موضوع التصديق. فهل هناك موضوع للتصديق هو ما تدعيه الجملة "الجليد أبيض"؟ هناك خبرات معينة تدفعنا للاعتقاد بأن الجليد أبيض، فإذا كان هذا الاعتقاد له موضوع، فقد نقول إننى أعبر عن حقيقة أننى أعتقد فى شىء وهو (أن الجليد أبيض) بتأكيد هذا الموضوع. أنا لا أؤكد أننى أصدق الموضوع، فإن هذا سيكون تأكيدا آخر، قد يكون صادقا حتى لو كان الجليد أسود. مشكلتنا هى: هل هناك شىء؟ فإذا كان، فما هو الذى أصدقه عندما أعتقد أن الجليد أبيض؟

مرة أخرى، ما الذى تسأله إذا قلت "هل الجليد أبيض؟" فلنفترض أنك نشأت فى إثيوبيا، ولكن نتيجة لغارة جوية، تم اختطافك ثم عُصِبت عيناك ونقلتَ إلى القطب المتجمد حيث أصبحت عارفًا بملمس ومذاق ورائحة الجليد، وعرفت أن "الجليد" هو اسم لمادة معروفة لثلاث من حواسك. قد تسأل عندئذ "هل الجليد أبيض؟". لن يكون سؤالك عن كلمة "جليد" وكلمة "أبيض" وإنما عن الإدراك. قد تعنى: هل أولئك الذين هم غير معصوبى الأعين عندما يكون لديهم الإحساس بالملمس والرائحة التى عرفت ارتباطهما

بكلمة "جليد" يرون البياض؟ ولكن حتى هذا لا يزال لفظيا. فإذا كنت، عند هذه اللحظة، تلمس وتشم الجليد، فقد تعنى "هل هذا يرتبط عادة بالبياض؟" وإذا كنت تتخيل البياض، فالفكرة فى عقلك قد تكون "هل هذا يرتبط عادة بذاك؟" حيث هذا هو المدرك وذاك هى صورة البياض: ولكن "ذاك" يجب ألا تفسر على أنها الصورة فى حد ذاتها، إنما يجب أن تعنى مدركا مثل الصورة. عند هذه النقطة يبدو شديد الصعوبة إيضاح ذلك، حيث إن الصورة "تعنى" مدركا، بالطريقة نفسها التى تعنيها الكلمة.

من الواضح أنه إذا كانت المعتقدات لها موضوعات، فما أعتقده عندما أعتقد أن الجليد أبيض هو نفسه ما أشك فيه عندما أسأل "هل الجليد أبيض؟". مهما كان ذلك، فهو فى هذه النظرية الفرضية جوهرية الجملة "الجليد أبيض". فإذا كانت جوهرية الجملة صادقة، فإنه بفضل حادثات ليست كلمات ولا صور، أما إذا كان معروفا أنها صادقة، فإن هذه الحادثات لا بد وأنها مدركات. ينطبق الشىء نفسه إذا كانت زائفة. الصدق والزيف يعتمدان على علاقة بين جوهرية الجملة وشىء هو ليس بكلمات ولا صور (ما عدا عندما تكون الجملة عبارة عن كلمات أو صور).

(٧)

إذا استطعنا تقرير ما تعنيه "جوهرية" جملة، فسوف نقول إنها تلك الجوهرية التى تسمى "مقدمة" وهى ليست صادقة ولا زائفة. البيان قد يوضح حقيقة أو يوضح زيفًا أو لا يوضح أى شىء، ولكن إذا أوضحت الجملة شيئا فإن ما توضحه لا بد وأنه صادق أو كاذب.

قد نضع السؤال فى الصورة التالية: "ما الذى نعتقده عندما نعتقد شيئًا"؟ ولنأخذ إيضاحًا. فى بعض المحاجر توجد عمليات تفجير كبيرة كل يوم عند الساعة الثانية عشرة. إشارة الابتعاد عن المكان تتم بواسطة بوق، وقد يكون هناك أيضا رجال يمسكون بأعلام حمراء فى الطرق المجاورة، لو أنك سألتهم لماذا هم هناك سيقولون

"لأن تفجيرا سيقع". العاملون الذين يفهمون لغة البوق والجيران الذين يفهمون لغة الأعلام الحمراء والغرباء المارة الذين يحتاجون إلى كلمات، كلهم فى النهاية يعتقدون فى المقدمة نفسها، وهى التى يعبر عنها بكلمات "سوف يحدث تفجير". ولكن الغرباء المارة فقط الذين يبلغونهم يضعون هذه المعلومات فى كلمات، والآخرون يكفيهم البوق والأعلام الحمراء التى تقوم بمهمة اللغة وتنتج الفعل المناسب دون الحاجة إلى الكلمات.

قد يعد البوق والأعلام الحمراء لغة، لأن هدفهما إيصال معلومة. ولكن القنبلة القادمة سوف توصل معلومة مماثلة دون أن تكون لغة، لأن هدفها ليس الأعلام. القنبلة والبوق، والعلم كلها تؤدى إلى اعتقاد دون أن تؤدى إلى كلمات. عندما يعتقد عدد من الناس أن هناك تفجيرا سيحدث، فما الذى يشتركون فيه؟ حالة معينة من التوتر ستزول عندما يحدث التفجير، ولكن إذا كان اعتقادهم زائفًا فإن التوتر سوف يستمر لبعض الوقت ثم تحل الدهشة محله. حالة التوتر يمكن أن تسمى "توقعًا" ولكن الصعوبة تنجم فيما يتعلق بالصلة مع (أ) الانفجار أو عدمه.

(ب) بشىء يمكن أن نسميه "فكرة" الانفجار.

من الواضح أن توقع الانفجار شىء وتوقع وصول قطار مثلا، هو شىء آخر، ما يشتركون فيه هو الإحساس بالتوقع ولكنهم يختلفون فى ما يخص الحدث الذى سيغير هذا الإحساس إلى شعور بالاستغراب. الشعور لا يمكن أن يكون هو الشىء الوحيد الذى يشكل حالة الشخص الذى يتوقع شيئا، حيث إن أى حدث سوف يشبع توقعه، بينما الحقيقة أن حدثًا من طراز معين فقط هو الذى سيؤدى إلى ذلك.

ربما كان يمكن تفسير الأمر بكامله فسيولوجيا؛ فكل شخص يتوقع ضوءًا مبهرًا يكون لديه إحساس فى عينيه وتوقُّعُ صوتٍ عالٍ يشتمل على شىء مماثل فى الأذنين. قد يقال إن توقع ظاهرة محسوسة يتكون من حالة استقبال للعصب الحساس المعنى. ولكن هناك أحاسيس ترتبط بحالة الاستقبال هذه، وهذه الأحاسيس قد تؤخذ كمكون للشق العقلى من التوقع.

(٨)

يبدو بالتالى أن ما يعد مشتركا بين عدد من الناس يعتقدون فيما تعبر عنه الكلمات "سوف يحدث انفجارٌ" هو حالة من التوتر ترتبط بأعضاء الحس المناسبة، وبالحالة الفسيولوجية لهذه الأعضاء، والإحساس المصاحب لهذه الحالة. يمكننا أن نقول الشىء نفسه عن "سوف يحدث نورٌ"، أو "سوف تحدث رائحةٌ لحجرةٍ مليئةٍ بالفئران". ولكن هذه حادثات تقع فى المستقبل القريب. عندما أعتقد فى شىء أقل إثارة- أن جريدة التايمز سوف تحتوى غداً على توقعٍ للطقس، أو أن القيصر قد عبر الروبيكون- فلن أشاهد أيا من تلك الأحداث بنفسى. إذا قلت لى "سوف تُقتل خلال لحظة" فلربما وقف شعر رأسى، ولكن إذا قلت لى إن قيصر قُتِلَ فى منتصف شهر مارس، فسوف يظل شعرى على حاله رغم حقيقة أننى أصدق ما تقول.

ربما كان الفرق فى الدرجة فقط، ما لم يكن الاعتقاد مجرد لفظى، وأعنى بذلك ليس فقط أنه معبر عنه بكلمات، وإنما أن الكلمات تعنى ما ليس فى عقل المعتقد الذى يظن أن الكلمات صحيحة. نعرف أن "ويليام المنتصر ١٠٦٦" صحيحة، ولكننا لا نتوقف لنفكر فيما تعنيه الجملة. معتقدات الناس المتعلمين هى من هذا الطراز، ولكن المعتقدات التى تهمنا هى التى ليست لفظية بحتة. فإلى أن نتعامل معها لا يمكن شرح المقصود بأنها "تشير إلى حقيقة".

عندما تتوقع انفجاراً، يكون جسمك فى حالة معينة ويكون عقلك فى حالة مماثلة. هذا قد يدفع بكلمة "انفجار" إلى عقلك، وكلمة انفجار على أى حال مع إضافة لفظية صغيرة قد تسبب حالة من التوقع. إذا قيل لك "لقد وقع انفجارٌ للتو" وصدقت ما قيل لك، فإن حالة جسمك وعقلك سوف تصبح كما لو أنك سمعت الانفجار، ولكن بشدة أقل. التخيل، إذا كان قويا بدرجة كافية، يمكن أن يكون له آثارا مادية شبيهة لتلك الخاصة بالإدراك، وخاصة عندما يكون ما تم تخيله يُعتقد أنه حدث. الكلمات، بلا صور، قد يكون لها هذه الآثار عبر الارتباطات، وأينما تقع هذه الآثار المادية تقع الآثار العقلية.

(٩)

ربما نستطيع الآن شرح "جوهرية" جملة ما كالتالى: أولا، بعض الجمل تعبر عن حقائق مشاهدة، كيف يحدث هذا قد تابعناه بالفعل. ثانيا: بعض الحقائق المشاهدة هى معتقدات. لا يشتمل الاعتقاد بالضرورة على أى كلمات على الإطلاق فى المعتقد، ولكن من الممكن دائما (إذا توافرت مفردات مناسبة) إيجاد جملة تشير إلى الحقيقة المدركة فى أن لدى هذا وذاك من الاعتقادات. إذا بدأت هذه الجملة بـ "أنا أعتقد أن" فما يتبع كلمة أن هى جملة تشير إلى مقدمة، ويقال إن المقدمة هى ما أعتقده تنطبق الاعتبارات نفسها على الشك، الرغبة وغيرها.

يجب أن نحاول تعريف الجوهرية بطريقة لغوية. فى البداية يجب تقسيم الكلمات إلى أقسام لها علاقات بأجزاء الخطاب. ثم نقول: فى حالة أى حكم إدراكى (قد يكون على الصورة" أنا أصدق P")، يمكن لأى كلمة أن يحل محلها كلمة أخرى تنتمى للقسم نفسه دون أن يجعل ذلك الجملة تفقد جوهريتها، ونسمح بتشكيل مقدمات جزيئية وعامة بالطريقة التى ناقشناها. ثم نقول إن تجمع الجُمل المتحصل عليها بهذه الطريقة هو قسم الجمل الجوهرية، ولكن لماذا؟ لا أشك فى أن بعض التعريفات اللغوية لقسم الجمل الجوهرية - سواء السابقة أو غيرها - أمر ممكن، ولكننا لا نستطيع الاقتناع إلى أن نجد سببا لقواعدنا النحوية.

هذا السبب يجب أن يتكون من خصائص لمعقدات هى بطريقة ما متعلقة بالقواعد. ففى مقدمة من الطراز "A يقع على يسار B" إذا كانت حكم إدراك فإننا نحلل مدركًا معقدا. يبدو أنه فى أى جملة تعبر عن مثل هذا التحليل يجب أن يوجد على الأقل كلمة علاقة واحدة. لا أعتقد أن هذه مجرد خاصية لغوية، ولكنى أعتقد أن المعقد له مكون مقابل هو عبارة عن علاقة. يجب أن نعرف أننا حين نقول إن الجملة جوهرية، فإننا نعنى أن المعقد الذى يوصف بجملة هو " ممكن" وأننا نعنى أن معقداً يتم وصفه بجملة

يتم الحصول عليها من الجملة المعطاة بأن يحل محل كلمة أو أكثر من كلماتها بكلمات أخرى تنتمى للأقسام نفسها. فإذا كانت "A" و "B" أسماء رجال، فإن "A قتل B" ممكنة لأن بروتس قتل قيصر. وإذا كانت "R" اسم علاقة من القسم نفسه مثل القتل " A له العلاقة R بالنسبة لـ B" تكون ممكنة للسبب نفسه.

عند هذه النقطة، نكون قد لمسنا العلاقات بين اللغويات وما وراء الطبيعة وسوف أتناول هذا الموضوع فى فصل لاحق.

بالعودة إلى المقصود بجوهرية الجملة، سوف نقول إنه بالنسبة لجملة من الطراز الذرى، الجوهرية هى حالة المعتقد أو مجموعة من الحالات المتشابهة. من الصور الممكنة لهذه الحالة، الصورة المعقدة، أو مجموعة كاملة من الصور المعقدة المتماثلة. الصور تشكل اللغة ولكن تختلف اللغة عن الكلمات فى حقيقة أنها لا تحتوى على لغوٍ عديمِ المعنى.

حتى الآن كنت أفترض أنه عندما تكون الجملة جوهرية فإن شيئًا ما تشير إليه. وحيث إن الجملة الجوهرية قد تكون زائفة، فمن الواضح أن جوهرية الجملة لا يمكن أن تكون الحقيقة التى تجعلها صادقة أو (زائفة). لا بد إذن وأن هناك شيئًا فى الشخص الذى يصدق الجملة وليس فى الشىء الذى تشير إليه الجملة.

بالطبع الصور واردة. الصور "تعنى" بنفس طريقة الكلمات ولكن لها ميزة أنه لا توجد صورٌ معقدة تقابل الجمل عديمة المعنى. الصور الفعلية لها الميزة نفسها. يمكننى تكوين صورة عن بروتس يقتل قيصر أو إذا رغبت لقيصر بقتل بروتس، ولكنى لا أستطيع تكوين صورة سواء حقيقية أو متخيلة لأمر عديم المعنى. فالقواعد النحوية للحصول على جمل جوهرية من أحكام إدراكية هى وفقًا لهذه النظرية قوانين سيكولوجية لما يمكن تخيله.

(١٠)

فلنحاول وضع نظرية تكون فيها الجوهرية مجرد صفة للجمل. المقترح المفيد هو التمييز بين الجمل الجوهرية والجمل عديمة المعنى عن طريق خصائصها السببية. يمكننا تمييز الزائف من الصادق (وفقا لأحكام الإدراك) بواسطة أسباب نطقها، ولكن حيث إننا نتعامل مع مشكلة فيها الجمل الزائفة والصادقة هى على مستوى واحد، فيجب أن نعتبر الآثار فى السامع بدلا من مسببات المتكلم. العديد من الجمل المسموعة ليس لها آثار واضحة على أفعال السامع، ولكنها قادرة على إحداث الأثر فى مناسبات مواتية. جملة "قيصر مات" لها القليل جدا من الأثر علينا الآن، ولكن كان لها آثار أكبر فى وقت حدوثها. الجمل عديمة المعنى، لا توفر أى أفعال بالنسبة لما تعنيه مكوناتها اللفظية، فأكثر ما يمكن أن تؤدى إليه هو أن يطلب من المتكلم أن يلزم الصمت، هى بالتالى متميزة سببيا عن الجمل الجوهرية.

هناك بعض الصعوبات رغم ذلك. العديد من المتدينين يتأثرون بشدة بجمل مثل "الله واحد" وهى من الناحية النحوية خاطئة ويجب اعتبارها بواسطة المنطقيين عديمة المعنى. (الجملة الصحيحة يجب أن تكون "يوجد إله واحد فقط"). فالسامع الذى بالنسبة له يجب أن تتحدد الجوهرية لا بد وأن يكون منطقيا متمرسًا. هذا ينقلنا خارج محيط المشاهدات السيكولوجية لأنها تقيم معياراً ، وفقا له يكون مستمعٌ ما مفضلا منطقيا على آخر، وما يجعله مفضلا لا بد وأنه شىء فى المنطق وليس شيئا محدداً فى السلوك.

من النقاش السابق، نجد أن من الضرورى التمييز بين المقدمات والجمل، ولكن المقدمات لا تحتاج لأن تكون غير قابلة للتحديد. يمكن تحديدها كأحداث سيكولوجية من طراز معين – صور معقدة، توقعات.. إلخ. هذه الأحداث يتم التعبير عنها "بجمل" ولكن الجمل تدعى شيئًا آخر. عندما يكون لجملتين المعنى نفسه، فذلك لأنهما يعبران عن المقدمة نفسها. الكلمات ليست ضرورية للمقدمات. التحديد السيكولوجى الدقيق للمقدمات ليس مهمًا للمنطق أو لنظرية المعرفة، ما هو ضرورى لبحثنا هو أن تشير

الجمل إلى أشياء بخلاف نفسها، والتى يمكن أن تكون هى نفسها عندما تختلف الجمل. هذا الشىء يجب أن يكون سيكولوجيا (أو فسيولوجيا) حيث إن المقدمات يمكن أن تكون زائفة.

(ب) التحليل السيكولوجى للجوهرية

(١١)

ناقشنا الخاصية السيكولوجية لمعانى الكلمات المفردة عندما تكون كلمات أشياء. معنى الكلمة المفردة يتحدد بالموقف الذى يؤدى بها إلى أن تستعمل وبالآثار الناجمة عن سماعها. جوهرية جملة ما يمكن تحديدها بالمثل. فى الحقيقة، كلمة - الشىء - هى جملة عندما تستعمل بطريقة ندائية. طالما حصرنا أنفسنا فى هذه العموميات فلا مشكلة بالنسبة لجوهرية الجملة. تنجم المشكلة عندما نحاول شرح العلاقات بين جوهرية الجملة ومعانى كلماتها سيكولوجيا. بالنسبة للمنطقى، تتحدد الجوهرية بمدلول معانى الكلمات وقواعد النحو، ولكن سيكولوجيا فإن الجملة وحدة سببية، وآثارها لا يبدو أنها مكونة من آثار منفصلة لكلمات منفصلة. هل يمكننا القول إن الأثر لجملة "هذا ليس جُبنًا" مكون من أثر "ليس" وأثر "جبن"؟ لو قلنا ذلك، فلا زلنا بحاجة لنظرية سيكولوجية للكلمات المنطقية أكبر من المعتادة ولكنى لا أعتبر هذا الجدل قاطعا.

النظرية النحوية للجوهرية - خاصة المرتبطة بلغة منطقية مصطنعة - هى فرع من الأخلاق، فهى تقول "الناس ذوى السلوك الطيب منطقيا يقرنون الجوهرية للجمل من الطرز التالية". ولكن هناك أيضا نظرية سيكولوجية بحتة للجوهرية، وفيها الجملة المنطوقة تعد "جوهرية" إذا كانت مسبباتها من طراز معين، والجملة المسموعة تكون "جوهرية" إذا كانت آثارها من طراز معين. النظرية السيكولوجية للجوهرية مكونة من تحديد هذه الطرز.

الاعتقاد كما قررنا، هو حالة معينة للعقل والجسد ولا يشتمل بالضرورة على كلمات. قد يكون الشخصA فى حالة تصفها الكلمات "A يعتقد أن انفجارا ضخمًا سوف يحدث الآن". عندما يكون A فى هذه الحالة فقد تؤدى به إلى استخدام كلمات "سوف يحدث الآن انفجار مدوٍّ". الجملة "P" تكون جوهرية عندما يكون هناك حالة من العقل والجسد تصفهم الكلمات "A يعتقد فى P". سماع الجملة "P" هو أحد المسببات المحتملة للحالة الخاصة بتصديق "P". الجملة المسموعة تكون جوهرية عندما تكون سببا كهذا.

(١٢)

كل كلمة – شىء لها استعمالان يقابلان "الانطباع" و"الفكرة" لهيوم. عندما تتسبب مباشرة عن حدوث محسوس، فالكلمة، للمتكلم، ينطبق عليها انطباع، وعندما تُسمع أو تستخدم فى السرد، لا ينطبق عليها انطباع، ولكنها تظل كلمة وليست مجرد صوت. وتظل "تعنى" شيئًا، وما تعنيه يمكن أن يسمى "فكرة" ينطبق التمييز نفسه على الجُمل: الجملة المنطوقة قد تصف انطباعا ولكن الجملة المسموعة لا تفعل. الانطباع والفكرة يجب أن يكونا شديدى الارتباط، وإلا كان من المستحيل إعطاء معلومات: فبمدلول ما، يفهمه السامع هو ما يعبر عنه المتكلم.

عندما يكون للشخص A الجملة "P" فى عقله يكون الوضع أبسط. قد يكون للشخص A الجملة "P" فى عقله، ويقول "أنا أصدقP" أو يؤكد P ولكن لا يتبع ذلك أن يصدق P. ما يجب أن يصدقه هو أن "P صادقة". قد لا يكون مدركًا لما تعنيه "P"، مثلا المؤمن غير المتعلم الذى يسمع قصص الرسل باليونانية، أو طفل المدرسة الذى يسر المدرس بقوله "الواو حرف عطف". فلنعدد الاستعمالات المختلفة لـ "P". خذ الجملة "هناك ضوء أحمر" سوف نسميها الجملة "P". أنت تجلس بجوار سائق سيارة مهمل وتنطق الجملة لأنك رأيت ضوءًا أحمر. وهذا يسمى الاستعمال الندائى لـ "P". هنا "P"

تنتج عن حقيقة محسوسة وهى التى تشير وتفند. ولكن ماذا عن السائق الذى يسمع نداءك؟ إنه يفعل تماما ما يجب أن يفعله إذا كان قد رأى الضوء الأحمر، ففى داخله حالة انعكاس تؤدى به إلى الاستجابة لكلمة "ضوء أحمر" كما يستجيب لمنظر الضوء الأحمر وهذا ما نعنيه بأنه "يفهم" الكلمات.

١ - الآن لا حاجة بنا إلى "أفكار". أنت تستجيب لمنبه بصرى والسائق يستجيب لمنبه سمعى واستجابته كاستجابتك، هى حقيقة محسوسة.

ولكن بافتراض أنك عندما رأيت الضوء الأحمر أمسكت لسانك، وبعد لحظة قلت "من حسن الحظ أنه لم يكن رجل البوليس موجوداً لأنك كسرت إشارة حمراء"، ويرد السائق "أنا لا أصدقك". سوف تكون "P" هى "كان هناك ضوء أحمر". أنت تؤكد P، والسائق يقول لا أصدق P. من الواضح أن الحاجة إلى إنكار أمر وارد، فلا أنت ولا السائق مرتبط بالكلمات، فأنت لا تقول "الكلمات، كان هناك ضوء أحمر" تعبر عن حقيقة" ولا هو ينكر ذلك. كلاكما يتكلم عما تعنيه الكلمات.

قد تقنع إذن بالتشابه مع الماكينة الأوتوماتيكية التى تقول أولا "هذا قرش" ثم بعد ذلك "كان ذاك قرشا". الرجل الذى رأى الضوء الأحمر لتوه ولم يعد يراه هو فى حالة مختلفة عن حالة الرجل الذى لم ير ضوءاً أحمر، وهو ما يسبب استعمال الكلمات "كان هناك ضوء أحمر". بالنسبة للسائق، فقد نفترض أن له حالة (تشتمل على دوافع عصبية) تنتج عن سماع الكلمات "كان هناك ضوء أحمر" مع دوافع مثبطة، كالتى يعبر عنها بكلمة «لا أصدق".

فطالما لم نُدخِل "أفكارًا" لا توجد صعوبات خاصة. الدوافع العصبية فى السائق سوف تكون هى نفسها إذا قلت "لقد أوشكت أن تصدم كلبًا"، ولكن حالته لن تكون هى نفسها. الكلمات سوف تؤدى إلى "فكرة" أنه كان هناك ضوء أحمر، ويقابل هو هذه الفكرة بعدم التصديق. ليس من الضرورى لنا أن نقرر ما تتكون منه "الفكرة"، وكيف تكون وسطية بين السيكولوجى والفسيولوجى، ولكن يبدو أننا يجب أن نقر بذلك، لأن العديد من المعتقدات المختلفة قد لا يمكن تمييزها وفقا لآثارها الحركية.

(١٣)

النظرية السيكولوجية للجوهرية هى على النحو التالى: هناك حالات يمكن تسميتها حالات "اعتقاد" لا تشتمل على كلمات بالضرورة. قد تكون حالتان للاعتقاد مرتبطتين ونسميهما حالات للمعتقد نفسه. بالنسبة لإنسان يملك العادات اللغوية المناسبة. إحدى هاتين الحالتين وهى الحالة الخاصة بمعتقد معين تؤدى به إلى نطق جملة معينة، فإذا كان ذلك خاصا بمعتقد معين، يقال إن الجملة تعبر عن المُعتقد. الجملة المنطوقة تكون "جوهرية" عندما يكون هناك معتقد من الممكن أن تعبر عنه. الجملة المسموعة "S" يمكن تصديقها أو رفضها أو الشك فيها، وإذا تم تصديقها فإن مُعتقد السامع يتم التعبير عنه بالجملة "ليس –S" وإذا كان هناك شك فيها، بالجملة "ربما S" تكون الجملة المسموعة "S" جوهرية إذا أمكنها التسبب فى أىٍ من الطرز الثلاثة للحالات التى تعبر عنها "S"، "ليس S" و "ربما S". النظرية بكاملها مستقلة تماما عن أى اعتبارات للصدق أو الزيف.

(جـ) النحــو والجوهريــة

(١)

فى الجزء التالى، أقترح اعتبار إمكانية بناء لغة منطقية فيها الشروط السيكولوجية للجوهرية تترجم إلى قواعد نحوية دقيقة.

سوف نبدأ بمفردات مشتقة من مدركات ومن جمل تعبر عن أحكام إدراك، سأعرِّف منظومة من الجمل الجوهرية تتحدد بعلاقاتها النحوية بالمفردات المبدية وأحكام الإدراك. عند تعريف هذه المنظومة يمكننا الانتقال إلى ما إذا كانت اللغة الملائمة تشتمل على كل الجمل الجوهرية وليس غيرها.

تتكون المفردات المبدئية من أسماء، ومسندات، وعلاقات كلها محددة تماما. نظريا، العلاقات قد يكون لها أى عدد محدد من المدلولات، ولا حاجة لنا فى البحث عن أكبر عدد من الدلالات فى أى جملة تعبر عن حقيقة علاقة ندركها بالفعل. كل ما هو مطلوب

لمفردات الموضوع أن يكون له تعريف واضح، فالكلمات التى لها تعريفات قاموسية تعد غير ضرورية نظريا. مفردات الأشياء يمكن أن تشمل أى خبرة جديدة مثل أول مرة تتذوق فيها زعانف سمك القرش قد تعطى اسمًا لهذا المذاق.

الجُمل التى تصف الخبرات مثل التى ناقشناها فى الفصل الثالث، عادة وليس دائما، ما تكون مكونة من علاقة مفردة أو خبر بالإضافة إلى عدد مناسب من الأسماء. مثل تلك الجمل تعبر عن "أحكام للإدراك" وتكون الأساس الذى تقوم عليه عملية البناء النحوى.

فإذا كانت $Rn(a_1, a_2, a_3 .....a_n)$ جملة تعبر عن حكم إدراك وتشتمل على علاقة Rn وأسماء $a_1, a_2, a_3 .....a_n$ وطبقنا قاعدة الاستبدال، فإن الجملة تبقى جوهرية إذا استبدلت كل أو بعض الأسماء بأسماء أخرى، ويحل محل Rn أى علاقة أخرى، فإننا نحصل من حكم إدراكى على مجموعة معينة من الجمل الجوهرية نسميها جُملاً ذرِّية.

قد يعترض على ذلك بأن هذه القاعدة تسمح بتكوين جمل عديمة المعنى مثل "صوت الطبلة أزرق". مع نظريتى للأسماء فإن هذا يؤكد ذاتية شيئين لهما اسمان مختلفان. هذا لا يعد لغواً عديم المعنى وإنما زائف. لا بد وأن تشتمل أحكام الإدراك على جملٍ مثل "الأحمر يختلف عن الأزرق"، وبالمثل إذا كانت Z هى اسم خاصية لصوت الطبلة، فإن "Z تختلف عن الأزرق" يمكن أن تكون حكمًا إدراكيا.

(٢)

من الممكن بالطبع أن نمد جملة بجوهرية تقليدية لم يكن لها جوهرية طبيعية طالما أمكننا تجنب المخاطرة بالتناقضات. الجمل التى ليس لها جوهرية طبيعية، هى بالطبع ليست صادقة، وبالتالى نستطيع أن نمدها بجوهرية زائفة مثل "قالب الزبد هذا أزرق" لكل جملة (لا تشتمل على كلمة ليس) نريد أن نضمنها، ولكنها غير جوهرية بطبيعتها. بالنسبة للجمل الذرية ليس هناك مجازفة بالتناقض، وبالتالى فقاعدة الاستبدال يمكن تأمينها وبناء على ذلك لا سبب هناك لرفضها.

القاعدة الثانية فى تشكيل الجمل يسمى التوفيق. بالنظر إلى جملة ما، يمكن ربط جملتين بواسطة "أو" ، "و"، "إذا-فإن"، "إذا-فليس" وغيرها. تسمى هذه الجمل "جزيئية" إذا نجمت من توفيقة من الجمل الذرية سواءً بطريقة مباشرة أو بعدد محدود من العمليات. صدق أو زيف جملة جزيئية يعتمد فقط على "ذراتها".

العملية الثانية هى التعميم. بالنسبة لأى جملة تشتمل إما على اسم "a" وإما على كلمة "R"، تشير إلى علاقة أو خبر، يمكن بناء جملة جديدة بطريقتين. فى حالة الاسم "a"، قد نقول إن كل الجمل التى تنتج عن إحلال اسم آخر محل "a" هى صادقة، أو قد نقول إنه على الأقل إحدى هذه الجمل صادقة. مثلا من "سقراط إنسان" قد نشتق بهذه العملية الجملتين "كل شيء هو إنسان" و "شيء ما هو إنسان" أو " 'X هو إنسان دائما صادقة" و "'X هو إنسان' هى أحيانا صادقة". المتغير "X" هنا يأخذ كل القيم التى عندها تكون جملة " X هو إنسان" جوهرية أى فى هذه الحالة كل القيم التى هى أسماء علم. عند تعميم علاقة R- ولتكن علاقة ثنائية - تكون العملية مماثلة فيما عدا أنه يحل المتغير "S"، فالقيم المحتملة للمتغير "S" تقتصر على العلاقة الثنائية نتيجة شرط الجوهرية.

لأسباب سوف تظهر فى الفصل التاسع عشر سوف أسمى منظومة الجمل المتحصل عليها من الأحكام الذرية للإدراك بواسطة العمليات الثلاث للإحلال، التوفيق والتعميم، بالهرمية الذرية للجُمل. وما إذا كانت هذه الهرمية يمكنها تكوين لغة "ملائمة"، أى أن كل بيان بأى لغة يمكن ترجمته إليها يعد سؤالا مهمًا وله شقان: الأول هل نقنع بالجمل الذرية كأساس لهذا البناء؟ والثانى، هل نقنع بالأسماء والخبر والعلاقات الثنائية وغيرها على أنها متغيراتنا الوحيدة أم نحتاج لمتغيرات من طرز أخرى؟

السؤال الأول سنناقشه فى الفصلين التاسع عشر والرابع والعشرين.

السؤال الثانى المتعلق بالتعميم والخاص بحل مشكلة التناقض يجب مناقشته الآن.

(٣)

ينشأ عن التعميم مشكلات أكثر صعوبة من تلك التى تنشأ عن الإحلال أو التوفيق. السؤال الرئيسى الذى يجب مناقشته فى هذا الفصل هو: هل التعميم كما تم تعريفه هنا يكفى للمنطق الرياضى؟ أم هل نحتاج لمتغيرات مخالفة لتلك التى حددها هذا التعريف؟

أولا، يجب ملاحظة أنه إذا كانت "كل جملة من الطراز F(x) تعد صادقة" أو "بعض هذه الجمل يعد صادقًا" لها أى جوهرية فإن مدى القيم التى يمكن أن تكون لـ "X" لابد وأن تكون محدودة.

إذا كان لدينا أى مجال خارجى للقيم مثل الرجال أو الأعداد الطبيعية فيجب أن يقال ذلك. بالتالى فإن جملة "كل البشر فانون" لا يمكن تفسيرها مثل "كل الجمل من الطراز X فانٍ تعد صادقة عندما تكون القيم الممكنة لـ X هى الرجال"، لأن ذلك ليس مشتقا من العلاقة "X فانٍ". الطريق الوحيد لكى تكون "كل الجمل من الطراز " 'F(x)' صحيحة"، هــى أن تكــون مشتقة من العلاقة التى تسمح لـ X بأخذ كل القيم التى فيها "F(x)" جوهرية. فطالما حددنا أنفسنا بأسماء وعلاقات كمتغيرات، فإن قاعدة الإحلال تؤمن ما هو مطلوب لهذا الغرض.

نحتاج فى بداية المنطق الرياضى إلى طراز آخر من المتغيرات وهو المقدمات المتغيرة، حيث نرغب فى إقرار قانون التناقض وقانون الوسط المستبعد، أى "لا مقدمة تكون صادقة وزائفة" و "كل مقدمة إما صادقة وإما زائفة" وهذا يعنى "كل جملة من الطراز ' من الزائف أن P هى صادقة وزائفة معًا' تكون صادقة". هنا شرط الجوهرية يتطلب أن تكون "P" جملة (أو مقدمة) ولا يتطلب أى شرط آخر على "P " .

عمومًا، إذا كانت F(p) دالة مقدمة لمتغير مقدمة P فإن "كل مقدمة من الطراز F(p) صادقة" هى أيضا مقدمة. فهل هى قيمة ممكنة لـ P فى "F(p)"؟ إذا كانت كذلك فإنها متضمنة فى القيم الكلية لـP قيمة تتحدد بمدلول هذه القيمة الكلية. يتبع ذلك أنه مهما كان مجموع المقدمات التى نعطيها كقيمة كلية لـ P فلا بد أننا على خطأ، حيث إن هناك قيمة أخرى لـ P تتحدد بمدلول هذا المجموع وتتغير بتغير المجموع.

الفصل الرابع عشر

اللغة كتعبير

(١)

تخدم اللغة أغراضًا ثلاثة: (١) الإشارة لحقائق (٢) التعبير عن حالة المتكلم (٣) تغيير حالة السامع. هذه الأغراض الثلاثة ليست دائمًا حاضرة. إذا كنت بمفردي ووخزت إصبعي وصحت "آه" فالغرض الثاني هو الواقع. الجمل الآمرة، والتساؤلية، والخاصة بالتمنى تشتمل على الغرضين الثاني والثالث، وليس الأول. الكذب يشتمل على الغرض الثالث، وبدرجة ما على الأول ولكن ليس على الثاني. البيان الندائى عندما يتم فى وحدة منفردة أو دون اعتبار لمستمع يشتمل على الغرض الأول والثانى وليس على الثالث. الألفاظ المفردة قد تشتمل على الأغراض الثلاثة، مثل ما يحدث عندما أجد جثة فى الشارع وأصيح "جريمة". قد تفشل اللغة بالنسبة للغرض الأول والثالث: فالجثة قد تكون لشخص مات ميتة طبيعية، أو قد يكون المستمع متشككا. فبأى مدلول إذن يمكن للغة أن تفشل بالنسبة للغرض الثانى؟ الكذب لا يفشل فى هذا الخصوص حيث إن غرضه ليس التعبير عن حالة المتكلم، ولكن الكذب ينتمى للاستعمال المتدبر للغة، عندما تكون اللغة تلقائية، فلا يمكن أن تكذب ولا أن تفشل فى التعبير عن حالة المتكلم. قد تفشل فى توصيل ما يتم التعبير عنه نتيجة للفروق بين المتكلم والمستمع فى استعمال اللغة، ولكن من وجهة نظر المتكلم فإن الخطاب التلقائى لا بد وأن يعبر عن حالته.

(٢)

تكون اللغة "تلقائية" عندما لا يكون هناك وسيط لفظى بين المنبه الخارجى والكلمة أو الكلمات - على الأقل فهذا تقريب أولى لما أعنيه بكلمة تلقائى. هذا لا يعد تعريفا ملائما لسببين: الأول، أن الوسيط الذى يستبعد لا يحتاج لأن يكون لفظيا، رغم ضرورة أن يشتمل على شيء مشترك مع ما هو لفظى، الثانى، أن المنبه لا يحتاج لأن يكون "خارجيا". النقطة الثانية تبدو الأبسط، فلنناقشها أولاً.

افترض أننى قلت "أنا محتر" وافترض أننى قلت ذلك لأننى أشعر بالحر. المنبه هنا إحساس. افترض أننى قلت "توجد زهرة حمراء"، لأننى رأيت زهرة حمراء. المنبه الآنى هو مرة أخرى إحساس، رغم أننى أعتقد أن الإحساس له مسببات خارجية، فإن لم يكن له ذلك فإن الجملة تكون زائفة.

عندما أقول "أنا محتر" قد لا أتوقع من الآخرين أن يكونوا محترين، مثلا لو كنت أجرى فى يوم بارد. ولكن عندما أقول "هناك زهرة حمراء" أتوقع من الآخرين أن يروها أيضا. إذا لم يفعلوا، سأكون مندهشا مما يظهر أن ما اعتقدت أنهم سيرونه كان جزءًا مما أؤكده. جملة "أرى بقعة حمراء ذات شكل معين" هى بالتالى أبسط منطقيا من "أرى زهرة حمراء"، ولكن "أرى بقعة حمراء" تستوى مع "أنا محتر". فهى أقل تلقائية من "أرى زهرة حمراء" أو "هناك زهرة حمراء". فبدلا من القول بأن المنبه خارجى نقول إنه فى الحديث التلقائى يكون المنبه إحساس.

لا بد من أن نرى طرز الوسائط بين المنبه والكلمات، والتى يجب أن تستبعد عند تعريف الخطاب التلقائى. خذ حالة الكذبة الجاهزة. عندما يسأل المدرس تلميذاً بغضب "من الذى صنع العالم؟" فإنه يجيب دون تردد "أرجوك يا سيدى، لم أكن أنا". أخلاقيا، وإن لم يكن دينيا، تعد هذه كذبة. فى مثل هذه الحالة كان المنبه للكلمات ليس ما تعنيه الكلمات، ولا شيء له علاقة سببية بما تعنيه الكلمات، فالمنبه كان مجرد الرغبة فى إحداث أثر معين فى السامع. يتطلب هذا معرفة أكثر تقدما باللغة عن مجرد

الاستعمال الندائي. عند تعريف الخطاب "التلقائي" لا بد من إعطاء مجال تابع للرغبة في التأثير في السامع. في أحوال معينة قد تحدث كلمات معينة بالنسبة لنا أثراً حتى وإن لم ننطقها، يكون استعمال الكلمات تلقائيا" عندما يكون الموقف المسبب لها يمكن تعريفه دون الرجوع إلى السامع. الخطاب التلقائي يكون كالذي يحدث في عزلة مفردة.

(٣)

فلنقصر اهتمامنا على الخطاب التلقائي والبياني. أود أن أناقش بالنسبة لهذا الطراز من الخطاب، العلاقة بين (١) الحقائق البيانية، (٢) التعبير عن حالة المتكلم.

في بعض الأحيان يبدو أن التمييز بين (١)، و(٢) غير موجود. إذا قلت "أنا محتر" فإن الحقيقة المبينة هي حالة خاصة بذاتي وهي الحالة نفسها التي أعبر عنها. كلمة "محتر" تعني حالة عضوية معينة وهذا الطراز من الحالات يمكن أن يسبب النطق بكلمة "محتر"، في مثل هذه الحالة، سبب الكلمة هو أيضا سبب معنى الكلمة. تظل هذه هي الحالة مع "أنا أرى بقعة حمراء" بعيدا عن تحفظات معينة بالنسبة لكلمتي "أنا أرى". عندما لا يكون هناك تمييز بين (١) ، (٢) فإن مشكلة الصدق أو الزيف لا تنشأ، لأن هذه المشكلة تتعلق بالتمييز بين (١)، (٢).

افترض أنني أقول "أنت محتر" وافترض أنني أعتقد فيما أقول. في هذه الحالة، أنا "أعبر" عن حالتي وأشير إلى حالتك. هنا يدخل الصدق والزيف، لأنك قد تكون تشعر بالبرد أو ربما أنت غير موجود. جملة "أنت محتر" هي بمدلول ما جوهرية إذا كانت تستطيع أن تعبر عن حالة لي، وبمدلول آخر تكون "جوهرية" إذا كانت صادقة أو زائفة. ما إذا كانت تلك مدلولات مختلفة أم لا للجوهرية لا يمكن تقريره إلى أن نعرِّف "صادق" و "زائف". حاليا، سوف أقتصر على التعريف الأول: سوف أعتبر الجملة "جوهرية" إذا كانت تعبِّر بالفعل عن حالة خاصة بذاتي، ومن هذه النقطة المبدئية سوف أحاول الوصول إلى تعريف أوسع.

ما الذى يحدث بى عندما يعبر عن حالتى بالكلمات "أنت محتر"؟ لا إجابة محددة على هذا السؤال. قد أتخيل إحساسًا بالحرارة مع إحساس بلمسك، قد أكون متوقعًا منك أن تقول "أنا محتر" قد أرى حبات من العرق على وجهك وأستنتج ذلك. كل ما يمكن قوله بالتأكيد هو أن حادثات ممكنة معينة سوف تدهشنى فى حين أن حادثات أخرى ستعطينى إحساسًا بالتأييد.

(٤)

بيان "أعتقد أنك محتر" تعبر عن حالة مختلفة عن تلك التى يعبر عنها "أنت محتر"، فما تشير إليه هى حقيقة تشير إليها "أنت محتر". السؤال الذى ينجم: هل بيان "أعتقد أنك محتر" عندما يحل محله بيان مكافئ يشير فقط إلى ذاتى وليس إلى شخص آخر؟

أميل للاعتقاد بأن هذا البيان قد يكون ممكنا، ولكنه سيكون شديد الطول ومعقداً. من المعتاد وصف "حالة العقل" بكلمات لها مرجعية خارجية: نحن نقول إننا نفكر فى هذا أو ذاك، نرغب فى هذا أو ذاك.. وهكذا. ليس لدينا مفردات لوصف الذى يحدث بالفعل فينا عندما نفكر أو نرغب ما عدا وضع الكلمات بين قوسين. قد يقال إننى عندما أفكر فى قط، أفكر كـ "قط"، ولكن ذلك غير ملائم وليس بالضرورة صادقًا. التفكير "فى" قط هو أن تكون فى حالة مرتبطة بشكل ما بمدرك قط، ولكن العلاقات المحتملة عديدة. ينطبق الشىء نفسه بدرجة أقوى على الاعتقاد. لدينا بالتالى صعوبتان: الأولى أن الحادثات التى يمكن وصفها كتصديق لمقدمة ما شديدة التعدد، ومن ناحية أخرى أننا نحتاج لمفردات جديدة إذا أردنا وصف هذه الحادثات بطريقة مخالفة لنسبتها إلى أشياء.

كلمة "اعتقاد" وحدها يجب أن يحل محلها كلمات عديدة. أولا، إدراك، وذاكرة، وتوقع. تأتى بعد ذلك الاستنباطات المعتادة من الطراز الذى اعتبره هيوم متعلقًا بالسببية. تأتى أخيراً الاستنباطات المقصودة مثل التى يحظرها المنطقيون. من الضرورى التفرقة بينها فى هذا النقاش لأنها تنتج حالات مختلفة للمعتقد.

(٥)

افترض أننى ديكتاتور وأنه فى الساعة الخامسة مساء يوم ٢٢ أكتوبر حاول شخص أن يطعننى بخنجر. نتيجة تقارير البوليس السرى اعتقدت أن هذا سوف يحدث، هذا يعد استنتاجا منطقياً وقد يكون أيضا اعتقادا نتج عن العادة الاستنباطية. عند الساعة الرابعة وتسع وخمسين دقيقة رأيت عدوا معروفا يخرج خنجرا من جرابه، عند تلك اللحظة توقعت الاعتداء. الاستنتاج بالنسبة للمستقبل الآنى يكون الآن ليس منطقيا وإنما معتاداً. بعد لحظة اندفع القاتل للأمام واخترق النصل معطفى ولكن أوقفه القميص المدرع الذى أرتديه فوق الجلد مباشرة. عند هذه اللحظة، يكون اعتقادى مجرد إدراك. بعد ذلك، يتم قطع رأس المجرم وتكون عندى خبرة "عاطفة أتذكرها بطمأنينة" واعتقادى أصبح ذكرى. من الواضح أن حالتى جسدى وعقلى اختلفتا فى تلك الظروف الأربعة، رغم أن ما اعتقدته كان هو نفسه عبر كل الأحداث بحيث يمكن الإشارة إليه بالكلمات نفسها، أى "أنا أعتقد أنه فى الساعة الخامسة مساء يوم ٢٢ أكتوبر جرت محاولة لطعنى بخنجر".

ربما كان مناسبا استبعاد الإدراك من صور الاعتقاد. لقد ضمنته فيما سبق من أجل التسلسل، ولكنى عموماً أستبعده. مشكلتنا هى كالتالى: هناك عدد من حالات العقل والجسد، كل واحدة من هذه الحالات عندما تحدث، تجعل من الصدق القول "أعتقد أنك محتر". قد نؤكد أن كل واحدة من هذه الحالات يمكن وصفها بدقة كافية عن طريق علماء السيكولوجى أو الفسيولوجى. بافتراض أن ذلك تم فعله لكل تلك الحالات، فهل سيتمكن السيكوفيزيائيون من معرفة أنها حالة تصديق لك فى أنك محتر؟ هل سيكونون قادرين على اكتشاف أى شىء مشترك بين الحالات ما عدا علاقاتها بك وبالاحترار؟

أعتقد أنه من الناحية النظرية، الإجابة على السؤالين بالإيجاب. المشكلة فى جوهرها هى اكتشاف أن "محترا" تعنى محترا والتى يحلها معظم الأطفال عند عمر ١٨ شهراً. إذا كنت فى أية حالة يمكن أن توصف على أنها الاعتقاد أنك محتر، وأنك قلت

"هل تعتقد أننى محتر؟" فسوف أجيبك بأننى أعتقد ذلك. هذه خاصية تجريبية سببية للاعتقاد تعد كافية ومرضية كغيرها من الاختبارات الكيماوية.

(٦)

أحد أغراض هذه المناقشة هو تحديد ما إذا كانت جملة " A يصدق P " هى دالة لـP، إذا حلت الجملة S محل المقدمة P. فى المنطق اعتدنا التفكير فى مقدمة أو جملة قادرة على الصدق أو الزيف. يمكننا على الأقل الآن، إهمال المقدمات والتركيز على الجمل. النقطة المهمة تكنيكيا هى أننا مهتمون بالجدل الخاص بدوال الصدق. إذا كانت "S" و"t" جملتين فإن "S أو t" هى جملة ثالثة يعتمد صدقها أو زيفها على صدق أو زيف S وt. فى المنطق، الجمل (أو المقدمات) تعامل تكنيكيا كما لو كانت "أشياء" ولكن النطق بالجملة هو مجرد سلسلة من الأصوات ليس لها أهمية أكبر من العطس أو الكحة. الذى يجعل الجملة مثيرة للاهتمام هو جوهريتها، أو لكى نكون أكثر تحديدا، قدرتها على التعبير عن اعتقاد والإشارة إلى حقيقة (أو الفشل فى ذلك). فهل تكتسب الأخير عبر الأول، والأول عبر معانى كلماته والتى هى مسببات للأصوات المكتسبة عبر ميكانيكية الانعكاس المشروط.

العلاقة بين البيان والحقيقة التى تجعلها صادقة أو زائفة هى علاقة غير مباشرة وتنفذ عبر المعتقد الذى تعبر عنه الجملة. المعتقد أساساً هو الذى يكون صادقًا أو زائفًا. عندما نقول إن "S أو t" هى جملة، لا بد وأن نعطى دلالة لبياننا بالبحث فى المعتقد الذى تعبر عنه الجملة "S أو t". يبدو لى أن شخصًا أو حيوانًا قد يكون له اعتقاد يعبر عنه بصورة صحيحة بالجملة "S أو t"، ولكن يمكن للسيكو-فسيولوجى أن يصفه دون استخدام كلمة "أو". فلنبحث هذا الموضوع متذكرين أن ما قيل عن "أو" ينطبق على غيرها من الكلمات المنطقية.

(٧)

يوجد فرق بين كلمة "أو" وكلمات مثل "حار" و "قط" الكلمات الأخيرة نحتاجها للإشارة وللتعبير، بينما كلمة "أو" نحتاجها للتعبير فقط، نحتاجها للتعبير عن "التردد" والذى يمكن أن نلاحظه فى الحيوانات، ولكن لا يوجد تعبير لفظى فى الحيوانات، ولكن فى سعى الإنسان للتعبير عن التردد اخترع كلمة "أو".

يعرف رجل المنطق "P أوq " بواسطة فكرة الصدق، وبالتالى يكون قادراً على تقصير الطريق عبر الاعتقاد الذى تعبر عنه "P أوq " بالنسبة لغرضنا، هذا التقصير غير متاح، فنحن بحاجة لمعرفة ما هى الحادثات التى تجعل كلمة "أو" مفيدة. تلك الحادثات لا يمكن تتبعها فى الحقائق التى تفند المعتقدات، والتى ليس لها خاصية العطف وإنما هى كما هى. الحادثات التى تتطلب كلمة "أو" ذاتية وهى الترددات. فللتعبير عن تردد بكلمات نحتاج "أو".

التردد هو تناقض بين دافعين حركيين ويمكن أن يلاحظ فى طائر يتجه بخوف نحو فتات فى نافذة أو نلاحظه فى رجل يفكر فى قفزة خطيرة عبر خندق لكى يهرب من حيوان مفترس. الصورة الفكرية للتردد والتى يعبر عنها بالعطف هى تطور من تردد حركى بحت. كل من الدافعين الحركيين، إذا وجدا مفردين، هما معتقدان ويمكن التعبير عنهما فى تأكيد. طالما أنهما يوجدان، فلا تأكيد يكون ممكنا ما عدا العطف "هذا أو ذاك". افترض مثلا أنك ترى طائرة. فى الظروف العادية سوف تقنع بالملاحظة "هناك طائرة" لكن لو كنت مسئولا عن مدفع مضاد للطائرات فإن العمل المطلوب سوف يختلف وفقا لطراز الطائرة. سوف تقول، إذا كنت فى شك، "تلك الطائرة إما إنجليزية وإما ألمانية". سوف توقف عندئذ كل عمل ما عدا الملاحظة إلى أن تقرر الأمر. الحياة الفكرية تهتم أساسًا بالدوافع الحركية الموقوفة. انظر إلى صغير يستعد للامتحانات ستجد أن نشاطه محكوم بالعطف: "سوف أسأل A أوB أوC......." وينطلق فى اكتساب عادات حركية مناسبة لكل من هذه البدائل ويضعها فى حالة إيقاف حتى لحظة أن يعرف أى منها يطلقه. تردده شبيه تماما بذلك الخاص بالرجل الذى لديه

مدفع مضاد للطائرات. ففى كلتا الحالتين تكون حالة العقل والجسد للمتشكك يمكن تشخيصها بوصف الدوافع الحركية وتناقضها مع عدم استعمال كلمة "أو". التناقض بالطبع يمكن وصفه بمدلولات سيكو - فسيولوجية وليست منطقية.

تنطبق اعتبارات مماثلة على كلمة "ليس". تصور فأرًا شاهد غيره من الفئران يقع فى المصائد المحتوية على الجبن كطعم. هو يرى المصيدة ويجد رائحة الجبن جذابة ولكن ذاكرة المصير السيء لأصدقائه تمنع دوافعه الحركية. هو لا يستعمل الكلمات ولكننا نستطيع استعمال كلمات للتعبير عن حالته، والكلمات هى "هذا الجبن ليس للأكل". فى وقت ما كنت أربى الحمام ووجدت أنه نموذج للفضيلة الجنسية. ولكنى فى إحدى المرات أدخلت عليه حمامة جديدة تشبه تماما إحدى الحمامات السابقة المتزوجة. أخطأ الزوج معتقداً الحمامة الجديدة أنها زوجته وبدأ الالتفاف حولها. فجأة اكتشف خطأه وبدا محرجًا كرجل فى مثل موقفه. حالته العقلية من الممكن أنها تعبر عنها الكلمات "هذه ليست زوجتى". الدوافع الحركية المرتبطة بالاعتقاد أنها زوجته تم كبحها فجأة. التضاد يعبر عن حالة للعقل توجد فيها دوافع معينة ولكنها مكبوتة.

(٨)

عمومًا، اللغة من الطراز الذى يسميه المنطقيون "تأكيداً" لها وظيفتان: الإشارة إلى حقيقة ، والتعبير عن حالة المتكلم. لو صحت "حريق" فإننى أشير إلى نار وأعبر عن حالة لجهازى الإدراكى. كل من الحقيقة المشار إليها والحالة المعبر عنها هما بصفة عامة غير لفظيين. الكلمات من طرازين: تلك الضرورية للإشارة إلى حقائق، وتلك الضرورية فقط للتعبير عن حالات للمتكلم. والكلمات المنطقية هى من الطراز الأخير.

قضية الصدق والزيف لها علاقة بما تشير إليه الكلمات والجمل، وليس بما تعبر عنه. هذا على الأقل ما يأمل فيه المرء. ولكن ماذا عن الكذب؟ يبدو أنه حين يكذب المرء، يكون الزيف فى التعبير. الكذبة تظل كذبة إذا حدث أن كانت موضوعيا صادقة وكان

المتكلم يعتقد أنها زائفة، وماذا عن مجرد الأخطاء؟ يقول التحليل النفسى إن معتقداتنا ليست كما نعتقد، وبالتأكيد هذا هو الحال أحيانا . ولكن يبدو أن هناك معنى تكون فرصة الخطأ فيه أقل فيما يتعلق بالتعبير عن ما هو متعلق بالإشارة.

يكمن الحل فى الخطاب "التلقائى" الذى ناقشناه فى هذا الفصل. عندما يكون الخطاب تلقائيا فلا بد وأنه يعبر عن حالة المتكلم العقلية. هذا البيان، عند تفسيره تفسيرا صحيحًا، هو مجرد لغو. فأى معتقد معين، يمكن أن تعبر عنه حالات عديدة للكائن، إحدى هذه الحالات هى النطق تلقائيا بكلمات معينة. هذه الحالة، أسهل فى الملاحظة عن تلك التى لا تشتمل على سلوك ظاهر. ويؤخذ كتعريف لاعتقاد معين بينما هو فى الحقيقة اختبار تجريبى.

كانت النتيجة نظرية لفظية غير ملائمة للصدق والزيف، وللكلمات المنطقية عموما. ما أقصده بغير ملاءمة هو عدم ملاءمتها من ناحية نظرية المعرفة، لأن المنطق، القبول التقليدى للمقدمات والتعريف للعطف بواسطة قيم الصدق هى أمور مناسبة ومبررة تكنيكيا فيما عدا العلاقة بعدد من المشكلات الدقيقة مثل التوسع والذرية. هذه المشكلات لأنها تنجم من علاقتها بالسلوكيات التقديمية (الاعتقاد، إلخ) يمكن التعامل معها بنظرية المعرفة.

* * *



الفصل الخامس عشر

ما تدل عليه الجُمل

(١)

عند اعتبار أن "الصدق" و "الزيف" ينطبقان على الجمل، يوجد وفقًا لنظرية المعرفة طرازان من الجمل:

١ – تلك التى يمكن استنباط صدقها أو زيفها من علاقاتها النحوية بغيرها من الجمل.

٢ – تلك التى يشتق صدقها أو زيفها من العلاقة بشىء يمكن أن يسمى "حقيقة".

الجمل الجزئية والعامة يمكن اعتبارها من الطراز الأول، وما إذا كان هذا يعد صحيحًا، فسوف أناقشه فى الفصل الحالى. المشكلات التى نهتم بها حاليا تنشأ فقط بالنسبة للجمل التى من الطراز الثانى، حيث إذا عرفنا الصدق والزيف لهذه الجمل فإن المشكلات التى تتبقى تنتمى إلى النحو أو المنطق، وهما ليسا من أهدافنا. فلنحصر أنفسنا إذن فى الجمل ذات الدلالة، من الطراز الذرى، ونسأل أنفسنا ما إذا كان باستطاعتنا تكوين تعريف لكلمتى "صادق" و "زائف" لهذه الجمل.

وافقنا فى فصل سابق على أن الجمل ذات الدلالة "تعبِّر" عن حالة المتكلم و "تدل" على حقيقة أو تفشل فى ذلك.

مشكلة الصدق والزيف لها علاقة بالدلالة، فيبدو أن الصدق والزيف ينطبقان أساسًا على المعتقدات، وباشتقاق فقط على الجمل التى "تعبر" عن معتقدات.

التمييز بين ما يعبر عنه وما يُدلل عليه لا يوجد عادة- فمثلا إذا قلت "أنا محتر" فإن ما يعبر عنه ذلك هو دائما حالة حاضرة للمتكلم وما تدلل عليه قد يكون تلك الحالة ولكنه عادة ليس كذلك. ما تعبر عنه وما تدلل عليه يمكن أن يتماثلا فقط عندما يكون ما تدلل عليه هو الحالة الحاضرة للمتكلم. فى هذه الحالة إذا كان ما يقال "تلقائيا" فلن تنشأ مشكلة الزيف. يمكننا بالتالى القول: الجملة التلقائية التى تدلل على ما يُعبر عنه "صادقة" بالتعريف.

(٢)

افترض أننى أشير إلى شىء مرئى وأقول "هذا كلب"، الكلب ليس حالة خاصة بى وبالتالى يوجد فرق بين ما أدلل عليه وما أعبر عنه. (جملة "ما أدلل عليه" مفتوحة للاعتراض، حيث إنه فى حالة الزيف قد لا أدلل على شىء). ما أعبر عنه يمكن استنتاجه مما قد يدهشنى. إذا كان الشكل الذى أراه يختفى فجأة دون احتمال احتجابه بواسطة شىء آخر، فسوف أكون مندهشاً. إذا قلت لى: كل الأبواب والنوافذ مغلقة، ولا توجد أماكن للاختباء فى الغرفة وأنا واثق أنه منذ لحظة مضت لم يكن هنا كلب، فسوف أستنتج، إذا كنت أقرأ قصة فاوست، أن ما رأيته لم يكن كلبا بل مستوفليس. إذا كان الشىء الذى ألاحظه يبدو فجأة كحشرة، فسوف أستنتج أنه قد سحرته ساحرة شريرة. مثل تلك الحادثات، بلا شك، هى غير عادية ولكنها ليست مستحيلة منطقيا.

عندما أقول "هذا كلب" فإن توقعات افتراضية معينة تكون جزءاً من الحالة التى أعبر عنها، أتوقع، إذا لاحظت، أننى سوف أستمر فى رؤية شىء مثل الشكل الذى قاد إلى ملاحظتى، أتوقع أننى إذا سألت شخصاً متواجداً بالصدفة وينظر إلى الاتجاه نفسه أنه سوف يقول إنه أيضا رأى كلباً؟ وأننى أتوقع إذا بدأ الشكل فى إصدار صوت أن ينبح. كل من هذه التوقعات، ولأنها حالات خاصة بى، يمكن التعبير عنها والدلالة عليها بجملة واحدة. افترض، لكى نكون محددين، أننى بالفعل وليس افتراضاً،

أتوقع نباحًا، فإننى أكون فى حالة "استماع" وربما نتجت عندى صورة صوتية للنباح أو كلمة "ينبح" رغم أن ذلك قد لا يكون موجوداً. لدينا هنا الفجوة الصغيرة نفسها بين التعبير والتدليل، إذا قلت "بعد لحظة سوف أسمع نباحًا" فإننى أعبر عن توقعى الحالى وأدلل على إحساسى المستقبلى. فى هذه الحالة، هناك احتمال للخطأ: الإحساس المستقبلى قد لا يحدث. الأخطاء المعروفة هى دائما من هذا الطراز، والطريقة الوحيدة لاكتشافها هى خبرة الاندهاش نتيجة التوقعات الفاشلة.

(٣)

لا يزال هناك صعوبة. فأنا لدىَّ فى كل لحظة عدد كبير من التوقعات، كل منها، إذا فشل، يؤدى إلى الدهشة. لكى أعرف ما هى التوقعات التى تعد زائفة، لا بد من أن أكون قادرًا على إرجاع دهشتى إلى التوقع السليم. فحين أتوقع أن ينبح الكلب، فسوف يدهشنى أن أرى فيلا يسير فى الشارع، وهذه الدهشة لا تثبت أننى كنت على خطأ حين توقعت أن ينبح الكلب. حين نقول إننا مندهشون من شىء فإننا لا نعنى مجرد الدهشة، وإنما الدهشة المتعلقة بمدرك معين. لا يكفى هذا لمعرفة ما إذا كانت توقعاتنا السابقة خاطئة، فلا بد وأن يكون بمقدورنا إرجاع مدركنا الحالى إلى توقعاتنا السابقة، وأن نفعل ذلك بطريقة سلبية. التوقعات تجعلنا نقول "الكلب سوف ينبح" والإدراك يجعلنا نقول "الكلب لا ينبح" والذاكرة تجعلنا نقول "توقعت أن ينبح الكلب"، أو نتوقع ألا ينبح الكلب، ونندهش إذا فعل: ولكنى لا أعرف كيف أبسِّط حالة من الخطأ المعروف لا يمكن التعامل معها إلا بالتوافق بين التوقع والإدراك والذاكرة، والتى يجب أن يكون فيها التوقع والإدراك سالبين. العاطفة المضادة للدهشة يمكن أن تسمى تأكيداً، وينتج عندما يحدث ما هو متوقع.

يمكن عمل التعريفات التالية: التوقع بالنسبة لخبرة تخصنى يكون صادقًا إذا أدى إلى تأكيد، ويكون زائفًا إذا أدى إلى دهشة. كلمة"أدَّى إلى" هنا هى اختصار للعمليات التى تم وصفها سابقا.

السؤال الذى يجب الإجابة عليه هو كيف أفكر فى أشياء لا يمكننى أن أخبرها؟ معظم الفلاسفة لا يرغبون فى مواجهة هذا السؤال. الفعليون يفشلون فى إدراك أن معظم المعرفة التى يقبلونها على علاتها تفترض أحداثا ليس لنا خبرة بها. غير الفعليين يصرون على أننا لا نخبر أحداثًا منفصلة، وإنما الواقع ككل، ويفشلون رغم ذلك فى تفسير كيف نميز (مثلا) بين قراءة الشعر وبين أن تخلع إحدى الأسنان.

على سبيل المثال، افترض أنه فى يوم سبت رائق، خرجت لقضاء اليوم مع أسرتى بكاملها، وتركت البيت خاليا. عندما عدت فى المساء وجدت البيت قد احترق، وأخبرنى الجيران أن النار قد لوحظت عندما كان من غير الممكن إطفاؤها. مهما كانت فلسفتى، فسوف أعتقد أن النار قد بدأت بصورة صغيرة، كما تحدث الحرائق، وبالتالى ظلت لبعض الوقت قبل أن يتمكن أحد من ملاحظتها. هذا، بالطبع، استنتاج ولكننى عظيم الثقة فيه. السؤال الذى أود طرحه حاليا ليس "هل الاستنتاج مبرر؟" وإنما "بافتراض أن الاستنتاج مبرر، كيف أفسره إذن؟" إذا أصررت على تجنب أى شىء لم أخبره، فهناك عدة أشياء يمكننى قولها. أستطيع القول، مثل بيركلى، إن I& قد رأى بداية الحريق. قد أقول إن بيتى، لسوء الحظ، مليء بالنمل والنمل رأى بداية الحريق. أو قد أقول إن الحريق إلى أن تمت رؤيته، كان مجرد فرض رمزى. الفرض الأول يجب رفضه لأن مثل هذه الاستخدامات لكلمة "I&" أصبحت ضد قواعد اللعبة. الفرض الثانى مرفوض لأن وجود النمل أمر خرافى، وكان يمكن للنار أن تحرق البيت دون وجوده. يبقى الفرض الثالث، الذى يجب أن نجعله أكثر دقة.

(٤)

قد نضع النظرية على النحو التالى: فلنعتبر الفيزياء أولا وفقًا لنظريتها الفرضية المعتادة بأن الظواهر الفيزيائية لا تعتمد فى وجودها على أنها تشاهد، ولننظر إلى الفسيولوجى بحيث يمكننا أن نقول ما هى الظروف الفيزيائية التى تحتها يمكن مشاهدة الظواهر الفيزيائية. ولنقل: معادلات الفيزياء يجب اعتبارها تربط الظواهر

الفيزيائية والخطوات التالية يجب اعتبارها تتعامل فقط مع دوال رياضية. العملية المقترحة شبيهة بالعمليات الحسابية التى تبدأ وتنتهى بأعداد حقيقية ولكنها تستخدم أعدادًا معقدة خلال عملية الجدل.

قد يمكن لهذه النظرية أن تتسع أكثر: فقد أستبعد ليس فقط الأحداث التى لا يشاهدها أحد، وإنما الأحداث التى لا أشاهدها أنا.. ولتبسيط النظرية، افترض أن الظواهر التى يمكن مشاهدتها هى التى تحدث فى مخى. سوف نعرِّف منطقة المكان-الزمان التى يحتلها مخى ونقول إنه من كل الأحداث المفترضة رمزيا فى فيزيائنا، فإن تلك التى إحداثياتها المكانية-الزمانية الموجودة فى مخى هى فقط التى يجب أن تعتبر حقيقية. ولكن ما الذى أعنيه بهذه النظرية الفرضية؟

هناك شىء واحد يمكن أن أعنيه وهو: أن المدلولات الرياضية للأحداث الفيزيائية هى وصف، وهذا الوصف يجب اعتباره فارغًا فيما عدا حالات معينة والسبب فى عدم اعتباره فارغا فى هذه الحالات لا بد أن يكون هو أننى لدىَّ سبب لمعرفة الأحداث الموصوفة فى تلك الحالات. فالأحداث التى يتوافر لدى أسباب للاعتقاد فيها هى تلك التى أدركها أو أتذكرها.

من الواضح أن الافتراضين اللذين لهما التوابع نفسها فيما يتعلق بما أدركه وأتذكره هما من الناحية البراجماتية والفعلية لا يمكن تمييزهما عن بعضهما. مسار حياتى سوف يكون هو نفسه أيا ما كان منهما صادقًا ومن المستحيل تحليليا أن تكون خبرتى قد أعطتنى سببا لتفضيل أحدهما على الآخر. يتبع ذلك أنه إذا كانت المعرفة تتحدد براجماتيا أو بمدلول الخبرة، فإن النظريتين الفرضيتين لا يمكن تفرقتهما. فإذا كان من الممكن منطقيا التمييز بين النظريتين، فلا بد وأن هناك خطأً ما فى الفعلية. النقطة المهمة بالنسبة لهذه النتيجة هى أنها تتطلب منا فقط أن نكون قادرين على التفرقة بين النظريتين الفرضيتين، لا أن نعرف أيهما صادق. يعيدنا هذا إلى السؤال: كيف لى أن أفكر فى أشياء لا يمكننى أن أخبرها؟

خذ البيان: "الصوت يرجع إلى موجات فى الهواء". ما هو المعنى الذى يمكن أن يكون لهذا البيان؟ هل يعنى فقط: "إذا افترضت أن الصوت يرجع إلى موجات فى الهواء فسيكون باستطاعتى تكوين نظرية تربط الأصوات التى أسمعها بالخبرات الأخرى"؟ أو أن هناك أحداثا فى الهواء لا أستطيع أن أخبرها؟

يفترض المنطق أننى إذا كنت أفهم بيانا "Q a" فباستطاعتى فهم البيان "هناك X بحيث إن Q X ". بافتراض ذلك، فبالنسبة لبيانين مفهومين Q a ، Y a يمكننى فهم "هناك X بحيث إن Q X ، Y X "، ولكن قد يحدث أن Q X ، Y X ليسا مرتبطين وبالتالى ففى فهم "هناك X بحيث أن Q X ، Y X" أفهم شيئا خارج خبرتى، فإذا كان عندى سبب لتصديقه سيكون لدى سبب للاعتقاد فى أشياء لا أخبرها. الأول هو حالة الحصان المقرن والأخير هو حالات ما قبل مولدى وما بعد موتى.

(٥)

فلنأخذ مثالا بسيطا مثل "غرفة مكتبى موجودة عندما لا يوجد أحد بها". الساذج يفسر ذلك بأن: "ما أراه عندما أكون بغرفة مكتب يوجد عندما لا أراها". لتجنب كلمة يوجد نستطيع ترجمة ذلك إلى: "هناك أحداث فى خبرتى متزامنة مع ما أراه عندما أكون بغرفة مكتبى، وليس مع رؤيتى لها". يشتمل هذا على الفصل بين "رؤية" و "ما أراه"، ويشتمل أيضا على النظرية الفرضية وأن ما أراه مستقل سببيا عن رؤيتى. القليل من المعرفة بفيزياء الضوء وفسيولوجيا الرؤية يكفى لدحض النظرية الثانية من النظريتين وبالنسبة للنظرية الأولى من الصعب إيجاد أسبابٍ قوية لها.

افترض أننا نقول: الإحساس باللون الأحمر له مسبب، والإحساس باللون الأخضر له مسبب آخر. عند محاولتنا المرور من الفيزياء إلى الإحساس نعطى إسنادًا افتراضيا لأمور افتراضية. استنتاجنا من الإحساس يعتمد على قاعدة من الطراز: "هناك خاصية Ø بحيث إننى عندما أرى اللون الأحمر يوجد شىء له الخاصية Ø".

ولكن ذلك ليس كافيا. لكى نكون أكثر دقة، فلتكن "الخاصية Ø لها الخاصية f 'تعنى' Ø هو درجة لون".

أقول إن هناك متلازما S بين أعضاء f وأعداد الدوال الأخرى F، بحيث إذا كانت Ø فى مجال نظرى لها الخاصية f وكانت a لها الخاصية Ø وإذا كانت Ø هى الجدل الخاص بـ F ومتلازمة مع Ø فإنه توجد X بحيث تكون ψ لها الخاصية F وتكون S متغيرات.

فلنوضح الأمر بطريقة مختلفة. لنعرِّف درجة اللون على أنها كل الأماكن المرئية التى لها تماثل لونى مع مكان مرئى معين ومع بعضها البعض. وبالتالى فظل لون معين هو قسم، والألوان هى أقسام للأقسام، ولتكن K. نفترض متلازما S بين أحداث فيزيائية (موجات ضوء بترددات مناسبة) ولون معين. أرى بقعة لونها a وآخذ ذلك كدليل لوجود قسم يتلازم فيه S مع a وأرمز له بالرمز " S_a^e ". أى أننى أفترض أنه أينما حدث العضو a، فإن عضوا هو S_a^e يحدث عند اللحظة نفسها. هذا الفرض هو:

"إذا كانت K قسم من درجات لون (كل درجة تتحدد على أنها كل البقع التى من هذه الدرجة)، فسوف توجد علاقة S بواحد – لواحد، معكوس مجالها a، وعضو من قسم فيه S تتلازم مع a".

أو لوضع الفرض فى كلمات أخرى:

"توجد علاقة واحد – لواحد S تمثل ارتباط أقسام من الأحداث المادية التى لها درجات لون بحيث إنه إذا كانت a درجة لون فأينما وجدت بقعة لون، يحدث حدث فيزيائى فى القسم المتلازم مع a عند اللحظة نفسها تقريبا".

(٦)

النظرية الفرضية السابقة هى مجرد جزء مما يجب افتراضه، إذا كنا سنصدق أن القطط والكلاب توجد عندما لا نكون نراها. فسواء أكانت مقبولة أم لا، فهذه

النظرية الفرضية قابلة للفهم لأنها تشتمل على متغيرات معروفة فعليا وتعطى إجابة على السؤال الذى بدأت به المناقشة وهو: "كيف لى أن أفكر فى أشياء لا أستطيع أن أخبرها؟"

يجب تذكر أننا قمنا بصياغة هذا السؤال فى البداية بطريقة مختلفة وهى: "ما الذى يوجد بجانب التعبير المقابل للدلالة عن شىء خارج خبرتى؟" يبدو الآن أنه إذا كانت الجملة "هناك كلب" تفسر بالواقعية الساذجة ستكون زائفة، بينما إذا فسرت بطريقة قد تكون صادقة فإن الكلب سيكون قد تحول إلى متغير وليس جزءًا مما أعبر عنه. فلنعد إلى الفرض السابق. هنا قد نقول إن X تدلل عليه a وإن a هى بقعة من اللون نراها عندما "نرى كلبًا" بينما X قد تنتمى إلى الكلب نفسه. يمكن إذن القول إنه عندما أقول "أنا أرى كلبا" فأنا أعبر عن a وأدلل على X. ولكن X هو مجرد متغير ولا يتم التعبير عنه مطلقا. الحالة مشابهة لتلك التى فيها نرغب فى استعمال أسماء أعلام ولكننا مضطرون لاستخدام أوصاف.

قد نقول: عندما أكون فى حالة تصديق، فإن التصديق الذى يبدو أنه يشير إلى شىء آخر، لا يفعل ذلك حقيقة وإنما عن طريق استخدام متغيرات. أبسط حال: إذا كنت أتوقع انفجارًا، فإن التعبير اللفظى لاعتقادى هو "سوف تحدث ضوضاء". هنا "الضوضاء" عبارة عن متغير. كذلك إذا كنت أتذكر حادثًا بواسطة صور ذاكرة، فإن التعبير اللفظى لاعتقادى الخاص بالذاكرة هو "كان هناك شىء مثل هذا" حيث "هذا" هى صورة الذاكرة و "شىء" هو المتغير.

نصل بذلك إلى النتائج التالية: عندما لا يشتمل التعبير اللفظى لاعتقادى على متغير، فإن ما يتم التعبير عنه وما يتم التدليل عليه متطابقان، أما إذا اشتمل على جملة "موجود"، مثل "هناك X بحيث ØX"، فإن هذا يعد تعبيرا عن الاعتقاد، ولكن التدليل هو ما يفند المقدمة "Øa" والذى بفضلها "توجد X بحيث ØX" تكون صادقة، أو أنها هى التى تفند "Øa" إذا استطعنا تأكيد "Øa". نحن لا نستطيع تأكيد ذلك، لأن a تقع خارج تعبيرنا و"a" ليست واحدة من أسماء مفرداتنا. يشتمل كل ذلك على الفرض بأن "يوجد

X بحيث ØX " يمكن معرفتها عندما لا تعرف مقدمة من الطراز "Øa" مثل "هذا الكلب سرق فخذ اللحم عندما لم أكن أنظر".

(٧)

تلخيصا لما سبق: تكون الجملة دلالية عندما "تعبر عن" معتقد وهى واحدة من عدد غير محدد من الأفعال التى يمكن عن طريقها التعبير عن معتقد. إذا لم تشتمل الجملة على متغير فلا بد وأنها توضح فقط أشياء موجودة للمعتقد الآن، وفى هذه الحالة باستطاعتها أن يكون لها علاقة سببية معينة بالأشياء التى جعلتها، كما أسميناها "جملة تصف خبرة". فإذا كان لها هذه العلاقة، فالجملة (أو المعتقد الذى تعبر عنه) تسمى "صادقة"، فإذا لم تكن لها هذه العلاقة سميت زائفة. فى هذه الحالة، ما تعبر عنه الجملة وما تدلل عليه يتطابقان ما لم تكن الجملة زائفة فلا تدلل على شىء.

عندما تتجاوز الجملة الخبرة الحالية فلا بد وأن تشتمل على متغير. فإذا التزمنا بالحس المشترك فسنقول إننى عندما أُخبَرُ مدركا a توجد علاقة واحد-لواحدS بين بعض "الشىء" وa ؛ و "الشىء" هو ما يجب أن أكون قد أدركته.

ما يفند المعتقد يجب إيضاحه. المُعتَقَد عندما يكون بسيطا بدرجة كافية له علاقات سببية بحادثة معينة أخرى، تلك الحادثة تسمى "مفسراً للمعتقد" أو مفسراً لأى جملة تعبر عن المعتقد. بعض العلاقات السببية تجعل المعتقد صادقًا وبعضها الآخر يجعله زائفا. ولكن عندما يشير المعتقد إلى أمور خارج خبرتى فستوجد بعض التعقيدات. فلنعد إلى مثالنا "أنت محترم"، فقد تؤخذ على أنها تعنى "يوجد احترار على علاقة بإدراكى لجسمك كما لو كنت أنا محترا، واحتراری على علاقة بإدراكى لجسمى". عندما أكون محترا يمكننى أن أعطى اسم علم لاحترارى وعندما تكون أنت محترا فإن احترارك بالنسبة لى هو قيمة افتراضية لمتغير. هنا توجد مرحلتان. افترض أننى أقدم مدركى لجسمى بـ a ومدركى لجسمك بـ b واحترارى بـ h والعلاقة التى أدركها بين a،

h بالرمز H، إذن "أنت محتر" فى "هناك ´h بحيث ´bHh " . كيف عرفنا كل ذلك؟ إذا عرفناه لا أبحثه، ولكنى أفترض أننى أستطيع معرفة أنك محتر وأن أسأل ما هو أبسط سبب لهذه المعرفة بافتراض أنها موجودة.

نقول الآن، إنه فى أبسط الحالات ما هو مدلل عليه بجملة هو مفسرها عندما تكون الجملة صادقة وليس عندما تكون زائفة.

فى حالة جملة "أنت محتر" أستطيع إذا كانت مفرداتى كافية صياغة جملة لا تشتمل على متغير، ويمكن تفسيرها بالحدث نفسه الذى يفسر جملتى، ولكن الحقيقة الفعلية هى عدم توافر أسماء علم كافية لهذا الغرض. فى حالة الجملة "كل البشر فانون" يختلف الأمر فلا توجد مفردات يمكنها التعبير عن ذلك دون متغيرات. الفرق هو أن حدثًا واحدًا هو مفسر كامل لجملة "أنت محتر" بينما العديد من الحادثات ضرورى لتفسير جملة عامة. فمن أى وجهة نظر ما عدا تلك الخاصة بنظرية المعرفة، جملة "أنت محتر" يمكن تفسيرها بـ "´bHh "، ونظرية المعرفة فقط تتطلب التفسير "يوجد h بحيث ´bHh " .

* * *

الفصل السادس عشر

الصدق والزيف

مناقشة مبدئية

(١)

مما قيل حتى الآن، يبدو أنه إذا كانت معرفتنا هى بنفس كثافة ما نعتقد أننا نعلمه، فلا بد وأنها تشتق من مصادر ثلاثة:

١ - معتقدات (أو جمل) لها علاقة من طراز معين بأحداث معينة هى، بصفة عامة، غير لغوية.

٢ - قواعد الاستنباط المنطقى.

٣ - قواعد الاستنباط فوق المنطقى.

من هذه المصادر، اهتممنا حتى الآن بالمصدر الأول فقط. يمكننا إهمال المصدر الثانى لأنه لا يثير مشكلة بخصوص المعرفة الفعلية والتى نحاول حلها. يثير المصدر الثالث تساؤلات على درجة كبيرة من الصعوبة، ولكن لا يمكن مناقشتها حتى يتم الانتهاء من المصدر الأول.

قد نضع الأمر على النحو التالى: إذا كانت هناك أى جملة فعلية نصدقها، فإن سبب تصديقنا لها قد يكون جملة واحدة أو أكثر، نصدقها فعلا، أو قد تكون أحداثًا

غير لغوية لها علاقة معينة بالجملة التى نصدقها. فى الحالة الأخيرة، تكون الجملة "جملة حقيقية أساسية". فى الحالة الأسبق، التى تستنتج فيها الجملة، لا بد وأن يكون من بين الفروض الخاصة بالاستنتاج على الأقل جملة حقيقية أساسية واحدة والباقى من الفروض الأخرى التى ستنتمى للقسمين (٢)، (٣) السابقين.

فى الفصل الحالى لا أود أن أناقش المعرفة وإنما الصدق. ما أعرفه يجب أن يكون صادقًا، ولكن الصدق أوسع من المعرفة فى جانبين. الأول، هناك جمل صادقة (إذا قبلنا قاعدة الوسط المستبعد) ليس لنا رأى بخصوصها على الإطلاق، الثانى أن هناك جمل صادقة نصدقها ولكننا لا نعرفها، لأننا وصلنا إليها من تسبيب خاطئ. قابلت مرة أحد الدارسين للمسيحية، حيث اعتقد وفقًا لأسباب مشتقة من الكتاب المقدس أنه خلال وقت قصير ستحدث بعض المتاعب فى مصر. وقد حدث ذلك. اعتقاده كان صحيحًا، ولكن ليست المعرفة.

"صادق" و "زائف" هما خبران يخصان المعتقدات، وبالاشتقاق للجمل، أقترح أن "صادقًا" يعد تصورًا أوسع من "قابل للتفنيد" حيث لا يمكن تعريفه وفقًا لقابليته للتفنيد.

عندما يكون معتقد فعلى يعد صادقًا، فهو صادق بفضل أحداث معينة أسميها "حيثيات". أنا أصدق أن قيصر قد اغتيل؛ حيثية هذه الحقيقة هى الأحداث الفعلية التى حدثت فى مجلس الشيوخ منذ زمن بعيد. غرضى فى هذا الفصل هو النظر فى العلاقة بين الاعتقاد وحيثياته فى حالات مختلفة.

(٢)

فلنبدأ بالنظر إلى الحالة التى يقول فيها A إن B محتر. هناك، إذا كان ذلك صحيحا، حدثا هو خبرة B وليس A، وبفضله يكون ما قاله A صحيحا. هذا الادعاء نفسه لـ A بأنه يعنى: "هناك احترار على علاقة بإدراكى لجسم B مثلما يكون احترارى، عندما أكون محترا، على علاقة لإدراكى بجسمى". هذا التفسير يهمل النظرية

التى تكونت فى الفصل الخاص بأسماء الأعلام، والتى وفقا لها يكون "الاحترار" (أو أى درجة من الاحتـرار) هو اسم علم وليس اسمًا كونيا يوجد منه حالة واحدة فى A وأخرى فى B. سنقول وفقا لهذه النظرية إن "A محتر" (عندما ينطقها A) تقوم علاقة بين a (وهو المدرك الخاص بـ A لجسمه) وh وهو الاحترار. يمكن أن نسمى هذه العلاقة "زمالة". إذن "A محتر" (ينطقها A) تعنى " a و h متزاملين". فإذا كانت b هى مدرك A لجسم B فإن b و h متزاملان إذا كان A محترا وليس إذا كان B محترا و A بارداً.

فلكى نفسر "B محتر" (ينطقهاA) يجب أن يصف A جسم B أو مدرك B لجسم B فى مقابل مدرك A لجسم B.

كيف يصف A مدرك B لجسم B؟ هو يفترض أنها مماثلة لمدركه الخاص بجسم B، ولكن باختلاف فى الإدراك.

(٣)

الأماكن فى الفضاء المنظور وفقًا لنظريتنا الحالية هى خصائص على نحو ما للألوان. وبالتالى فمجموع الأماكن فى فضاء A المنظور مطابق لمجموع الأماكن فى فضاء B المنظور. ولكننا نعرف فعليا من المدركات أن الاتجاه الذى يرى فيه A جسم B يختلف عن ذلك الذى يراه فيه B. المعقدان إذن المكونان من مدركى A، B لجسم B يختلفان نتيجة الفروق فى الاتجاه والفروق فى الشكل الناتج عن الإدراك. فإذا قال A"B محتر" يجب أن يصف مدرك B لجسم B (بواسطة قوانين الإدراك) ويقول إن ذلك متزامل مع الاحترار.

فلننظر إلى المراحل التالية بعيدًا عن الخبرة الحالية.

١ - أنا محتر.

٢ - كنت محترا.

٣ – أنت محتر.

٤ – الشمس حارة.

عند الحكم على (١) فأنا أدرى ظرفًا هو حيثية لحكمى.

عند الحكم على (٢) فربما كنت أدرى هذه الحيثية، وإن كانت بمدلول آخر.

عند الحكم على (٣) فلست أدرى حيثية، وكذلك عند الحكم على (٤).

فى (٤) حارة تعنى سببًا غير معروف لهذه الخاصية أو التواجد المتزامل المعتاد لهذه الخاصية مع خصائص بصرية معينة.

فلنأخذ "الدراية" على أنها مدلول غير معرف. الفكرة سوف تكون نفسها عندما أقول إن احترارى هو جزء من خبرتى ولكن احترارك ليس كذلك. الدراية والتى سنرمز لها بالرمز "A" هى علاقة قد تقوم بين حدثين فى خبرة شخص واحد، ويجب فهمها على أنها تحتوى على الذاكرة. بمدلول A يمكننا تعريف الشخص الذى بالنسبة لحياته تنتمى حادثة ما. نفعل ذلك بواسطة "عائلة R من الـ X" التى تحدد فى القواعد الرياضية 96*. يمكن شرح ذلك باللغة الدارجة المصممة لتكون مفهومة للفلاسفة كالتالى:

إذا كانت "P" تعنى الأبوة، فإن عائلة – P من الـ X هى أسلاف الـ X ونسلهم وإخوتهم وأخواتهم وأبناء العمومة وأبناء العمومة بأى درجة وأبناء عمومة أبناء العم، وهو نفسه – طالما أن له والدين وأبناء. ولكن لو أن X هو شىء ليس له والدان أو أبناء، فإن عائلة – P من الـ X لا تشتمل على X وإنما هى القسم صفر. عمومًا، إذا كانت R هى أى علامة، فلتكن S هى " R أو معكوسها". إذا لم تكن لـ X العلاقة S مع أى شىء، فإن عائلة – R من الـ X سوف تكون صفرًا. ولكن إذا كان لـ X العلاقة S بأى شىء وليكن Y فلنسمى الرحلة من X إلى Y بأنها "الخطوة – S" بالتالى فالعائلة – R من الـ X مكونة من X بالإضافة لكل المعاملات التى يمكن الوصول إليها من X نتيجة عدد محدود من الخطوات – S. بالتالى إذا كان "P" أبًا فإن عائلة – P للشخص X هى كل شىء هو أب أو طفل لأب أو طفل لـ... X.

بتطبيق ما سبق على "الدراية" التى يرمز لها بالرمز A قد نأخذ الدراية على أنها مكونة من ملاحظة أو تذكُّر. بالتالى إذا كانت X حادثة فى تاريخ حياة شخص، فإن أقرب الأقرباء لـ X بالنسبة لـ A هى حادثات يتم ملاحظتها أو تذكرها بواسطة X، وحادثات تلاحظ أو تتذكر X. إذا كانت Y هى بعض هذه، فالأحداث التى يتذكرها أو يلاحظها Y والأحداث التى تلاحظ أو تتذكر Y سوف تكون علاقات لـ X من الدرجة الثانية، وهكذا عبر أى عدد محدد من الأجيال. سوف أسمى الحدث "شخصيا" إذا كانت على دراية بشىء أو أن شيئًا على دراية بها، أى إذا كانت تنتمى لمجال A. بالتالى إذا كانت إحدى الحادثات شخصية فإن عائلتها A تحتوى على الحدث نفسه ودلالات أخرى، ولكن إذا كان الحدث ليس شخصيا فإن عائلته A هى الفئة صفر.

قد نعرِّف "الشخص من الـ X " أو "الشخص الذى ينتمى إليه الحدث X" على أنه "العائلة A من X". قد نعرِّف "أشخاصًا" على أنهم "كل عائلات –A فيما عدا الفئة صفر" (المثالى لن يقرر هذا الاستثناء حيث سوف يصر على أن كل حدث هو موضوع أو شىء للدراية). يمكن تعريف "أنا" على أنه "عائلة الدراية لهذا". على أسس فعلية، وهى التى حدثت عبر النقاش، هناك سبب للاعتقاد فى أنه لا توجد عائلتان أبدا بهما عضو مشترك، أى لا يوجد شىء يمكن لشخصين مختلفين أن يكونا على دراية به.

بالتالى "أنا محتر" تعنى "الاحترار عضو من عائلة الدراية بهذا، ويكون مزاملاً لهذا". الجملة الأخيرة ضرورية لتبرير الزمن المضارع "يكون" بدلا من "كان أو سيكون". الجملة الأخيرة وحدها يمكن أن تؤخذ على أنها ما يقصد بـ "أنا محتر".

(٤)

لكى نفهم "أنا محتر" يجب أن نفهم "أنت". ما هو أنت؟ افترض أننى أراك (كما يقال)، ففى هذه الحالة "أنت" تنتمى لحدث يقع فى ذاتى، أى المظهر المرئى لجسمك بالنسبة لى.

هذا له علاقة سببية وإدراكية بحدث فيك، وهو المظهر المرئى لجسمك بالنسبة لك. المظهر المرئى لجسم إنسانى بالنسبة للشخص الذى ينتمى إليه، له خصائص معينة مختلفة عن مظهره المرئى للآخرين – مثلا، هذه الخصائص لا يمكن أن تشتمل على أعين أو ظهر، وتظهر الأنف (إذا أغلقت عينًا واحدة) أكبر كثيرا عمًّا تبدو عليه لأى شخص آخر. يمكننا تعريف قسمين بالتالى، واحد مكون من مظاهر مرئية لأجسام بالنسبة لأصحابها، والآخر من المظاهر المرئية التي تنتمى وفقًا لقوانين الإدراك إلى ما أراه عندما "أراك". هاتان الفئتان لهما عضو مشترك واحد وهو مظهر جسمك بالنسبة لك. إذا سمينا ذلك "٧" فإن "أنت" يمكن تعريفه بأنه "عائلة– الإدراك لـ ٧".

فإذا كانت ٧ هى ذلك المظهر المرئى الذى:

(أ) يرتبط وفقًا لقوانين الإدراك إلى ما أراه عندما "أراك".

(ب) له الخصائص التى تحدد جسمًا يراه صاحبه، فإن "أنت محتر" تعنى "أنت عائلة – الإدراك لـ ٧ والاحترار مزامل لـ ٧".

بالطبع إذا كنت أعمى أو فى الظلام أو مغلق العينين، فإن هذا التعريف يحتاج إلى تحوير ولكن التحوير الضرورى لا يشكل صعوبة فى الأساس وبالتالى لا يثير الاهتمام.

(٥)

نأتى إلى "الشمس حارة". قد يفسر ذلك بطريقتين، فقد تعنى مجرد "رؤية الشمس عادة مزاملاً للإحساس بالحر" وهذا تعميم من الخبرة. وقد تعنى كما فى الفيزياء "خبرات من طراز معين، تسمى إحساسًا، لها مسببات ليست فى الخبرات، خبرات الاحترار لها مسببات تتميز بخاصية معينة تسمى حرارة، والسلسلة السببية التى تبدأ للخلف من الخبرات وتسمى رؤية الشمس تتقابل فى منطقة معينة وفى هذه المنطقة توجد حرارة". لسنا مهتمين باختيار أحد التفسيرين وإنما بمناقشة كل منهما.

فيما يتعلق بالمعقدات التى تحدث "لحالات" الاحتراز سأستخدم العلاقة "تزامل". هذه العلاقة تقوم بين أى شيئين أخبرهما فى الوقت نفسه، مثل صوت بيانو ومنظر عازف البيانو. وتقوم أيضا بين أى حدثين فيزيائيين يتداخلان فى الفراغ- الزمن. مجموعة الأحداث المتزاملة مع بعضها البعض وليس مع أى شىء خارج المجموعة أسميها "مكانًا" (أو ربما "نقطة") فى الفضاء. فالزمن بافتراض القواعد العامة من الأماكن مثل لا مكان، هو أسبق من نفسه أو إلى اليسار من نفسه.. إلخ، بالتالى فحالة الاحتراز هى أى مكان يكون الاحتراز عضوا فيه.

بدءًا من "هذا" نستطيع تعريف "أنا"، "هنا"، "الآن" إلخ كما حدث فى الفصل الخاص بأسماء الإشارة.

فلنعد إلى السؤال الخاص بـ"المفسرات". إذا قلت "أنا محتر" فالمفسر هو حدث لى دراية به وهو الاحتراز -"هنا-" "الآن". ولكن إذا قلت "أنت محتر"، فإن المفسر هو الاحتراز "هناك" "الآن"، وهو ما لا دراية لى به. هذا المفسر لا يمكن أن يكون جزءًا من أسباب اعتقادى أنك محتر، وهذه الأسباب لا بد وأن تشتق من خبراتى وأحكامى المسبقة. أسبابى فى الحقيقة يجب أن تشتق من نفسى.

عندما أقول "الشمس حارة" ليس فقط غير معروف مثل ذلك الخاص بـ "أنت محتر"، وإنما غير متخيَّل. أسباب تصديقى أن "الشمس حارة" (كما تفسر فى الفيزياء) هى أكثر بعدا عن المفسر.

يعرف المفسر على أنه الحدث الذى بفضله يكون تأكيدى صادقًا (أو كاذبا).

أينما وقع التأكيد خارج نطاق خبرتى يكون الوضع كالتالى:

الاستنباط يقودنى إلى "هناك x بحيث إن ØX " ، وهذا إذا كان صادقًا يكون بفضل حدث تؤكده "Øa". ولكنى لا أعرف حدثًا كهذا.

عندما أقول "أنا محتر" فإننى أدرى ما هو المفسر والذى هو احترارى. عندما أقول "أنت محتر" أو "الشمس حارة" فأنا لا أدرى ما هو المفسر.

فى حالة "أنا محتر" هناك طراز بسيط من التقابل بين البيان والمفسر. فى هذه الحالة، نظرية التقابل للصدق تنطبق ببساطة. هذه الحالة تغطى كل الفروض الحقيقية للمعرفة الفعلية ولكنها لا تغطى الفروض المستخدمة فى الاستدلال مثل الاستقراء.

العديد من الميتافيزيقيات يتضمنها الاعتقاد أننى أستطيع عمل تأكيد مثل "أنت محتر" والذى هو خارج نطاق خبرتى. لا أستطيع تخيل كيف يمكن اكتشاف ما إذا كانت الميتافيزيقيات موضع الاعتبار صادقة أم زائفة، ولكنى أعتقد أنها تستحق الاستعراض.

(٦)

تكلمنا عن الافتراضات على أنها "سببية"، ولكن دون شرح ما نعنيه بهذه الكلمة والتى بمقدورها أن يكون لها العديد من المعانى. ولنأخذ حالات لها:

أولا: A وB مرتبطان كثيرا فى الخبرة وبالتالى فعندما أرى A أتوقع B. يؤدى ذلك إلي مشكلة الاستقراء، بينما المشكلة الحالية هى ما يتجاوز خبرتى.

ثانيا: فلننظر إلى ما يجعلك تعتقد أن لك خبرات ليست لى. افترض مثلا أنك قلت "أنا محتر" وأننى استنتجت أنك محتر. عندما أكون محترا أقول "أنا محتر" وأسمع أصواتًا معينة (أصدرها بنفسى). أسمع أصواتًا مماثلة عندما لا أكون متكلما ولا أشعر بالاحترار. استنتج أن لها سببًا مماثلا لذلك الذى كان لها عندما أصدرتها.

الجدل سيكون على النحو التالى: فى عدد كبير من الحالات، أعرف أن أحداثا من الطراز B تسبقها أحداثٌ من الطراز A، وفى عدد ضخم من الحالات لا أعرف ما إذا كان هذا هو الحال أم لا. فى غياب الدليل على العكس، افترض أن هذا هو الحال. هذا لا يزال

استقراءً، ولكنه يختلف عن الطراز السابق بحقيقة أنه لا يمكن أن يوجد دليل يؤيده أو يعارضه، فيما عدا الدليل المقبول كنظرية فرضية علمية، ولا يقود إلى أى توابع لاحقة. الجدل السابق خاص بوجود "عقول" أخرى، ويبقى اختبار الجدل الخاص بالعالم المادى.

أبسط صور الجدل لوجود العالم المادى هى أن "الأشياء" توجد عندما لا أكون أراها- أو لتجنب بيركلى، عندما لا يراها أى أحد. افترض، مثلا، أننى أحتفظ بدفتر شيكاتى فى درج بحيث لا يؤثر على حواس أى شخص إلا عندما يكون الدرج مفتوحًا. لماذا أعتقد إذن أن الدفتر هناك عندما يكون الدرج ملغقًا، وحتى عندما لا يرى أحد هذا الدرج؟

قد يجادل بعض الفلاسفة بأننى عندما أقول "الدفتر فى الدرج" فإننى أعنى فقط أنه "إذا فتح أى شخص الدرج فسوف يراه" حيث إن "فتح الدرج" يجب تفسيره كخبرة وليس كشىء يحدث بشكل دائم. هذه النظرة سواء أكانت صادقة أم كاذبة، تحدث فقط لفيلسوف وليست هى ما أرغب فى مناقشته. ما أود مناقشته هو فكرة أن شيئًا ما - قد يسمى الدفتر - يحدث عندما لا يراه أحد. لا أرغب فى مناقشة ما إذا كانت هذه النظرة صادقة ولكن ما هو الأثر الذى يشتمل عليه افتراض صدقها؟

(٧)

الحس المشترك البسيط يفترض أن الدفتر، كما يبدو عند رؤيته موجود هناك طوال الوقت. نعرف أن هذا زائف. الدفتر الذى يمكن أن يوجد غير مرئىٍّ، لا بد، إذا كان موجودا، أن يكون من طراز الأشياء التى تقول الفيزياء إنه كذلك، والذى لا يماثل ما نراه. ما نعرفه هو أنه إذا وفَّرنا ظروفًا معينة فسوف نرى الدفتر. نحن نعتقد أن الأسباب الخاصة بهذه الخبرة تكمن جزئيا فقط فى داخلنا، والأسباب الخارجة عن ذاتنا هى التى تقودنا إلى الاعتقاد فى الدفتر. وهذا يتطلب الاعتقاد فى طراز من الأسباب يتجاوز تمامًا الخبرة. ما هو الجدل المؤيد للأسباب التى هى من هذا الطراز؟

الاعتقاد الذى نصل منه إلى المادة هو الاعتقاد بأننا طبيعيا سلبيون فى الإحساس. نحن نخبر المناظر والأصوات، مرغمين. فكرة "السبب" مشتقة من فكرة "الإرادة". وحيث إننا لا "نريد" ما نراه أو نسمعه، فإن سبب ما نراه أو نسمعه لا بد وأنه خارج عنّا. هذا الجدل لكى يرفض، يجب أن يقال هل هناك جدل أفضل للعالم المادى؟

الجدل الوحيد الباقى، هو أن فرضية وجود العالم المادى تبسِّط بيان قوانين السببية، ليس فقط ما لا يمكن تفسيره، ولكن ما يمكن تفسيره أيضا. بالطبع لا يمكن أن يكون هناك جدل ضد العالم المادى، حيث إن الخبرة سوف تكون هى نفسها سواء وُجد أم لا، فهو مبرر بالتالى كنظرية فرضية ولا شىء أكثر من هذا يمكن ادعاؤه على أساس التبسيط.

ينهى هذا النقاش للعلاقة بين معتقد مفرد والحقيقة التى وفقا لها تكون صادقًا (أو زائفًا). سوف يلاحظ أن هذه الحقيقة عادة ما تكون بعيدة عن المسببات التى على أساسها كان لنا الاعتقاد، وأن الاعتقاد قد يكون (بمدلول ما) معرفة حتى عندما تكون الحقيقة غير قابلة للمعرفة.

العلاقة بين الاعتقاد والحقيقة هى أكثر بعداً فى حالة المعتقدات العامة مثل "كل البشر فانون". هنا لا يوجد مفسر واحد وإنما عدد لانهائى، رغم أنه قد يوجد واحد فقط لكونه زائفًا. لم نناقش حتى الآن ما الذى يتم التعبير عنه بواسطة هذه المعتقدات مثل "كل البشر فانون" ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن يوجد إلا تقابل بعيد بين ما يُعبَّر عنه والعديد من المفسرات. حاليا، لا أود مناقشة هذه المشكلة، ولكنى ذكرتها فقط للإشارة إلى ما هو باقٍ لمناقشته.

* * *

الفصل السابع عشر

الصدق والخبرة

(١)

غرض هذا الفصل، النظر فى العلاقة بين الصدق والخبرة أو بين الصدق والمعرفة. أهم سؤال فى هذا الخصوص هو ما إذا كان "للصدق" مفهوم أوسع من "المعرفة" وما إذا كانت مقدمة ما غير قادرة نظريا على الإثبات أو الدحض، أو اعتبارها ممكنة أو غير ممكنة، صادقة أو زائفة. هناك أمورٌ مبدئية كثيرة تعد ضرورية قبل مناقشة هذا السؤال.

"الصدق"، كما اتفقنا، هو خاصية للمعتقدات بصفة أولية وللجمل بصفة اشتقاقية. بعض المعتقدات يمكن التعبير عنها بجمل لا تحتوى على متغيرات - مثل "أنا محتر"- المعتقدات التى تتجاوز الخبرة الخاصة بالمعتقد، مثل "أنت محتر"- دائما ما تشتمل على متغيرات فى تعبيراتها. ولكن بعض المعتقدات التى تشتمل تعبيراتها على متغيرات لا تتجاوز الخبرة، هذا يتضح فى حالة الذاكرة - مثل "الكتاب هو فى مكان ما من أرففى". هذا يمكن أن يحل محله "الكتاب هنا" ولكن فى حالة "أنت محتر" يكون مستحيلا إذا صدقت "أن شيئًا له الخاصية f"، ولكن لأننى لا أعرف أى مقدمة " a له الخاصية f"، فبالطبع سأشك وفقا لتجربة لم أمر بها فى أنه لا بد من وجود مقدمة من الطراز الأخير تصف هذه التجربة. يبدو أن هنا يوجد فرض غير واعٍ بأن التجربة هى تدبرية بحتة بحيث إن الحدث الذى لم أخبره قد يظل بلا تغير إذا كنت قد خبرته.

الصدق الذى يتجاوز الخبرة يمكن وضعه كالتالى: افترض أن $a_1, a_2 .... a_n$، هى أسماء فى محصلة مفرداتى اللغوية وأننى سميت كل شىء أستطيع تسميته وأفترض أن $fa_1, fa_2 .... fa_n$ كلها زائفة، فهل سيظل من الممكن أن "هناك X لها fx" تكون صادقة؟ أم أننى أستطيع استنتاج " تكون fx زائفة مهما كانت X"؟

(٢)

لا نستطيع تعريف "الصدق" لمقدمة وجود، إلا بمدلول مقدمة وجود أساسية. مثلا، بالنسبة للجملـة "افترض وجـود شخص، غيرى، تحتوى مفرداته الكلامية على اسم b لا تحتويه مفرداتى، بحيث إنه بالنسبة له، fb يعد حكما إدراكيا"، هذه مقدمة وجود أكثر تعقيداً وجديدة حتى لو فعلنا مثل بيركلى وجعلنا الشخص الافتراضى هو الله.

يبدو بالتالى أننا علينا أن نعدد مقدمات الوجود الأساسية ونعرِّف المقدمة الصادقة على أنها التى يمكن استنتاجها منها. ولكن هذا يقودنا إلى السؤال: "بأى مدلول تكون مقدمات الوجود صادقة"؟ يبدو أن علينا القول إنها مختبرة. مثلا، عندما يطرق شخص ما الباب وتقول "من هناك"؟ فأنت تعرف "هناك شخص ما" وترغب فى معرفة مقدمة من الطراز " a موجود هناك".

افترض أننا أكدنا "يوجد X بحيث إن fx" عندما يكون لكل اسم نعرفه تكون "fa" زائفة. لا يمكننا فى هذه الحالة الحصول على بيان لغوى دون متغير. لا نستطيع أن نقول: "هناك اسم 'a' بحيث إن 'fa' صادق" لأن هذا هو مجرد إحلال للاسم كمتغير. إذا صدقت أن هناك حادثات فى العالم المادى لا يدركها أحد، فهذه الحادثات لا بد وأن تكون بدون أسماء؛ الترجمة التى تحل اسمًا افتراضيا ستكون زائفة حتى لو كان المعتقد الأصلى صادقًا.

فما لم تكن معرفتنا محدودة بدرجة كبيرة عما تبدو عليه افتراضاتنا، فلا بد وأنه توجد مقدمات وجود أساسية، وبالنسبة لبعضها كل حالة "fa" نستطيع إيجادها سوف

تكون زائفة. أبسط مثال هو "هناك أحداث لا أدركها". لا أستطيع باللغة فقط أن أعبر عما يجعل هذا البيان صادقًا دون إدخال متغيرات، والحقيقة التى هى المفسرات لا يمكن ذكرها.

رغم ذلك، إذا كان "يوجد X بحيث إن fx" صادقا، فإنه يكون صادقا نتيجة لبعض الحادثات رغم عدم خبرتنا بهذه الأحداث. الحدث لا يزال يسمى "المفسر" لا سبب هناك لافتراض أن علاقة "هناك X بحيث إن fx" بالمفسر تختلف عندما لا يكون المفسر تم خبره، عندما يكون المفسر قد تم خبره، فإن عملية المعرفة تكون مختلفة ولكن هذا موضوع آخر. عندما أخبر حدثا فإنه يمكننى من معرفة واحد أو أكثر من الجمل ذات الطراز "fa" ومنها أقرر "هناك X بحيث إن fx". هذه الجملة الجديدة لها علاقة مختلفة بالحدث الذى لـ "fa" علاقة به، فعلاقة "fx" بالحدث ممكنة فقط عندما تكون a قد خبرت. ولكن هذه عبارة عن حقيقة لغوية. علاقة "يوجد X بحيث إن fx"بالحدث على خلاف تلك الخاصة بـ "fa"، لا تتطلب أن تحدث خبرة بالمفسر. وتكون العلاقة هى نفسها عندما لا يكون الحدث قد خُبِر أو خُبر.

(٣)

إذا كانت هناك مقدمات وجود أساسية، فإن علاقتها بالإدراك لا بد وأن تكون شديدة الاختلاف عن تلك الخاصة بأحكام الإدراك. فى حالة الذاكرة، مثل "الكتاب موجود فى مكان ما على أرففى" يوجد حكم إدراك سيكون ممكنا، رغم أننى أعتقد أنه ليس صوابا، القول بأنه فى وقت الإدراك، استنتجت مقدمة وجود، وأننى أتذكرها الآن فإن هذا يجعل مقدمة الوجود ليست أساسية. ولكن هناك حالات أشد عنادًا.

خذ مثلا الحوادث التى لا يدركها أحد، أنا لا أريد التأكيد على معرفتنا بمثل تلك الحوادث وإنما التقصى عما يشتمل عليه افتراض أننا نعرف. فلنتخيل أننى أتجول خارج بيتى عندما ارتطم شىء برأسى. أنا أنظر لأعلى لأرى المكان من السقف الذى

سقط منه ذلك الشىء، وأنا مقتنع تماما بأنه كان موجودا قبل أن يرتطم بى. فما الذى يشتمل عليه هذا الاقتناع؟

من المعتاد الانجذاب إلى السببية والقول بأنه من الحقائق المدركة استنتجت حقائق غير مُدركة. من الواضح أنه فى وقت الحقائق المدركة أعتقد فى الحقائق غير المدركة، ولكنى لا أعتقد أن هذا يعد استنتاجا. فقبل رؤيتى لما ارتطم بى أقول "إن شيئًا قد ارتطم بى" وهذا الحكم لحظى كحكم الإدراك. من الممكن بالتالى بدلا من القاعدة العامة للاستنتاج السببى أن أضع عدداً من مقدمات – الوجود الأساسية، كل منها لحظى كمقدمات الإدراك، ومنها يمكن اشتقاق السبب استقرائيا. هذه النقطة ليست شديدة الأهمية. فى النظرة المعتادة، نعرف حكم الإدراك P وأيضا "P تعنى أن هناك X، وبناء عليه fx"، فوفقا لما أقترحه عندما نعرف P فإننا نعرف أن هناك X وfx". الفرق بين النظريتين يمكن إهماله. لا يوجد سبب لكى لا تكون المعرفة الفعلية الأساسية من الطراز "يوجد X وبناء عليه fx". فمعرفة ذلك أقل من معرفة "fa". إذا كانت a لها الخاصية f، فقد يسبب معرفتى "هناك X وبناء عليه fx" دون أن يسبب معرفتى "fa". فى "أنت محتر"، f معروفة وهذا يوضح السابق. فى الجمل المادية البحتة مثل "الصوت مكون من موجات هوائية" "f" المتضمنة ليست واضحة. لمقارنة هذه البيانات لا بد من أخذ الفيزياء النظرية فى أكثر صورها تقدما. فأين يلمس ذلك الخبرة؟

١ – الأحداث الفيزيائية لها ترتيب مكانى – زمانى مرتبط بالمدرك.

٢ – سلاسل معينة من الأحداث الفيزيائية هى مسببات لمدركات معينة، ونستنتج بالتالى ما يلى:

(أ) أن الزمن هو نفسه فى العالم المادى والنفسى.

(ب) أن التزامل (والذى نعرفه كعلاقة بين أى جزئين من خبرتنا) يوجد أيضا فى العالم المادى.

(جـ) إذا كانت عندى خبرتان مختلفتان وصفيا فإن مسبباتها لها فروق متقابلة بشكل ما. وهذا يعطى عنصر الخبرة للمقدمات المادية.

(٤)

فى الجمل الجوهرية يجب أن تكون الثوابت مشتقة من الخبرة. الترتيب المكانى – الزمانى فى الفيزياء مثلا، مشتق من الترتيب الزمانى-المكانى للمدركات. إذا رأينا نجمين قريبين من بعضهما وكانت الإحداثيات الشمسية للنجوم فى الفضاء الفيزيائى، بأخذنا كنقطة الأصل، هى (r, θ, Ø) و (r, θ, Ø) إن θ ، ´θ، Ø و´Ø سوف تكون متساوية تقريبا ومتطابقة فى المقدار مع الإحداثيات الزاوية للنجوم الظاهرة فى فضائنا المرئى (أقول تقريبًا لأن الضوء لا يسير فى خطوط مستقيمة بشكل شديد التحديد).

فى المنطق البحث، توجد جملٌ لا تشتمل على ثوابت. هذه الجمل إذا كانت صادقة، تكون صادقة بدون وجود علاقة بالخبرة. ولكن هذه الجمل إذا كان يمكن معرفتها هى مجرد لغو بلا معنى، وينطبق معنى "صادق"على اللغو بطريقة مختلفة عن المعنى الذى ينطبق على الجمل الفعلية.

ما الذى تعبر عنه "يوجد X وبناء عليه fx"؟

اعتبرنا أن "P أو q" تعبر عن حالة يوجد بها تردد. أحيانا يكون ذلك صادقا بالنسبة لـ"يوجد X وبناء عليه fx" وليس دائمًا. إذا وجدت رجلا ميتا من جرح ناتج عن طلقة رصاص، فأنت تحكم بأن شخصا ما أطلق عليه الرصاص، وإذا كنت مواطنًا صالحا فسوف ترغب فى أن يحل ثابت محل متغير، فى هذه الحالة يوجد شك كما فى حالة "P أو q". ولكن أحيانا تكون مقتنعًا تماما بـ "يوجد X وبناء عليه fx" ولا رغبة لديك فى أن تحل محلها "fa". اختبار آثار الأقدام فى الغابة قد يؤدى بك إلى القول "كان هنا نمر". وفى هذه الحالة ما لم تكن مشتركا فى عملية اصطياد للنمر فلن تكون لديك رغبة فى أن يحل ثابت مدرك محل المتغير. أو لنفترض أننى قلت "لندن بها ٧ ملايين من السكان" فلن أرغب فى أن يحل محل هذا "سكان لندن هم A و B و C..." حتى الفرد الأخير من الملايين السبعة. السؤال المهم هو: ما الذى تم التعبير عنه فى مثل هذه الحالة بواسطة البيان الذى يحدث فيه المتغير؟

افترض أن أحداً قال لى "رأيت ثعلباً فى الشارع" وافترض أننى أصدقه، ما الذى يشتمل عليه هذا فى حالتى العقلية؟ قد تكون لدىَّ صورة عن الثعلب، مهما تكن ضبابية ثم أفكر "لقد رأى ذلك". يفترض هذا "أن الصورة حدثت بطريقة ممثلة للثعلب لأننى لا أعتقد أنه رأى الصورة الخاصة بى عن الثعلب. الصور فى الحقيقة تعمل كرموز كما تفعل الألفاظ، فهى عادة ما تكون ضبابية بما لا يجعلها قادرة على أن "تعنى" أى عضو من أقسام المدركات الممكنة أو الحادثة فعلاً. الصورة الخاصة بالثعلب هى ما أستطيع شخصيا تكوينها لتطابق أى ثعلب عادى، فهى تخدم تماماً الفرض نفسه الذى تخدمه كلمة "ثعلب". لنفترض إذن أن الكلمات التى أسمعها تؤثر علىَّ دون تدخل من الصور المرحلية. عندما أسمع "رأيت ثعلبا"" فقد تحدث أفعالٌ معينة تعتمد على ما إذا كنت مشتركا فى اصطياد الثعلب أم لا، ولكن قد نقول إن ثعالب مختلفةً تتطلب الأفعال نفسها. وبالتالى فالكلمات المسموعة "رأيت ثعلب"ا" تعد كافية سببيا. لنضع الأمر على النحو التالى: فلتكن ..... $F_1, F_2, F_3,$ هى ثعالب مختلفة، وأن رؤية F_1 تؤدى إلى الفعل A_1 وF_2 تتطلب الفعل A_2 وهكذا، وتكون A_1 ، A_2... إلخ هى أفعال مركبة قد يوجد الجزء A فيها بصورة مشتركة. هذا الجزء المشترك يمكن أن تطلقه كلمة "ثعلب". عندما أسمع كلمات "هناك ثعلب" سأفهم هذه الكلمات إذا أدت إلى الفعل A.

هذا يوضح أنه فيما يتعلق بما يتم التعبير عنه فإن دالة المتغيرات هى تماماً تلك الخاصة بالكلمات العامة. فإذا نظرنا براجماتيا إلى "المعنى" وعرَّفناه بمدلول الأفعال التى يؤدى إليها، فإذن "توجد X وبناء عليه fx" تعبر عن الفعل الجزئى المشترك بالنسبة لـ "fa"، "fb" ، "fc" ... إلخ. ما يعبر عنه بواسطة "يوجد X وبناء عليه fx" هو شىء أصغر وأبسط مما يعبر عنه بواسطة "fa"، وهى جزء مما يعبر عنه بواسطة"fa" بحيث إن تصديق "fa" هو فى الحقيقة تصديق لـ"يوجد X وبناء عليه fx".

(الأمر سيكون أكثر تعقيدا عندما يكون لدى المرء معرفة لفظية لا يعرف كيف يترجمها إلى مدلولات إدراكية. معظم الناس يعرفون أن الحية الرقطاء خطيرة، حتى لو لم يكن بمقدورهم تمييزها عند رؤيتها. فى مثل هذه الحالة، المُدرك، الذى هو الحية

الرقطاء، لن يؤدى إلى الفعل المناسب حتى يقول واحد من الناس "هذه حية رقطاء". فى مثل هذه الحالة، الكلمة العامة أكثر قوة من الحدث الذى تنطبق عليه، وهذا يعنى أنه فى الحالة المفترضة فإن خبرة المرء اللفظية سبقت الخبرة بالأشياء التى تعنيها الكلمات).

(٥)

للنظرية السابقة علاقة بنظرية الاستنتاج التحليلى. فالاستنتاج يحدد بأنه تحليلى إذا كانت النتيجة جزءًا من الفروض، ووفقا لما قلناه فإن الاعتقاد فى النتيجة هو أيضا جزء من الاعتقاد فى الفروض: من يصدق "fa" يصدق أيضا "يوجد X وبناء عليه fx".

نظريتنا عن الاعتقاد لا تتطلب أن الاعتقاد يتم التعبير عنه بكلمات، وبالتالى فليس من الغريب عندما يكون للمرء معتقد يعبر عنه بكلمات، أن يكون لديه معتقدات أخرى مرتبطة منطقيا بهذا المعتقد، ولكنه لا يعبر عنها بكلمات ولا يعرف حتى أنها لديه.

فيما يخص الحالة التى فيها "هناك X وبناء عليه fx"، تعد مقدمة أساسية، هل هناك سبب فى ألا تعبر عن حقيقة لخبرة كما تفعل "fa"؟ كلمة "خبرة" هى ضبابية إلى حد ما وقد يتم تعريفها بمدلول المقدمات الأساسية. قد تقرر محكمة أن A قتله B أو أنه قتل بواسطة شخص أو أشخاص غير معروفين. النتيجة الأخيرة تعتمد على عدد من المقدمات تم إثباتها فى المحكمة أو قبلت عموما، من بينها من الضرورى منطقيا أن يوجد على الأقل مقدمة وجود واحدة. عمليا، الأمور هى على النحو التالى: لدينا حكم إدراك "هذه طلقة"، "موجودة فى المخ" ومقدمة عامة "الطلقات فى المخ تتضمن إطلاق نار من بنادق". الأخير ليس مقدمة أساسية وإنما تعميم استقرائى. التعميم الاستقرائى هو من الطراز التالى "مهما كانت X فإن fx تشير إلى أن هناك Y بحيث إن gy". الفرض المرئى لهذا التعميم هو من الطراز: fa. ga´. fb. gb´, fc. gc´ حيث a, a´, b, b´, c, c´ متزاملة. نجد fd ولكننا لا نجد أى d´ وبناء عليه gd´، وبالتالى نستنتج "توجد Y متزاملة وبناء عليها gy".

يوجد هنا تمييز بين الاستنتاج الاستقرائى فى المنطق والاستنتاج الاستقرائى كعادة حيوانية. فى المنطق، نتقدم عبر قاعدة الاستقراء من ´fa. ga´. fb. gb´, fc. gc إلى أن أيا ما كانت قيمة X فإن fx تتضمن أن هناك Y متزاملة وبناء عليها "gy". نضيف الفرض المرئى fd ونستنتج أنه فى هذه الحالة توجد Y وبناء عليها "gy". ولكن الاستقراء كعادة حيوانية يتم بطريقة مختلفة. خبرات الحيوان هى fa. ga´. fb. gb´, fc. gc´ .. fd. فى حالة الخبرة fd فإنه يعتقد "يوجد الآن Y وبناء عليه gy"، ولكنه لا يدرى السبب لهذا الاعتقاد. عندما يصبح عبر التطور منطقا استقرائيا يلاحظ الأسباب ويقول إنها أسس، وحيث إنها ليست كذلك فقد يقبل "يوجد الآن Y وبناء عليه gy" كمقدمة أساسية فهى أبسط من قاعدة الاستقراء وأكثر ترجيحًا أن تكون صادقة. الحيوان فى هذا الخصوص أفضل من رجل المنطق. هذا دفاع هيوم. التقابل بين الصدق والحقيقة لا يزال سببيا ومن الطراز المرتبط "بالمعنى" أو "الجوهرية".

(٦)

السؤال الآن: هل هناك مدلول تكون مقدمة معينة وفقًا له صادقة رغم أنها لا يمكن معرفتها؟ لنأخذ مثلا "فى الجزء غير المرئى من القمر يوجد جبل ارتفاعه بين ستة آلاف وسبعة آلاف متر"، الحس المشترك سوف يقول بلا تردد إن هذه المقدمة إما صادقة وإما زائفة، ولكن العديد من الفلاسفة ستكون لديهم نظريات للصدق تجعل ذلك مشكوكًا فيه. فلتكن مقدمتنا هى S . السوال إذن: ماذا يمكن أن تعنيه الجملة: "S صادقة"؟.

قد نقول إن S محتمل لأن هناك جبال فى الجزء المرئى من القمر، ولكن الاحتمال يختلف عن الصدق ولا أرى لماذا يجب أن يكون ما هو محتمل إما صادق وإما زائف إلاّ إذا حددنا الصدق باستقلال عن الاحتمال.

الحس المشترك يتخيل الدوران حول القمر ويصر على أننا إذا قمنا بذلك فسوف نرى أو لا نرى الجبل موضع السؤال. رجل الفضاء قد يقول: الجبال على الجانب البعيد

من القمر سيكون لها آثار جاذبية وبالتالى يمكن استنتاجها. الجدل ينصب على ما الذى يمكن أن يحدث فى حالة حدث لافتراض لم يفسر بخبرتنا. القاعدة المتضمنة فى كل حالة هى "فى غياب الدليل على العكس، سنفترض أن الجزء غير المرئى من الكون سيتبع القوانين نفسها التى يتبعها الجزء المرئى". ولكن ما لم يكن لدينا تعريف مستقل للصدق الخاص بما لا يُرى، فإن هذه القاعدة ستكون مجرد تعريف وسيكون "الجزء غير المرئى" عبارة عن تشكيل تكنيكى طالما ظل غير مرئىٍ. القاعدة تنص على شىء له قيمة إذا كانت تعنى "ما سوف أراه سأجد أنه يشبه ما رأيته"، أو إذا استطعت تعريف "الصدق" باستقلال عن المشاهدة.

بالنسبة للنظرة الواقعية للصدق، هناك "حقائق" وبيانات تنتمى لتلك الحقائق بطرق تجعل الجُمل صادقة أو زائفة باستقلال تام عن أى طريقة لتحديد البديل. الصعوبة هى فى تعريف العلاقة التى تشكل الصدق لهذه النظرة إذا ما تم تبنيها. السؤال إذن خطير، فكما رأينا ليست الأشياء على الجانب البعيد من القمر هى التى لا يمكن رؤيتها، ولكن أيضا القطط والكلاب والبشر المغايرون لذواتنا.

الجملة لتى تكون صادقة بفضل حقيقة غير مرئية لا بد أن تحتوى على الأقل على متغير واحد. جملة "يوجد بشر فى سيمبلاتنسك" هى صادقة بفضل حقائق معينة ولكنى لأننى لا أعرف اسم مكان هذه المنطقة لا يمكننى معرفة أى من هذه الحقائق. كل من هذه الحقائق له العلاقة نفسها بها. لا أعتقد أن هناك صعوبة حقيقية، الصعوبة الماثلة ترجع إلى الظرف التافه بأن ما ليس له اسم لا يمكن ذكره. سأستنتج بالتالى أن الجمل المحتوية على متغيرات قد تكون صادقة نتيجة علاقة بواحدة أو أكثر من الحقائق غير المرئية وأن العلاقة هى نفسها كتلك التى تجعل جملا مماثلة صادقة عندما تتعلق بحقائق مرئية، مثل "يوجد بشر فى لوس أنجليس". الحقائق غير المرئية يمكن التحدث عنها بمدلولات عامة وليس بخصوصية، تعد ممكنة بالنسبة للحقائق المرئية. وليس هناك مبرر لأن يكون "الصدق" مفهوما أوسع من "المعرفة".

* * *

الفصل الثامن عشر

معتقدات عامة

(١)

كنا مهتمين حتى الآن بالمعتقدات الخاصة بأمور معينة تحدث بصورة مباشرة بقدر الإمكان نتيجة للإدراك، وناقشنا أيضا - وإن كان بصورة أقل تفصيلا - المعتقدات فى التغييرات اللفظية التى تحدث فيها كلمة "بعض"، والتى وجدناها مهمة خاصة فيما يتعلق بالذاكرة. علينا الآن مناقشة المعتقدات التى يظهر فى التعبير اللفظى عنها كلمة :كل" أو "لا شىء". سوف أقصر النقاش على المعتقدات فوق المنطقية.

فى كل البحوث التى من هذا النوع يوجد توفيق بين المنطق وعلم النفس. يحدد لنا المنطق الهدف الذى يجب أن نصل إليه ولكن علم النفس يجب أن يوضح لنا كيف نصل إليه. بينما يجب أن تكون سيكولوجيتنا فى الاعتقاد قادرة على احتواء التجريدات الدقيقة لعلماء المنطق، يجب أولاً أن تكون قابلة للتطبيق على الحيوانات والأطفال الصغار وأن تظهر الأقسام المنطقية كتطور طبيعى للعادات الحيوانية. يساعد فى ذلك كثيراً قرارنا بأن الاعتقاد هو بالضرورة يكون قبل اللغة، وأنه عندما نعبر عن معتقد بكلمات فإننا نكون قد أخذنا أصعب الخطوات التى تقود من الحيوان إلى عالم المنطق.

علم النفس الذى سيتم تقديمه فى هذا الفصل، كما فى الفصول السابقة، هو تخطيطى بدرجة أو بأخرى ولا أدعى بأنه صحيح فى تفاصيله. ما أدعيه هو أن شيئًا من الطراز العام المقترح يعد ضروريا لكى نمر من العادات الحيوانية إلى

ما يتطلبه المنطق. الدقة فيما يختص بالتفاصيل هى موضوع لعالم النفس ويجب أن تعتمد على البحوث التى هى بدرجة ما بعيدة عن نظرية المعرفة. فيما يتعلق بعلم النفس، سأكون قانعًا إذا ما استطعت إقناع عالم النفس بطبيعة وأهمية المشكلة التى أشرت إليها.

المعتقدات العامة وأعنى بها التى تشتمل فى تعبيراتها اللغوية على "كل" أو "لاشىء" أو ما يعادلهما. لها أصل يسبق التفكير فى عادات من طراز معين. بالنسبة للذين لديهم لغة، قد تكون هذه العادات لغوية بحتة. كلمة "زهرة الربيع" قد تقترح كلمة "أصفر" وكلمة "رُسُل" قد تقترح كلمة "اثنى عشر". التعليم المدرسى ينتج كمًا من المعرفة، من هذا الطراز الذى قد يكون غير متعلق بتاتًا بما تشير إليه الجُمل المستخدمة. نحن نبحث عن شىء يسبق اللغة، وبالتالى يجب أن نبدأ بإهمال العادات المتعلقة بالكلمات.

انظر إلى سلوك الكلب. عندما يرى سيده يضع القبعة على رأسه يتوقع أن يؤخذ فى نزهة ويظهر ذلك التوقع بالتفافاته ونباحه. هناك رائحة معينة تقترح الأرنب، وكذلك تفعل حفرة الأرنب أو أى مكان يوجد فيه أرانب باستمرار. رائحة الأنثى فى فترة الشبق سوف تنبه سلوكًا خاصا. لقد قيل لى إن الحصان يرتعب من رائحة جلد الدب حتى لو لم يكن قد رأى دبا أبدا. السلوكيات من هذا الطراز هى غريزية جزئيا، ونتيجة للخبرة الجزئية، رائحة الأرنب أو الأنثى لها أثر غريزى ولكن قبعة السيد لها أثر ينتج من أصوات سابقة. فى كلا الطرازين من الحالات على حد سواء، إذا كان للكلب - بمعجزة ما - لغة ومعتقدات عقلية لفيلسوف، فسوف يقول مقدمة عامة حيث سيقول "أينما وجدت هذه الرائحة فهناك شىء يؤكل" و "وضع سيدى لقبعته هو حدث أولى غير متغير يعنى النزهة". لو سألته كيف عرف ذلك، سيقول فى الحالة الأخيرة أنه قد لاحظ ذلك وفى الحالة الأولى أنها كانت حدسًا أوليا تخليقيا. هو لا يقول ذلك، لأنه لا يستطيع الكلام، ولكنه سيقول أشياء مماثلة فى ظروف مماثلة.

(٢)

فلننظر إلى بعض المقدمات العامة اليسيرة مثل "أى مكان مجاور يحتوى على رائحة من طراز معين يحتوى أيضا على لحم الخنزير المقدد". إذا كانت "fx" تعنى "هناك طراز معين من الرائحة فى المكان المجاور X "، وكانت "gx" تعنى " يوجد لحم خنزير مقدد فى المكان المجاور X"، فأينما نأكل لحم الخنزير المقدد تكون لنا خبرة بكل من fx و gx، وعندما تكون لنا خبرة fx فقط نجد عادة أننا نستطيع الوصول إلى أن تكون لنا خبرة gx. هذا الوضع بمرور الوقت يخلق عادة لتصديق gx أينما صدقنا fx.

حتى الآن نحن لا نصدق أى مقدمة عامة. عالم النفس الذى يلاحظنا يستطيع الوصول إلى مقدمة عامة: "أينما صدق السيد كذا fx فإنه سيصدق أيضا gx"، ولكن هذه ليست المقدمة العامة التى نريدها وهى "أينما كانت fx صادقة فإن gx أيضا صادقة". بالنسبة للسيد كذا تنتج المقدمة الأخيرة من ملاحظته، تماما كالمقدمة السيكولوجية التى تنتج من مشاهدة عالم النفس. أيا ما كان القول تأييداً أو ضد المقدمة العامة، فيجب قوله ضد أو مع المقدمة الأخرى.

فلننظر بتفصيل أكبر إلى المقدمة "أينما كانت fx هناك توجد gx". القيم المختلفة للدالة F ولتكن ...fa, fb, fc كل منها مقدمة يمكن تصديقها: فعلى سبيل المثال fa تقول "المكان المجاور a له رائحة معينة (وهى رائحة لحم الخنزير المقدد)". الرائحة هى قسم من الروائح لأن قطعتين من لحم الخنزير المقدد لا تكون لهما الرائحة نفسها بالضبط. فإذا سمينا قسم الروائح موضع السؤال a، وقسم قطع لحم الخنزيرB (أى القسم من المدركات المرئية المسماة "رؤية لحم الخنزير" ويمكن أن نضع مقدمتنا الأساسية بأن نقول إنها "عندما أشم رائحة لحم الخنزير المقدد فإننى أراه فى الوقت نفسه أو بعده بوقت قصير". ولجعل ذلك دقيقًا، فلنحدد فترة زمنية t نعتبرها قصيرة- ولتكن خمس دقائق- ستكون جملتنا إذن: "أينما يحدث عضوٌ من القسم L يحدث بعده بقليل عضو من القسم B بحيث إن الفترة الزمنية من L إلى B تكون أقل من t" حيث t فترة زمنية معينة. هذا معقد بدرجة كبيرة. فلننظر فيما إذا كان هناك ما هو أبسط.

(٣)

عندما أبدأ تأملاتى ألاحظ أنه فى مناسبات معينة كانت لى الخبرة fa وتوقعت ga وخبرة fb وتوقعت gb.. إلخ. ألاحظ أيضا أن توقعاتى لم تخب. الزمن t الذى ظهر فى بياننا السابق حل محله الزمن بين توقع معين وعدم وقوعه. هذا بالطبع يختلف وفقًا لطبيعة التوقع، وفى حالتنا وفقا لشدة الرائحة، يجب تذكر أننا ميزنا "توقع" كما ميزنا "تذكر" على أنها نوع من الاعتقاد "هناك انفجار صاخب سيحدث عند الزمن t" متوقع حدوثه قبل الزمن t. زمن الفعل -"سيحدث" "يكون"، "كان" تعبر عن الفرق فى الحالة الجسمانية للمعتقد وفقًا لما يعبر عنه أو يدركه أو يتذكره. ينطبق زمن الفعل أساسًا على أمور تدخل فى خبرتى الإدراكية وتعبر عن نوع المعتقد موضع الاعتبار وليس على خاصية لما "يدلل" عليه الاعتقاد. إذا أردنا القول بطريقة إسبينوزية لا زمنية" قُتِلَ قيصر فى منتصف مارس" فلا بد من أن نخترع لغة خاصة ونستعمل "يكون" بمدلول يختلف عمّا تمثله عادة.

فلنعد إلى لحم الخنزير. الشخص أو الحيوان أينما يخبر عضوا من L يتوقع عضوا من B ولم يبدأ فى الاعتقاد فى مقدمة عامة. رغم أن سلوكه فى وجود عضوٍ من L سيكون هو نفسه عندما يعتقد فى مقدمة عامة. الفرق فى السلوك بين السابق والاعتقاد فى مقدمة عامة ينجم عندما لا يوجد عضوٌ من L. عندما أعتقد "أينما توجد L توجد B" وإذا شئت أن أجد aB فسوف أبحث عن L ويبسِّط ذلك الجيولوجى الذى ينقب عن الذهب حيث سيبحث فقط حيث توجد دلالات مؤكدة تنبئ عن احتمال وجود الذهب. الجيولوجى يتطلب أبسط مقدمة عامة كمرشد لعمله، وهى التى تهمنا فى هذا الفصل ولكننا سنفهمها بطريقة أفضل بالنظر إلى أصلها الحيوانى.

(٤)

عندما أعتقد فى مقدمة عن المستقبل، فقد تشتمل أو لا تشتمل على الحالة المسماة "توقع" كما يفعل الاعتقاد عن الماضى، حيث قد يشتمل أو لا يشتمل على تذكر. لو كنت

أعتقد بأن "يومًا ما سوف تبرد الشمس" فليس لدى أى حالة توقع، فإذا اعتقدت بعد رؤية البرق "سوف يحدث رعدٌ" تكون لدى حالة توقع. التوقع، كحالة مادية، ممكن فقط فيما يتعلق بخبرات تخص المستقبل القريب. سوف أستعمل فيما يلى كلمة "توقع" على أنها مقابلة للذاكرة وليس لتغطية أى معتقد عن المستقبل.

(٥)

استقراء الحيوان يختلف عن الاستقراء العلمى فى العديد من الأساليب، أحدها أن استقراء الحيوان يتضمن توقعات. عندما يقع فى خبرة الحيوان حدثٌ من الطراز A يتبعه بسرعة حدث من الطراز B، فإذا كانت B مثيرة عاطفيا فإن الحيوان سيتوقع B أينما حدث A. عدد مرات الخبرة الضرورية لذلك يعتمد على درجة العاطفية التى يثيرها B، فإذا كانت B شديدة الإسعاد أو شديدة الإيلام فإن خبرة واحدة قد تكفى، وما إن يكتسب الحيوان عادة توقع B عندما يرى A، فإنه يسلك فى وجود A كما يفعل الرجل الذى يعتقد فى المقدمة العامة. " A دائما ما يتبعها B" . ولكن الحيوان لا يعتقد فى أى وقت فى أى شىء يمكن التعبير عنه فقط بالكلمات بذكر كل من A وB . قد نلاحظ أن A حتى الآن يتبعها دائما B أو قد نلاحظ أن القانونين "A تسبب توقعB" و"توقع B يتبعه A". هذان القانونان سوف يبدآن فى أن يصيرا صادقين فى وقت لاحق عن خبرتنا الأولى بالقانون الأول بأن A يتبعها B، حيث إن عدداً معيناً من الخبرات بالقانون الواحد تعد ضرورية لتسبب حالات من القانون "A يسبب توقع B". أى واحد من القوانين الثلاثة قد يفشل فى أى لحظة، ولكنى أناقش الحالة التى لا يحدث فيها ذلك.

(٦)

أهمية ما سبق هو أنه يوضح محدودية استقراء الحيوان. هذا لا يقود أبدًا إلى الاعتقاد فى مقدمة عامة " A يتبعه B"، وإنما فقط أنه عندما يحدث " A تقود إلى" B

سوف يحدث". الاعتقاد فى قوانين عامة مهما كان استقرائيا، ومهما كان خاطئًا يتطلب تطورًا فكريا أعلى مما يتطلبه ما يمكن أن يسمى "سلوكًا استقرائيا" فى وجود المنبه A. عندما نتحدث براجماتيا، هناك فرق أساسى فى أن الاعتقاد فى قانون عام، فى مقابل عادة الحيوان، يمكن أن يؤثر فى الفعل عند غياب المنبه A.

فى الاستقراء العلمى، لا يوجد التوقع بمدلوله المحدود السابق. فلنأخذ واحدًا من الاستقراءات المبكرة، وهو الاكتشاف المصرى لدورية الخسوفات. الأحداث هنا بعيدة جدا لدرجة لا يمكن توقع حدوثها بالمفهوم الفيزيائى. فى الاستقراء العلمى، يلاحظ أن الحدثين A وB يحدثان معًا أو بتتابع زمنى وثيق ولكن لا تنتج أى توقعات فيزيائية، وإذا حدث فإنه يعد بلا أهمية. فرضية أن A دائمًا يصحبه أو يتبعه B تسبق الاعتقاد بأن هذا هو الحال ولا يكتسب الاعتقاد أبدا الخاصية اللحظية للتوقع الحيوانى. اعتقادنا العنيد فى الاستقراء يبدو أن له علاقة بالتوقع الحيوانى. ولكن هذا سؤال سيكولوجى بحت وليس له أهمية فى البحث.

يجب أن نحاول تحليل ما يعبر عنه بالكلمات " A دائما ما يتبعه B". ما يتم التعبير عنه لا يمكن أن يكون مجرد أنه عندما تكون لى خبرة بـ A أتوقع B، لأن هذا قانون عام آخر لا بد من تحليله، ويقودنا إلى العودة مرة أخرى إلى ما كنا عليه. ما يتم التعبير عنه لا بد وأن يكون اعتقادًا يشتمل على كل من A وB، وليس مجرد علاقة سببية بين معتقد يشتمل على A ومعتقد آخر يشتمل فقط على B.

(٧)

افترض أننى أعتقد أن كل البشر فانون، فما هو الشىء الذى يجب أن يحدث فى داخلى؟ أعتقد أن معتقدا كهذا يكون أحيانا تأكيديا وأحيانا سلبيا عند تفسير هذه الدلالات سيكولوجيا. الاعتقاد يكون تأكيديا عندما يتم قبوله وسلبيا عندما يتم رفضه. بالتالى "كل البشر فانون" عندما يكون تأكيديا سوف يشتمل على علاقة ما بين الخبرين "بشر" و "فانون" ولكن عندما يكون سلبيا قد يمثله السؤال "إنسان لا يفنى؟" تتبعه الإجابة "لا". السيكولوجية هنا تختلف فى الحالتين. فلنأخذ الحالة التأكيدية أولا.

قد يعتقد أن "ما هو إنسانى هو فانٍ" يمكن تفسيرها فى الجانب الموضوعى، كعلاقة بين الخبرين "إنسانى" و "فانٍ". قد نقول "المعتقدات "A إنسانى" و "B إنسانى".. إلخ كلهم باعتبارهم أحداثًا بالنسبة للمعتقد لهم شيء مشترك، هذا الشيء هو ما يعبر عنه الخبر "فانٍ". قد يغرينا أن نقول إن واحداً من هذه الأخبار تتضمن الآخر ونستعمل هذا كتحليل لما يعبر عنه بواسطة "كل البشر فانون".

التفسير الأرسطى يتجاوز حقيقة أن العلاقة ليست بين الأخبار عامة ولكنها بين الأخبار عن موضوع واحد. "A إنسانى" تشمل "A فانٍ" ولكن ليس أن "B فانٍ" لا نستطيع بالتالى إزالة الموضوع المفترض والصورة الافتراضية فى تفسير "كل البشر فانون".

عندما أعتقد أن "كل البشر فانون"، فإننى أعتقد إذا كنت من علماء المنطق، أنه "لكل قيمة ممكنة لـ X، إذا كان X إنسانيا فإن X يكون فانيا. لأنه لو كان هذا هو الحال، فسوف يكون لدى معتقدات معادلة لكل قيم X، وإذا كان a ممكنا كقيمة لـ X فلا بد وأن أكون معتقدا "إذا كان a إنسانيا فإن a يكون فانيا"، ولكنى ربما لم أسمع أبدا عن a وبالتالى أكون غير قادر على هذا الاعتقاد. بالتالى فالمعتقد بأن كل البشر فانون هو أحد المعتقدات، والعمومية هى جزء من المعتقد. وهو مقصود بدلالة أننى أستطيع أن يكون عندى الاعتقاد دون معرفة كل البشر الموجودين.. فما إن أفهم كلمة "إنسان" و"فانٍ" إلا ويتوافر لدىَّ كل شيء فيما عدا العمومية وهى المطلوبة لفهم "كل البشر فانون".

(٨)

لاحظنا أن المقدمات العامة لا يمكن تفسيرها على أنها عادات رغم أنها وراثيا تتعلق بالعادات. يتضح ذلك من الأسباب التالية. أولا: المقدمة العامة مطلوبة من أجل بيان أن شخصاً ما له عادة معينة، فلا بد وأن يكون بمقدورنا القول "السيد A دائما ما يستجيب للمنبه A بالفعل B ". إذا حاولنا بالتالى استعمال العادة لشرح المقدمات العامة فسوف ندخل فى انحدار لا نهاية له. ثانيا: المقدمات العامة ليست مفهومة فقط وإنما تؤثر على أفعالنا فى غياب المنبه للعادة المرتبطة بها.

افترض أننى أعتقد أن "كل الزراف البرى يعيش فى أفريقيا" فلا يعنى ذلك مجرد أننى عندما أرى زرافة برية سأعتقد "لا بد وأنها فى أفريقيا"، فإنها تعنى أيضا أننى حينما أبدأ التفكير فى حملة صيد كبيرة سأفكر "إذا أردت اصطياد زراف فسوف يكون علىَّ الذهاب إلى أفريقيا". ثالثا: عندما أكتشف مقدمة عامة بطرق علمية، فالمعرفة التى أحصل عليها سابقة لأى عادة متعلقة بها. الاعتقاد فى أن المعادن موصلة للكهرباء قد يؤدى إلى عادة، ولكنه لم ينتج عن عادة.

لا بد من تبنى التفسير البديل الذى فيه تفسر المقدمة على أنها تنكر مقدمة وجود "ليس A هو B " تنكر "بعض A هو B" وكـذلك "كل A هو B" تنكر "بعض A ليس B" فمن وجهة النظر هذه فإن "ليس A هو B" أبسط من "كل A هو B" وسوف نناقشها أولا.

فيما يتعلق بالفروض الفعلية ناقشنا الرجل الذى عند سواله "هل تسمع أى شىء؟" أجاب "لا، لا أسمع شيئًا". هذا الرجل، قلنا إنه ألزم نفسه بالتعميم: "كل شىء فى الكون ليس صوتًا مسموعًا بواسطتى الآن". مهما كان ذلك صادقًا فقد يعتبر ما يتم التدليل عليه، فمن المستحيل الاعتقاد أنه صادق فيما يعبر عنه. فلننظر فيما إذا كان بإمكاننا الوصول إلى تفسير غير محتمل لما هو معبر عنه.

فلننظر إلى سلسلة أحكام إدراك "أنا أسمع A"، "أنا أسمع B"، "أنا أسمع C".. إلخ. كل هذا به شىء مشترك يتعلق بمنبه للمراكز السمعية وطراز معين من الإحساس. ما يشتركون فيه هو ما تعنيه كلمة "أسمع" ويعبر عن ذلك "أنا أسمع شيئًا" والذى هو من ناحية التعبير أبسط من "أنا أسمع A".

(٩)

رأينا فى فصل سابق أن هناك طرازين من التأكيد: أحدهما ينتمى لأحكام الإدراك ويحدث فقط فى لغة الأشياء وليس له تضاد تلازمى، والآخر يمكن أن يحدث فقط فى اللغات من المستوى الأعلى وينشأ عندما يتم النظر إلى مقدمة ثم قبولها.

الطراز الثانى له تضاد تلازمى عندما تكون المقدمة، بعد النظر إليها مرفوضة. رفض مقدمة هو من الناحية السيكولوجية تثبيط للدوافع التى يمكن أن يؤدى إليها الاعتقاد فى المقدمة، وبالتالى يشتمل دائماً على توتر لأن الدوافع المرتبطة بالاعتقاد ليست غائبة وإنما تتقلص نتيجة قوة مضادة.

فلنطبق ذلك على شخص يعطى إجابة سلبية للسؤال عمًّا إذا كان يسمع شيئا. رأينا ما يعبر عنه "أنا أسمع شيئًا". السؤال أدى بالرجل إلى أن ينظر فى المقدمة وبعد النظر فيها يرفضها ويعبر عن رفضه بالكلمات "أنا لا أسمع شيئاً".

فى حالة المقدمة العامة التأكيدية "كل A هو B" يوجد تعقيد إضافى وليست صعوبة جديدة. فلنأخذ "كل البشر فانون" فقد يفسر على أنه "هل هناك بشر ليسوا بفانين؟ لا" يمكن تبسيط العملية كالتالى. عندما نحكم "A إنسان وليس فان" فإننا نقبل "A إنسان" ونرفض "A فان". الأعمال التى من هذا الطراز، أى وضع B، C .. إلخ مكان A كلها تشترك فى شيء وهو الاعتقاد الذى تعبر عنه الكلمات "بعض البشر ليسوا بفانين". عندما نرفض هذا الاعتقاد فإننا نكون فى حالة تعبر عنها الكلمات "كل البشر فانون" هذه الكلمات تعبر عن التضاد المزدوج أو سيكولوجيا تثبيط لمثبط. الطرز قبل الكلامية من هذه العملية درسها بافلوف فى الكلاب.

(١٠)

لا بد من البحث الآن عما يدلل عليه المعتقد العام وكيف يمكن أن نعرف أن معتقداً عاما يعد صادقًا.

يجب أن نتذكر أن العالم يمكن وصفه بكامله بدون استخدام أى كلمات منطقية. بدلا من "كل البشر فانون" يمكننا القول "سقراط فان"، "أفلاطون فان" وهكذا. فى الحقيقة سيأخذ ذلك وقتًا طويلاً ومفرداتنا الكلامية لن تكفى. بالتالى لا بد من استعمال مقدمات عامة. ولكن الخاصية الذاتية للكلمات المنطقية التى تظهر فى ذلك، أى حالة

العالم التى تجعل مقدمة عامة صادقة يمكن فقط التدليل عليها بواسطة مقدمة عامة. إذا كانت "كل البشر فانون" ستكون صادقة فلا بد من وجود أحداث هى موت A وأخرى هى موت B وهكذا لكل البشر. لا يوجد فى العالم شىء مثل "موت كل البشر" وبالتالى لا يوجد مفسر لـ "كل البشر فانون".

وفقا للمنطق الحديث، "كل البشر فانون" هو بيان ليس فقط عن البشر وإنما عن كل شىء. هذا تفسير محتمل وبالتأكيد الأكثر مناسبة للمنطق. ولكن من الصعب ألا نعتقد أن البيان يمكن تفسيره بحيث يكون مقتصراً فقط على البشر. فلنختبر ذلك.

إذا أردت أن أجعل البيان "كل البشر فانون" قاصرة على البشر لا بد أن يكون عندى تعريف واسع للبشر. افترض أننى قلت "A وB وC ... وZ والباقى من الكون لا أهمية له. هذا صحيح إذا كان البشر مجموعة متعارفًا عليها، ولكن إذا كان البشر هم الذين يعرفون بأنهم أشياء تشتمل على خبر معين، فكيف لى أن أعرف أن قائمتى A وB ... Z هى قائمة كاملة؟ فى الحقيقة فإنه فى حالة البشر أعرف أن أى قائمة هى غير كاملة، ويرجع ذلك إلى معرفتى المحدودة، لكن بالنسبة لكائن عليم، قد يكون متأكدا من أن القائمة كاملة. ولكن بفضل معرفته بكل شىء؛ سيعرف فيما يختص بكل شىء خارج القائمة، إنه ليس بشريا وأن هذه المعرفة ضرورية.

(١١)

هذا لا يعد قاطعا بدرجة كافية. فبإهمال طريقة المعرفة، نفرض أنه فى الحقيقة A وB وC ... Z هم كل البشر الموجودون، ولنفترض أن هناك حادثات توصف بطريقة صحيحة على أنها موت A وموت B وموت C .... موت Z.

فى الحقيقة فإن كل البشر فانون تكون صادقة فعدد الأحداث المطلوبة لتأكيد صدق "كل البشر فانون" هو نفسه عدد البشر وليس أكثر. الأحداث الأخرى ضرورية لكى نعرف أن قائمتنا مكتملة وليس أنها قد تكون مكتملة. قد نستنتج بالتالى أن

الأحداث المطلوبة لجعل بيان عن كل البشر صادقًا هى كثيرة كالبشر، ليس أكثر. هذه الأحداث جميعًا هى المفسر للبيان محل الاعتبار.

المقدمة التى وصلنا الآن إليها مشابهة تماما لـ "لا يوجد جبن فى الكرار" التى ناقشناها فى فصل سابق. يتطلب إثبات ذلك مسح وجه الأرض لنوجد مجموعة من المقدمات السلبية، تعتمد على ما يشبه "هذا ليس أزرق".

وفقًا لما سبق، فإن ما يدلل عليه البيان العام من الطراز "كل A هو B" عبارة عن مجموعة من الحادثات، واحد لكل A. هذه المجموعة هى "المفسر" للبيان العام: عندما يحدث كل عضو من المجموعة، يكون البيان صادقًا، وعندما لا يحدث أى عضو منها فالبيان زائف.

بالنسبة للسؤال: كيف يمكننا معرفة المقدمات العامة الفعلية، رأينا أن البعض من بين هذه البيانات يمكن معرفته بواسطة إحصاء ويحدث ذلك عندما تكون الأشياء موضع الاعتبار محصورة فى منطقة من المكان - الزمان هو فى جوارنا وليس منها ما هو فى المستقبل. ولكن هذه حالة استثنائية وربما عند تحليل معرفتنا بالمكان - الزمان تحليلا مناسبا لا نجد أن هناك استثناءً حقيقيا. بالتأكيد فى كل الحالات الأخرى من المستحيل أن نعرف أننا قد قمنا بعمل إحصاء كامل، ومعرفتنا بالمقدمة *العامة لا بد من أن نحصل عليها بطرق أخرى.*

أعتقد أنه لو سُمِح لنا بمعرفة أى تعميمات فعلية فيما عدا تلك المشتقة من إحصاء، فكلمة "يعرف" يجب أن تستعمل بحرية أكثر مما هو قائم. يمكن أن يقال إننا "نعرف" مقدمة إذا كانت صادقة ونصدقها وفقا لأفضل دليل متاح. ولكن إذا كان هذا الدليل ليس قاطعا، فلن نعرف ما إذا كانت المقدمة صادقة، وبالتالى لن نعرف مطلقًا ما إذا كنا نعرفها. من المأمول أن الدليل الاستقرائى سيجعل التعميم الفعلى ممكنًا. هذا يأخذنا إلى منطقة تقع خارج نطاق هذا العمل ولن أقول شيئا أكثر بالتالى عن هذا الموضوع.

* * *



الفصل التاسع عشر

التوسعية والذرية

(١)

تحليل مقدمة مثل "A يعتقد فى P"، "A يشك فى P" .. إلخ يؤدى إلى مشكلتين لهما أهمية كبيرة من الناحية المنطقية.

فى الفصول السابقة التزمت الصمت فيما يتعلق بالأمور المنطقية ولكن ذلك لا يمكن تجنبه فيما يختص بالفصل الحالى، فمرحلة المنطق تبدو ضرورية قبل العودة إلى موضوعنا الرئيسى.

المشكلتان المنطقيتان اللتان تنتجان فيما له علاقة بالسلوك التقديمى هما التوسعية والذرية، الأولى نوقشت كثيراً بواسطة المنطقيين المحدثين بينما الأخيرة أهملت تماماً تقريباً.

قبل البدء فى "أطروحة التوسعية" كما يسميها كارناب، من الضرورى أن نقول شيئا عن نظرية دوال – الصدق ونظرية الأقسام. نظرية دوال الصدق هى أبسط قواعد المنطق الرياضى وتتعلق بكل ما يمكن أن يقال عن مقدمات بواسطة "أو" و"ليس". بالتالى "P و q" هى مضاد "ليس P أو ليس – q". أكثر العلاقات عمومية بين P و q والتى تسمح لنا إذا عرفنا P أن نستنتج q هى "ليس P أو q" . أو افترض أنك تريد أكثر العلاقات عمومية والتى عند معرفة P و q تمكننا من استنتاج r ، فإنها ستكون

"ليس P أو ليس q أو r، قاعدة الوسط المستبعد هو "p أو ليس p" وقانون التناقض هو مضاد "P وليس p". يقال إن مقدمتين "متكافئتين" عندما تكون كلتاهما صادقة أو كلتاهما زائفة، أى عندما يكون لدينا "إما p و q وإما ليس –p وليس –q". ويقال إن المقدمتين المتكافئتين لهما "قيمة – الصدق" نفسها.

(٢)

بدلا من أن نبدأ بـ "ليس –p" و "p أو q"، قد نبدأ بدالة غير محددة "p و q ليس كلاهما صادق". نشير إلى ذلك بواسطة "p/q" ونسميها دالة–شرطة.

من الواضح أن "p/p" مكافئة لـ "ليس –p" لأنه لو أن p و p ليس كلاهما صادق، فإن p ليست صادقة والعكس صحيح.

مرة أخرى، "p أو q" تكافئ "ليس p وليس q ليس كلاهما صادق"، أى بالنسبة p/p و q/q ليس كلاهما صادق أى "(p/p)/(q/q)". بالتالى فإن "أو" و "ليس" يمكن تعريفهما بدلالة دالة الشرطة. يتبع ذلك أن كل شىء يمكن أن يتم تعريفه بمدلولية "أو" و "ليس" يمكن تعريفه بمدلولية دالة–الشرطة.

أى مقدمة مبنية من مقدمات عن طريق الشرطة، تعتمد فى صدقها على قيم الصدق لمكوناتها من هذه المقدمات، لأن p و q ليس كلاهما صادق. الدوال فى هذه الحالة تسمى "دوال الصدق" وكل الدوال المطلوبة فى نظرية الاستنباط هى دوال الصدق.

أول جزء من قاعدة التوسيعة، أى الصدق أو الزيف اللذين نختبرهما، ينص على أن كل الدوال لمقدمات هى دوال–صدق، أى أنه بالنسبة لأى بيان يشتمل كجزء منه على المقدمة p تكون قيمة الصدق له غير متغيرة، إذا حللنا محل p أى مقدمة q لها قيمة الصدق نفسها مثل p .

(٣)

نأتى الآن إلى "دوال المقدمات" وهى تعبير يشمل واحداً أو أكثر من المكونات غير المحددة X و Y.. بحيث إذا حددنا ماهيتها تكون النتيجة مقدمة. بالتالى "X هو إنسان" دالة مقدمة بحيث إذا حددنا قيمة لـ X تكون النتيجة مقدمة، ومقدمة صادقة إذا حددنا X بأنها سقراط أو أفلاطون وتكون مقدمة زائفة إذا حددنا X بأنها سربروس أو باجاسوس. القيمة التى تكون صادقة وفقا لها تشكل فئة البشر. كل دالة مقدمة تحدد فئة، أى فئة القيم للمتغير الذى تكون صادقة معه.

يقال إن اثنتين من دوال المقدمة "متكافئتان" إذا كان لكل قيمة ممكنة من المتغير تكون المقدمات الناتجة متكافئة بالتالى "X هو إنسان" و "X هو حيوان يمشى على قدمين وعديم الريش" متكافئان وكذلك "X هو عدد أصلى زوجى" و "X هو الجذر التكعيبى للعدد 8". عندما تكون دالتان لمقدمة متكافئتين فإنهما تحددان الفئة نفسها.

عندما أقول "البشر فانون"، فإن هذا يعنى "إذا كان X إنسان، فإن X فان لكل القيم المكنة لـ X". من الواضح أنه إذا كان البشر فانين فكذلك الحيوانات ثنائية القدم عديمة الريش. هذه المقدمات توضح حقيقة أنه إذا كانت دالتا مقدمات متكافئتين فإن العديد من البيانات التى هى صادقة لأى منهما تكون صادقة للآخر.

الجزء الثانى من قاعدة التوسعية تنص على أن هذا هو الحال دائما، أى فى أى بيان عن دالة مقدمة فإن أى دالة مكافئة يمكن أن تحل محلها دالة دون أن يغير ذلك قيمة الصدق للبيان.

(٤)

وضع كارناب "أطروحة التوسعية" فى صورة أضعف والتى بتبسيطها قليلا يمكن وضعها كالتالى: من الممكن بناء لغة يترجم إليها أى بيان بأى لغة، على أن يكون لها

الخاصيتان (١) إذا حدثت المقدمة P كجزء من مقدمة أكبر "q" فإن قيمة الصدق لـ "q" لا تتغير إذا كان ما يحل محل P مقدمة لها قيمة الصدق نفسها. (٢) إذا حدثت دالة مقدمة فى مقدمة، فقيمة الصدق للمقدمة لا تتغير بإحلال أى دالة مقدمة مكافئة (أى دالة مقدمة صادقة لنفس قيم المتغير).

تجديد كارناب هو فى وضع القاعدة ليس على أنها صادقة فى كل لغة وإنما صادقة فى لغة معينة ممكنة يمكن ترجمة كل البيانات باللغات الأخرى إليها.

أطروحة التوسعية ليست صادقة للمقدمات التى تؤكد سلوكيات تقديمية إذا كان A يعتقد P وكان P صادقا فليس بالضرورة أن A يعتقد فى كل المقدمات الصادقة ولا إذا كانت P زائفة سيعتقد A فى كل المقدمات الزائفة. مرة أخرى، A قد يعتقد أن هناك كائنًا ثنائى القدم عديم الريش ليس إنسانا دون أن يعتقد أن هناك بشرا ليسوا بشرا. بالتبعية، الذين يصرون على نظرية التوسعية يجب عليهم إيجاد طريقة ما فى التعامل مع السلوكيات التقديمية. الأطروحة يبدو أنها ظلت قائمة لأسباب عديدة، فهى مناسبة جدا للمنطق الرياضى، وهى ضرورية للحفاظ على المادية والسلوكية ليس فقط كنظم ميتافيزيقية، ولكن أيضا فى المدلولات اللغوية التى يتبناها كارناب. ولكن أيا من هذه الأسباب يعطى مبررا لافتراض أن الأطروحة صادقة.

(٥)

أطروحة الذرية وضعها وتجنشتين على النحو التالى: "كل بيان عن معقدات يمكن تحليله إلى بيان عن أجزائها المكونة لها وإلى تلك المقدمات التى تصف تمامًا المعقدات".

هذا الأطروحة مناسبة لتحليل السلوكيات التقديمية. ففى "A يعتقد P" تكون P معقداً، وبالتالى إذا كانت قاعدة وتجنشتين صادقة فإن "A يعتقد P" التى تبدو كبيان عن المعقد P لا بد من تحليلها إلى بيان عن الجزء من P مع المقدمات التى تصف P. ويعنى هذا أيضا أن P كوحدة لا تدخل إلى "A يعتقد P" وإنما مكوناتها فقط هى التى تدخل.

أطروحة الذرية لها شكل معين، ومن المهم للمنطق معرفة ما إذا كانت صادقة فى هذا الشكل. بعض التفسيرات الأولية تعد ضرورية قبل وضع قواعدها فى صورة بيان.

لغة الأشياء كما رأينا تشتمل على مخزن من أسماء الأعلام، مسندات، العلامات الثنائية، والثلاثية.. إلخ. أى علاقة يمكن أن تتوافق مع أى أسماء أعلام n (ليست مختلفة بالضرورة) لتكوين مقدمة.

افترض... n1, n2, n3 هى أسماء أعلام،... P1, P2,P3 هى مسندات و... R_1, R_2, R_3 علاقات ثنائية، ... S_1, S_2, S_3 علاقات ثلاثية ... إلخ.

فإن $P_1 (n_1)$ تمثل " n_1 له المسند P_1"

$R_1 (n_1, n_2)$ تمثل " n_1 لها العلاقة R_1 بـ R_2"،

$S_2 (n_1, n_2, n_3)$ تمثل أن لكل n_1, n_2, n_3 (بهذا الترتيب) توجد العلاقة S_1 وهكذا.

كل المقدمات المتحصل عليها بهذه الطريقة تسمى "مقدمات ذرية" فلنأخذ المقدمات الذرية P، q ونضعهما معًا بشرطة مثل P/q. المقدمات المتحصل عليها بالإضافة إلى المقدمات الذرية تعطينا مجموعة واسعة من المقدمات. إذا جمعنا أى اثنين من هذا المجموع الواسع بواسطة الشرطة، نحصل على مجموع أكبر. ولنستمر فى ذلك بلا توقف. المجموع الكلى للمقدمات المتحصل عليها بهذه الطريقة تسمى "مقدمات جزيئية" لأنها مثل الجزيئات المكونة من ذرات.

تخليق مقدمات جزيئية بواسطة شرطة تعنى إدخال عملية جديدة لتخليق مقدمات تسمى "تعميمات".

(٦)

لتوضيح عملية التعميم بالتفصيل، فلننظر إلى البيان التالى: "إما أن سقراط إنسان وليس فانيًا وإما أن سقراط ليس إنسانًا، أو أن سقراط فان". هذه تعد مقدمة منطقية ضرورية. فإذا كانت مقدمة ما صادقة بالنسبة لسقراط فإنها تكون صادقة لآخر.

فالبيان السابق يظل صادقًا إذا حللنا "أحد" محل "سقراط". بهذا نصل إلى المقدمة التالية: "هناك أحد ما له الخاصية أنه إما إنسان ولكن ليس فانيا، وإما أن سقراط ليس إنسانًا، أو أن سقراط فان". (الأحد موضع الاعتبار نعرف أنه سقراط ولكننا نهمل هذه المعرفة). نقوم بعد ذلك بتقسيم المقدمة بالقول "أحد ما إنسان ولكن ليس فانيا، أو سقراط ليس إنسانا أو سقراط فان". بهذا يكون لدينا ثلاثة بدائل وبالتالى إذا كان الأول زائفا فإن واحداً من الاثنين الباقيين يجب أن يكون صادقًا. فإذا كانت "أحد ما إنسان ولكن ليس فانيًا" زائفة، فإن "كل البشر فانون" صادقة. بذلك نصل إلى "إذا كان كل البشر فانين فإنه إما سقراط ليس إنسانًا وإما سقراط فان"، وهى تكافئ "إذا كان كل البشر فانين فإذا كان سقراط إنسانًا فإن سقراط فان" وصلنا لهذه النقطة من مقدمتنا الجزيئية الأصلية باستعمال "أحدٌ ما" وكان "سقراط" وهى العملية المنطقية التى بها عندما تكون a لها خاصية معينة، نستنتج "شيئًا ما له الخاصية a".

بياننا الأخير يحتوى على ثلاثة "ثوابت" هى "سقراط" و "إنسان" و "فان" ولكل منها نقوم بالتعميم بأن نحل X محل سقراط و a محل إنسان و B محل فان ونضع النتيجة لكل القيم الممكنة للمتغيرات وبذلك نحصل على "لكل القيم الممكنة لـ X، a، B، إذا كانت كل A هى B وكانت X هى a، فإن X هى B". هذه مقدمة منطق كانت مقدمتها الأصلية حالة. المهم أننا وصلنا إلى مقدمة.

(٧)

القاعدة التى يتم وفقًا لها تخليق مقدمات بدرجات مختلفة من التعميم من مقدمات جزيئية هى كالتالى:

فلتكن $\varnothing$ ($R_1, R_2, R_3 \ldots P_1, P_2, P_3 \ldots a_3, a_2, a$]) مقدمة جزيئية تحتوى على أسماء الأعلام a_1, a_2, a_3.. والمسندات P_1, P_2, P_3 والعلاقات الثنائية R_1, R_2, R_3. كل هذه تسمى "مكونات" للمقدمة موضع السؤال، أى واحد أو أكثر منها يمكن أن يحل محله متغير والنتيجة تكون خاصة بقيمة أو بكل القيم الممكنة للمتغير. يعطينا هذا توفيقات

كبيرة للمقدمات العامة كلها مأخوذة من المقدمة الجزيئية الأصلية. خذ كأبسط حالة "سقراط حكيم". يقود هذا ونتيجة لما سبق إلى المقدمات التالية:

- شيء ما حكيم
- كل شيء حكيم
- سقراط له بعض المسندات
- سقراط له كل المسندات.
- شيء ما له بعض المسندات.
- كل شيء له كل المسندات.
- توجد بعض المسندات لكل شيء.
- شيء ما له كل المسندات.
- كل مسند ينتمي إلى شيء ما.
- كل شيء له كل المسندات.

عملية إحلال بعض القيم أو كل القيم لمتغير تسمى "تعميماً".

الصورة التكنيكية لقاعدة الذرية تفترض أن كل المقدمات إما هي ذرية وإما جزيئية، أو تعميمات لمقدمات جزيئية أو على الأقل أن اللغة التي تكون صادقة فيها ويمكن ترجمة أي بيان إليها، يمكن بناؤها. لا بد وأن يكون هذا صادقا إذا كانت قاعدة وتجنشتين صادقة، والعكس ليس صحيحاً. ما يعد مفيدا للمنطق هي الصور الذرية وإضعاف أطروحة وتجنشتين بما يجعلها أكثر ترجيحا هو كالتالي:

الاسم N قد يكون اسماً معقداً، ولكن قد لا يشتمل في حد ذاته على أي معقد منطقي ولا أي أجزاء رمزية. هذا هو حال كل الأسماء التي توجد فعليا. قيصر كان معقدا ولكن "قيصر" هو أبسط منطقيا لأنه ليس فيه ما يعد رمزيا. أطروحة وتجنشتين

لا يجب تطبيقها على كل شىء يعد معقدا وإنما على الأشياء التى سميت بأسماء معقدة مثل رغم أن "قيصر" اسم بسيط فإن "موت قيصر" يعد معقداً. فبدلا من الجملة "كل بيان عن معقدات" التى ظهرت فى بدايات وتجنشتين سوف نضع مكانها: "كل بيان عن معقدات فيها التعقيد يصبح مبسطًا بهذا البيان".

(٨)

فى أى من الأطروحتين التوسعية والذرية من الضرورى التمييز بين P فى "A يعتقد فى P" و "P" فى "P أو q". إذا كان الاثنان متماثلين فمن المستحيل بناء منطق توسعى بحت ويكون من المستحيل الإبقاء على الطبيعية بمدلول كارناب. محاولة التمييز بين طرازى الـ P كما أجراها وتجنشتين. هو يقول:

"فى الصيغة العامة للمقدمة، تحدث المقدمات فى مقدمة فقط كقاعدة لعمليات الصدق.

"عند النظرة الأولى قد تبدو كما لو أن هناك طريقًا آخر فيه مقدمة معينة يمكن أن تحدث فى مقدمة أخرى.

"خاصة فى أشكال تقديمية معينة لعلم النفس مثل ´A يعتقد أن P هى الحالة، أو 'A يعتقد 'P .. إلخ.

"هنا يظهر سطحيا كما لو أن المقدمة P تمثل الشىء A فى طراز معين من علاقة.

"ولكن من الواضح أن ´A يعتقد أن 'P و 'A يظن 'P و A يقول 'P كلها من الطراز ' "P" يقول P" وهنا لا يوجد تناسق لحقيقة وشىء، وإنما تناسق لحقائق بواسطة تناسق لأشيائها.

"يوضح ذلك كيف أن لا وجود لشىء مثل الروح - الشخص حيث إنها تدرك بالسيكولوجية السطحية المعاصرة".

فلتوضح وجهة النظر هذه:

بشكل عام، عندما تحدث كلمة فى جملة فنحن لا نتحدث عن الكلمة وإنما عن ما تعنيه، فعندما نرغب فى الحديث عن الكلمة نضعها بين قوسين. فالجملة إذن "سقراط هو اسم سقراط" ليس لغوا، فأنت تعلم مقدمة من هذا الطراز عند تقديمك إلى شخص لم تسمع عنه من قبل. عندما تكون كلمة "سقراط" ليست بين قوسين فأنت تتحدث عن الرجل وليس عن الكلمة. بالكيفية نفسها عندما ندعى مقدمة ما، فإننا لا نقول شيئا عن الكلمات وإنما عن ما تعنيه الكلمات، وإذا أردنا أن نقول أى شىء عن الكلمات فلا بد أن نضعها بين قوسين. هناك فرق بين المقدمات والكلمات المفردة. الكلمات المفردة، ككلمات الأشياء لها معنى خارج اللغة ولكن المقدمات لأنها يمكن أن تكون زائفة لا بد عندما تعبر عن مدركات، أن يكون لها علاقة أقل بالأشياء. فالتمييز بين "P" و P ليس بسيطا كالتمييز بين "سقراط" وسقراط.

فالتمييز المهم هو بين ما تعبر عنه P وما يدلل عليه. لا يقتصر هذا التمييز على المقدمات وإنما يوجد فى حالة كلمات الأشياء أيضا.

(٩)

إذا صحت "حريق" فإننى أعبر عن حالتى الخاصة وأدلل على حدث يختلف عن حالتى. الكلمة المفردة هى جملة كاملة، ينطبق هذا على كلمات الأشياء، بينما الكلمات الأخرى فلا تحدث إلا كجزء من جملة. استعمال كلمات الأشياء لجملة نداء هو استعماله الأساسى ويشتق منه استعمالها كجزء من جمل أكبر. الجملة التى تميز كلمة "الشىء" يكون لها الخاصيتان: التعبير والتدليل.

الجملة الجوهرية لها خاصية غير لغوية، وهى الجوهرية والتى ليس لها علاقة بالصدق أو الزيف لأنها ذاتية بدرجة أكبر، يمكن تعريف جوهرية الجملة بما تعبر عنه وهى حالة المتكلم والتى يمكن تسميتها "اعتقاداً" إذا كانت الجملة استنتاجية.

مما سبق يتضح أن هناك ثلاث طرق وليس اثنتين يمكن أن تحدث بها الجملة.

الأول: قد يكون اهتمامنا بالألفاظ الفعلية، وهذه هى الحالة التى نستخدم فيها الأقواس، على سبيل المثال، قد ندعى: قيصر قال "جاكتا إست آليا". الشخص الذى لا يعرف اللاتينية يستطيع معرفة أن قيصر قال ذلك، فليس ضروريًا أن يعرف معنى ما قاله قيصر. بالتالى فكلمات "جاكتا إست آليا" تحدث هنا ككلمات وليس على أنها تشتمل على معنى.

الثانى: قد يكون اهتمامنا بما تعبر عنه الجملة ولا يعنينا ما تدلل عليه، يحدث ذلك عندما ندعى: قال قيصر لقد صدر حكم الموت. هذه الكلمات تحدث على أن لها جوهرية، فقيصر لم يستعمل هذه الكلمات ولكنه استعمل كلمات لاتينية تعبر عن الحالة نفسها. لو قلنا إن قيصر قال "لقد صدر حكم الموت" فإن ادعاءنا سيكون زائفا لأنه سوف ينطوى على أنه تحدث بالإنجليزية. فعندما نقول "قال قيصر لقد صدر حكم الموت"، فإن جوهرية الكلمات "لقد صدر حكم الموت" واضحة ولكن ليست دلالتها واضحة، لأنها غير مهمة سواء صدر حكم الموت أو لا.

ثالثا: قد ينصب اهتمامنا ليس على ما تعبر عنه الجملة فقط، ولكن على ما تدلل عليه أيضا. قد أقول: "صدر حكم الموت كما قال قيصر بصدق". عندما أقول "صدر حكم الموت"، فإننى أدعى ادعاءً يكون صادقًا إذا كانت الجملة تدلل على شىء ما، وزائفًا إذا لم تكن. لكل جملة دلالية، تكون الدالة مهمة ولكن الجمل التابعة قد يكون ما تعبر عنه هو المهم فقط. يحدث هذا على وجه الخصوص فيما يتعلق بـP فى "A يعتقدP". عند وضع جملة "B محتر" محل "P" فإننا عند قولنا A يعتقد أن B محتر نقول أن A هو فى حالة ستقوده إذا تحدث إلى القول بأن "B محتر" أو شيئًا له الجوهرية نفسها. لم نقل إن هذه الكلمات هى فى عقل A، فقد يكون فرنسيا ويقول جملة بالفرنسية. ما نقوله فى الحقيقة لا يتعلق بالكلمات "B محتر" وإنما فقط بما تعنيه الكلمات بالتالى يجب ألا توجد أقواس ويجب القول: "A يعتقد P". هل نقول "P صادق" أم "'P' صادق"؟. من المفترض عمومًا أنه يجب أن نقول الأخير، ولكنى أعتقد أن ذلك خطأ.

فلننظر إلى "من الصادق أن B محترٍ". هذا ادعاء بوجود علاقة مركبة بين قسم من التصديقات وحدث ما. ويعنى: أى شخص يقع فى أى قسم معين من الحالات [التى تعبر عنها كلمات "B محتر"] له علاقة معينة بحدث معين [أن يكون محترا أو ليس محترا أيا ما كانت الحالة].

هنا كلمات "B محتر" تدخل فقط عبر جوهرية الجملة لا الكلمات. بالتالى يجب أن نقول: "P صادقة".

(١٠)

تنجم صعوبة الموضوع من حقيقة أن الجمل وبعض الكلمات لها استعمالان غير لفظيين (أ) كأشياء دلالية. (ب) كتعبير عن حالة عقلية. قد تحدث الألفاظ عبر جوهريتها وليس ككلمات دون أن تحدث كدلالات، يحدث هذا عندما تكون معبرة فقط. الكلمات المفردة بخلاف كلمات الأشياء تعبر فقط ولاتدلل. هذا هو السبب فى أنها، على خلاف كلمات الأشياء، لا يمكن أن تكون جملاً كاملة.

ما سبق يوضح أن "P" قد تحدث بطريقتين غير لفظيتين:

(أ) عندما يكون كل من التدليل والتعبير مهمين.

(ب) عندما يكون التعبير فقط مهماً.

عندما تقع الجملة بذاتها كادعاء يكون لدينا (a) وعندما نقول "A يعتقد P" يكون لدينا (b) لأن الحدث الذى ندعيه يمكن أن يوصف بصورة كاملة دون مرجعية الصدق أو الزيف لـ. ولكن عندما ندعى "P أو q" أو أى دالة صدق، يكون لدينا (a).

إذا كان التحليل السابق صحيحاً فإن قاعدة التوسعية تنطبق على كل الحادثات لـ"P" التى فيها دلالتها المهمة، وليس على تلك التى يكون التعبير فيها هو المهم، أى أنها تنطبق على (a) وليس على (b) . هذا البيان أعتقد أنه مجرد لغو. قاعدة التوسعية فى صورتها العامة يجب، فى نظرى، رفضها.

اقترح عليَّ السيد. ن. دالكى أنه فى "A يعتقد أن B محتر" كلمات "أن B محتر" تصف ما يُعبِّر عنه بـ "B محتر" عندما تكون هذه جملة كاملة. هذه النظرة جذابة وقد تكون صحيحة. ووفقا لها، كلمات "أن B محتر" لا تشير حقيقة إلى B وإنما تصف حالة A. الوضع شبيه بذلك الذى أقول فيه "A يشم رائحة ورد". هنا ورد تأتى كوصف لحالة A. قد أعطى الاسم S للرائحة وأقول "A يشم S"، كذلك أستطيع أن أحل محل "أن B محتر". كلمات وصفية للحالة العقلية والجسمية الموجودة لأولئك الذين يعتقدون أن B محتر. هذا يجعل من الضرورى وضع تمييز قاطع بين "P" و "أن P". فأينما حدث "P" أدركنا قاعدة التوسعية، ولكن عندما تكون "أن P" هى التى تحدث فإن سبب فشل القاعدة هو أن "P" ليست هى ما يحدث.

(١١)

علينا النظر الآن إلى قاعدة الذرية. سوف أناقشها بصورة عمومية وليس بعلاقتها بجمل مثل "A يعتقد P" تتطلب النظرية فى صورتها العامة تحليلاً وحلا للسؤال: هل أسماء الأعلام للمعقدات لا يمكن الاستغناء عنها نظريا؟ لا أرغب فى النظر إلى ما إذا كانت جملاً مثل "A يعتقد P" يمكن فى لغة مناسبة التعبير عنها فى إطار هرمية الذرية، الجزيئية والجمل العامة. السؤال هو: هل نستطيع تفسير "A يعتقد P" بحيث إن P لا تظهر كمعقد تابع؟

فلنأخذ "B محتر" على أنها "P". وافقنا فى فصل سابق على أن القول A يعتقد هذا تعنى أنه واحدٌ من عدد من الحالات التى يمكن وصفها، والتى يوجد بينها شىء مشترك. إحدى هذه الحالات هى التى يقول فيها A إن "B محتر"، ولكن لا سبب هناك لافتراض أن أى كلمات موجودة بالضرورة لـ A عندما يعتقد أن B محتر.

القول بأن "A صاح أن B محتر" هو الادعاء بسلسلة من الحركات فى الأعضاء الصوتية لـ A وهى أحداث مادية بحتة يمكن وصفها تماما دون إدخال أى معقد تابع.

يبدو أن أى حالة أخرى لـ A والتى هى الاعتقاد بأن B محتر يمكن وصفها بطريقة مماثلة. يبقى رغم ذلك السؤال: ما الذى تشترك فيه هذه الحالات؟ أعتقد أن ما تشترك فيه هو سببى فقط. هذا سؤال صعب ومن غير الضرورى أن نجيب عليه بأى دقة. ولا أعتقد أن أية إجابة من المرجح أن تكون صائبة، لأنها ستتداخل مع استنتاج أن "A يعتقد P" يمكن تحليلها دون إدخال معقد تابع P فى أية حالة عندما P تكون جملة بسيطة مثل "A محتر". لو أن P جملة عامة مثل "كل البشر فانون" سيكون الأمر أكثر صعوبة. سوف أقنع بالتالى بالاستنتاج الذى وجدناه أخيرا بأنه لا جدال ضد قاعدة الذرية ولا بد وأن نصل بذلك إلى استنتاج.

١ - أن قاعدة التوسيعة لم يتضح أنها زائفة عندما يتم تفسيرها بتحليل جملٍ مثل "A يعتقد P".

٢ - أن هذا التحليل نفسه لا يثبت أن قاعدة الذرية زائفة ولكنه لا يكفى لإثبات أنها صادقة.

* * *

الفصل العشرون

قانون الوسط المستبعد

(١)

تجنبت عموما فى هذا الكتاب القضايا المنطقية، ولكن فى هذا الفصل، كما كان فى الفصل السابق، سأهتم بأمورٍ منطقية وهى ما تتعلق بقانون الوسط المستبعد. كما يعرف الجميع، تحدى بروير هذا القانون على أسسٍ معرفية وقرر مع آخرين أن "الصدق" يمكن تعريفه بمدلول قابليته "للتفنيد" فقط، وهذا مفهوم ينتمى لنظرية المعرفة. فإذا كان محقا، فإن ذلك يعنى أن قانون الوسط المستبعد وقانون التناقض أيضا ينتميان للمعرفة المنطقية ويجب إعادة النظر إليهما فى ضوء أى تعريفات للصدق والزيف تسمح بها هذه المعرفة. ناقشنا الصدق والزيف بطريقة أولية فى الفصل السادس عشر، وناقشنا محاولة تعريفهما وفقا للمعرفة المنطقية. من الواضح أنه إذا التزمنا بتعريف معين، فإن قانون الوسط المستبعد فى صورته المعتادة لا يمكن أن يكون صادقًا، بينما قانون التضاد من الممكن أن يكون كذلك. وسننظر فى هذا الفصل والذى يليه فيما إذا كنا سنضحى بقانون الوسط المستبعد أو نحاول تعريف الصدق المستقل عن المعرفة.

الصعوبات التى تكتنف كلتا النظرتين ضخمة. إذا عرَّفنا الصدق بعلاقته بالمعرفة فسوف ينهار المنطق والعديد من التسبيب المقبول بما فى ذلك الجزء الكبير من الرياضيات الذى يجب رفضه على أساس أنه غير صالح. ولكن إذا التزمنا بقانون الوسط المستبعد فسوف نجد أنفسنا ملتزمين بميتافيزيقا واقعية، ربما بدت فى روحها وليس فى نصها، غير متوافقة مع الفعلية. السؤال أساسى وله أهمية كبيرة.

(٢)

قبل محاولة تقرير ذلك، فلننظر إلى البدائل. بروير ليس مهتما بالجمل التى هى من الناحية النحوية عديمة المعنى، وإنما بالجمل الصحيحة نحويا ومنطقيا. وهو يجادل بأن "صادق" تعد مفهوما بلا فائدة ما لم تكن لدينا وسائل لاكتشاف ما إذا كانت مقدمة صادقة أم لا. لهذا يضع "قابل للتفنيد" محل "صادق" ولا يسمى مقدمة "زائفة" إلا إذا كان نقيضها قابلا للتفنيد.

تبقى فئة وسطية من المقدمات غير قابلة للتفنيد ولا نقيضها من المقدمات القابلة للتفنيد وهى التى يرفض بروير أن يسميها صادقة أو زائفة وبالنسبة لها يعتبر قانون الوسط المستبعد خطأً.

لم يصل أحد حتى الآن إلى تعريف "صادق" على أنه "ما هو معروف" فالتحديد المعرفى لـ "صادق" هو "ما يمكن معرفته". كلمة "قابل للتفنيد" تستعمل عموما وتكون المقدمة قابلة للتفنيد إذا أمكن تفنيدها. يؤدى ذلك فى الحال إلى صعوبات، لأن القابلية مفهوم غريب. إذا كان للتعريف أن يكون محدداً، فإن طراز المقصود القابلية للتفنيد يجب الكشف عنه. فى الرياضيات، بروير ومدرسته قاموا بذلك بنجاح كبير ولكن وفقًا لما أعرفه فقد منحوا قليلاً من التفكير للمقدمات العادية مثل النظريات الفرضية التاريخية التى لا يوجد عليها دليل فى أىٍّ من الاتجاهين. الكثير يجب تعلمه من "النحو المنطقى للغة" لكارناب، ولكن هو يصر على أن المقدمة العامة مثل "كل البشر فانون" والتى تعد غير قابلة لأن يتم إثباتها بصورة كاملة يجب أخذها على أنها صادقة إذا عرفت حالات كثيرة لصدقها ولم تعرف أى حالة لزيفها.

تعريف "الصدق" على أنه "ما يمكن معرفته" يجب أن يتقدم خطوة بخطوة من المقدمات الأساسية. سوف أفترض بالتوافق مع ما قيل فى الفصل الحادى عشر أن مقدماتى الحقيقية الحالية مكونة من:

١ - عدد صغير جدا يدعى مدركات حالية.

٢ – عـدد أكبر كثيرا مـن المقـدمات السلبية المشـتقـة مـن المدركات الحاليـة، كما وصلنا إلى "هذا ليس أحمر" عندما نرى زهرة الكأس.

٣ – الذكريات، طالما لا يوجد جدل يثير حولها الشك.

٤ – قانون التناقض وليس قانون الوسط المستبعد.

قانون الوسط المستبعد يكون صادقا لقسم خاص من المقدمات وهى التى يمكن مواجهتها بالمدركات. إذا أطلقت الصواريخ النارية فى الخامس من نوفمبر وقلت "احذر فسوف يحدث انفجار" فإما أن هناك انفجاراً وإما أن الصواريخ رطبة ولم يحدث انفجار. فى مثل هذه الحالة بيانك إما صادق وإما زائف، وهناك حالات أخرى مشتقة من هذا الطراز ينطبق عليها قانون الوسط المستبعد.

عندما يفشل قانون الوسط المستبعد فإن قانون التعارض المزدوج يفشل بالتبعية. إذا كانت P ليست صادقة أو زائفة فإنه من الزائف أن P زائفة، إذا انطبق قانون التعارض المزدوج، وسوف يعنى ذلك أن P صادقة بينما وفقا للفرض، P ليست صادقة أو زائفة بالتبعية، فى هذا المنطق لأن "من الزائف أن P زائفة" ليست مكافئة لـ "P صادقة".

(٣)

سوف نسمح بالتعميم الاستقرائى من مقدمات عامة. فهذان يجب أن يتضح أنهما زائفان إذا حدثت حالة سلبية، وإلى أن يحدث ذلك فسوف نقبلهما وفقا لكارناب على أنهما صادقان. أيا من الحالتين سوف نعتبرها قابلة لتطبيق قانون الوسط المستبعد. وسوف نسمح أيضا بشهادة الآخرين وفقا للحس المشترك. نستطيع الآن بناء علم، ولأننا قبلنا التعميم الاستقرائى فسوف نقبل صدق توابعهما التى لا يمكن دحضها. على سبيل المثال، سنقول إن الكسوفات حدثت فى أزمنة ما قبل التاريخ كما يقودنا علم الفلك إلى الافتراض، ولكننا سنقول ذلك بدرجة من التردد مناسبة للتعميم الاستقرائى المكون لقوانين الفلك.

نستطيع أن ندعى أو ننكر كل المقدمات التى نرى أسبابا لادعائها أو إنكارها. الصعـــوبات تأتى فى (أ) المنطـــق والرياضيات (ب) فى المقـدمات فـوق المنطقية التى لا يوجد عليها دليل فى أى من الاتجاهين.

فلنأخذ مقدمة فوق منطقية لا يتوافر عليها دليل. مثلا "سقط الجليد على جزيرة مانهاتن فى أول يناير من العام «١» بعد الميلاد". ولنسمى هذه المقدمة "P". ما الذى نعرفه عن P؟ لقبولنا التعميم الاستقرائى، يخبرنا التاريخ أنه كان هناك العام «١» بعد الميلاد، وتؤكد لنا الجيولوجيا أن جزيرة مانهاتن كانت موجودة عندئذ. نعرف أن الجليد يتساقط هناك فى الشتاء. نفهم P إذن كما لو أنها على علاقة بسقوط الجليد الذى يوجد عنه سجل تاريخى. نظريا، يمكن حساب واستنتاج المناخ الخاص بالأزمنة السابقة مثلما يستطيع عالم الفلك استنتاج الخسوفات. فعليا، هذا مستحيل ليس لأن الحسابات ستكون شديدة الصعوبة، ولكن لأن معطيات أكثر ستكون مطلوبة بما لا يمكن توفيره. لا بد بالتالى التسليم بأننا لا نملك دليلاً على ما إذا كانت P صادقة أم زائفة؛ وبالتالى نستنتج أنه إذا أمكن تعريف "الصدق" بالمعرفة، فإن P ليست صادقة أو زائفة.

رفضنا لقبول هذه النتيجة يعود إلى اعتقادنا العنيد فى عالم "حقيقى" مستقل عن مشاهداتنا. نحن نشعر أننا ربما كنا هناك وبالتالى كان لنا أن نرى ما إذا كان الجليد يتساقط، وحقيقة أننا كنا ننظر ليس لها أثر على الجليد. نحن على استعداد للموافقة على أن بياض مظهر الجليد يختص بأعيننا كما أن الإحساس البارد يختص بدرجة حرارة أعصابنا، ولكننا نفترض أن هذه الإحساسات لها سبب خارجى وهو الجليد كما نتعامل معه فى الفيزياء، وهذا نعتقد أنه مجرد الشىء نفسه سواء عرفنا عنه أم لم نعرف.

ولكن كل هذا متفق عليه بقبولنا التعميم الاستقرائى وبالسماح لأنفسنا فى الاعتقاد بأن جزيرة مانهاتن ربما وجدت فى التاريخ موضع السؤال. لو سمحنا بالاستقراءات من هذا الطراز فلن يوجد سبب لرفض توسيع قانون الوسط المستبعد ليشمل كل مقدمة يؤيدها أو يعارضها دليل مهما كان بسيطا. قد يوجد بسهولة دليل على أن مناخ جزيرة مانهاتن لم يتغير كثيرا فى السنوات الألفين الماضية، وفى هذه الحالة

فإن سجلات المناخ تعطى احتمال سقوط الجليد فى أى يوم من السنة. نستنتج بالتالى أن P إما صادقة وإما زائفة، فرغم عدم قدرتنا على التقرير فإننا نعرف شيئا عن رجحان أى من البديلين.

(٤)

يجب الآن مواجهة السؤال: تحت أى ظروف تفشل الجملة الصحيحة نحويا فى أن تحتوى على معنى؟ اقترحنا أن الجملة التالية "شىء ما ليس له علاقة فراغية وقتية بأى مدرك حالى" هى خالية من المعنى لأن رفض الكون المتخيل هو النتيجة. يتبع ذلك أن نقيض الجملة السابقة وهو "كل شىء له علاقة فراغية وقتية معينة بمدركى الحالى" هى أيضا فارغة من المعنى، ولكن هذا أقل ترجيحًا بشدة. فلو كانت عديمة المعنى فلابد وأن ذلك يرجع إلى كلمة "كل شىء" لأنها تتضمن أن الكون بكامله يمكن طرحه للتفتيش بينما فى الحقيقة تحدث باستمرار مدركات جديدة، وكل المجموع وهمى ما عدا المجموعة الخاصة بالموضوع.

موضوع المجموع مهم جدا، فهل بإمكاننا تعريف مجموع فكريا كما عرفنا الفئة من البشر أو الفئة من الأعداد الطبيعية؟ البعض يعتقد أن بإمكاننا أن نفعل ذلك إذا كانت الفئة محدودة وليس عكس ذلك. لا أرى أن هذا اعتبار. مهم إلا عندما تكون الكلمة العامة هى مجرد اختصار لـ "هذه الأشياء فى هذه المجموعة المعينة" فالكلمة العامة ليست هنا ضرورية. مهما حدث بالنسبة للبشر، أن كان التعداد الفعلى مستحيلا، فإن موضوع أن المجموعة محدودة أم غير محدودة ليس له أهمية. "كل البشر فانون" تؤدى إلى المشكلات نفسها مثل "كل الأعداد إما فردية وإما زوجية".

عندما نقول "كل البشر فانون" فهل نقول شيئا أم أننا نقوم بمجرد إحداث ضوضاء عديمة المعنى؟ أنا لا أسأل ما إذا كان البيان صادقا وإنما أسأل هل هو جوهرى؟ فلنستبعد بعض وجهات النظر:

١ – لا نستطيع محاولة اختزال المقدمة إلى إدراك حيث "إذا رأيت إنسانا سوف أحكم بأنه فانٍ". المناسبة التى أرى فيها إنسانا من المستحيل عدها استحالة عد البشر. قد أقول "كل البشر الذين قابلتهم كانوا فانين" لأنهم فى هذه الحالة يمكن عدهم ولكن إلى أن يتم ذلك فإن المجموعة تتحدد فكريا فقط.

٢ – لا نستطيع أن نقول "البيان عن مجموع يكون مشروعًا عندما توجد مجموعة من الخبرات تغطى المجموعة بكاملها وليس العكس". فإذا حاولنا تعريف "خبرات ممكنة" فإن هذا يأخذنا إلى الفكرة الافتراضية نفسها التى نود الهروب منها. كيف لنا أن نعرف ما إذا كانت خبرة معينة "ممكنة"؟ يتطلب هذا معرفة تفوق الخبرة الفعلية.

٣ – لا يمكن حصر "كل البشر فانون" فى الخبرة الماضية حيث إنه فى هذه الحالة يجب أن تعنى "كل البشر الذين ماتوا حتى الآن كانوا فانين" وهو مجرد لغو.

٤ – يعتقد أحيانا أنه من الممكن تفسير البيان العام – خاصة التعميم الاستقرائى – كنصيحة عملية. بالتالى "كل البشر فانون" ستعنى "عندما تقابل إنسانا فى المرة القادمة، سوف أنصحك بأن تسلك نحوه كما لو أنه فانٍ، لأنك لو قطعت رأسه إلى جزءين آملا أن يكون خالدا، فسوف تشنق". هذه النصيحة قيمة لأن الإنسان فانٍ. إذا شككت جديا فيما إذا كان كل البشر فانين فعليك أن تقوم بعمل تجارب فى هذا الموضوع. التفسير البراجماتى هو فى الحقيقة مجرد تجنب.

(٥)

عندما نفهم كلمة "إنسان" و "فان" نستطيع فهم "كل البشر فانون" دون أن يكون علينا معرفة كل إنسان مفرد. بالمثل، نستطيع فهم "كل الأرقام هى إما فردية وإما زوجية" كفهم "الكلية" باستقلال عن التعدد.

عند مناقشة الجليد فى سنة "١" بعد الميلاد سمحنا بقبول التعميم الاستقرائى. فعندما نشك فى قانون الوسط المستبعد لن يكون لنا أى حق فى عمل ذلك إلا فى

استنباط مدركات. الاستقراءات فى العلوم الفيزيائية دائمًا ما تصاغ بمدلولات واقعية، أى أنها تفترض أن ما نشاهده يمكن أن يقع دون مشاهدته، وأنه يقع فى ظروف مناسبة.

إذا وصلنا إلى جزيرة غير مأهولة ووجدنا خضرة رائعة فسنستنتج أنها أمطرت رغم أنه لا أحد رأى الأمطار. من وجهة نظر المعرفة المنطقية يمكن أن نفترض أنه لا توجد أحداثٌ غير مشاهدة، أو أن هناك القليل مما يمكننا إدخاله أو الكثير، كما يفعل علماء الطبيعة مهما كان عدد وطرز الأحداث التى لم تشاهد بما يجعل من السهل صياغة قوانين الأحداث المشاهدة.

هل هناك أى معنى فى السؤال إذا ما كانت الأحداث غير المشاهدة تحدث فعلا؟ وفقا لكارناب هناك فقط سؤال لغوى: "الحقيقة" هى دلالة ميتافيزيقية لا يوجد استعمال مشروع لها. أنا لم أشاهد بنفسى ما علمته من شهادات الآخرين أو من التاريخ. لقد لاحظت فقط ما حدث فى حدود خبرتى الخاصة. فالنظرية الفرضية تقضى : أن الشهادة ليست مجرد ضوضاء أو أشكال، وأن العالم قد وُجِدَ قبل أسرع لحظة عما أستطيع تذكره هى مجرد أمور لغوية مناسبة. هذه النظرة لا يقبلها أحد. إذا قال طبيب لك "زوجتك مصابة بالسرطان" سوف تشعر بأن ما تسمعه يعبر عن فكرة ولن يكون عندك شك فى أن الطبيب إذا كان مصيبًا فسوف يكون لزوجتك خبرات مؤلمة لن تكون لك. عواطفك ستختلف لو فكرت أن كل الأمر مجرد اختصارات لغوية لوصف خبرات خاصة لك. ليس هذا بالطبع جدلا. ولكنى لاحظت أن الذين يتبنون هذه النظرة التى أكافحها دائمًا يتجنبون تطبيقها على غيرهم من البشر وإنما يطبقونها على الأمور مثل العصر الجليدى، والتى بها مكون عاطفى محدود جدا، وهذا غير منطقى. لو أن العصر الجليدى مجرد أمر لغوى مناسب، فكذلك والداك وأطفالك وأصدقاؤك وزملاؤك. لا يزال من الممكن قبول الشهادة، فقد تقول: "السيد A، فى حدود ما أعرف، هو سلسلة من الضوضاء والأشكال، ولكنى وجدت وللغرابة الشديدة أننى إذا فسرت الضوضاء على أنها ما يجب فعله للتعبير عن أفكار معينة أو مدركات، فعادة ما يتضح أنها صادقة، لذا قررت أن أسلك كما لو أن السيد A هو كائن ذكى". ولكن عواطفك لن تكون هى نفسها لو أن له ذكاء فعلاً.

(٦)

عندما نسأل "هل تقع فعلا أحداث لا أشاهدها؟" هذا السؤال فى علاقته بالآخرين من الناس له محتوى عاطفى كبير، ولا يمكن أن يكون خاليا من الجوهرية. نحن نهتم بحب البشر الآخرين وكرههم، مسراتهم وأحزانهم، لأننا مقتنعون أنها حقيقية كتلك التى تخصنا، فنحن نعنى شيئًا عندما نقول ذلك. الشخص فى رواية يعبر عن نفسه ولكن العواطف التى يعبر عنها لم يتم الشعور بها فعليا. الناس "الحقيقيون" مختلفون ولكن كيف؟ السؤال فى وقوع الأحداث التى لا يشاهدها أحد هو أكثر من أن يكون سؤالاً لغويا، فله علاقة بالمدركات والأفكار والمشاعر الخاصة بالآخرين من الناس. فى حالة الأمر الذى لا يشاهد، لا توجد فقط حقيقة أنه لم يشاهد، ولكن يجب أن يكون شديد الاختلاف عن أى شىء لنا به خبرة، حيث لا يمكن أن تكون له خصائص محسوسة. إذا رأينا إنسانا يعانى، ففرضية أنه يعانى تضيف شيئًا وليس مجرد تبنى اصطلاح لغوى مختلف. لا فائدة إذن من أن نقول: "ولكن هذا لا يأخذك خارج المعرفة، بل يأخذك فقط خارج خبرتك". أنت لا تعرف أن هذا صادق ما لم تعرف أن الآخرين من الناس لهم خبرات، وأنها ليست مجرد ما تدركه، ولكن هذه المعرفة هى ما يجب تبريرها. لا يمكن لعلم منطقى المعرفة أن يبدأ بقبول الشهادة، لأن حدوث الشهادة ليس بالتأكيد من بين المقدمات الأساسية.

أستنتج بالتالى أن هناك معنى فى فرضية أن شيئًا يحدث لا أخبره، على الأقل عندما يكون شيئًا مشابها لخبرتى مثل الخبرات التى أرجعها إلى الناس الآخرين. هذا لا يجيب على السؤال عمًا إذا كان هناك معنى فى افتراض أن هناك ظواهر طبيعية لا يشاهدها أحد؟ فلنناقشه الآن.

(٧)

هناك تمييز يجب عمله. فعلى أسس فعلية نعتقد أنه لا يمكن أن توجد أشياء مرئية فيما عدا عندما توجد أعين وأعصاب ومخ، ولكن لا توجد صعوبة منطقية فى وجود هذه الأشياء فى مكان آخر.

فى الحقيقة، كل شخص يعد ساذجًا فلسفيا وعلميا حين يعتقد أن ما نراه عندما ننظر لشىء ما يبقى هناك عندما لا نكون ناظرين. هذا ما يسمى الواقعية الساذجة، وهى عقيدة يجب أن يتم الإصرار على زيفها فى الحقيقة، ولكنها منطقيا ليست مستحيلة. المشكلة المتعلقة بالفيزياء هى: بعد قبول أنه عندما لا يوجد مدرك حساس فلا يمكن أن يوجد شيئًا له الخصائص المحسوسة التى نعرفها من الخبرة، فهل هناك معنى فى افتراض أن هناك شىء ما؟ هناك فى الحقيقة سؤالان: الأول، هل هناك جوهرية فى افتراض أن شيئًا لا يخبره أحد، موجود؟ الثانى هل هناك جوهرية فى افتراض أن شيئًا يوجد، ليس مشابها لأشياء الإدراك كما نفترض أن الأحداث تكون موجودة حيث نكون غير مدركين لها؟

بالنسبة للسؤال الأول، لا صعوبة هناك، فحقيقة أننا نخبر ظاهرة، ليست جزءًا ضروريا من فهمنا للظاهرة، وإنما مجرد سبب لمعرفتنا أنها تقع ولا يوجد عائق منطقى لافتراض أن الظاهرة يمكن أن توجد وتكون غير مدركة. فى الحقيقة، كلنا يقول إن لدينا إحساسات كثيرة لا نلاحظها وهى بالطبع لم نَخْبُرها.

هناك صعوبة أكبر بالنسبة للسؤال الثانى وهو: هل هناك أى جوهرية فى افتراض أن الظواهر الطبيعية طبقا لاختلافها عن مدركاتنا هى كما يجب أن تكون إذا كانت ليست مرئية أو مسموعة، وليست من الطراز المألوف؟ هذه الظواهر تقع داخل الزمن، وفى مكان من طراز ما وإن كان ليس مماثلا لما اعتدناه فى الإدراك. المكان الفيزيائى -أى مكان حدوث الظاهرة- ليس محسوسًا بصورة مباشرة وإنما يتحدد بعلاقته بالأماكن المحسوسة.

(٨)

يمكن تعريف المدركات على أنها أحداث لها علاقة "فراغية - مرحلية" بجسم حى له أعضاء مناسبة. افترض أنك تريد قياس سرعة الصوت ولهذا الغرض تطلق بندقية

بينما يقف رجل على بعد ميل ويلوح بعلَمٍ لحظة سماعه الصوت. عبر المكان الذى يفصلهما تقع أحداثٌ هى موجات هواء. عندما تصل هذه الموجات من الهواء إلى أذن، يحدث لها العديد من التحورات مثلما يحدث لضوء الشمس عندما تبدأ التصنيع الكلوروفيلى فى النبات. أحد تلك الأحداث ينتج من أثر موجات الصوت على الأذن، إذا كانت الأذن متصلة بمخ طبيعى، يحدث ما يسمى "السمع" للصوت. بعد هذا الحدث، تسير سلسلة المسببات من المخ إلى الذراع مؤدية إلى التلويح بالعلَم. ما يعد غريبا بالنسبة للمخ والإحساس هو خاصية القوانين السببية الفاعلة عند تلك اللحظة فى السلسلة، لأنها تشتمل على العادة والتذكر. لكى نقول إننا "نعرف" مدركا يجب أن نقول إنه أقام عادة معينة فى المخ. الأحداث فى المخ هى التى تستطيع إقامة عادات فى المخ وبالتالى فقط الأحداث فى المخ يمكن معرفتها بالطريقة التى نعرف بها المدركات. بعض وجهات النظر السابقة تُفترض تلقائيا فى الفيزياء والفسيولوجى.

هناك قاعدة تنص على أنه ليس ممكنا أبدا استنباط وجود شىء من وجود شىء آخر. هذه القاعدة يجب وصفها بوضوح أكبر من غير استعمال كلمة "وجود". ولنأخذ توضيحًا: أنت تنظر من النافذة وتلاحظ أنك تستطيع رؤية ثلاثة منازل. تعود إلى الحجرة وتقول "ثلاثة منازل مرئية عبر النافذة". الشخص المتشكك قد يقول "أنت تعنى أن ثلاثة منازل كانت مرئية" وترد "ولكن لا يمكن أن تكون قد اختفت فى هذه اللحظة القصيرة". قد تنظر مرة أخرى وتقول "نعم، هى لا تزال موجودة" سيرد المتشكك "أعرف أنك عندما نظرت مرة أخرى كانت لا تزال موجودة، ولكن ما الذى يجعلك تظن أنها كانت موجودة فى الفترة البينية؟ "كل ما تستطيع أن تقوله "لأننى أراها هناك كلما نظرت". المتشكك سيقول "إذن عليك استنتاج أنها توجد عند نظرك إليها". لن تنجح أبدا فى إيجاد دليل ضد هذه النظرة لأنك لا يمكنك معرفة كيف تبدو المنازل عندما لا ينظر إليها أحد.

(٩)

قاعدتنا المنطقية يمكن وضعها كالتالى: "لا توجد مقدمة لما يحدث فى جزء معين من "الزمان – المكان" تتضمن منطقيا أى نسبة مما يحدث فى جزء آخر من "الزمان – المكان". وبتعبير آخر: "المقدمات الإدراكية المشتقة من حدث مدرك معين لا يمكن منطقيا أن تتضمن أى مقدمة عن أى حدث آخر".

خارج نطاق الرياضيات البحتة أهم طرز الاستنتاج ليست هى المنطقية، وإنما التشابهية والاستنباطية، نحن نقبل الفيزيائية متى مكنتنا من التنبؤ بمدركاتنا المستقبلية، فالرجل الذى يقيس سرعة الصوت قد يقول وفقا لذلك "خلال خمس ثوان سوف أرى العَلَمَ ملوحًا به" ولكن لا تسمح له بالقول "خلال خمس ثوان سوف يلوّح العلم". الاستنباطان رغم كونهما على المستوى نفسه تمامًا فيما يختص بالاستنباط والتشابه، إلا أنه بدونهما يصبح العلم مستحيلاً حيث سيصبح الأساس المنطقى الخاص بنا غير مهم، ويكون علينا إعادة النظر فيما إذا كان الاستنباط والتشابه يمكن أن يجعلا من الممكن وجود أحداث غير مُدْرَكة.

يبقى لدينا السؤال المهم: بافتراض شرعية الاستنباط والتشابه، هل يوفران دليلا على الأحداث غير المدركة؟ هذا سؤال صعب ولكن ليس مستحيل الحل. لن أناقشه الآن فالنقطة المهمة هى أن الفرق بين النظرية التى تسمح بأحداث غير مدركة والتى لا تسمح بها ليس بالضرورة لغويا.

رغم أن المناقشة السابقة لم تؤدِّ إلى استنتاج، فإننى أجد نفسى فى نهايتها معتقدا أن الصدق والمعرفة يختلفان، وأن المقدمة يمكن أن تكون صادقة بالرغم من عدم وجود طريقة لاكتشاف أنها كذلك. سوف نعرِّف "الصدق" بعلاقته بالأحداث (أتحدث هنا عن الصدق اللامنطقى) و "المعرفة" بعلاقتها بـ"المدركات". وعلى ذلك "فالصدق" مفهوم أوسع من "المعرفة". قد تكون الفكرة عديمة القيمة عمليا وذلك لأن المعرفة لها حدود ضبابية.

عنـدما نبدأ فى بحـثٍ ما، نفـترض أن المقـدمات التى نبحـث عنها إما صـادقة وإما زائفة، قد نجد دليلاً وقد لا نجد. قبل السبكتروسكوب كان يبدو مستحيلا التأكد من المكونات الكيـماوية للنجـوم، ولكن كـان سـيعتبر خـطأً الإصرار على أنها تحتـوى أو لا تحتوى على العناصر التى نعرفها. حاليا، نحن لا نعرف ما إذا كانت هناك حياة فى الكون ولكننا على صـواب فى إحسـاسنا بالتـأكد فى أنها إما موجـودة وإما غير موجودة. إذن فنحن بحـاجة إلى "الاستنباط" قدر حاجتنا إلى المعرفة، لأن حدود المعرفة ليست مؤكدة، ولأنه بدون قانون الوسط المستبعد لن نستطيع أن نسـأل الأسئلة التى تؤدى إلى اكتشافات.

فى الفصل التالى سوف أستمر فى مناقشة قضايا كنا بصددها ولكن المناقشة سوف تكون معقـدة وتحليليـة. قبل البـدء فى التـحليل الدقـيق، أود أن أوضح ما يمـثله السـؤال موضـع الاعتبار بالنسبة لأمور لها اهتمامات عامة. هذا الكتاب يشتمل على تكرارات لا يمكن تجنبها والتى يجب أن أسأل القارئ المعذرة عنها.

* * *

الفصل الحادى والعشرون

الصـــدق والتفنيـــد

(١)

فى الفلسفة الحديثة نستطيع التمييز بين أربعة طرز رئيسية للنظريات الخاصة بالصدق، أو بدائلها من التصورات التى تعد مفضلة. هذه الطرز الأربعة من النظريات هى:

١ - النظرية التى تضع "التأكيدية المضمونة" محل "الصدق". هذه النظرية قدمها د. ديوى ومدرسته.

٢ - النظرية التى تضع "الاحتمال" محل "الصدق" ووضعها البروفسور ريخنباخ.

٣ - النظرية التى تعرِّف "الصدق" على أنه "التماسك". هذه النظرية وضعها الهيجليون والمنطقيون الإيجابيون.

٤ - نظرية التقابل للصدق والتى وفقا لها الصدق عبارة عن مقدمات أساسية تعتمد على علاقاتها بحدث معين، وصدق مقدمات أخرى يعتمد على علاقاتها التركيبية بالمقدمات الأساسية.

بالنسبة لى، فأنا مرتبط بشدة بالنظرية الأخيرة. لهذه النظرية صورتان القرار بالنسبة لأيهما ليس سهلاً. فى إحدى الصورتين المقدمات الأساسية يجب أن تشتق من الخبرة وبالتالى فالمقدمات التى لا يمكن أن تكون متعلقة بطريقة مناسبة بالخبرة ليست صادقة ولا زائفة. فى الصورة الأخرى، المقدمات الأساسية لا تحتاج لأن تكون متعلقة

بالخبرة، وإنما فقط "بالحقيقة"، رغم أنها إذا لم تتعلق بالخبرة لا يمكن معرفتها. بالتالى فالصورتان من نظرية التقابل تختلفان فى علاقة "الصدق" "بالمعرفة".

من بين النظريات الأربع السابقة، ناقشت النظرية الثالثة فى الفصل الخامس، والثانية والأولى تربطهما علاقة وثيقة، سأناقشهما فى فصل لاحق.

حاليا، سأفترض أن "الصدق" يتحدد بالتقابل وسأختبر صورتين لهذه النظرية وفقا لما إذا كانت "الخبرة" أو "الحقيقة" هى التى تقابل الصدق. سأسمى النظريتين بالمعرفية المنطقية للأولى و"بالمنطقية" "للثانية". لا أعنى بذلك أن النظرية المنطقية هى الأكثر منطقية من الأخرى، ولكن مجرد أنها هى المفترضة تكنيكيا فى المنطق، والتى تشترك فى صعوبات معينة عند رفض النظرية.

عبر مجال واسع تعد النظريتان متماثلتين، فكل شيء صادق وفقًا لنظرية المعرفة المنطقية. يعد صادقًا أيضا وفقا للنظرية المنطقية، مع أن العكس غير صحيح. الفروق بينهما فيما يتعلق بالمنطق تكمن فى أن المقدمات فى النظرية المنطقية إما أن تكون صادقة وإما زائفة، فى حين أنها فى نظرية المعرفة المنطقية لا تكون صادقة ولا زائفة إذا لم يكن هناك دليل معها أو ضدها، بمعنى أن قانون الوسط المستبعد يكون صادقًا فى النظرية المنطقية وليس كذلك فى نظرية المعرفة المنطقية وهذا هو أهم فرق بينهما.

(٢)

يجب أن يلاحظ أن التقابل المستعمل فى تعريف "الصدق" فى كلتا النظريتين يوجد فقط فى حالة المقدمات الأساسية، مثل "كل البشر فانون" فبافتراض أنها صادقة فإنها تشتق صدقها من "A فان"، "B فان".. إلخ. وكل منها يشتق صدقه من مقدمة مثل "A يصبح باردًا". و "B يصبح باردًا".. إلخ. هذه المقدمات بالنسبة لقيم معينة لكل من A، B يمكن أن تشتق من المشاهدة وهما بالتالى مقدمات أساسية فى كلتا النظريتين، وسوف يصبحان (إذا كانتا صادقتين) مقدمات أساسية فى النظرية المنطقية حتى لو لم تكونا

مشاهدتين، وسوف تقر النظرية المنطقية أن هناك "حقيقة" تجعل البيان "A يصبح باردًا" صادقًا حتى لو لم يكن هناك أحد يدرى بهذه الحقيقة أو مجموعة الحقائق التى يتبعها أن A غير فانٍ.

فى نظرية المعرفة المنطقية تتحدد المقدمات الأساسية بالطريقة التى أوضحناها فى الفصل العاشر، لكن فى النظرية المنطقية لا بد وأن يكون لها تعريف لا يشير إلى معرفتنا وإنما بالتعريف المنطقى الجديد التالى "المقدمات الأساسية التى بها خبرة" تصبح مطابقة للمقدمات الأساسية فى نظرية المعرفة المنطقية. وهو التعريف نفسه لنظرية المعرفة المنطقيــة مع إسقاط شــرط ضــرورة الخبرة، والإبقاء على شرط أن تكون صادقة.

الجمل التى تعبر عن خبرات هى من طرازين منطقيين. عندما تعبر عن خبرات مثلما توفر معطيات للفيزياء، تكون دائمًا ذرية، لكن فيما يختص بمعطيات السيكولوجى توجد صعوبات تتعلق بأن هذا هو الحال، ولكننا لدينا سبب للاعتقاد فى أن هذه الصعوبات لا يمكن عزلها. هناك الذكريات المشتملة على كلمات منطقية مثل "أو" و"بعض"، وبصــورة عامة هنــاك "سلوكيات تقديمية" مثــل الاعتقــاد، الشــك، الرغبة.. وغيرها.

وجهة النظر التى سنعرضها لا تزال محل اعتراض، ولكن ميزتها الرئيسية هى أنها تسمح لنا بالاعتقاد فى قانون الوسط المستبعد. فبافتراض قانون الوسط المستبعد، فإن أى جمــل تعد أساسية سوف تظل صادقة – أو – كاذبة إذا حل محل أى كلمة منها كلمة أخرى من الطراز المنطقى نفسه. ولكن عندما تكون الجملة أساسية، فإن الحقيقة التى تقابلها والتى بفضلها تكون صادقة، تكون قد خُبِرت. عندما تتغير كلمــة أو كلمتان فى الجمــلة قــد لا تكون هناك خبرة تعــبر عنها الجملة الجديدة، وقد لا توجــد عــلاقة نحوية بأى جملة أساسية اشتقت بواسطتها الجملة الجديدة سواء أكانت صادقة أم زائفة. بالتالى إما أن نهمل قانون الوسط المستبعد وإما نوسِّع تعريفنا للصدق.

(٣)

إذا أغفلنا قانون الوسط المستبعد يمكننا تعريف الصدق المشتق بمدلول "قابليته للتفنيد"، الجملة قابلة للتفنيد عندما يكون لها علاقة نحوية معينة بجملة أساسية أو أكثر. الجملة التى ليست لها هذه العلاقة النحوية لن تكون صادقة أو زائفة. من ناحية أخرى، قد نلتزم بقانون الوسط المستبعد ونبحث عن تعريف منطقى "للجمل الأساسية"، ويتطلب ذلك تعريفًا لجوهرية الجملة. لهذا الغرض نضع مجموعة التعريفات هى كالتالى:

- تكون الجملة "قابلة للتفنيد" عندما تكون:

(أ) أساسية من ناحية المعرفة المنطقية.

(ب) لها علاقات نحوية معينة بواحد أو أكثر من المقدمات الأساسية.

- تكون الجملة "جوهرية" عندما تنتج من جمل قابلة للتفنيد "S" بأن تحل محل كلمة أو أكثر من "S" كلمات أخرى من الطراز المنطقى نفسه.

قانون الوسط المستبعد سوف ينطبق على كل جملة جوهرية. ولكن ذلك سيتطلب تعريفًا جديدًا "للصدق".

نقول فى نظرية المعرفة المنطقية إن الصدق لجملة "أساسية" يتحدد بالتقابل مع "خبرة". قد نضع "حقيقة" محل "خبرة" وفى مثل هذه الحالة قد تصبح جملة غير قابلة للتفنيد صادقة، لأنها تقابل "حقيقة". فى هذه الحالة قانون الوسط المستبعد يجب الإبقاء عليه، وعلينا أن نقول إنه أينما وجدت جملة قابلة للتفنيد "f (a)" تحتوى على كلمة معينة "a" تفسر بالحقيقة عن a، وإذا كانت "b" كلمة من نفس طراز "a" فإنه توجد حقيقة تشير إليها الجملة "f (b)" أو حقيقة تشير إليها الجملة "ليس f (b)".

بالتالى قانون الوسط المستبعد يقودنا إلى الدخول فى صعوبات ميتافيزيقية، إذا كان لقانون الوسط المستبعد أن يظل باقيا فعلينا إثبات التالى:

١ - "الحقيقة" لا يمكن تعريفها.

٢ – بعض الحقائق توجد بها خبرة.

٣ – بعض الحقائق التى بها خبرة تعبر عنها وتدلل عليها الجمل.

٤ – إذا كانت "a" و "b" هى كلمات من الطراز المنطقى نفسه وكانت "f (a)" جملة تعبر عن حقيقة بها خبرة، فقد تكون "f (b)" تشير إلى حقيقة، أو "ليس –"f (b)" تشير إلى حقيقة.

٥ – "المعطيات" هى جمل تعبر وتدلل عن حقائق خبرية.

٦ – الجمل القابلة للتفنيد إما أنها تدلل على حقائق وإما أن لها العلاقات النحوية نفسها بجمل تدل على حقائق مثلما للجمل القابلة للتفنيد علاقة بالمعطيات.

وفقا لوجهة النظر هذه، فالجمل القابلة للتفنيد عبارة عن قسم من الجمل الصادقة.

(٤)

من الواضح أن قانون الوسط المستبعد لا يمكن الإبقاء عليه دون القاعدة الميتافيزيقية (٤) السابقة الذكر.

هناك صعوبات فى كلتا النظريتين للصدق. نظرية المعرفة المنطقية للصدق تحد المعرفة لدرجة مفرطة وهذا ليس ما يقصده من ينادون بها. النظرية المنطقية تنطوى على إدخالنا فى ما وراء الطبيعة، وبها صعوبات تتعلق بتعريف التقابل الذى يتطلبه تعريف "الصدق"، ومع ذلك فأيا ما كانت النظرية التى نتبناها يجب الإقرار بأن المعنى محدد بالخبرة، ولكن الجوهرية ليست كذلك.

تنطبق قاعدة هيوم بأنه "لا توجد فكرة بدون انطباع سابق" على تعلُّم معانى كلمات الأشياء. لو أن نقاشنا السابق كان صحيحًا فإنه ينطبق أيضا على الكلمات المنطقية، و "ليس" يجب أن تشتق معناها من خبرات الرفض و "أو" من خبرات التردد، وبالتالى فلا كلمة ضرورية فى قائمة مفرداتنا يمكن أن يكون لها معنى مستقل عن الخبرة. بالتأكيد أن أى كلمة يمكننى فهمها لها معنى مشتق من خبرة.

فيما يتعلق بالجوهرية: فهى تتجاوز خبراتى الشخصية متى استقبلت معلومات، وهى تتجاوز الخبرة لكل البشر فى كلمات الخيال. لدينا خبرة بمسرحية "هاملت" وليس بكلمة هاملت، فعواطفنا عند قراءة المسرحية لها علاقة بالبطل "هاملت" وليس بكلمة "هاملت". "هاملت" كلمة من ستة أحرف وما إذا كان من الممكن أن توجد أو لا توجد هو سؤال قليل الأهمية، فمسرحية "هاملت" مكونة بالكامل من مقدمات زائفة تتجاوز الخبرة ولكنها بالتأكيد جوهرية لأنها يمكن أن تثير العواطف. عندما أقول إن عواطفنا هى خاصة بـ "هاملت" الرجل وليس بكلمة "هاملت"، يجب أن أفسر هذه الجملة: هذه العواطف ليست فى الواقع خاصة بأى شىء ولكننا نظن أنها خاصة بالرجل المسمى "هاملت". المقدمات فى المسرحية زائفة لأنه لم يكن هناك شخص كهذا، وهى جوهرية لأننا نعرف بالخبرة الصوت "هاملت" ومعنى "اسم" ومعنى "رجل". لكن الزيف الأساسى فى المسرحية هو المقدمة: الصوت "هاملت" هو اسم (أرجو ألا يقول أحد إنه ربما كان هناك أمير للدنمارك اسمه "هاملت")

عواطفنا عن هاملت لا تشتمل على معتقد. العواطف المصحوبة بمعتقد يمكن أن تحدث فى ظروف مماثلة تماما. القديسة فيرونكا تدين بوجودها المفترض إلى سوء فهم لفظى ولكنها لا تزال قادرة على أن تكون مثارًا للتقديس. بالأسلوب نفسه قدس الرومانيون رومولوس، وقدس الصينيون ياو وشن، وقدس البريطانيون الملك آرثر رغم أن جميع هؤلاء كانوا مجرد اختراعات.

(٥)

رأينا فى الفصل التاسع عشر أن معتقدا مثل "أنت محتر" يشتمل على متغير فى تعبيره الكامل. هل نستطيع القول بأن كل معتقد لى يتجاوز خبرتى الشخصية يشتمل على متغير واحد على الأقل؟ فلنأخذ مثالا. افترض أننى أقف مع صديق ننظر إلى جمهرة. يقول صديقى "هناك يوجد جونز". أصدقه ولكننى لا أستطيع رؤية جونز الذى افترض أنه معروف لى ولصديقى. سوف أفترض أننى وصديقى نلحق المعنى نفسه

بكلمة "جونز" ولحسن الحظ لا ضرورة لمناقشة ما هو هذا المعنى حاليًا. كلمة "هناك" هى المهمة. فكما استعملها صديقى هى اسم علم لاتجاه بصرى معين. قد يوضح صديقى كلمة "هناك" بالإشارة بما يجعلنى قادرًا على أن أعرف تقريبيا أى اتجاه يعنيه بكلمة "هناك". ولكنه مهما فعل أو قال فإن كلمة "هناك"، بالنسبة لى، ليست اسم علم، وإنما مجرد وصفٍ ضبابىٍّ. إذا رأيت جونز قد أقول "نعم هو هناك". أنا هنا أنطق بمقدمة فشلت جملة صديقى فى توصيلها إلىَّ. الكلمة المسموعة "هناك" كما استعملها صديقى تعنى لى فقط "مكانًا ما داخل منطقة معينة" وبالتالى تشتمل على متغير.

فلنحاول تعريف كلمة "خبرة" التى تستعمل عادة بصورة متسيبة. الكلمة لها معانٍ مختلفة وإن كانت متصلة، بارتباطات مختلفة. فلنبدأ بالتعريف اللغوى.

(٦)

لغويا، الكلمة لها معنى يقع داخل "خبرة" إذا كان لها تعريف محدد. كلمة "هاملت" ليس لها معنى يقع داخل خبرة، لأننى لا أستطيع أن أشير إلى هاملت. ولكن كلمة "هاملت" لها معنى داخل خبرة لأنها تعنى كلمة "هاملت" البطل، والتى أستطيع أن أشير لها. عندما يكون للكلمة تعريف محدد سنسميها "كلمة خبرة" من بين هذه الكلمات كل أسماء الأعلام الحقيقية وكل أجهزة الخبر، والعلاقات التى ليس لها تعريف قاموسى، وأيضا بعض الكلمات المنطقية التى تعبر عن حالات للعقل مثل الرفض أو التردد. التعريف السابق كافٍ لغويا، ومع ذلك ضيق بخلاف ذلك، لأن فهم كلمة وفقا لتعريف محدد هو نوع من الاعتياد، فقد نقول إن الفرق بين حدث لنا به خبرة وحدث آخر يحدث فقط، هو أن السابق وليس الأخير يؤدى إلى الاعتياد.

السؤال الأساسى هو ما إذا كان لدينا أى معرفة بما ليس لنا به خبرة. الجميع سيوافق على أن "الخبرة" قاصرة على الحيوانات وربما النباتات، ولكن بالتأكيد لن توجد فى المادة الخاملة. معظم الناس عندما يُسألون عن الفرق بين الإنسان والحجر سيقولون إن الإنسان "واعٍ" والحجر ليس كذلك. ربما سيوافقون على أن الكلب "واعٍ"

ولكنهم سيكونون فى حالة شك بالنسبة للمحار. إذا تم سؤالهم ما الذى يقصدونه بـ "واعٍ" سوف يترددون، وفى النهاية سيقولون إنهم يقصدون "يدرون" ما يحدث حولنا. هذا سيقودنا إلى مناقشة الإدراك وعلاقته بالمعرفة. لا يقول الناس إن الترمومتر "يدرى" بدرجة الحرارة أو إن الجلفانومتر يدرى بالتيار الكهربى. بالتالى نجد أن "الدراية" كما تستعمل كمصطلح، تشتمل على شىء من طبيعة الذاكرة، وهذا الشىء يمكن تحديده بالاعتياد. على أى حال، فالاعتياد هو ما يميز سلوك الحيوانات عن سلوك المادة الخاملة.

(٧)

بالعودة إلى تعريف "الخبرة" قد نلاحظ أن الحدث الذى نقول إن لنا به خبرة (خبرناه)، لا بد وأن يستمر ليحدث آثارًا بعد أن يتوقف، فى حين أن الحدث الذى يحدث فقط ينهى آثاره لحظة حدوثه. على هذا الوضع، يفتقر التعريف إلى الدقة. كل حدث له آثار غير مباشرة حتى نهاية زمن حدوثه، ولا يوجد حدث له آثار مباشرة فيما عدا لحظة وقوعه. "الاعتياد" مفهوم وسط بين الجهل المطبق والمعرفة التامة، ويفترض أنه إذا كانت معرفتنا ملائمة فإن سلوك الأجسام الحية يمكن اختزاله إلى فيزياء، ويُختزل الاعتياد إلى آثار على المخ يمكن مقارنتها بمسارات الماء. فالمسار الذى يأخذه الماء فى التدفق لأسفل الجبل يختلف عن ذلك الذى يحدث إذا لم تسقط أمطارٌ أبدا قبل ذلك على هذا الجانب من الجبل، وبهذا المدلول يمكن اعتبار كل نهر على أنه يشتمل على اعتياد. وحيث إننا نستطيع أن نفهم أثر كل سقوط للمطر فى حفر قناة أعمق، وليس هناك سبيل لاستخدام مفهوم الاعتياد فى هذا الخصوص. لو كان لدينا معرفة مماثلة بالمخ، كان يجب افتراض أن باستطاعتنا التخلى عن الاعتياد عند شرح السلوك الحيوانى. ولكن ذلك سوف يكون بالمدلول الذى يسمح لنا به قانون الجاذبية للتخلى عن قوانين كبلر بأن الاعتياد يمكن استنباطه وليس افتراضه، ولأنه يستنبط فإنه يفتقر إلى الدقة. لم يستطع كبلر تفسير لماذا مسارات الكواكب ليست بيضاوية تماما، والمحدودية نفسها تنطبق على نظريات السلوك الحيوانى والتى بدأت مع قانون الاعتياد.

(٨)

فى الوضع الحالى لمعرفتنا لا نستطيع تجنب استعمال مفهوم الاعتياد، وأفضل ما نستطيع عمله هو تذكر أن "الاعتياد" وكل التصورات المشتقة منه بها عنصر تقريبى معين. ينطبق هذا بصفة خاصة على الذاكرة. يمكن للفسيولوجى والسيكولوجى استنباط الذاكرة كما أمكن لنيوتن من استنباط أن قوانين كبلر صادقة بالتقريب ولكنها عرضة لعدم الدقة الذى يمكن حسابه وشرحه. الذكريات الخطأ يمكن أن تنطبق عليها القوانين نفسها، ولكن هذا وضع نموذجى بعيد المنال. حاليا لا بد من أن نبذل قصارى جهدنا مع أفكار نعتقد أنها مؤقتة وليست شديدة الدقة.

بهذه الحدود نستطيع قبول فكرة أن الحدث يوصف بأن لنا به خبرة حين يؤدى بنفسه أو بسلسلة من الأحداث المماثلة التى يشكل هذا الحدث أحدها إلى عادة. وفقا لهذا التعريف، فكل حدث يتم تذكره تكون لنا به خبرة. قد يكون لنا خبرة بحدث ما دون أن نتذكره، فقد أعرف بالخبرة أن النار تحرق دون أن أتذكر فى أى مناسبة احترقت بالنار. فى هذه الحالة، المناسبة التى احترقت فيها كان لى بها خبرة ولكنى لم أتذكرها.

نستطيع وضع العلاقة بين المعرفة الفعلية بالخبرة كما تظهر من مناقشتنا السابقة. الاعتماد على خبرتى يكون تاما فى حالة كل المعتقدات فى التعبيرات اللفظية التى لا تحتوى على متغير، أى كلمات مثل "كل" و "بعض" هى مثل تلك المعتقدات، إذ لا بد أن تعبر عن خبرتى الإدراكية، والتوسع الوحيد هو أن تكون الخبرة تذكرية.

الخبرة موضع الاعتبار يجب أن تكون لى وليست لأحد آخر. كل ما أعلمه من الآخرين يشتمل على متغير كما رأينا عند مناقشة الرجل الذى يقول "هناك يوجد جونز". فى مثل هذه الحالة، المعتقد الموحى به للسامع ليس هو الذى يعبر عنه المتكلم رغم أنه فى حالة مواتية يمكن استنباطه منطقيا منه. عندما يعطى إنسان فى مجال سمعى بيانا "fa"حيث "a" هو اسم لشىء ليست لى به خبرة، فقد أصدقه، إذا صدقته فإننى أصدق ليس "fa" (حيث إنه بالنسبة لى "a" ليس اسمًا)، ولكن "هناك x وبناء عليها fx". مثل هذا الاعتقاد رغم أنه يتجاوز خبرتى، لن يستبعد بواسطة أى فيلسوف يرغب فى تعريف "الصدق" بمدلول "الخبرة".

(٩)

قد يقال: عندما يصيح شخص "هناك يوجد جونز" وأصدقه، فإن سبب تصديقى له هو صياحه، والسبب فى صياحه هو إدراكه. بالتالى فاعتقادى لا يزال قائمًا على الإدراك، وإن كان بصورة غير مباشرة. أنا لا أرغب فى إنكار ذلك ولكنى أريد أن أسأل كيف أمكن معرفة ذلك؟ فلنفترض صدق صديقى حين قال "هناك يوجد جونز" لأنه رأى جونز، وإننى بالفعل صدقت أن جونز هناك لأننى سمعت صديقى يقول ذلك. ولكن ما لم يكن صديقى وأنا فيلسوفين، فإن كلمتى "لأننى" فى الجملة السابقة لابد وأنهما سببيتان وليستا منطقيتين. أنا لا أدخل فى عملية تسبيب للوصول إلى اعتقاد أن جونز هناك، فإذا ما وجد المنبه نتج الاعتقاد تلقائيا. كذلك لا يدخل صديقى فى عملية تسبيب عند المرور من الإدراك إلى النطق "هناك يوجد جونز" هذه أيضا تلقائية. السلسلة السببية واضحة: جونز بعكسه لأشعة الشمس يسبب مدركًا لصديقى، المُدرَك يسبب النطق "هناك يوجد جونز" والنطق يسبب إدراكًا سمعيا لى والإدراك السمعى يسبب لى الاعتقاد بأن "جونز يوجد فى مكان ما مجاور". ولكن السؤال الذى يجب أن نسأله هو: ما الذى يجب أن أعرفه لكى أعرف أن هذه السلسلة السببية توفر مبررًا لاعتقادى؟

لست مهتما الآن بأسباب الحس المشترك للشك، مثل المرايا، الهلوسة السمعية.. إلخ. أنا على استعداد لافتراض أن كل شىء حدث كما نعتقد طبيعيا حدوثه، وأنه فى الحالات المماثلة حدث بهذه الكيفية فى مثل هذه الحالة، اعتقادى فى المسببات السابقة لاعتقادى بأن جونز موجود فى مكان مجاور يعد صادقًا. ولكن الاعتقاد الصادق ليس مماثلا للمعرفة. لو كنت سأصبح أبًا قد أعتقد وفقا لأسباب فلكية أن المولود سيكون ذكرا وعندما يحين الوقت قد يتضح أنه ذكر، ولكنى لا أستطيع القول إننى عرفت أنه سيكون ولدًا. السؤال هو: هل الاعتقاد الصادق فى السلسلة السببية السابقة أفضل بأى درجة من الاعتقاد الصادق القائم على علم الفلك؟

لا يوجد فرق واضح، فالتنبؤات القائمة على السلسلة السببية السابقة حينما يمكن اختبارها سيتضح صدقها، بينما تنبؤات علم الفلك بالنسبة لجنس الطفل المولود سوف تكون زائفة فى مجموعة من الحالات مساوية لتلك التى تكون فيها صادقة. ولكن فرضية أن الموجات الضوئية الناتجة من جونز، الإدراك والنطق لصديقى والموجات الصوتية الناتجة منه تجاهى، هى مجرد خيالات فى العلاقات السببية لمدركاتى، ولها التوابع نفسها كالفرضية الواقعية وبالتالى تكون ممكنة بالتساوى إذا كانت مدركاتى هى المبررات الوحيدة لمعرفتى الفعلية.

(١٠)

ليس هذا هو الاعتراض الرئيسى، الاعتراض الرئيسى هو أنه، إذا كان افتراض أن هناك أحداثا لا خبرة لأحد بها لغوًا، فإن الموجات الصوتية والموجات الضوئية المشتركة فى النظرية الفرضية الواقعية ليس لها معنى ما لم نفترض إجماعًا للجواهر المفردة لـ(ليبنتز)، فالتسبيب بين البشر لا بد وأن يكون تليباثيا: صديقى يخبر نفسه "هناك يوجد جونز"، وبعد فترة من الزمن ودون وجود أى شىء مهم يحدث فى الفترة البينية، أسمع ما قاله. هذه النظرية الفرضية تبدو مستحيلة ولكن إذا أنكرنا أن هناك صدقًا لأحداث لا خبرة لنا بها، فإننا نكون مضطرين لقبولها. إذا قلنا إنه ليس هناك معنى للقول بأن هناك أحداثًا لا خبرة لأحد بها، لا نستطيع تجنب التناقض الذى يحدث مع الحس العلمى المشترك - كما لو كنا ذاتيين.. رغم ذلك ، فالنظرية الفرضية التى تقضى بأن الأحداث التى لنا بها خبرة هى فقط التى تحدث، ليست مرفوضة منطقيا أكثر من نظرية الذاتية. كل ما نحتاجه افتراض أنه، فى الفيزياء، كل الأحداث التى لا خبرة لنا بها هى مجرد خيالات منطقية أدخلت لتناسب الربط بين الأحداث التى لنا بها خبرة. فى هذه النظرة الفرضية، نقبل خبرات الآخرين وبالتالى نسمح بالشهادة ولكننا لا نقبل الأحداث التى ليس لنا بها خبرة.

ما يؤيد هذه النظرية الفرضية صعوبة تعريف التقابل الذى يكوِّن الصدق الأساسى فى الحالات التى لا يوجد فيها مدرك. فبين مدرك معين والنطق بـ "هناك يوجد جونز" توجد رابطة سببية نفهمها، وهذه الرابطة تشكل التقابل الذى بفضله يكون النطق صادقًا، ولكن عندما لا يوجد مدرك، لا تكون هذه الرابطة البسيطة ممكنة.

يجب تذكر أن المقدمات التى تخرج عن الخبرة للمتكلم دائما ما تشتمل على متغيرات وهى بالضرورة تشتق صدقها (عندما تكون صادقة) من التقابل بطراز مختلف عن ذلك المشتمل عليه فى المقدمات التى لا تحتوى على متغيرات البيان "هناك بشر فى لوس أنجلوس" مفند بأى حقيقة من الحقائق وهى أن A هناك وهذا إنسان وB هناك.. إلخ، ولكن لا واحد منها له أن يدعى أنه المفند الوحيد للبيان على أسس منطقية بحتة، ولا يجب أن نتوقع الطراز نفسه من التقابل أو "الصدق" من "الطراز" نفسه فى حالة الأحداث غير المدركة مثل الذى يوجد فى الأحداث المدركة.

فلنأخذ بيانا عن شىء ليس لأحد به خبرة مثل الموجات الصوتية أو الضوئية. لا أدعى أن هذه البيانات يمكن معرفة أنها صادقة، وإنما أهتم بأن أوليها جوهرية. افترض أنك أنت وأنا على مسافة بعيدة من بعضنا البعض على طريق معروف الطول. أنت تطلق مسدسًا وأنا أرى فى البداية الدخان ثم أسمع الصوت. أنت تتحرك على طول الطريق بينما أنا أقف بلا حراك. أجد من التجربة أن الزمن بين رؤيتى للوميض وسماعى للصوت يتناسب مع المسافة بينك وبينى. إلى الآن لم أقدم شيئا يتجاوز خبرتى. حركتك قد تؤخذ على أنها حركة إدراكى لك وموقعك على الطريق قد يؤخذ على أنه موقع إدراكى لك على إدراكى للطريق، والمسافة منى قد تؤخذ على أنها عدد المدركات لمواقع القياس بين مدركى لجسمى ومدركى لجسمك. تساوى المسافة بين مواقع القياسات المتتالية يمكن تفسيره بسهولة حيث إن المكان موضع الاعتبار يمكن أن يؤخذ على أنه مكان مدركاتى وليس المكان المادى. لإزالة عنصر الشهادة، سوف أفترض أننى وضعت قنابل زمنية عند مواقع القياس المختلفة بدلا من إطلاق المسدس،

وأننى قمت بقياس الفترات الزمنية بين رؤية وسماع الانفجارات المختلفة. ما هى طبيعة الاستنتاجات من هذه الخبرات الذاتية بالنسبة للمكان المادى؟

يجب أن يكون مفهوما أننى لا أناقش أى استنتاجات يقوم بها الحس المشترك. الحس المشترك يعتقد فى الواقعية الساذجة ولا يضع أى تمييز بين المكان المادى والآخر الإدراكى. ورغم أن الكثير من الفلاسفة أدركوا أن الواقعية الساذجة لا يمكن الوصول إليها، إلا أنهم أبقوا على بعض الآراء المرتبطة منطقيا بها وبصفة خاصة ما يتعلق بالطرز المختلفة للمكان. السؤال الذى أناقشه هو: كيف لنا أن نؤكد ما تدعيه النظرية الفرضية بأن هناك مكان مادى، وأية قاعدة تبرر اعتقادنا فى هذه النظرية الفرضية؟

(١٢)

جزء من النظرية هو أن السبب وأثره لو فصلت بينهما فترة زمنية محددة لابد وأن يكونا مرتبطين بسلسلة سببية وسطية متصلة. هناك علاقة سببية بين رؤية وسماع الانفجار، فعندما أكون فى الموقع، لا يكونان متزاملين وتكون هناك سلسلة من الأحداث الوسطية التى لم تكن مُدركَة وبالتالى ليست فى المكان الإدراكى. يؤكد هذه النظرية اكتشاف أن الضوء والصوت لهما سرعة محددة.

نستطيع أن نأخذ كقاعدة أنه: إذا كان فى خبرتى، حدث من الطراز A دائما ما يتبعه، بعد فترة زمنية بينية محددة، حدث من الطراز B، فإن هناك أحداثا وسطية تربط بينهما. بعض هذه القواعد تشتمل عليها الأساليب العلمية. كل مقدمة يتم تصديقها ليس وفقا للدليل المحسوس فحسب، ولكن على أساس التوافقات بين الدليل المحسوس وبعض الاستنتاجات غير التوضيحية.

حتى الآن، يوجد فرق واضح بين النظرية الفرضية الخاصة بما يمكن أن تكون لنا به خبرة والنظرية الفرضية عما لا يمكن. النظرية الفرضية التى تفترض أينما رأيت

انفجاراً فسوف أسمع بعده بقليل صوتًا لو كانت زائفة فسوف يثبت عاجلاً أو آجلاً زيفها بواسطة خبرتى. ولكن النظرية الفرضية تفترض أن الصوت يصل إلىَّ بواسطة موجات صوتية قد يكون زائفًا دون أن يؤدى ذلك إلى أى توابع توضح الخبرة زيفها، يمكن أن نفترض أن الموجات الصوتية مجرد خيال مناسب، وأن الصوت الذى أسمعه يحدث كما لو أنه ناتج عن موجات صوتية، ولكنه فى الحقيقة بلا سوابق غير محسوسة. هذه النظرية الفرضية لا يمكن رفضها على أسس استنباطية، فلو أنها واجبة الرفض فيجب أن يكون ذلك على أسس من طراز آخر مثل قاعدة الاستمرارية السابقة الذكر.

(١٣)

نستطيع الآن التمييز بين أربعة تجمعات للأحداث:

١ - تلك التى أخبرها.

٢ - تلك التى أعتقد فيها على أساس الشهادة.

٣ - تلك التى خبرها أى إنسان.

٤ - تلك التى يفترضها علم الفيزياء.

من بين هذه التجمعات أعرف فعليا الجزء من (١) الذى أدركه الآن أو أتذكره، ومنها أستطيع الوصول إلى خبراتى المستقبلية أو المنسية، بافتراض الاستقراء. أستطيع الوصول إلى (٢) بواسطة التشابه إذا افترضت أن الخطاب أو الكتابة التى أراها أو أسمعها "تعنى" ما تعنيه إذا قلتها أو كتبتها. إذا توافر هذا الفرض، يمكننى بالاستنباط الوصول إلى (٣) فماذا عن (٤)؟

قد يقال إننى أعتقد فى (٤) لأنها تقود إلى كيان متناسق للنظرية وإلى نقاط كلها متسقة مع (١)، (٢)، (٣) وتؤدى إلى بيان أبسط للقوانين المتحكمة فى إحداث (١)، (٢)، (٣) عما يمكن الوصول إليه بأى طريق آخر.

لا بد من أن يقال إن (١) فقط أو (٢) فقط أو (٣) فقط تسمح بالمثل بنظرية متناسقة بمجرد افتراض أن الأحداث فى المجموعات المستبعدة عبارة عن خيالات مناسبة. الفرضيات الأربع - (١) وحدها، (٢) وحدها، (٣) وحدها ، (٤) وحدها - لا يمكن التمييز بينها فعليا، وإذا كنا سنتبنى أيا منها ما عدا (١) فقط، فيجب أن نفعل ذلك على أساس قاعدة غير توضيحية للاستنتاج لا يمكن جعلها محتملة أو غير محتملة بواسطة أى دليل فعلى. وحيث إنه لا أحد يقبل (١) وحدها، أستنتج أنه لا يوجد فعليون حقيقيون وأن الفعلية رغم أنها غير داحضة منطقيا، لا يعترف بها أحد.

(١٤)

الجدل بأن مقدمة الوجود غير القابلة للتفنيد مثل تلك الخاصة بالفيزياء، هى بلا معنى، يجب رفضه. فكل ثابت فى مثل تلك المقدمات له معنى مشتق من الخبرة. العديد من تلك المقدمات مثل "الخيِّرون عندما يموتون يذهبون إلى الفردوس" لها أثر قوى على العواطف والأفعال. هذا الطراز من العلاقة بالحقيقة، عندما يكون صادقا، هو نفسه كما فى حالة مقدمات الوجود القابلة للتفنيد أو المقدمات العامة. أستنتج أنه لا يوجد أسباب فى تحليل الجوهرية لرفضها، وأن الفعلية توفر أسبابا فقط ضد (٤) كما توفرها ضد (٢) و (٣) بالتالى فإننى أقبل قانون الوسط المستبعد دون تحفظ.

ونلخص هذه المناقشة المستفيضة كالتالى: ما أسميناه بنظرية المعرفة المنطقية "للصدق" إذا أخذناها بجدية، نجد أنها تقصر الصدق على المقدمات التى تؤكد ما أدركه أنا الآن أو أتذكره، وحيث إنه لا أحد يرغب فى تبنى هذه النظرية الضيقة فإننا مرغمون على الاتجاه إلى النظرية المنطقية للصدق التى تشتمل على احتمال أحداث لا خبرة لأحد بها، ومقدمات تعد صادقة رغم عدم إمكان وجود دليل يؤيدها.

الحقائق أوسع من الخبرات. المقدمة القابلة للتفنيد هى التى لها تقابل من طراز معين بخبرة ما، المقدمة الصادقة هى التى لها التقابل نفسه تمامًا مع الحقيقة،

فيما عدا أن أبسط طرز التقابل والذى يحدث فى أحكام الإدراك يكون مستحيلا فى كل الأحكام الممكنة الأخرى، لأنها تشتمل على متغيرات. وحيث إن الخبرة هى حقيقة، فإن المقدمات القابلة للتفنيد صادقة، ولكن لا يوجد مبرر لافتراض أن كل المقدمات الصادقة قابلة للتفنيد. إذا ادَّعينا بإيجابية أن هناك مقدمات صادقة ليست قابلة للتفنيد فإننا نتخلى بذلك عن الفعلية. والفعلية البحتة لا يصدقها أحد، وإذا كان لنا أن نبقى على الاعتقاد الذى نرى جميعًا أنه صحيح، علينا السماح بقواعد الاستنباط التى ليست إيضاحية أو مشتقة من الخبرة.

* * *

الفصل الثانى والعشرون

الجوهرية والتفنيد

(١)

فى الفصل الحادى والعشرين، ناقشت ما يمكن أن يعتقد أنه مهزلة الفعلية وانتهيت إلى معارضتها. لم أقصد معارضة كل الصور الممكنة للفعلية، وإنما فقط لكى أستحضر بعض التضمينات لما هو مقبول عمومًا كمعرفة علمية، والتى يبدو لى أن معظم الفعليين المحدثين لا يدركونها بصورة كافية، وهى ستخدم فى إضفاء الدقة على ما أدَّعيه بمقارنتها مع آراء أتفق معها. لهذا الغرض، سوف أختبر فى هذا الفصل أجزاء معينة من "الاختبارية والمعنى" لكارناب، وهو ما يعد تحليلا مهمًا ومتأنِّيًا خاصة تمييزه بين "الاختزال" و"التعريف" الذى يلقى المزيد من الضوء على نظرية الأسلوب العلمى. فيما يختص بما لدى من عدم اتفاق مع وجهات نظر كارناب، فإن ذلك نجم بالتأكيد من اعتقادى أنه بدأ متأخرا جدا فى تحليله، وأن هناك مشكلات أولية -كرَّسنا لها هذا العمل الحالى- تعد أكثر أهمية عما يميل لتأييده. هذا الرأى سوف أدافع عنه الآن.

(٢)

يبدأ كارناب بمناقشة العلاقة بين المفاهيم الثلاثة، "المعنى"، و"الصدق"، و"القابلية للتفنيد" (ما يسميه "معنى" هو ما أسميته "جوهرية" أى أنه خاصية للجمل). هو يقول:

"من المشكلات الرئيسية لنظرية المعرفة مشكلة المعنى ومشكلة التفنيد. الأولى تسأل: تحت أى ظروف يكون للجملة معنى بمدلول المعنى الإدراكى الحقيقى؟ الثانية تسأل: كيف نصل إلى معرفة شىء ما وكيف نعرف ما إذا كانت جملة معينة صادقة أو زائفة؟ السؤال الثانى يفترض مسبقا السؤال الأول. بالتأكيد يجب أن نفهم الجملة، أى يجب أن نعرف معناها قبل أن نحاول معرفة ما إذا كانت صادقة أو زائفة. ولكن من وجهة نظر الفعلية، لا تزال هناك علاقة أوثق بين المشكلتين. بمدلول معين، توجد فقط إجابة واحدة للسؤالين. إذا عرفنا ما يجب أن يكون بالنسبة لجملة معينة لكى نعرف صدقها وبالتالى يكون ممكنا معرفة معناها. وإذا كان الحال بالنسبة لجملتين وكانت الظروف التى توجب اعتبارهما صادقتين هى نفسها، يكون لهما المعنى نفسه. بالتالى فإن معنى الجملة هو بمدلول معين مطابق للأسلوب الذى حددنا به صدقها من زيفها والجملة لها معنى فقط إذا كان هذا المحدد ممكنًا.

يرى كارناب أن أطروحة أن "الجملة لها معنى إذا كانت قابلة للتفنيد فقط وبالتالى فإن معناها هو الطريقة التى يتم بها تفنيدها" تبسيطًا مخِلا. هذه الصياغة كما يقول "تقود إلى تحديد شديد للغة العلمية باستبعاد ليس فقط الجمل الخاصة بما وراء الطبيعة ولكن أيضا جمل علمية لها معنىً حقيقى. هدفنا الحالى يمكن أن يصاغ على أنه تحوير لمتطلبات القابلية للتفنيد. وهو موضوع للتحوير وليس للرفض الكامل لهذه المتطلبات".

النظرة نفسها قال بها شليك حيث يقول إن بيان معنى جملة يعادل بيان القواعد التى وفقا لها يجب استعمال الجملة، وهذا هو السوال نفسه عن الطريقة التى يمكن بها تفنيدها (أو دحضها). معنى مقدمة ما هو طريقة تفنيدها. لا توجد طريقة لفهم أى معنى قبل الرجوع فى النهاية إلى تعريفات قاطعة وهذا يعنى بوضوح الرجوع إلى "الخبرة" أو "احتمالية التفنيد".

مما سبق يتضح أن شليك وقع فى ضلال من فشله فى التمييز بين الكلمات والجمل. كل الكلمات الضرورية، كما رأينا، لها تعريفات قاطعة وبالتالى تعتمد

على الخبرة بالنسبة لمعناها. ولكن من أسس استعمال اللغة أننا نستطيع فهم جملة بطريقة صحيحة إذا كانت مكونة من كلمات نفهمها، حتى لو لم تكن لنا خبرة مقابلة للجملة ككل. القصص الوهمية والتاريخ وكل طرق إعطاء المعلومات تعتمد على هذه الخاصية للغة. وبوضعها تقريريا: إذا توافرت الخبرة الضرورية لفهم الاسم "a" والخبر "P" نستطيع فهم الجملة "a لها الخبر P" دون الحاجة لأية خبرة تقابل هذه الجملة، وعندما أقول إننا نستطيع فهم الجملة، لا أعنى أننا نعرض كيف نحدد ما إذا كانت صادقة أو لا. إذا قلت "يحتوى المريخ على سكان مجانين وأشرار مثل الذين يعيشون على كوكبنا" فإننى أفهمك ولكنى لا أعرف كيف أحدد ما إذا كان ما تقوله صادقًا.

(٣)

مرة أخرى إذا قيل إن "معنى المقدمة هو طريقة تفنيدها" فإن هذا يغفل المقدمات التى هى تقريبا مؤكدة، أى أحكام الإدراك، فبالنسبة لها لا توجد "طريقة للتفنيد" لأنها هى التى تفند كل المقدمات الفعلية الأخرى التى يمكن معرفتها بأية درجة. إذا كان شليك مصيبا، كان علينا الالتزام لدرجة لا نهاية لها، لأن المقدمات مفندة بواسطة مقدمات أخرى وهى بدورها يجب أن تشتق معناها من الطريقة التى تفند بها بواسطة مقدمات أخرى وهكذا بلا نهاية. كل من يجعلون "التفنيد" أساسيا يتجاهلون المشكلة الحقيقية وهى العلاقة بين الكلمات والأحداث غير اللفظية فى أحكام الإدراك.

ومع ذلك لم نختبر عملية التفنيد بدرجة كافية بواسطة الذين يجعلونها أساسية لأنها فى صورتها البسيطة، تحدث عندما أتوقع حدثًا ثم أدركه. ولكن إذا وقعت أحداث من غير أن يتم توقعها، فإنه من الممكن إدراكها وتكوين حكم إدراكى عنها، ولكن هذه ليست عملية تفنيد. التفنيد يؤكد المشكوك فيه بواسطة الأقل شكًّا فيه وهو بالتالى غير قابل للانطباق على الذى لا شك فيه وهى أحكام الإدراك.

(٤)

لنعـد الآن إلى كارناب. هو يقـول "لو عـرفنا مـا يجـب أن تكون عليـه جـملة مـا لكى نجدها صـادقة لعرفنا مـا هو معناها"، بالتالى فعلى أسس سبق شرحـها، يجب أن نميز الجمل المحتوية على متغيرات عن تلك التى تحتوى فقط على ثوابت. فلنأخذ تلك التى تحتـوى على ثوابت فـقط مـثل الجـملة "P(a)" حـيث الخـبـر "P" والاسم "a" لهـمـا تعريفات مـحددة. هذا يتضمن أننى عندى خبرات تم التعبير عنها بالجمل "P(b)" ، "P (c)" ، "P(d)" ... والتى بواسـطتـهـا اكتسـبت عـادة الربط بين "P" و P وتتضـمـن أيضـا أننى لى خبـرات تم التـعـبـيـر عنهـا بالجـمل "S(a)" ، "R(a)"،"A(a)" والتى بـواسـتطتـهـا اكتسبت عـادة الربط بين "a" مع a. ولكن من المفترض أننى لم تكن عندى خبرة مطلقا يمكن أن أعبر عنها بالجملة "P(a)" رغم ذلك، فإننى من المفروض "أن أعرف ما يجب أن يكون لهذه الجملة لكى أجد أنها صادقة". لا أعرف كيف يكون ذلك بخلاف أننا نستطيع تخـيل المدرك والذى سيقودنا للنطق بالجملة "P(a)" كحكم إدراكى. هذا بالتـأكيد شـرط كافٍ لفهم الجملة، ولكنى لست متـأكداً أنه ضرورى. مثـلا، إذا سمـعنا "P(a)" تقـال، قد نسلك سلوكا مناسبا بدون أى وسائط بين السمـا ع والسلوك، ويجب أن يقال عندئذ إننا فهمنا الجملة

(٥)

لنأخذ الحالة الأكثر شيوعا والتى فيها تحتوى الجملة على متغير واحد على الأقل. مما سبق قوله فـى الفصول السابقة، من المشكوك فيه أن تكون مقدمـة ليست من أحكام الإدراك مـحتوية عـلـى مـتغير واحـد وبالتالى فـالـحالة التى ذكرت فى الفقرة الأخـيـرة لا تحدث مطلقًا. على أى حال، عندما يبدو أنها تحدث فالجملة موضع الاعتبار سيتضح عـادة وليس دائمـا أنهـا جملة وجـود: "يوجـد × بحـيث إن..." فى حـالة الجمل التى من الطراز "يوجـد × بحـيث إن...."، لكى يقـال "مـا يجب أن يوجـد فى الجـملة لكى تكون صـادقة" ليس بالأمر السـهل، حيث تشـتمل على جملة أخرى من الطراز نفسـه. لنأخذ

حالة جريمة قتل، ارتكبت وفقًا لحكم المحكمة بواسطة شخص أو أشخاص مجهولين (سوف نهمل لغرض التبسيط "أو أشخاص") بأى مدلول نعرف "ما يجب أن يوجد فى الجملة لكى تكون صادقة"؟

أبسط نظرية فرضية هى أن شاهدًا جديدا سيتقدم ويقول إنه رأى الجريمة ترتكب بواسطة السيد A. سوف أسقط احتمال الشهادة الزور. سيكون لدينا فى حالة الشاهد الجديد سلسلة كاملة من المدركات الافتراضية D أوC أو B ... أو Z يرون A يرتكب الجريمة؛ ... D أو C أو A ... أو Z يرون B يقترف الجريمة، أو ... D أو B أو A يرون C يقترف الجريمة – حيث Z، ... C ، B ، A كلهم الرجال الموجودين. فلكى نعرف ما يجب أن يكون لجملة لكى تكون صادقة يجب أن نعرف ما يجب أن يكون لرجل معين يرى رجلاً آخر يقترف الجريمة، أى أن نعرف المقصود بجملة أخرى من الطراز نفسه. وحيث إنه "يوجد X بحيث إن fx " قد تكون صادقة إذا كان "fa"أو "fb" أو "fc" .. إلخ أحكام إدراك، فإن الجملة لها العديد من المفندات، وبالتالى لا نستطيع أن نصف مسبقًا تفنيدها إلا بواسطة جملة وجود أخرى.

(٦)

قلنا فيما يتعلق بالذاكرة إننا بفضل الإدراك الماضى نستطيع معرفة مقدمة وجود من غير أن نعرف المقدمة الإدراكية المحددة التى وجدت فى المناسبة التى أدت إلى تذكرنا الضبابى الحالى. إذا تم قبول الذاكرة – كما أعتقد أنها واجبة القبول – كمصدر مستقل للمعرفة (مستقل منطقيا وليس سببيا لأن كل الذكريات تعتمد سببيا على مدركات سابقة)، فإن الجملة لا بد وأن تعتبر مفندة إذا عبرت أو نتجت عن تذكر حالى. فى هذه الحالة، سيوجد طراز من التفنيد مكون من الوصول إلى مقدمة وجود تعبر عن "معتقد – ذاكرة". هذا الطراز من التفنيد فيما يختص بقابلية الذاكرة للخطأ، هو أدنى من ذلك الخاص بالإدراك، وسوف نحاول دائما ما وسعتنا القدرة تقويته بواسطة تفنيد إدراكى.

بين الطريقة التى ناديت بها فى نظرية المعرفة وتلك التى نادى بها كارناب (مع آخرين)، هناك فرق فى نقطة البداية والتى هى شديدة الأهمية. أنا أبدأ من جمل عن أحداث معينة مثل "هذا أحمر"، "ذاك لامع"، "أنا -الآن محتر". الدليل المؤيد لأى جملة من هذا الطراز ليس جملاً أخرى وإنما حدث غير لفظى، وكل الدليل يحتويه حدث مفرد، ولا شيء يحدث فى وقت آخر أو فى مكان آخر سيؤيد أو ينفى هذا الدليل.

الأحداث السابقة ترتبط سببيا فى استعمالى للغة: أنا أقول "أحمر" بسبب اعتيادٍ نتج عن خبرات ماضية. ولكن الأسلوب الذى تشكلت به العادة ليس مهمًا لمعنى كلمة "أحمر" لأنه يعتمد على ماهية العادة وليس على كيفية تكوّنها.

كل جملة من الطراز السابق هى مستقلة منطقيا عن كل الجمل الأخرى، فعندما يقال إن إحدى هذه الجمل تزيد أو تقلل احتمال جملة أخرى، فلا بد وأن ذلك يرجع إلى بعض قواعد الارتباطات والتى يجب أن يعتقد فيها وفقا للدليل وليس للإدراك. أفضل مثال لهذه القاعدة هو الاستقراء.

الجمل التى كانت فى ذهن كارناب لا بد وأنها من طراز آخر. بعض هذه الجمل سيجعل هذا واضحا.

(٧)

"نحن نميز اختبار جملة ما عن تأكيدها بفهم العملية - مثل إجراء تجارب معينة- والتى تقود للتأكيد بدرجة ما إما للجملة نفسها وإما لنقيضها. سنسمى الجملة قابلة للاختبار إذا عرفنا طريقة لاختبارها ونسميها قابلة للتأكيد إذا عرفنا تحت أى ظروف تتأكد الجملة".

"الخبر "P" فى اللغة "L" يسمى قابلاً للرؤية لكائن (مثل شخص) "N" إذا كان بالنسبة لجدال مناسب مثلا "b" يكون "N" قادرا تحت ظروف مناسبة أن يقرر بمساعدة

قليـــل من المشــاهدات عن جـملة كـاملة، مـثــلا "P(b)" أى على تـأكـيـد إمـا "P(b)" وإمـا "ليس-(P(b" لدرجة عالية بحيث إنه إما أن يقبل وإما أن يرفض "P(b)".

هذا يوضح أن كـارناب كان يفكر فى جمل لهـا درجة من العـمـومـيـة. فى المبـحث الأول كان يتحدث عن التجارب التى تؤكد بدرجة ما الجملة أو نقيضها. فما لم تعلمنا كل تجربة شيئا، فمن الصعب رؤية كيف يمكنـها أن تكون لها أية تأثيرات تخص صدق أو زيف الجملة الأصلية. كذلك، الجملة الأصلية يجب أن يكون لها آثارٌ على أحداث فى أوقات مـختلفة وإلا فـإن التجـارب، التى تحدث فى أوقات مـختلفة، لا يمكن أن تزيد أو تقلل احتمالية صدقها. لا بد أن يكون للجملة درجة عالية من العمومية عن الجمل التى تشتمل على نتائج التجارب المختلفة وهـذه الجمل لا بد وأنها أبسط منطقيا من الجملة التى تؤيدها أو ترفـضـهـا، ونظريتنا للمـعـرفـة يجب أن تبـدأ بهـا وليس بالجـملة التى ستؤيدها أو ترفضها.

(٨)

تنطبق الملاحظات نفسـهـا على السـؤال الثـانى. يتـحـدث كـارناب عن "قليل من المشـاهدات" كـضـرورة لتـحـديد صـدق "P(b)". فـإذا كـان من الممكن حـدوث أكـثـر من مشـاهدة فإن b تكون قادرة على الحدوث أكثر من مرة ولا يمكن بالتالى أن تكون حدثًا واحداً، وإنما لا بد وأن تكون لها خـاصية الكونية. أنا مقتنع بأن هذا لم يقصده كارناب ولكنى لا أرى كيف يمكن تجنبه.

كل استعمالات اللغة تشتمل على كونية معينة ولكن ليس بالضرورة على مـعرفة. تعريف "الخبر" هو أنه قسم من الأصوات المتشـابهة المرتبطة بعادة معينة. قد نقول: "ليكن P قسمـاً من الأصوات المتشـابهة. إذن P لأى كائن N هو "خبر" إذا كان هناك قسم E من الأصوات المتشابهة بحيث إن حدوث أى عضو من القسم E يسبب فى N دافعا لعمل صـوتٍ من القسم P". القسم من الأصـوات P سوف تكون له الخاصيـة لـ N

إذا كانت N لها خبرة متكررة بالأعضاء من E و P مرتبطين. التكرار والكونية هما جوهر الموضوع، لأن اللغة مكونة من اعتيادات، والاعتياد يشتمل على التكرار، والتكرار لا يمكن أن يكون إلا لكونيات. ولكن فى المعرفة لا شىء من هذا يعد ضروريا لأننا نستعمل اللغة، ويمكننا استعمالها بصورة صحيحة من غير أن نعرف العملية التى اكتسبناها بها.

كلمة "يمكن مشاهدتها" مثل كل الكلمات المشتملة على احتمال، تعد خطيرة. تعريف كارناب يقول إن "P" يمكن مشاهدتها" إذا أمكن وقوع مشاهدات معينة. ولكننا لا نستطيع فى البداية معرفة ما هى المشاهدات الممكنة رغم أنها لا تحدث فى الحقيقة. يبدو ضروريا بالتالى إحلال "تشاهد" محل "يمكن مشاهدتها" ونقول إن الخبر "P" يشاهد إذا حدثت المشاهدات بالفعل مما يساعد على تحديد "P(b)" بالنسبة لبعض b.

كما أن تعريف كارناب هو سببى بحت حيث إن المشاهدات تسبب أن يعتقد المشاهد "P(b)" أو "ليس P(b)". لم يقل شيئًا لإيضاح وجود أى مبرر (فى مقابل السبب) لأن تقود هذه المشاهدات إلى هذا الاعتقاد.

(٩)

يبدو بالتالى أن تعريف خبر "يمكن مشاهدته "'P' يتقلص إلى: "A يشاهد 'P' إذا كان هناك 'b'، بحيث إن الظروف تقود A لادعاء 'P(b)' أو "ليس–'P(b)'". بكلمات أخرى، حيث إن كل ادعاءات A يجب أن تنبع من الظروف، "A يشاهد 'P' إذا ادعى A 'P(b)'". هذا يجعل النظرية بكاملها لا شىء على الإطلاق.

خلال النقاش السابق لم أكن مقتنعًا بأن ما قاله كارناب كان خطأً، وإنما هناك أسئلة مستقلة يجب النظر إليها ويترتب على إهمالها أن علاقة المعرفة الفعلية بالأحداث غير اللغوية تصبح لا يمكن فهمها. يرجع اختلافى مع الإيجابيين المنطقيين إلى الأهمية

التى أوليها لهذه الأسئلة المستقلة. أهم هذه الأسئلة هو: هل يمكن معرفة أى شىء من خبرة مفردة؟ وإذا كان ممكنا فما هو؟ كارناب وكل المدرسة التى ينتمى إليها يفكرون فى المعرفة على أنها المعرفة العلمية التى تبدأ بمقدمات مثل "المعادن توصل الكهرباء". مثل هذه المقدمات تتطلب عدداً من المشاهدات. ولكن ما لم يكن كل مشاهدة مفردة تؤدى إلى بعض المعرفة، فكيف لتتابع من المشاهدات أن يؤدى إلى معرفة؟ كل استقراء يعتمد على عدد من الفروض التى هى أكثر خصوصية من الاستنتاج: "النحاس يوصل الكهرباء" هى أكثر خصوصية من "المعادن توصل الكهرباء" وهى فى حد ذاتها استنباط مشتق من "هذا نحاس ويوصل الكهرباء" وهكذا. كل مشاهدة مفردة تقول للمشاهد شيئًا. قد يكون صعبا التعبير بكلمات عما يمكن معرفته بالضبط من مشاهدة واحدة، ولكن ذلك ليس مستحيلا. أنا متفق مع المنطقيين الإيجابيين فى رفض مفهوم المعرفة التى لا توصف، ولكنى لا أرى كيف يمكن إنكار أن معرفتنا بالأشياء الواقعية مبنية بواسطة الاستنتاجات ومن فروض مشتقة من مشاهدات مفردة.

ولأننى أنظر إلى المشاهدات المفردة على أنها توفر فروضنا الواقعية لا أستطيع القبول بمفهوم "الشىء" الذى يشتمل بدرجة ما على المثابرة، وبالتالى يمكن فقط أن يشتق من تجميع المشاهدات. نظرة كارناب التى تسمح بمفهوم "الشىء" فى بيان الفروض الفعلية تبدو لى غير ملتفتة لبيركلى وهيوم وهيراكليتس. أنت لا تستطيع أن تقول بأنك تنزل مرتين فى النهر نفسه، لأن مياها جديدة تتدفق باستمرار فى مجرى النهر، ولكن الفرق بين النهر والجدول هو أمر خاص بالدرجة فقط. قد يسلم كارناب بأن النهر ليس "شيئا" والجدل نفسه لا بد أن يقنع كارناب أن الجدول ليس "شيئًا".

(١٠)

قدم كارناب جدلا يجب اختباره بهذا الخصوص لإثبات أن "لا فرق أساسى بين جملة كونية وجملة خصوصية فيما يتعلق بالقابلية للتفنيد، وإنما الفرق يكون فقط فى

الدرجة". فهو يجادل بقوله: "خذ مثلا الجملة التالية: "توجد ورقة بيضاء على هذه المنضدة" للتأكد من أن هذا الشيء هو ورقة، نقوم بمجموعة من المشاهدات البسيطة ثم إذا بقى أى شك فقد نقوم بعمل تجارب فيزيائية وكيميائية. هنا كما فى حالة القانون، نحاول اختبار جملٍ نستنتجها من الجملة موضع السؤال. هذه الجمل المُستنتجة هى أخبار عن مشاهدات مستقبلية. عدد هذه الأخبار التى يمكن أن نشتقها من الجملة المعطاة هو عدد لا نهائى وبالتالى لا يمكن تفنيد الجملة بصورة كاملة أبدا".

موضوع اليقين أو التفنيد الكامل ليس هو ما أود مناقشته. كل الجدل المعروض بالنسبة لى بخصوص هذا الموضوع فيما عدا ذلك الخاص بـ ريخنباخ هو السؤال الخاص بما إذا كانت مقدمة ما مؤكدة، يختلط بسؤال ما إذا كانت هذه المقدمة فرضا فعليا. أنا مستعد للتسليم بأن ما نأخذه على أنه حكم إدراك هو مثل الذكريات، عرضة للخطأ، وهذا ليس له علاقة بالسؤال "ما هى الصورة التى يجب أن نعطيها للمقدمات التى نقبلها كفروض فعلية؟".

من الواضح أنه إذا لم يكن هناك ما يمكن تعلمه من مشاهدة واحدة، فلا شىء يمكن معرفته من العديد من المشاهدات. بالتالى بالنسبة لسؤالنا الأول يجب أن يكون على النحو "ما الذى يمكن تعلمه من مشاهدة واحدة؟"، هذا السؤال لا يشتمل على كلمات يمكن أن تنطبق على أقسام من الأشياء مثل "ورق" و "مائدة". رأينا فى فصل سابق أن "هناك كلب" لا يمكن أن تكون فرضا فعليا، ولكن "هناك بقعة لونية" يمكن أن تكون كذلك. الفرض الفعلى يجب ألا يشتمل على كلمات تعد استنباطات مكثفة مثل "كلب"، "ورق".

فيما يتعلق باليقين للفروض الفعلية فإن ما يقال هو التالى:

أولا: نحن نعطى فروضنا الفعلية أشكالا بحيث لا يمكن لأى مجموعتين منها أن تكونا غير متماسكتين تبادليا، وأيضا بحيث إن أيا منهما يمكن جعله ممكنا بأى درجة أو غير ممكن بأى عدد من الفروض الأخرى. الربط بين الفروض الفعلية الذى بواسطته تصبح مؤيدة أو غير مؤيدة لبعضها البعض يعتمد على قواعد الاستنباط، وبالأخص

الاستقراء والذى لا يمكن أن يكون إيضاحيا، والذى يعطى احتمالات فقط وهى بالتالى ليست داحضة عندما لا يحدث ما توضح أنه ممكن.

ثانيا: كل أسباب الاعتقاد فى فرض فعلى، طالما كان فرضا، هى فى الحدث الذى تشير إليه. الدليل عليه، هو حدث متفرد وليس جملة أو مقدمة أو اعتقاد، ويكون الدليل كاملا لحظة وقوعه وكان قبل وقوعه غير موجود ولا يمكن بعد وقوعه تقويته بدليل آخر.

ثالثا: إذا كنا سنصر كما يفعل العديد من الفلاسفة على أن الفرض الفعلى يمكن رفضه على أساس دليل لاحق، فيجب أن يكون ذلك لأننا نقبل أشكالا غير إيضاحية وسبق استنباطها، ولا يمكن للخبرة أن تؤكدها أو ترفضها ولكننا نعتبرها فى بعض الحالات أكثر تأكيداً عن الدليل الخاص بالحواس.

أخيرا: الفروض الفعلية قد تكون مؤكدة ولكن لا شىء أكثر تأكيدا يمكن أن يجعلها زائفة.

* * *



الفصل الثالث والعشرون

التأكيدية المضمونة

(١)

علينا أن نتذكر أنه فى بداية الفصل الواحد والعشرين تم التمييز بين أربع نظريات للصدق دافعت فيه عن الرابعة وهى نظرية التقابل. النظرية الثالثة الخاصة بالتماسك نوقشت ورُفِضت فى الفصل العاشر. النظرية الثانية التى تحل "الاحتمال" محل "الصدق" لها صورتان قبلت إحداهما واعتبرت الأخرى خاطئة. الصورة التى تنص على أننا لسنا على يقين أبدا من أن مقدمة معينة مُعبَّرٌ عنها بكلمات، صادقة، أوافق عليها ولكن الصورة التى تدعى أن مفهوم "الصدق" ليس ضروريا، أرفضها. يبدو لى أن " 'P' محتملة" هى مكافئة تماما لـ "'P' صادقة هى محتملة"، وأننا عندما نقول "'P' محتملة" نحتاج بعض الاحتمال فى أن هذا البيان صادق. لا أرى سببا لمن ينادى بالاحتمال أن يرفض "الصدق" كما يظهر فى البيان السابق. لن أناقض بالتالى وجهة نظر بروفسور ريخنباخ، لأننى أعتقد أنهما بالقليل من التحوير يمكن أن تتسق مع تلك الخاصة بى.

النظرية الأولى، على النقيض، تختلف جذريا عن النظرية التى أنادى بها ويجب بالتالى مناقشتها وهى نظرية د. ديوى والتى وفقًا لها "التأكيدية المضمونة" يجب أن تحل محل "الصدق". قمت بمناقشة هذه النظرية فى باب فلسفة چون ديوى بالجزء الأول من "مكتبة الفلسفة الحية" وفيه يرد د. ديوى على اعتراضاتى. فى الفصل الحالى

أود أن أقتصر على القاعدة العامة وأن أعتبرها غير قابلة للمعارضة بنفس درجة تآلفها، مع شرح أسبابي لرفضها.

يتضح من ردود د. ديوى أننى فهمت آراءه خطأً ودون قصد، أنا مهتم بتجنب ذلك إذا استطعت خاصة لأننى مقتنع بوجود فرق مهم بين آرائه وآرائى، والذى لن يتضح ما لم نفهم بعضنا البعض. ولأن الفرق عميق لا أجد كلمات يوافق عليها الجانبان كبيان محايد عن الخلاف وهو ما يجب رغم ذلك أن أحاول عمله.

(٢)

وفق فهمى للدكتور ديوى فإن نظريته كالتالى: بين الطرز المختلفة للأنشطة التى يمكن أن يشترك فيها البشر، هناك نشاط يسمى "البحث" وغرضه العام كغيره من الأنشطة هو زيادة تكيف الإنسان وبيئته. يستعمل البحث التأكيدات كوسائل، والتأكيدات "مضمونة" طالما كانت تنتج الآثار المرغوبة. ولكن فى البحث، كما فى أية عملية فعلية، الوسائل الأفضل تكتشف من وقت لآخر والوسائل القديمة يتم إهمالها. فبالتأكيد أن الماكينات يمكن أن تستخدم فى صنع ماكينات أفضل فكذلك النتائج المرحلية لبحث ما يمكن بواسطة الوسائل نفسها أن تؤدى إلى نتائج أفضل. فى هذه العملية لا توجد نهاية، وبالتالى ليس هناك تأكيد يكون مضمونا لكل الوقت، وإنما لمرحلة معينة من البحث. "الصدق" كمفهوم جامد لا بد بالتالى وأن يتم إهماله.

رد د. ديوى علىَّ قد يخدم فى توضيح وجهة نظره حيث يقول: "التكريس المطلق الخاص بالسيد رسل فى شرح وجهة نظره يتضح فى افتراضه أن المقدمات هى موضوع البحث، وهى وجهة نظر مفترضة بصورة غير واعية لدرجة أنها تؤخذ على أنها مسلم بها كما أننى وبيرس نفترضها. ولكن وفقًا لنظرتنا -ووفقا للفعليين- الأشياء والأحداث هى موضوعات البحث، والمقدمات هى وسائل فى البحث، بحيث إن الاستنتاجات الخاصة ببحث معين تصبح وسائل عند إجراء بحوث لاحقة. وكغيرها من الوسائل فهى تتحور وتتحسن عبر مسار استعمالها. فبالتسليم بالمعتقدات يتضح:

١ – أن المقدمات من البداية هى غرض البحث.

٢ – أن كل المقدمات تتميز بالصدق أو الزيف كخاصية.

٣ – قراءة هذه الفروض فى النظريات – مثل بيرس وأنا– ونحن نرفضهما فإن النتيجة هى الاضطراب العقائدى نفسه الذى يجده السيد رسل فيما قلناه؟

أولا، هذه الكلمات تخص التفسير الشخصى، فأى قارئ للعمل الحالى سوف يقتنع بأننى لا أجعل المقدمات هى الهدف النهائى للبحث، حيث إن مشكلتى كانت، عبر العمل بكامله، العلاقة بين الأحداث والمقدمات التى تؤدى بالبشر إلى تأكيدها. أنا لا أعتبر الأشياء أهدافًا للبحث لأننى أعتبرها أوهامًا ميتافيزيقية، ولكن بالنسبة للأحداث لا أعتبرها كذلك وأختلف فى هذه النقطة مع د. ديوى. مرة أخرى، فيما يخص النظريات الفرضية العلمية، مثل نظرية الكم أو قانون الجاذبية، فإننى مستعد لقبول وجهة نظره، ولكنى أعتبر هذه النظريات الفرضية بناءً فوقيا مبنيا على قواعد من معتقدات أبسط ولا أجد فى عمل د. ديوى ما يعد بالنسبة لى مناقشة كافية لهذه القواعد.

بالنسبة للصدق والزيف فإننى أفسر الحقائق المتعلقة بالبحوث والنظريات الفرضية المتغيرة بطريقة مختلفة، فأقول إن البحث يبدأ كقاعدة، بتأكيد ضبابى ومعقد، ثم يحل محله عندما يكون ذلك ممكنا عدد من التأكيدات المنفصلة كل منها أقل ضبابية وأقل تعقيدًا من التأكيد الأصلى.

التأكيد المعقد قد يكون قابلاً للتحليل إلى العديد من التأكيدات بعضها صادق وبعضها زائف، والتأكيد الضبابى قد يكون صادقًا أو زائفًا ولكن عادة ما لا يكون هذا أو ذاك. "الفيل أصغر من الفأر" يعد ضبابيا ولكنه بالتأكيد زائف ولكن "الأرنب أصغر من الفأر" لا يعد صادقًا أو زائفًا لأنه أحيانا ما يكون الأرنب أصغر من بعض الفئران كبيرة السن، عندما حلت نظرية أينشتين محل نظرية نيوتن للجاذبية زالت بعض الضبابية عن مفهوم نيوتن عن السرعة، ولكن كل التأكيدات التى تضمنتها نظرية نيوتن ظلت صادقة. هذا إيضاح لما يحدث دائمًا عندما تتنحى نظرية قديمة مفسحة المجال

لأخرى أفضل؛ التأكيدات القديمة تفشل فى أن تكون صادقة أو زائفة بطريقة قاطعة لأنها كانت ضبابية. أنا لا أرى كيف نحدد التحسين إلا بمدلولات الدقة والصدق.

إحدى الصعوبات كما جاءت فى نظرية د. ديوى هو سؤاله: ما هو هدف البحث؟ كان الهدف بالنسبة له ليس الوصول إلى الصدق وإنما إلى نوع من التناسق بين الباحث وبيئته. لقد نظرت إلى هذا السؤال من قبل ولم أجد عنه إجابة فى الكتاب المذكور. الأنشطة الأخرى مثل بناء البيوت أو طباعة الصحف أو صناعة القنابل لها أغراض معروفة. فيما يختص بها، الفرق بين وسيلة جيدة وأخرى سيئة يعد واضحا: الوسيلة الجيدة تقلل العمل المبذول فى الوصول إلى الغرض، ولكن "البحث" يعد محايداً فيما يتعلق بالأهداف المختلفة: أيا ما كان الشىء الذى نرغب فى عمله هناك درجة من "البحث" قبل الشروع فى عمله تعد ضرورية. إذا أردت الاتصال تليفونيا بصديق فلا بد من البحث عن رقمه فى دليل التليفونات مع مراعاة العناية الواجبة فى استعمال نسخة حديثة من الدليل، لأن صدقها ليس خالداً للأبد. إذا أردت حكم دولة، يجب أن أبحث فى مجالات لم أعتدها قبلا عن كيف أصبح رئيساً سياسيا لدولة. لو أردت بناء سفينة فإن علىَّ أو على واحدٍ من عمالى البحث فى الهيدروستاتيكا. إذا أردت تدمير الديمقراطية فيجب أن أبحث فى سيكولوجية الجموع وهكذا. السؤال هو: ما الذى يحدث نتيجة بحثى؟ يرفض د. ديوى الإجابة التقليدية وهى أننى سأعرف شيئًا وبالتبعية لمعرفتى سوف يكون عملى أكثر نجاحا. هو يلغى المراحل الوسطية للمعرفة ويقول إن النتيجة الأساسية الوحيدة للبحث الناجح هى الفعل الناجح.

هناك سؤالان: الأول: ما هى الأحداث السيكولوجية التى يمكن وصفها "بالاعتقاد"؟ الثانى، هل توجد أية علاقة بين الاعتقاد وبيئته تجعلنا نسمى الاعتقاد "صادقًا"؟ حاولت إعطاء إجابة للسؤالين فى الفصول السابقة. لو كانت هناك أحداث "لاعتقادات" والذى يبدو أمراً لا يمكن إنكاره فالسؤال هو: هل يمكن تقسيمها إلى فئتين، الصادقة والزائفة؟ فإذا لم يكن ذلك ممكنا، هل يمكن تحليلهما بحيث يمكن تقسيم مكوناتهما إلى فئتين؟ لو كان أى من السؤالين يجاب عليه بالموافقة، فهل التمييز

بين "صادق" و"زائف" يمكن أن يعرف من نجاح أو فشل آثار الاعتقادات، أم أنه يمكن أن يعرف بعلاقة أخرى قد تكون لها بأحداث متعلقة بها؟

أنا مستعد للإقرار بأن معتقدا كليا قد يفشل فى أن يكون "صادقا" أو "زائفا" نتيجة أنه مكون من العديد منها بعضها صادق وبعضها زائف، وأنا مستعد أيضا للتسليم بأن بعض المعتقدات تفشل عبر الضبابية فى أن تكون صادقة أو زائفة، رغم أن معتقدات أخرى بالرغم من ضبابيتها لا تكون زائفة أو صادقة. لا أستطيع الاقتراب أبعد من ذلك للموافقة مع د. ديوى.

فى رأى د. ديوى، يكون المعتقد "مضمونا" لو أنه كوسيلة يعد مفيدا فى نشاط معين، أى لو أنه كان سببا لإشباع رغبة، هذا، أعتقد أنه رأيه. ولكنه أشار إلى أن التوابع تقبل فقط كاختبارات للصلاحية "طالما أن هذه التوابع تم توظيفها فعليا وأنها ستحل المشكلة المعينة التى أدت إلى العمليات".

(٣)

الجزء الثانى من هذا البيان واضح فى معناه. لو ذهبت إلى مكان ما، تحت الاعتقاد الخاطئ بأن عمى المفقود من زمن طويل عاش فيه، ولكنى فى طريقى قابلت عمتى المفقودة منذ زمن طويل وبالتالى تركت لى ثروتها فإن هذا لا يثبت أن "عمى المفقود منذ زمن طويل يعيش هناك" له "تأكيدية مضمونة".

فى رد د. ديوى علىَّ توجد فقرة سأوردها بالتفصيل لأنها مصممة لإزالة أى خطأ فى التفسير كالتالى: "مقولة أن طراز التوابع التى تعمل كاختبارات للصلاحية قد أدخلتها كجزء من التفسير الذى يقوم به السيد رسل لاستعمالى للتوابع، حيث إنها تبين أن من الضرورى استعمالها بحيث تحل المشكلات المحددة موضع البحث. تفسير السيد رسل للتوابع لا يوفر أية روابط تربطها بالرغبات الشخصية. الناتج النهائى هو أنه أرجع لى التمنى العام كتعريف للصدق. استمر السيد رسل فى البداية بتحويل

موقف مشكوك فيه إلى شك مؤقت، رغم أن الفرق بين الأمرين قد أشرت إليه مراراً. وقد أوضحت مراراً أن الشك الشخصى يكون مرضيا ما لم يكن انعكاساً لموقف إشكالى. وبتغيير الشك إلى عدم ارتياح خاص - فإن الصدق يتحدد بإزالة عدم الارتياح هذا. الرغبة الوحيدة التى تدخل فى الموضوع، وفقا لنظرتى، هى الرغبة فى حل المشكلة موضع الاعتبار بحيادية ونزاهة ما أمكن. "الإشباع" هو إشباع الشروط التى توصف بواسطة المشكلة. الإشباع الشخصى قد يدخل فى الموضوع كما ينجم عندما يتم حل القضية بكفاءة وفقًا لمتطلبات القضية ذاتها، ولكنه لا يدخل بأية طريقة إلى تحديد الصلاحية حيث إنه على العكس، يتحدد بواسطة الصلاحية".

(٤)

أنا أجد ما سبق شديد الارتباك. يبدو أن د. ديوى يتكلم كما لو أن الموقف المثير للشك يمكن أن ينجم دون أن يوجد إنسان شكاك. لا أعتقد أنه يقصد ذلك، فلا يمكن أن يقصد القول مثلا إن هناك مواقف مثيرة للشك فى العصور الجيولوجية قبل أن توجد الحياة. الطريقة الوحيدة التى يمكننى تفسير ما قاله بها هو افتراض أنه بالنسبة له "الموقف المثير للشك" هو الموقف الذى يؤدى إلى الشك ليس فقط فى شخص ما. وإنما فى أى شخص طبيعى أو أى إنسان قلق للوصول إلى نتيجة معينة، أو أى مراقب مدرب علميا يبحث الموضوع. جزء من الغرض، أى جزء الرغبة، تنطوى عليه فكرة الموقف المثير للشك. إذا لم تسر سيارتى، فإن هذا يخلف موقفا مثيرا للشك إذا كنت أود السير بها وليس عندما أرغب فى تركها فى مكانها. السبيل الوحيد لإزالة المرجعية للرغبة الفعلية هو جعل الرغبة افتراضية بحتة: يكون الموقف مثيرا للشك وفقًا لعلاقته برغبة معينة إذا لم يكن معروفًا فما الذى -فى هذا الموقف- يجب فعله لإشباع هذه الرغبة؟ عندما أقول "ليست معروفة" لا بد وأننى أعنى، لتجنب الذاتية، أنها ليست معروفة للذين لديهم التدريب الكافى. فإذا وجدت نفسى فى الموقف "S"، وأنا أرغب فى الموقف ´S وأنا أعتقد (صوابا أو خطأ) أن هناك شيئًا أستطيع عمله يمكن أن يحول S

إلى ´S، والخبراء لا يستطيعون أن يقولوا لى ماذا يجب علىَّ أن أفعل، فإن S بالنسبة لرغبتى هو موقف مثير للشك.

بإزالة كل مرجعية للشك الشخصى وللرغبة، قد نقول: S مثير للشك بالنسبة لـ ´S إذا لم يكن البشر يعرفون أى عمل إنسانى. A سيحول S إلى ´S وأيضا لا يعرفون أن مثل هذا العمل يعد ممكنًا. عملية البحث ستتكون من أداء سلسلة من الأعمال ...,´A, A ´´A على أمل أن واحدا منها سيحول S إلى ´S. هذا بالطبع ينطوى على أن S و ´S كلاهما يوصف بمدلول أنهما كونيات، لأنهما لو لم يكونا كذلك لا يمكن لأحدهما أن يحدث أكثر من مرة واحدة. بالتالى ... ´´A, A´, A يجب أيضا أن توصف بهذا المدلول، حيث إننا يجب أن نصل لبعض البيانات مثل: "كلما كنت فى الموقف S وترغب فى أن تكون فى الموقف ´S تستطيع تحقيق رغبتك بأداء الفعل A" حيث A يجب أن تكون طرازًا من الفعل، وإلا لكان لا يمكن أداءه إلا مرة واحدة.

فعندما نأخذ إزالة د. ديوى للرغبة الذاتية بجدية، نجد أن هدفه هو اكتشاف قوانين سببية من الطراز القديم "C تسبب E"، فيما عدا أن C يجب أن تكون موقفا بالإضافة إلى أداء، وتكون E موقفًا آخر. هذه القوانين السببية، إذا كانت تخدم الغرض، لا بد وأن تكون "صادقة" بالمدلول الذى يرغب د. ديوى فى إزالته.

(٥)

فرق مهم بيننا ينشأ من حقيقة أن د. ديوى مهتم أساسًا بنظريات وافتراضات، بينما أنا مهتم أساسا بتأكيدات عن موضوعات حقيقية. فكما أوضحت فى الفصل السابق بالنسبة للنظرية الفعلية للمعرفة يجب أن تكون التأكيدات الأساسية متعلقة بأمور معينة حقيقية، أى بأحداث مفردة تحدث مرة واحدة فقط، وما لم يكن هناك شىء يمكن معرفته من حدث مفرد فلا نظرية فرضية يمكن تأييدها أو رفضها، ولكن ما يمكن معرفته من حدث مفرد يجب ألا يكون من الممكن تأييده أو رفضه بواسطة تجارب لاحقة. الموضوع الخاص بكيفية معرفتنا بالحقائق التاريخية بواسطة الخبرة على ما يبدو لى أن د. ديوى قد أهمله هو ومدرسته التى يتزعمها. خذ على سبيل المثال البيان

"قيصر تم اغتياله"، هو صادق بفضل حدث مفرد وقع منذ زمن طويل ولا شيء حدث منذ ذلك الوقت أو سيحدث فى المستقبل يمكن أن يؤثر على صدقه أو زيفه.

التمييز بين الصدق والمعرفة الذى أوضحته عند الحديث عن قانون الوسط المستبعد يعد مهمًا هنا. لو رغبت فى تفنيد البيان "قيصر تم اغتياله" أستطيع عمل ذلك فقط بواسطة أحداث مستقبلية - الرجوع إلى كتب التاريخ، الوثائق.. إلخ. ولكن هذا لمجرد توفير الدليل على أمور بخلاف نفسها. عندما أضع البيان لا أعنى "من يرجع إلى الموسوعة سوف يجد علامات سوداء معينة على ورق أبيض". رؤيتى لهذه العلامات هى حدث متفرد فى كل مرة أراها فيها، وفى كل مرة أستطيع معرفة أننى أراها، ومن هذه المعرفة أستطيع استنتاج (بشك) أن قيصر تم اغتياله. ولكن إدراكى للعلامات السوداء واستنتاجى من هذا الإدراك ليسا هما ما جعل الادعاء عن قيصر صادقا، فسوف يكون صادقًا حتى لو قمت بهذا العمل بدون أسباب على الإطلاق. فهو صادق بسبب ما حدث منذ زمن طويل وليس بسبب أى شيء أقوم به أو سأقوم به.

(٦)

الموضوع الواسع يمكن بيانه كالتالى: ما إذا كنا نقبل أو نرفض كلمة "صادق" و"زائف"، فإننا جميعا نوافق على أن التأكيدات يمكن تقسيمها إلى طرازين، غنم وماعز. يصر د. ديوى على أن الغنم يمكن أن تصبح ماعز والعكس صحيح، ولكنه يسلم بثنائية أن الغنم لديها تأكيدات مضمونة والماعز ليس لها ذلك. وأن التقسيم يجب تعريفه بآثار التأكيدات. أما أنا فأصر فيما يتعلق بالتأكيدات الفعلية على أنها تحدث نتيجة مسبباتها. التأكيد الفعلى الذى يمكن معرفة صدقه له مدركات أو مدرك بين مسبباتها القريبة أو البعيدة. ولكن هذا ينطبق فقط على المعرفة فى حدود تعريف الصدق يكون التسبيب مهمًا عند إضفاء معنى على الكلمات.

النقاش السابق كان مهتما أساسًا بإيضاح الموضوع. أسباب آرائى الخاصة كانت لأغلب الأجزاء مذكورة فى فصول سابقة.

الفصل الرابع والعشرون

التحليل

(١)

أهتم فى هذا الفصل بالمقدمات من الطراز "P هو جزء من W". أود البحث فيما إذا كانت هذه المقدمات جزءًا من الجهاز الأساسى للمعرفة الفعلية أم أنها دائمًا ما يجب استنباطها من تعريف الكل W والذى دائما سيذكر الجزء P أينما كانت "P هى جزء من W" صادقة.

العملية التى بواسطتها نصل إلى "P هى جزء من W" تسمى تحليلاً ولها طرازان: التحليل المنطقى والتحليل إلى أجزاء فراغية - مرحلية. أحد الأمور التى يجب مراعاتها هى العلاقة بين هذين الطرازين من التحليل.

منذ زمن بعيد، اعترض العديد من الفلاسفة على التحليل، فقد أصروا على أن التحليل تزييف وأن الكل ليس بالفعل مكونًا من أجزاء مرتبة بطريقة مناسبة، وأنه إذا ذكرنا أى جزء بمفرده فإن عملية الفصل تغيره، بحيثِ إن ما قمنا بذكره ليس هو الجزء العضوى من الكل.

قاعدة الذرية تمثل النقيض المتطرف للوحدة. قاعدة الذرية قد يقال إنها تحرِّم التخليق. فمن ناحية اللغة هى تحرم إعطاء أسماء أعلام لكليات معقدة أو عندما يعرف أنها معقدة. بالنسبة لى، أنا أرفض كلا التطرفين.

الذين ينكرون شرعية التحليل مرغمون على الإصرار على أن هناك معرفة لا يمكن التعبير عنها بكلمات. وحيث إنه من الصعب إنكار أن الجمل مكونة من كلمات، فبالتالى

يمكن تحليل الجمل إلى سلسلة من المنطوقات اللفظية. لو تم إنكار ذلك فمن الضرورى إنكار أن الجملة سلسلة من الكلمات، وفى هذه الحالة تصبح شيئًا غير منطوق.

من الناحية الأخرى، الذين يعتقدون فى التحليل، يتتبعون اللغة بطريقة شديدة الاستعبادية، وقد كنت أنا مذنبا بهذا الخطأ. هناك واقعتان تقودنا بهما اللغة فى عملية التحليل: واحدة تعتبر الجمل والكلمات حقائق محسوسة، والأخرى تعتبر الطرز المختلفة للكلمات كما يتم فى النحو والصرف. الطريقة الأولى سليمة تماما بينما الثانية رغم أن لها استعمالاتها، شديدة الخطورة ومصدر للخطأ.

(٢)

فلنبدأ باللغة على أنها مكونة من حقائق محسوسة. الجمل مكونة من كلمات والكلمات المطبوعة مكونة من أحرف. الشخص الذى لديه كتاب للطبع يقوم بجعل قطع منفصلة من الطباعة توضع فى ترتيب معين، ولكنه لو كان فيلسوفا، فقد يقول كتابه إنه لا توجد سلسلة من الأشياء المادية يمكن أن تعبر عن أفكاره. الآن فإن الحال التى يكون فيها للفلاسفة أفكار فى رءوسهم أفضل فمن المؤكد أن الأفكار فى كتبهم لا يمكن التعبير عنها إلا فى سلاسل من الأشياء المادية، لأنه لو لم تكن هناك مطابع، فعملهم سيكون مستحيلا. التفكير فيما يختص بقابليته للانتقال لا يمكن أن يكون معقدا بدرجة كبيرة عما يوجد فى الطرز المختلفة من السلاسل التى يمكن عملها من ٢٦ شكلا مختلفا (أحرف الأبجدية). عقل شكسبير ربما كان رائعًا ولكن الدليل على عبقريته يرجع بكامله إلى أحرف سوداء على خلفية بيضاء. الذين يقولون إن الكلمات تزيف الحقائق المحسوسة ينسون أن الكلمات حقائق محسوسة، وأن الجمل والكلمات كحقائق مكونة من أجزاء منفصلة يمكن تسميتها منفصلة، وأنها تسمى كذلك بواسطة كل طفل يتعلم. لا يمكن بالتالى إنكار أن بعض الحقائق المحسوسة يمكن تحليلها إلى أجزاء. تحليل الكلمات المطبوعة إلى أحرف أسهل من تحليل معظم الحقائق المحسوسة، فغرض الطباعة جعل التحليل سهلا. ولكن الفرق ما هو إلا فى الدرجة،

وبعض الظواهر الطبيعية ترتبط بالتحليل بالدرجة نفسها التى تفعلها الطباعة: الكلب الأسود على الجليد، قوس قزح، طائر النورس فى عاصفة بحرية كلها أشياء تلاحظ جيدا، فأكثر الفلاسفة الذين يعتقدون فى الوحدة حين يلاحظون نمرًا لن يتوقفوا للقول بأنه لن تكون له صفة إلا بالعلاقة بخلفيته. تحليل الحاضر المحسوس يحدث حتى بصورة حتمية عندما يكون هناك تباين حاد، مثل ضوضاء فجائية أو أسود مقابل أبيض. الحركة السريعة والتى تلاحظ جيدا تقع تحت البند نفسه. فى مثل هذه الحالات، تصبح لدينا دراية ليس بالكل وإنما بمعقد مكون من أجزاء. لو أن هذا ليس هو الحال، ما كان باستطاعتنا اكتساب مفهوم الترتيب الفراغى-المرحلى.

(٣)

من المألوف فى أيامنا هذه إهمال النظرة الذرية للإحساس كما ظهرت فى أعمال هيوم وتابعيه. يقال لنا إن العالم المحسوس عبارة عن تدفق مستمر فيه التقسيم غير حقيقى وعمل العقل فكرى بحت، وهكذا. قيل إن هذه أمور واضحة لا يطلب دليلاً عليها سوى إنسان غبى. كلمة "إحساس" أو "محسوس" كما يشار إليها عادة تعنى شيئًا افتراضيا هو ما يمكن ملاحظته دون تغير فى البيئة أو أعضاء الحس.

ما هو ليس افتراضيا هو ما يلاحظ، وليس ما يمكن ملاحظته، وما يلاحظ، كما أرى، له صفة الذرية والتقطع اللذين يرفضهما من ينتقدون هيوم. هم لا يبدءون، كما يجب للفعليين، من معطيات وإنما من عالم استنتجوه من معطيات عادة ما تصف طراز الشىء الذى يمكن أن يكون معطى. فى نظرية المعرفة، الأساس هو الملاحظة وليس الإحساس. سوف أعتبر كقضية مسلم بها، أن باستطاعتنا فى حدود كل مدرك، أن ندرك أجزاء على علاقات ببعضها. ليس من الضرورى اعتبار الأجزاء "بسيطة" ولا قيمة لما يعنيه ذلك. فلغرض التعبير اللفظى لما ندركه فى مثل هذه الحالة، فإن الأجزاء الأصغر التى تلاحظ يجب إعطاؤها أسماء أعلام، وبالتالى نستطيع تقرير كيفية ارتباطها ببعضها. القضية يمكن وضعها كالتالى: إذا وجد كلٌ معقد فلا توجد أجزاء

فقط وإنما تكون الأجزاء مرتبة أيضا فى شكل. وصف الكل سيطبق بعض العلاقات اللفظية للدلالة على الشكل، فما هو إذن العالم غير اللفظى المقابل لهذا العالم ذى العلاقات؟

أقترح التمييز بين أجزاء الحديث، ولكن اللغة المعتادة ليست كافية لهذا التمييز لكى تؤخذ على حالها الذى هى عليه. لا بد أولا من بناء لغة منطقية اصطناعية قبل محاولة البحث فى هذه القضية.

اللغات المنطقية اخترعها علماء المنطق لغرض المنطق. هى لا تحتاج إلى أسماء أعلام فعلية حيث إن المنطق لا يتحدث عن أى شىء بصفة خاصة. غرضنا يختلف قليلا، ولكن بالاستعانة بالمنطق يمكننا بناء طراز اللغة التى نحتاجها بسهولة. ما نحتاجه هو لغة تحول إلى رموز، الجزء من معرفتنا الذى ينتمى للغة الأولية، وعندما نبنى لغتنا يجب النظر إلى الضوء الذى يلقيه بناؤها على بناء المدرك الذى بفضله تكون مقدماته صادقة.

يجب أن تحتوى لغتنا على أسماء أعلام لكل الأشياء المدركة، والتى يتم إدراكها كوحدات. عندما ندرك شكلا دون أن نحلله لا بد وأن نكون قادرين على تسميته: على سبيل المثال أن نقول "هذا صليب معقوف". ولكن فى الهندسة لدينا شكل مكون من عدد من الخطوط كل منها يمكن ملاحظته منفردا ويبدو أننا لا نحتاج إلى اسم علم للشكل كله. فلو أن هناك شيئًا مثل حكم التحليل، فسوف يحتاج إلى اسم علم للكل وأسماء أعلام أخرى لأجزائه. افترض مثلا أنك تريد أن تقول، ليس عموما، وإنما فى حالة خاصة، إن وجهًا معينا مكون من عينيه وأنفه وفمه (بإهمال باقى الأجزاء) فسوف يكون عليك الاسترسال كالتالى: فلنسمى الوجه F، والعينين E_1, E_2 والأنف N والفم M. إذن F مكونة من E_1, E_2 ,N, M مرتبين بحيث إن E_1, E_2 شكلان بيضاويان على مستوى واحد، N مثلث ضيق يضيق بالاتجاه رأسيا فى منتصف المسافة بين E_1, E_2، وأن M خط أفقى يقع منتصفه رأسيا تحت N.

يلاحظ هنا أن F تبدو زائدة عن الحاجة حيث يمكن وصف الأمر بكامله بواسطة، E_1, E_2 ,N, M ، وما إذا كانت هناك حاجة لاسم علم "F" سأتركه سؤالا مفتوحاً.

فى الوصف السابق لوجه معين اضطررنا لاستعمال كلمات أخرى بجانب أسماء الأعلام، وكان علينا تحديد العلاقات الفراغية للأجزاء. لتبسيط الأمر سوف نختزل العينين والأنف إلى خطوط. نستطيع القول: E_1, E_2 جزءان مستاويان على خط أفقى واحد، فإذا كانت Eo هى نقطة المنتصف بين E1 و E2 وكانت N جزءاً من الخط الرأسى الساقط من Eo فإن M تكون نقطة منتصفها وتقع على هذا الخط، وهى جزء من خط أفقى تحت N. هذا البيان له دقة هندسة تنقص الإدراك ولكن هذا ليس مهما حاليا. قد نستطيع فى مجال الرؤية أخذ "أفقى" و "رأسى" كخبران مثل "أزرق" و"أحمر"، ولكننا نحتاج بيانا مثل E1 " تقع إلى يسار E2"، " E2 تقع أعلى N"، "N تقع أعلى M". لا توجد طريقة ممكنة لوصف ما نراه بدون بيانات لها علاقات من هذا الطراز.

(٤)

فلنأخذ الجملة التالية: "بينما كنت أغادر المسرح سمعت صيحات "حريق" ودُفعت بعنف بواسطة جمهرة أصابها الرعب". هذا لا يمكن أن يصف حكما إدراكيا لأن "أصابها الرعب" لا تمثل خاصية لمعطيات إدراكية. علينا أن نسقط كلمات "بواسطة جمهرة أصابها الرعب" لكى يكون لدينا حكم إدراكى. فما الذى تؤكده بالضبط؟ إنها تؤكد التزامل الزمنى للمدركات الثلاثة التالية:

١ - كان مجال رؤيتى كذا وكذا (هو كذلك بالفعل عندما يكون المرء قريبا من مكان الخروج).

٢ - سمعت صيحة "حريق" متكررة.

٣ - خبرت إحساساً قويا بالضغط على ظهرى.

قد نبسِّط ذلك بإحلال تزامل كالتالى:

١ – رأيت وأحسست بيدى تلمس الباب.

٢ – سمعت الصوت "حريق".

٣ – أحسست بضغط عنيف من الطراز الذى يرجعه المرء إلى الظهر.

هنا معطيات مرئية وسمعية وحسية متزاملة. كلمة متزاملة زمنيا صعبة، ولكنى أعتقد أنها تعنى "أجزاء من خبرة إدراكية واحدة" وعندما تكون A,B, C, D متزاملة زمنيا، فلا يعنى ذلك أن A, B و B, C و C, D متزاملة فى أزواج لأن أى شىء يمكن إدراكه يبقى لزمن محدد، وبالتالى فالتزامل الزمنى بين المدركات ليس مرحليا. ففى حالتنا لا بد أن هناك خبرة واحدة أو إدراكًا واحدًا يشمل المعطيات المرئية والسمعية والجسدية. قد يقال إن تزامن عدد من الأحداث يمكن استنتاجه من أنها وقعت فى الوقت نفسه. فلننظر إلى ذلك. الساعة عبارة عن جهاز مصمم لإعطاء أسماء لعدد من الأحداث شديدة القصر. فلنفترض أن ساعة لا تدلل على الثوانى والدقائق والساعات فحسب بل اليوم من الشهر والشهر من السنة وربما السنة أيضا. فى هذه الحالة، ما يظهر فى الساعة هو حدث يبقى لثانية ولا يعود مرة أخرى. ولنفترض أنك خبير فى إدراك الأشكال بحيث يمكنك التمييز بين أى مظهرين مختلفين للساعة. تستطيع أن تعطى اسم العلم "A" لمظهر الساعة عند العاشرة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا يوم واحد ديسمبر عام ١٩٤٠ بالضبط. قد تلاحظ بالتتابع فيما يختص بالأحداث B, C, D, E أن B كان كذلك و E كان كذلك ولكنك لا تستطيع استنتاج أن B, C, D, E كانت متزامنة مع بعضها البعض حيث إنها تحدث لفترات قصيرة جدا، كان من الممكن أن تكون الكلمات "اهرب بحياتك" والتى يمكن نطقها بتتابع فى محض ثانية. فإذا كانت ساعتك بدلا من تغيير شكلها مرة كل ثانية تقوم بتغيير شكلها كلما كان ذلك متوافقا مع إدراك الهزة بدلا من الحركة المستمرة، فلن نستطيع عمل مشاهدات متتابعة وشكلها يظل بلا تغير وبالتالى لا نستطيع معرفة أن حدثين كانا متزامنين مع مظهر معين للساعة ما لم يكونا هما ومظهر الساعة كلها أجزاء من خبرة واحدة، وأعنى بذلك

وجود مقدمة إدراك فى اللغة الأولية تؤكد تزامنها. لا بد من التسليم بأننا نستطيع إدراك العديد من الأحداث على أنها متزامنة وأنه لا يوجد حد نظرى لعدد تلك الأحداث. فلا بد وأن هناك كلمات ليست بأسماء أعلام وإنما خبريات أو علاقات ثنائية أو ثلاثية... إلخ.

(٥)

ما قيل حتى الآن فى هذا الفصل يعد تمهيدا للسؤال المهم وهو: هل نستطيع قول كل ما نعرفه دون استعمال أى مقدمات أساسية من الطراز "P هو جزء من W"؟ حيث من المفترض أن P و W هما أسماء أعلام.

استنتجنا فى الفصل الثامن أن كل أحكام الإدراك هى من هذا بتحليله الطراز، وأنه فى مثل هذه المقدمات ما نسميه "هذا" هو معقد يقوم حكم الإدراك بتحليله جزئيا. من المفترض فى هذا الخصوص أننا نستطيع أن نَخْبُر الكل "W" دون معرفة ما هى أجزاؤه، ولكن بالملاحظة والانتباه نستطيع تدريجيا اكتشاف أكثر وأكثر من أجزائه. ليس من المفترض أن تغنى هذه العملية عن عملية التحليل الكامل أو أن تصل إلى المرحلة التى تكون فيها الأجزاء غير قابلة لأى تحليل لاحق. ولكن المفترض أن الكل "W" بمقدوره الاحتفاظ بكينونته عبر العملية بكاملها.

سؤالنا هو: عندما ندرك أن الكل له أجزاء، هل معطياتنا دائما ما تكون مكونة من مقدمات عن الأجزاء وعلاقاتها، أم أنها أحيانا ما تحتوى على مقدمات فيها الكل يتم ذكره؟ هذا مرة أخرى هو سؤال الذرية. افترض دائرة A وخطا مستقيما L يمر عبرها. نستطيع أن نقول إن "L يقسم A إلى جزءين"، ولكن قد نكون مهتمين بـ A ككل وفى حقيقة أنه وتر دون أن نكون مهتمين بأجزائه. اعتبر مثلا سحابة تقسم وجه القمر إلى قسمين. نحن نبقى على دراية بالقمر ككل بصورة أكثر حيوية من أجزائه.

الطفل الذى يتعلم بالطريقة الحديثة أن يقرأ كلمة "قطة"، يتعلم أن يقوم بعمل الأصوات "ق"، "ط" ، "ة" فى تتابع (أعنى الأصوات الخاصة بهذه الأحرف وليس أسماء الأحرف) فى البداية تكون الفترة الزمنية بين الحروف طويلة جدا بالنسبة للطفل لكى يعى تتابعها لتكوين الكلمة، ولكن فى النهاية عندما تزيد السرعة ستأتى لحظة يدرى فيها "الطفل أنه نطق كلمة "قطة". فى تلك اللحظة، الطفل يدرى بالكلمة ككل مكون من أجزاء. قبل ذلك، لم يكن يدرى بالكل، وعندما استطاع أن يقرأ بسهولة توقف عن الدراية بالأجزاء ولكن عند أول لحظة للفهم، الكل والأجزاء، يوجدان بالتساوى فى الوعى. ما يدريه الطفل فى هذه اللحظة لا يمكن التعبير عنه دون مقدمات مثل "الصوت هو جزء من الصوت 'قطة'".

أعتقد أن كل أحكام الإدراك تشتمل على تحليل لكل مدرك. ما يُعطى هو الشكل، وإدراك أنه مكون من أشياء مرتبطة ينجم عن التحليل. يبدو بالتالى أنه بدون المقدمة "P هو جزء من W" لا يمكن شرح هذه العملية. وعلى ذلك فمثل هذه المقدمات لا بد أن تحدث فى اللغة الأولية.

بافتراض أن هناك كليات مكونة من جزئيات متصلة وأن المعرفة التى يعبر عنها كأحكام إدراك تتطلب للتلفظ بها، أسماء لهذه الكليات. يبقى السؤال الصعب وهو: تحت أية ظروف تشكل المدلولات المتصلة كلا يحتاج إلى اسم للتعبير اللفظى عما نعرفه؟

يحتاج الجدل إلى أن يكون مجموع معرفتنا فى أى وقت "كل" وكذلك أجزاء معقدة من هذا المجموع. أجزاء هذا المجموع تربطها معًا علاقة التزامل وهى علاقة يمكن أن توجد خارج الخبرة كما توجد بداخلها، فبالتأكيد إذا كان هناك عالم ليس لنا به خبرة كما تفترض الفيزياء فإن مكانه الزمانى سوف يعتمد على التزامل غير المخبر. وربما الكليات، من الطراز الذى لا يمكن الاستغناء عنه، والتى دائما ما تتكون بواسطة التزامل. فلنخبر هذه الإمكانية بإعطاء الاسم "W" لمجالى الإدراكى عند لحظة معينة. عند هذه اللحظة أستطيع أن أعطى الاسم الكاذب "هذا" لـW وأيضا لأجزاء من W وليس لأى شىء أكبر من W.

الاسم الكاذب "أنا-الآن" ينطبق على الكل W لحظة وجود W وليس على أى جزء من W. وفقا للنظرية الخاصة بالفصل السادس، W هى حزمة من الخصائص المتزاملة والتى يمكن أن تعطيها أسماء. فإذا كانت "Q" اسم واحدة منها، فإن "أنا-الآن أدرك Q" ستترجم إلى "Q جزء من W". فإذا كنت أراقب باستمرار ساعة تعطى الدقيقة والساعة واليوم والشهر والسنة وأعطيت الاسم "t" للصفة الخاصة بالساعة والتى هى جزء من W فإن "t" ستمثل مجموعة من الخصائص ليس لها علاقة زمنية بنفسها أى تحدث فقط مرة واحدة. أية خاصية أخرى للساعة ستكون أسبق من أو متأخرة عن t وسنقول إن المجال الإدراكى الكلى الذى تعد هذه الخاصية الأخرى جزءًا منه بالتقابل هو مبكر أو متأخر عن W. على ذلك فإن قيمة t تشكل سلسلة رقمية ممكنة القياس وقيمتين مختلفتين لـ t لا يمكن أن تتزاملا ما لم تكونا متساويتين تقريبا بحيث تشكلان جزءًا من W واحد. كل هذه الأمور تعد فعلية.

(٦)

علينا الآن أن ننظر ما هى الأجزاء من W التى يمكن أن تكون كليات تتطلب أسماء للتعبير عن أحكام الإدراك. مجموع W يمكن تحليله إلى عدد من الخصائص ولكن هذا التحليل لن يستطيع بذاته تمكيننا من شرح أحكام الإدراك مثل "A هو إلى يسار B". هذه تتطلب تحليل "W" إلى علاقات كبيرة بدلا من أجزاء "فكرية" هى تتطلب بحثًا للتحليل الفراغى داخل (كل) فكرى. فلنحصر أنفسنا كما فعلنا سابقا فى مجال الرؤية ونهمل العمق. قد نقول عندئذ للتبسيط إنه يوجد فى مجال الرؤية عدد من الخصائص المختلفة لأعلى وأسفل، وعدد من الخصائص المختلفة لليمين واليسار. أى واحد من الأولى سنرمز له بالرمز "θ" وأى واحد من الأخيرة بالرمز "∅". بعيدًا عن امتياز النظر، قد نفترض أن كل خاصية θ وكل خاصية ∅ توجد فى مجال رؤية كل شخص عندما تكون عيناه مفتوحتين وهو موجود فى النور.

نتطلب الآن علاقة "تداخل" تلعب دوراً فى بناء المكان المدرك تشبه تلك التى يلعبها التزامل فى الأوقات الخاصة. أنا لا أعـرِّف هـذه العلاقة ولكنى مقتنع بأنه إذا كانت Q و ´Q خاصـيتين فإن "Q و ´Q يتداخلان" يمكن أن تكون حكمًا إدراكيا. على سبيل المثال، أحمر ولامع يمكن أن يتداخلا، كذلك يمكن لدرجة معينة من الضغط التى لها خاصية نستطيع بها تمييز لمسة على جزء من الجسم عن لمسة على جزء آخر. لا يمكن لخاصيتين θ مختلفتين أن تتداخلا أكثر من خاصيتين Ø. لونان مختلفان لا يمكن أن يتداخلا كما لا يمكن لخاصيتى لمس تنتميان إلى أجزاء مختلفة من الجسم أن تتداخلا. أية خاصية رؤية يمكن أن تتداخل مع أى θ وأى Ø.

لأى قيمتين مختلفيتن لـ θ توجد علاقة فراغية غير متناظرة ببعضهما، هى الخاصة بأعلى أو بأسفل، وأى قيمتين مختلفتين من Ø بينهما علاقة فراغية غير متناظرة هى الخاصة بيسار أو يمين. أى قيمة لـ θ ستكون لها علاقة أعلى أو أسفل وليس ليمين أو يسار، وبالنسبة للمعقد نفسه (Ø وθ) لن تكون له علاقة فراغية بنفسه. هذه الحقيقة هى ما نحاول التعبير عنه عندما نقول إنها يمكن أن تحدث مرة واحدة فقط فى مجال رؤية معين.

(٧)

لو أن خاصية معينة ولتكن درجة من اللون C توجد فى منطقة من مجال الرؤية، فإن هذا يعنى أنه يتداخل مع الكثير من قيم الخاصيتين (Ø وθ)، وحيث إن θ وØ يمكن قياسهما رقميا، نستطيع إذن أن نحدد ما نعنيه بمنطقة "مستمرة" فى مجال الرؤية. كما نستطيع بالمثل تحديد مناطق فى المكان الفعلى. ما يجب أن نعتبره عموماً جزءًا "معتبراً" من الكل W هو أى منطقة مستمرة تعد جزءا من W. أى منطقة كهذه يمكن أن تكون "هذه".

عندما نقول "A تقع على يسار B" قد نأخذ "A" على أنها اسم المعقد المكون من قيم معينة من Ø ، θ إضافة إلى كل الخصائص المتداخلة مع كليهما، بينما "B" تعرِّف

بالمثل لقيم أخرى من ∅ ، θ. بياننا سيكون صادقا إذا كانت قيمة -A أو ∅ تقع إلى يسار قيمة -B. بالتالى فى "A تقع إلى يسار B" لا يحتاج الكل W إلى الذكر. ولكن إذا كانت هذه الجملة تعبر عن حكم إدراك، فلا بد من وجود الكل W حيث A وB أجزاء منه. قد نصل بذلك إلى استنتاج يخص الأسماء: الأسماء الأولية هى تلك التى تنطبق على كليات مثل: W أو إلى مناطق مستمرة هى جزء من W. الأسماء الأخرى اشتقاقية وغير ضرورية نظريا.

قد يساعد فى إيضاح ما سبق قوله البدء فى بناء (زمان-مكان) مادى، وبالتالى سنفترض صدق الفيزياء. (المكان - زمان) فى الفيزياء يعد استنتاجا، ويبنى بدرجة كبيرة بواسطة القوانين السببية. من المفترض أنه إذا وُجد قانون سببى يربط حدثين فى مكانين مختلفين فى (المكان -الزمان) ، فإنهما يرتبطان بواسطة سلسلة من الأحداث فى الأماكن الوسطية. الأسباب الفيزيائية والفسيولوجية للمدركات تجبرنا على اعتبار أنها جميعا فى منطقة واحدة يجب أن تقع داخل رأس المُدرِك (ليس بالطبع داخل إدراك الشخص لرأسه). علاقة التزامل الموجودة بين المدركات قد يفترض وجودها أيضا بين أى حدثين فيزيائيين يتداخلان فى (المكان-زمان). "النقطة" فى (مكان-زمان) يمكن تعريفها على أنها مجموعة من الأحداث لها الخاصيتان التاليتان:

١ - أى اثنين من المجموعة متزاملان.

٢ - لا شىء خارج المجوعة يتزامل مع كل عضو منها.

ترتيب النقاط فى (المكان - زمان) ليس سهلا كما أوضح أينشتين، فهو يبدأ، تاريخيا، من الاعتقاد بأن كل مُدْرَك له شىء مادى، وأن ترتيب الأشياء المادية فى المكان الفيزيائى يتلازم مع ذلك الترتيب للمدركات المقابلة فى المكان المُدرَك. الإحداثيات الخاصة بالزوايا للنجوم فى المكان الفيزيائى هى نفسها الخاصة بمدركاتها فى المكان المرئى. ولكن المفهوم أن المدرك هو لشىء فيزيائى، وقد اتضح أنه غير مضبوط وأنه سببى ولا يمكن الاعتماد عليه.

التحديد الأكثر دقة لترتيب (المكان-الزمان) يعتمد على القوانين السببية: مثلا المسافة إلى جوبيتر تحسب من مشاهدات تمكننا، بافتراض قانون الجاذبية، من حساب المسافة التى قطعها الضوء ليسافر من هناك إلينا.

لا حاجة بنا للغوص فى هذا الأمر أبعد من ذلك. النقطة المهمة بالنسبة لنا: أن الكل المدرك W هو من ناحية الفيزياء داخل رأسى لشىء مادى وأن (المكان-الزمان) كُلا وجزءًا هو تصور استنتاجى له أهمية أكبر فى صياغة نظرية المعرفة.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

اللغــة ومــا وراء الطبيعــة

(١)

فى الفصل الحالى، أقترح النظر إلى ما إذا كان أى شىء يمكن استنتاجه عن بناء اللغة ويختص ببناء العالم، وإذا كان ذلك ممكنا فما هو؟ كان هناك ميل، خاصة بين المنطقيين الإيجابيين لمعاملة اللغة على أنها مجال مستقل يمكن أن يُدرس دونما اعتبار للأحداث غير اللغوية إلى حد معين وفى مجال محدود يعد هذا الفصل للغة عن الحقائق الأخرى ممكنا، فالدراسة المنفصلة للنحو المنطقى أنتجت دون شك نتائج مهمة. ولكنى أعتقد أنه من السهل المبالغة فيما يمكن الوصول إليه بالنحو فقط. هناك علاقة يمكن اكتشافها بين بناء الجمل وبناء الأحداث التى تشير إليها الجمل. لا أعتقد أن بناء الحقائق غير اللفظية غير قابل للمعرفة بكامله وأعتقد، بحذر كافٍ، أن خصائص اللغة قد تساعدنا فى فهم بناء العالم.

فيما يختص بالعلاقة بالحقائق غير اللفظية، يمكن تقسيم معظم الفلاسفة إلى ثلاث مجموعات كبيرة:

(أ) الذين يستنتجون خصائص العالم من خصائص اللغة وهم فئة شديدة التميز وتشمل بارمنيدس، أفلاطون، سبينوزا، ليبنتز، هيجل، بيركلى.

(ب) الذين هم مقتنعون بأن المعرفة تقتصر على الكلمات. بين هؤلاء الرمزيين والمنطقيين الإيجابيين.

(جـ) الذين يصرون على وجود معرفة لا يمكن التعبير عنها بكلمات ويستخدمون الكلمات فى إخبارنا ما هى هذه المعرفة، تشمل هذه المجموعة الصدقيين، بيرجسون، وتجنشتين وأيضا هيجل وبيركلى فى بعض الجوانب.

(٢)

من المجموعات الثلاث، يمكن إهمال المجموعة الثالثة على أساس تناقضها الذاتى، أما المجموعة الثانية فمأسوف عليها على أساس الحقيقة الفعلية، وهى أن باستطاعتنا معرفة أى كلمات تحدث فى جملة ما، وأن هذه ليست حقيقة لفظية رغم أنها لا يمكن الاستغناء عنها لفظيا. فإذا اقتصرنا بالتالى على المجموعات الثلاث السابقة، فلا بد من أن نسعى لأفضل ما فى المجموعة الأولى.

يمكن تقسيم مشكلتنا إلى قسمين: الأول، ما الذى تتضمنه نظرية التقابل للصدق بالنسبة للمعيار الذى وفقا له قبلنا هذه النظرية؟

الثانى: هل يوجد أى شىء فى العالم يقابل التمييز بين أجزاء الحديث المختلفة كما تظهر فى اللغة المنطقية؟

فيما يتعلق بالتقابل فقد قادنا إلى الاعتقاد بأنه عندما تكون مقدمة صادقة ، فإنها تكون صادقة بفضل حدث أو أكثر تسمى "مفندات". فلو كانت مقدمة لا تحتوى على أى متغير فلا يمكن أن يكون لها أكثر من مفند واحد. قد نقتصر على هذه الحالة لأنها تشتمل على المشكلة بكاملها. علينا أن نبحث بالتالى فيما إذا كانت جملة معينة (يفترض صدقها) لا تحتوى على متغير ونستطيع منها استنتاج أى شىء يخص بناء المفند لها.

لننظر أولا إلى مجموعة جُمل تحتوى كلها على اسم معين. هذه الجمل مشتركة فى شىء ما فهل يمكن أن نقول إن مفنداتها تشترك أيضا فى شىء ما؟

هنا يجب أن نميز وفقا لنوع الاسم. فإذا كان W مجموعة معقدة من الخصائص، مثل تلك التى ناقشناها فى الفصل السابق، وقمنا بتشكيل عدد من أحكام الإدراك مثل

"W هو أحمر" ، "W هو مستدير"، "W هو لامع" وهكذا، فكلها لها مفند واحد مفرد هو W ولكن إذا قمت بعمل عدد من الجمل الصادقة تخص درجة معينة من اللون C فسيكون لها مفندات مختلفة. فجميعها لها الجزء المشترك C كما أن للبيان الجزء المشترك "C" سوف يلاحظ هنا، كما فى الفصل السابق، أن ذلك سيقودنا إلى النظرة التى لا يمكن تمييزها نحويا عن نظرة الموضوع-الخبر الذى تختلف عنه فقط فى أنها تعتبر "الموضوع" كحزمة من الخصائص المكونة. قد نضع ما قلناه كالتالى: بالنسبة لعدد من جمل الموضوع-الخبر التى تعبر عن أحكام إدراك مثل "هذا أحمر"، إذا كانت كلها لها الموضوع نفسه سيكون لها المفند نفسه وهو ما يمثله الموضوع، أما إذا كان لها جميعا الخبر نفسه، فإن المفندات سيكون لها جزء مشترك هو ما يمثله الخبر.

لا تنطبق هذه النظرية على جمل مثل "A يقع إلى يسار B" حيث "A" و "B" أسماء لأجزاء من مجالى البصرى. بالنسبة لـ "A" و "B" قمنا بتحليل هذه الجملة بصورة كافية فى الفصل السابق. ما أرغب الآن فى اختباره هو السؤال: ما هو الشىء المشترك فى مفندات عدد من الجمل المختلفة من الطراز "A" يقع إلى اليسار من B"؟

السؤال المطروح هو السؤال القديم الخاص بالـ "كونيات". قد نكون قد بحثنا فى هذا السؤال ما يتعلق بالخبريات - مثل "الأحمر هو لون" أو "C العالية هو صوت". ولكن حيث إننا شرحنا الجمل الأكثر وضوحا للموضوع - الخبر مثل "هذا أحمر" - على أنها ليست فى الحقيقة جمل موضوع-خبر فسوف نجد أنه من الأكثر مناسبة مناقشة "الكونيات" فيما يختص بالعلاقات.

(٣)

الجمل- ما عدا كلمات الأشياء المستعملة بطريقة ندائية، تتطلب كلمات بخلاف الأسماء. مثل هذه الكلمات نسميها "كلمات-العلاقة" وتشمل الخبريات ككلمات عن علاقات آحادية. التعريف كما تم شرحه فى الفصل السادس يعد نحويا: "اسم" ما هو

كلمة يمكن أن تحدث بجوهرية فى الجمل الذرية من أى طراز؛ "كلمة-العلاقة" هى التى تقع فى الجمل الذرية ولكن بحيث تحتوى هذه الجمل على العدد المناسب من الأسماء.

من المتفق عليه بصفة عامة أن اللغة تتطلب كلمات-علاقة، السؤال هو: "ما الذى يتضمنه ذلك فيما يختص بمفندات الجمل؟". "الكونيات" يمكن تعريفها على أنها "معانى كلمات-العلاقة" الكلمات مثل "إذا" و "أو" ليس لها معنى بمفردها، وقد ينطبق الشىء نفسه على كلمات-العلاقة.

قد يقال (خطأ كما أعتقد وأحاول إثباته) إننا لسنا بحاجة إلى افتراض كونيات، ولكن مجموعة من المنبهات لإحداث مجموعة من الأصوات المتشابهة. الأمر ليس بهذه البساطة. المدافع عن الكونيات قد يقول: "أنت تقول إن قطتين، لأنهما متشابهتان، تنبهان للنطق بصوتين متماثلين كلاهما هو لكلمة قطة، ولكن القطتين يجب أن تكونا متماثلتين فعلا وكذلك الصوتان. وإذا كانتا حقا متماثلتين فمن المستحيل أن يكون "التماثل" مجرد كلمة. إنها كلمة تنطق بها فى مناسبة معينة وهى عندما يكون هناك تماثل. محاولاتك قد تكون بإهمال الكونيات الأخرى وبأن تضع كل العمل فى هذا "الكونى" الباقى الذى لا تستطيع التخلص منه وبالتالى يمكنك بالكيفية نفسها قبول كل الباقى".

موضوع "الكونيات" صعب ليس فقط فى تقريره وإنما فى صياغته. لننظر إلى "A يقع إلى اليسار من B". الأماكن فى مجال الرؤية اللحظى، كما رأينا، تعد مطلقة. قد يمكن تحديدها وفقا لعلاقتها بمركز مجال الرؤية، وقد تتحدد بالعلاقتين يمين -و- يسار وكذلك أعلى -و- أسفل وهذه العلاقات تكفى للأغراض الطوبولوجية. لدراسة مكان الرؤية اللحظى فمن الضرورى إبقاء العينين ساكنتين والبدء بالأشياء القريبة من الحافة وأيضا القريبة من مركز مجال الرؤية.

إذا لم نتعمد إبقاء العينين بلا حركة فسوف ننظر مباشرة إلى أى شىء نلاحظه، والطريق الطبيعى لاختبار سلسلة من الأماكن هو أن يتم النظر إلى كل مكان بالدور. ولكن إذا أردنا دراسة ما نستطيع رؤيته عند لحظة معينة فلن ينفع هذا الأسلوب، لأن

أى شىء مادى كمعطى بصرى يكون مختلفًا عندما تتم رؤيته مباشرة أكثر منه عندما يكون بعيدًا من مركز المجال. ولكن ذلك ليس بالفارق الكبير. لا نستطيع الهروب من حقيقة أن المواقع المرئية تصنع سلسلة ثنائية الأبعاد، وأن هذه السلسلة تتطلب علاقات ثنائية غير متناظرة. وجهة نظرنا بالنسبة للألوان لا تختلف فى هذا الخصوص.

(٤)

يبدو أنه لا مهرب من التسليم بالعلاقات كأجزاء من المكونات غير اللغوية للعالم، التماثل وربما العلاقات غير المتناظرة لا يمكن شرحهما، مثل "أو" و "ليس" على أنهما ينتميان فقط للحديث. كلمات مثل "قبل" و "فوق" هى حقيقية كأسماء الأعلام وتعنى شيئًا يحدث فى أشياء الإدراك. يتبع ذلك أنه يوجد أسلوب صالحٌ للتحليل ليس هو التحليل إلى كل وأجزاء. نستطيع رؤية A – قبل –B ككل ولكن إذا أدركناها ككل فقط فلن نعرف ما إذا كنا قد رأيناها أم رأينا B– قبل –A .تحليل الكل –و– الجزء للمعطى A– قبل– B ينتج فقط A –و–B ويترك "قبل". فى اللغة المنطقية بالتالى سيوجد نوع من التمييز لأجزاء الحديث يقابل التمييز بين الأشياء.

فلننظر مرة أخرى إلى ما إذا كانت العلاقات غير المتناظرة مطلوبة مثلها مثل التماثل ولنأخذ " A هو فوق B" حيث A و B أسماء أعلام لأحداث. سوف نفترض أننا ندرك أن A هو فوق B. الآن من الواضح بدْءًا بنقطة غير ذات أهمية، أننا لا نحتاج لكلمة "تحت" مع كلمة "فوق" فأيهما بمفرده يكفى. سوف أفترض بالتالى أن لغتنا لا تحتوى على كلمة "تحت". المدرك الكلى، A– فوق –B، يشبه المدرك C – فوق – D و E– فوق – F إلخ. بطريقة تجعلنا نسميها كلها حقائق مرتبة رأسيا. حتى الآن لا نحتاج لمفهوم "فوق"، فقد يكون لدينا مجرد مجموعة من الأحداث المتماثلة كلها تسمى "ترتيبات رأسية" أى كلها تسبب الصوت المماثل لـ "فوق". حتى الآن نستطيع الاكتفاء بالتماثل فقط. ولكن يجب النظر إلى عدم التناظر. عندما نقول "A هو فوق B" كيف لسامعك أن

يعرف أنك لم تقل "B هو فوق A"؟ بالطريقة نفسها تماما التى تعرف بها أن A هو فوق B، هو يدرك أن الصوت "A" يسبق الصوت "B". بالتالى الأمر المهم هو التمييز بين A- أولا- ثم B و B -أولا- ثم -A، أو كتابة AB ، BA.

انظر إلى الشكلين التاليين: AB، BA. إذا كان S1 هو اسم العلم للشكل الأول، S2 للشكل الثانى ولتكن A1 ، A2 أسماء الأعلام للاثنين B . كل من S1 ، S2 ستكون مكونة من جزءين، وجزء واحد من S1 سيكون مطابقا لجزء واحد من S2 بينما الجزء الآخر سيكون مطابقا للجزء الآخر كما أنها سترتب العلاقة بالطريقة نفسها فى كلتا الحالتين. رغم ذلك، فالاثنان من الكل ليسا متماثلين تماما.

(٥)

قد يمكن شرح عدم التماثل بالطريقة التالية: عند وجود عدد من A وعدد من B مرتين فى أزواج فإن الكل الناتج سيقع فى قسمين، بحيث إن أعضاء القسم الواحد تكون متماثلة بشدة مع بعضها البعض، بينما أعضاء الأقسام المختلفة فتكون شديدة فى عدم التماثل. إذا أعطينا أسماء الأعلام S_3 ، S_4 للشكلين التاليين: BA, AB يتضح أن S_1، S_2 شديدا التماثل، وكذلك S_3 ، S_4 (بالطبع S_1 مكونة من A_1 قبل B_1 ، S_2 مكونة من B_2 قبل A_2). ربما بهذه الطريقة يمكن شرح عدم التناظر بمدلولية التماثل رغم أن الشرح ليس كافيا.

بافتراض أننا بالأسلوب السابق أو بغيره نستطيع التخلص من جميع الكونيات فيما عدا التماثل ويبقى النظر إلى ما إذا كان التماثل نفسه يمكن التخلص منه.

سوف نستعرض أبسط حالة ممكنة. بقعتان من اللون الأحمر (ليستا بالضرورة من نفس درجة اللون) متماثلتان، وكذلك حالتان لكلمة "أحمر". افترض أننا قد شاهدنا عددا من الأقراص وسئلنا أن نعطى أسماء لألوانها - مثل حالة اختبار عمى الألوان. يتم عرض قرصين من اللون الأحمر بالتتابع وكل مرة نقول "أحمر". كنا نقول ذلك، فى

اللغة الأولية، فالمنبهات المتماثلة تؤدى إلى انفعالات متماثلة. نظريتنا عن المعنى كانت قائمة على ذلك. فى حالتنا، القرصان متماثلان والنطقان بكلمة أحمر متماثلان. فهل نقول الشىء نفسه عن القرصين والنطقين، عندما نقول إن القرصين متماثلين، وعندما نقول إن النطقين متماثلين؟ أم أننا نقول أشياء متماثلة؟ فى الحالة الأولى، التماثل يكون كونيا حقيقيا وفى الحالة الثانية لا يكون كذلك. الصعوبة فى الحالة الأخيرة هو الانحدار اللانهائى، ولكن هل نحن على ثقة أن هذه الصعوبة ليست قابلة للفصل؟ سوف نقول إذا تبنينا هذا البديل: إذا كانت A ، B يتم إدراكهما كمتماثلين، وأن C ، D مُدركان أيضا على أنهما متماثلان، فإن هذا يعنى أن AB هو (كل) من طراز معين و CD هو (كل) من الطراز نفسه. وحيث إننا لا نريد أن نعرِّف الطراز بواسطة كونىٍّ، فإن AB و CD كليان متماثلان. لا أرى كيف يمكن تجنب هذا التراجع الذى هو من الطراز الخبيث إذا حاولنا شرح التماثل بهذه الطريقة.

(٦)

أستنتج بالتالى بشىء من التردد، أن هناك كونيات، وليس مجرد كلمات عامة. التماثل، على الأقل، لا بد من قبوله وفى هذه الحالة ليس من المفيد تبنى أساليب معقدة لاستبعاد غيره من الكونيات. الجدل السابق يثبت فقط ضرورة كلمة "مماثل" وليس كلمة "تماثل".

بعض المقدمات الخاصة بكلمة تماثل" يمكن أن تحل محلها مقدمات مكافئة تحتوى على كلمة "مماثل"، بينما البعض الآخر لا يمكن معه ذلك. الحالات الأخيرة هذه لا تتطلب التسليم بها. افترض، مثلا، أننى أقول "التماثل موجود". إذا كانت "موجود" فإن بيانى لغو عديم المعنى. ما يمكن أن أعنيه يمكن أن يتم التعبير عنه بالبيان: "هناك أحداث تتطلب لوضعها اللفظى جملاً من الطراز "a مماثل لـ b". ولكن هذه الحقيقة اللغوية يبدو أنها تتضمن حقيقة عن الأحداث الموصوفة وهى طراز الحقيقة التى يتم

تأكيدها عندما أقول "a مماثل لـ b". عندما أقول "التماثل موجود" فإن هذه الحقيقة عن العالم وليست حقيقة عن اللغة وهى ما أود تأكيده. كلمة "أصفر" تعد ضرورية لأن هناك أشياء صفراء، وكلمة "تماثل" ضرورية لأن هناك أزواج من الأشياء المتماثلة. وتماثل شيئين هو صادق كحقيقة غير لغوية مثل اصفرار شيء ما.

وصلنا إلى نتيجة تعد هى هدف كل مناقشاتنا. النتيجة التى توجد فى عقلى هى: اللاأدرية الميتافيزيقية الكاملة لا تتوافق مع بقاء المقدمات اللغوية. بعض الفلاسفة المحدثين يصرون على أننا نعرف الكثير عن اللغة ولا نعرف شيئا عن أى شيء آخر. هذه النظرة تتجاهل أن اللغة هى ظاهرة فعلية مثل غيرها، وأن الإنسان الذى يوصف ميتافيزيقيا باللاأدرية لا بد أن ينكر أنه يعرف عندما يستعمل كلمة ما. بالنسبة لى، أعتقد جزئيا، بواسطة فقهاء النحو، أن باستطاعتنا الوصول إلى معرفة كبيرة فيما يتعلق ببناء العالم.

* * *

المؤلف فى سطور:

برتراند راسل

يندر فى التاريخ أن نجد فيلسوفًا أوتى القدرة على مزج البراعة العقلية بالفكاهة غير راسل، وإذا كان ڤولتير هو آخر المتهكمين العظام فى الدوائر الفلسفية ، فإنه لم يكن من علماء الرياضيات أو فيلسوفًا مهما بأية درجة، ورغم أن لورد راسل كان ضحية للتعصب غير العادى إبان حياته ، لكن لم تؤد هذه العصبية إلى إنكار آرائه بأية صورة. وقد ظل راسل عبر حياته كلها مؤمنًا بأن ما يحتاجه العالم هو سلوك الحب والتراحم من أجل الإنسانية، لكن مع الأسف فقد قدمه ناقدوه للجماهير بصورة مختلفة، وتجاوزوا عباراته التى توضح ذلك، وقدموه بصورة زائفه كمجرد محطم للأصنام القديمة والفيلسوف الراعى للانحلال الأخلاقى، ورغم أنه دافع عن الخير فى كل مجالات النشاط الإنسانى وصفت أعماله بأنها بذاءات جنسية، لكن على الرغم من ذلك فقد حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٥ ، وقد عاش راسل حياة طويلة حافلة حتى قارب مائة عام، ومات فى فبراير عام ١٩٧٠ .

المترجم فى سطور :

محمد قدرى عمارة

- من مواليد محافظة الغربية عام ١٩٤٧ .

- تخرج فى كلية الزراعة ، جامعة الإسكندرية سنة ١٩٦٧ ، ثم عمل معيداً بقسم الوراثة بالكلية ، ثم مدرساً مساعداً .

- عين مدرسًا بقسم الوراثة بجامعة أسيوط بعد الحصول على الدكتوراه من جامعة ويلز بإنجلترا سنة ١٩٧٥ .. وهو الآن رئيس قسم الوراثة بالكلية نفسها .

من أهم ترجماته :

- السيدة صاحبة الكلب المدلل وقصص أخرى (تشيخوف) .

- انتصار السعادة (برتراند راسل) .

- فن كتابة السيناريو (تيرنس سان جون) .

المراجع فى سطور :

إلهامى قدرى عمارة

- عضو اتحاد كتاب مصر وعضو اتحاد الكتاب العرب .
- أستاذ سابق بجامعة إدمنتون بكندا .
- له العديد من الأعمال الروائية والمسرحية والدراما التليفزيونية .